

Bibliotheca Alexandrina
0137811

اقرأ

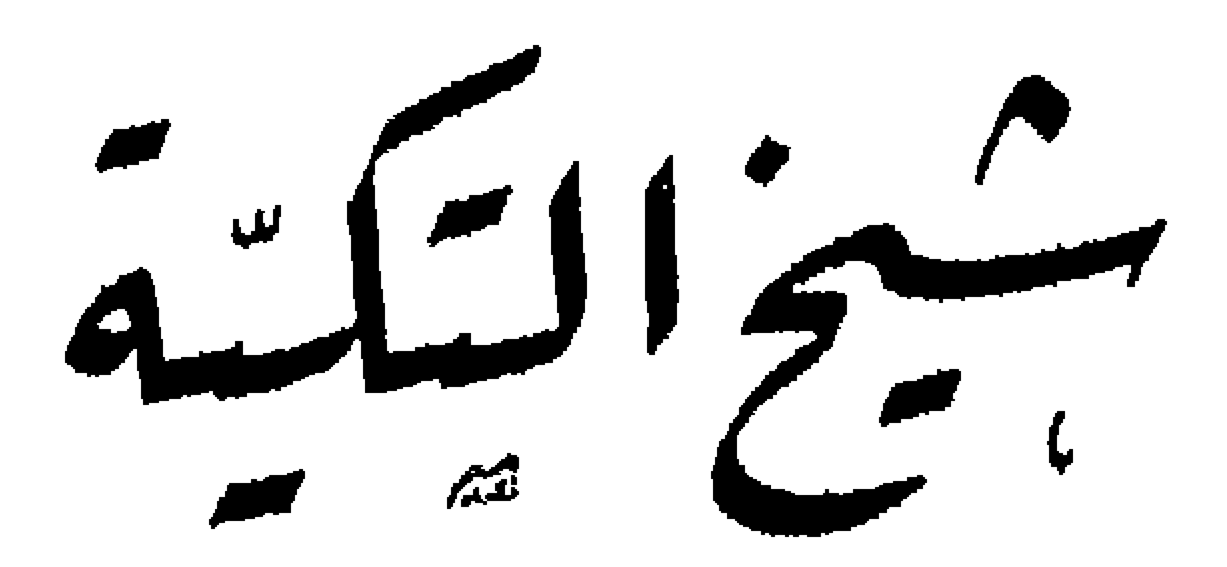
محمد عبده عزام

شيخ الكتبة

دار المعارف بمصر

شيخ التكيّة

محمد عبده عزام



اقرأ ٩٦

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ٩٦ — نوفمبر سنة ١٩٥٠



رحيل

عرفت صديقى الشاعر مرحاً مهما أثقلت نفسه الحياة ، وأجمل ما فيه أنه دائماً يتخذ من آلامه مادة لسخرية عذبة ، يهوّن بها على نفسه وعلى أصدقائه من حوله . كانت الحياة عنده صوراً يصنعها بدعابته، ويؤلفها بخياله، ويعيش بينها لاهياً عابثاً أحياناً ، وجاداً مأخوذاً أحياناً أخرى. كان لا يقر الحياة الواقعية التى يحياها الناس ، فكان يبدّل من أسمائهم ويعطيهم أسماء من عنده توافق سحنهم وطباعهم ، وتتفق مع نظرته إليهم ، وكان يبدل كذلك من وظائفهم ويوزع عليهم وظائف أخرى يأتى بها من متحفه الخيالى الملىء بالصور ! وكان يطبّق هذا حتى على نفسه ، فيعدّد أخطاء الحياة معه ، وينتهى إلى أنه هو الآخر قد دُفع إلى طريق لم يكن يريدها لنفسه حين صار مدرساً بإحدى كليات الجامعة ، وكان يقول لى دائماً إنه إنما يعيش منتظراً سبيله يهتدى إليها ، ونفسه يجدها ، وحياته يحسّها . . .

وكنت إذا ضقت بالجامعة وبالكلية التى نعمل فيها لقيته وقضيت بعض الوقت معه ، فأخرج من عنده بصور تهوّن على الحياة ، وتجعلنى أقرب إلى الفلاسفة الضاحكين وأصحاب الفنون الذين يخرجون من واقع الحياة ويعيشون فى آفاق لا يعرفها الناس .

كنت أحب هذه الصور الخيالية التى يرسمها لى صديقى، والتى كانت تصبغ الحياة بلون بديع فى عينى . . وكنت كثيراً ما أحاول أن أرى الأشياء كما يراها هو ، وأضفى عليها من خيالى مثل الذى يضفى ، لعلى أغير من جمودها وأوضاعها ، لكنى أخيراً كنت أهرع إليه لأنظر إلى صوره . . .

وهكذا عشنا زميلين كريمين ، وإلفين حبيبين ، وكان أصدقاؤنا من الزملاء يحبون هذا الصديق الشاعر كلّ الحب ، ويتهافتون عليه ليروا صورة من هذه الصور الساحرة التى يبتدعها كلما وقعت عينه على شيء . . . وما أكثر ما جلبت له هذه الصور من أذى ، وما أكثر ما دفع ثمنها من عيشه ، ولكنه كان لا يعبأ ما دام يستطيع أن يحيل آلامه إلى

صور ! وكنا بعض الأحيان نشفق عليه من صوره الجريئة اللاذعة إن رآها أصحابها أو سمعوا بها فربما حاسبوه عليها حساباً عسيراً يحطم حياته ، أمّا هو فقد كان كأنه آمن مطمئن . . .

عاش صديقى شاعراً يطلب تجارب شعورية تستثيره وتغذى خياله ، فإن استقرت حياته يوماً واطمأن عيشه برم بنفسه ورأيناه متبّلد الذهن ضيق النفس !

إلى أن زرته يوماً فرأيته مهموماً على غير عادته ، كأن حدثاً جسيماً أثقل نفسه .

قلت :

ـــ ما بالك اليوم ؟

فابتسم ابتسامة شاحبة ، وقال :

لا شيء . . . إنها صورة أضخم مما كنت أظن . . صورة رائعة هزّت حياتى هزّاً عنيفاً !

قلت :

ـــ صورة من ؟

قال :

— صورتى أنا . . . أخيراً صورتى انا !

قلت :

— ماذا تقول ؟ وأى صورة تعنى ؟

قال :

— أقول إنى بعد قليل سأترك التدريس بالكلية وأغدو شيخاً لتكية . . .

— شيخ تكية ؟ ! أجادٌ أنت أم عابث ؟

— بل جاد كلّ الجد . . .

— فحدثنى إذن ، فإن هذا شىء غريب . . .

وأطرق صديقى لحظة ، ثم افترّ ثغره عن ابتسامة عليها غلالة من ألم ممض ، ونظر إلىّ كأنما يقول لى : أرأيت ؟! هكذا تمت سخريتى ، وهكذا انتهت حياتى ! ثم تأملنى كأنما ينظر إلىّ نظرة أخيرة ، ثم قال :

— منذ أيام مات شاعر ، ألا تذكر ذلك ؟

— نعم ، مات ولمّا تتم أنشودته !

— فأصغ إلىّ إذن يا صديقى ، فقد يظهر أن هذه الوظيفة الجديدة ، أعنى مشيخة التكية ، بدأت

بتشييع جنازة شاعر ، وما إخالها إلا منتهية بتشييع جنازة شاعر آخر !

قلت :

— إنّ أخشى ما أخشاه عليك هو هذه الخيوط التى تربط بها بين الأشياء !

ولكن حدثنى حديث هذه الوظيفة ، وكيف جاءتك ، فقد يظهر أن الحياة ستحيل ابتسامتك إلى ضحك صاخب... !

قال :

— بل يظهر أن الحياة ستذهب بآخر بسمة لى ! إنها تريد أن تعطينى درساً أخيراً ، فقد طالما سخرت منها ولم أعترف بأوضاعها وسننها . . . طالما سخرت من الناس ورسمت لهم صوراً كنت أراها خليقة بهم ، فها هى سخريتى تبلغ غايتها ، وها هى صورى كلها تستحيل إلى صورة ضخمة هائلة ، وها أنا أصبح شيخاً لتكية ! ! أرأيت ؟

قلت :

— حدثنى كيف كان هذا ؟

قال :

– لم يكد نظرى يقع على نعى هذا الشاعر حتى وجدت نفسى تنتفض ، فأسرعت وخرجت لتشييع جنازته . إن موت شاعر يهز النفس حقاً . . . ! ورأيت نفسى بين المشيعين ، وحين رأيته محمولاً على الأعناق يحيط به علية القوم وجدت حزنى قد خالطه شىء من الزهو حتى لكأنى كنت بعض أهله . . . وسرت خلفه ، وأحسست أنى أسير وراءه إلى غاية بعيدة مجهولة . . . كنت فى الصف الأول من صفوف المشيعين عند ما بدأ يسير ، ثم رأيتنى أتدافع إلى الخلف قليلا قليلا ، وحين وصل إلى المسجد وجدتنى أتعثر فى خُطاى فى الصف الأخير . . . ولا أدرى لماذا أردت أن أقف مع أهله لأستقبل عزاء الناس وأشكر لهم جميل مواساتهم ، ولكنى ما لبثت أن شعرت أنى قد أكون فى هذا متطفلاً بعض الشىء . قلت يجب أن أدعهم يسعدون وحدهم بالحزن وجميل العزاء ! وحين جئت لأسلّم وأمضى بدورى وجدتنى متهالكاً لا تكاد تحملنى قدماى . . . والتفت فإذا بصديق قديم ممسك بذراعى . هنا يا صديقى بدأت قصة التكية . هنا بدأت

الحياة تعرض على هذه الصورة الضخمة المزعجة . هنا بدأت التجربة الكبرى والمحنة المضحكة ، إن كان من المحن ما يضحك ! ونأى الشاعر عنا كما ينأى طائر رائح إلى عش بعيد . . . ثم أخذنا مجلسنا فى مقهى قريب ، وتذاكرنا عهوداً مضت . . وكان هذا الصديق يشغل مركزاً ممتازاً فى وزارة الأوقاف . وسألنى عن حالى فعرف أنى ضيق الصدر بما أنا فيه ، فبادرنى بقوله :

— عندى لك وظيفة مرتبها يبلغ المائة وخمسين جنيهاً ، فما رأيك ؟

قلت :

— ماية وخمسون جنيهاً فى الشهر ؟

— نعم ، ماية وخمسون .

واختلجت شفتاى ، وأسرعت لأدارى هزّة فى نفسى بإشعال سيجارة لى وسيجارة له . ونسيت الشاعر الراحل فى هذه اللحظة ، وقلت له :

— ما هى تلك الوظيفة وأين ؟

— فى الحجاز ، أتذهب ؟

— نعم أنا فى حاجة إلى سفر . . .

وأخذ صديقى يحدثنى عن مزايا هذه الوظيفة دون أن يذكر لى ما هى ، أخذ يقول لى :

— إنك فى حاجة إلى سفر بعيد ، أليس كذلك ؟

— نعم أنا أحوج ما أكون إلى ذلك .

— وأنت أيضاً فى حاجة إلى بعض المال لتصلح قليلا من شأنك ؟

— نعم ما أحوجنى إلى ذلك أيضاً ، فقد ثقل دينى . . .

— ثم إنك فى حاجة إلى التفرغ بعض الوقت لإنجاز رسالة الدكتوراه ، وهذه الوظيفة لن تجهدك فى شىء ، بل ستتيح لك الوقت والتفرغ .

— نعم أنا فى حاجة إلى وقت وخلوة لأفرغ لنفسى ولهذا الشاعر الذى أكتب عنه . .

— وأظنك فى حاجة إلى ترك الكلية بعض الوقت لتنقذ نفسك من هذا العناء الذى أعرف بعضه ، أليس كذلك ؟

— أرأيت إلى ما صرت إليه ؟ ! ولكن ما هى هذه الوظيفة ؟

١٣

كان صديقى يحدثنى وهو يلعب بنفسى وكأنه يصنع بى تجربة من تجارب الإيحاء ، فتدرّج بى إلى اللحظة الملائمة التى بلغ فيها تهالكى غايته ، إلى أن وجدت نفسى أمامه كأنى غريق جاء هو وانتشلنى من بحر مائج بالأهوال ، فمدّ يده وأنقذنى من هلاك محقق ، ثم وضعنى على الشاطىء وأنا أتلمس الحياة وأرتعد ، وأوقد النار . فأحسست الدفء وارتدت إلىّ الحياة ! ثم أخذ هذا الصديق المنقذ ينظر إلىّ والرعدة تخفّ عنى قليلا قليلا ، والحياة تدبّ إلىّ شيئاً فشيئاً ، إلى أن انهمرت دموع الفرح من عينى ، وبلغ تعلقى بالحياة غايته ، فشكرته من كل قلبى ، وقلت له :

— إنى مسرع الآن لبيتى لأعدّ حقيبة السفر ، ولكن قل لى بربك ما هى هذه الوظيفة ...

قال :

— ستكون شيخاً ، أقصد مديراً ، للتكية المصرية بمكة أو المدينة . .

ثم نظر إلىّ نظرة نافذة لم تدعنى أفكر أو أتردد ، فنهضت وصافحته ، وقلت :

ـــ حسن جداً ، فقد قبلت شاكراً .

قال :

ـــ فمرّ عليّ إذن فى غد لنكتب الطلب ونعمل اللازم .

وافترقنا على هذا ، وذهبت إليه صباح اليوم ، وكتبت الطلب . أرأيت ؟ أكنت فى هذا عاقلاً أم مجنوناً ؟

ووجم صديقى ، وحاولت أن أسرّى عنه، فهنأته مازحاً ، ولكنّ ظلالاً دكناء كانت تلف نفسه فلم يمزح كعادته ، فقلت له :

ـــ غمرة تنجلى بعد قليل، وسيبدو لك ، فتعتذر لصاحبك، بعدها نذكر هذه الحادثة ونضحك منها !

فنظر إلى وقال :

ـــ ما أظن ذلك ، وإذا أراد القدر أن يمزح معى فما أظننى قادراً على رده . . . لطالما قبل مزاحى فعلىّ أن أقبل مزاحه !

قلت :

ـــ لا بأس ! فهذه علبة من الألوان والأصباغ البديعة، فضعها بين يديك فى تكيتك ، وارسم لنفسك وللناس هناك

١٥

ما تشاء من الصور . . .

وتركته على أن ألقاه قريباً ، وكنت موقناً فى نفسى أنه لن يلبث أن يعدل عن هذه الوظيفة .

تقوى السكران

كنت موقناً أن هذه الوظيفة الغريبة ستلعب بنفس صديقى الشاعر وتنقله إلى تجارب شعورية أعمق مما يظن . . . لقد كان يشكو لى أن حياته كادت تجمد وتستقر ، وكان يود أن يذهب إلى أفق جديد من آفاق الحياة . . . فهل تراه كان يقدر أنه ذاهب إلى هذا الأفق العجيب ؟ ! أيترك الكلية ويغدو شيخاً لتكية ؟ ! ما عسى أن يصنع بنفسه هناك وهو الذى إن فرغ لنفسه قتلها أو قتلته ؟ !

ولقيته بعد يومين فرأيته كأنه مطمئن إلى وظيفته الجديدة تلك ، ولكنها طمأنينة تشوبها هواجس كثيرة ترسم له صوراً تتجسم أمامه ، فيمضى فى التجربة سعيداً بما تثيره فى نفسه وفى خياله ، شقياً مع ذلك بهذا الأفق المجهول الذاهب هو إليه . . ! وكان حائراً مضطرباً كأنه يلتمس قوة ترده عنه !

قال لى إن زوجه فرحت بهذه الوظيفة كل الفرح ، وليس

ذلك عجيباً ، فالتكية كما علمت قصر جميل فيه الخدم والحشم وفيه فاخر الأثاث ، فهي ستغدو أميرة هذا القصر بمكة ! وابتسم صديقي وقال :

— إنها في كل ليلة تسألني ماذا تمّ وهل صدّق الوزير . وأريد أن أحدثها بما يشوب نفسي من هذه الوظيفة فترميني بأني كثير الأوهام والظنون . . . وأريد أن أشفق على نفسي من حرّ مكة فتأبى عليّ وتقول لي : إن الغنى يحيل السّموم إلى صَبا ! لكأنها يا صديقي تريد أن تحملني بيديها وتقذف بي إلى الصحراء دفعةً واحدة دون أن تسمع لصراخي أو تتوجع لشكاتي ! لم أعجب لها ، ولكني عجبت لأستاذي . . . قلت :

— وكيف ؟ أرضي هو الآخر أن تكون شيخ تكية ؟ !

فوجم صديقي قليلا ، وداري غصة كادت تحبس كلامه ، ثم قال :

— نعم ! فلقد ذهبت إليه لأستشيره ، وكنت موقناً أنه سيردّني عنها . . . ولكني ما كدت أخبره الخبر حتى رأيته يبتسم ، ويثني عليها ، ويبارك لي ويزكيني ! أرأيت ؟ !

قلت :

ـــ ماذا قال لك ، وما وجه رضاه عنها ؟ !

قال :

ـــ زرته تلك الليلة ، وكان عنده بعض الزوار ، وكان الحديث عن شيخ صغير هبط القاهرة من الريف ليطلب العلم بالأزهر ، ولم يكن فى يده ما يسدّ به حاجته ، فاضطر أن يشتغل خادماً فى مسجد من المساجد ، ثم ترقّت به الحال إلى أن صار مأذوناً ، وهو فى كل ذلك يطلب العلم ويدأب على التحصيل ، إلى أن نال إجازة العالمية . لكن العجيب فى أمر هذا الشيخ الصغير أنه هوى التصوير ، فصار يتصل ببعض الفنانين ويسترشدهم ويحاول أن يبلغ فى هذا مبلغاً ، فانتهى إلى أن صار فناناً مرموقاً بعد أن أصبح عالماً جليلاً .

كان أستاذى تلك الليلة مشرق الوجه ، باسم الثغر ، معتدل المزاج ، وكان يروى قصة هذا الشيخ وهو فرح مبتهج ينفخ دخان سيجارته بلذة وشغف ، ونحن من حوله ننصت إلى ما يقول ، حتى إذا انتهى من قصة الشيخ الفنان قال لنا :

لقد أصبح هذا الشيخ فناناً صناعاً له لوحات أُعجب بها كثير من أصحاب هذا الفن ، أرأيتم ؟ ! وأبدى الحاضرون إعجاباً بالشيخ ، لكنه إعجاب كان فى الحقيقة فاتراً لا يتفق وحماسة أستاذنا لهذه القصة ، وكأنه أراد أن يضع أصابعنا على مغزاها فى حياتنا فقال : أرأيتم إلى ما وصلنا إليه ؟ لقد أصبح خادم المسجد عندنا فناناً له لوحات رائعة ! ! فقال بعضنا : شيء عظيم ، وقال البعض الآخر : حسن جدًّا ، واكتفوا بذلك كأنما كانوا فى الحقيقة يجاملون أستاذنا قبل كل شيء . أما أنا فلم أقل شيئاً لأن القصة كانت فى نفسى أقوى وأعمق من أن أعلّق عليها بمثل هذا الكلام . . . ولقد كنت أصغى لأستاذنا وأتأمل فى هذه المصادفة العجيبة التى جعلت تلك القصة موضوع الحديث لأنى موشك أنا الآخر أن أقدم لأستاذى قصة تشبه هذه القصة إذا عكسناها ، أعنى قصتى أنا حين بدأت حياتى تلميذاً وطالباً فى الكلية، وانتهيت إلى شيخ فى التكية !

وانصرف القوم ، وتخلفت لأفضى إليه بقصتى ، فأقبل علىّ وأدنى مجلسى منه ، وحين بدأ ينصت إلىّ وجدتنى

أتلعثم ولا أكاد أبين ، ولكنى غالبت نفسى وقلت .

ـ سأحدثك بشىء أخشى أن تضحك منه . . .

فابتسم أستاذى وقال :

ـ قد لا يكون فيه ما أضحك منه . . .

ـ بل إنه الضحك بعينه . . .

ـ ماذا ؟

ـ سأكون عما قريب شيخ التكية المصرية بمكة .

ـ وكيف ؟

فقصصت عليه القصة ، منذ بدأت بتشييع جنازة الشاعر، إلى لقاء هذا الصديق ، إلى كتابة الطلب ، وهو مصغ إلى ما أقول إصغاءً أشعرنى أن الأمر جد لا موضع فيه للعبث . وأخيراً حاولت أن أعتذر له عن تسرعى الذى يشبه الحماقة ، وقلت له إنها كانت حركة لا شعورية من ضيق فى نفسى ، وربما لقيت صديقى بوزارة الأوقاف فاعتذرت له ، وأخذت الطلب منه .

لكن أستاذى لم يوافقنى على هذا الذى أريده ، وابتسم فى رفق وقال :

ــ لا تتردد فى قبولها ، وسأتصل غداً بوكيل الوزارة وأزكيك لديه . . .

قلت :

ــ أراضٍ أنت أن أكون شيخ تكية ؟

ــ نعم ، ولم لا ؟

ــ وماذا عساى أصنع هناك ؟

ــ معك كتبك ومخطوطاتك .

قلت :

ــ كنتَ الآن تتحدث عن هذا الشيخ الأزهرى الذى صار فناناً ، فهل تريد فى غدٍ أن تتحدث عن تلميذك الذى صار شيخ تكية ؟

فابتسم وقال :

ــ ألا تحب أن تكون لك أنت أيضاً قصة فى الحياة ؟ ! إن الأطراف تتلاقى على كل حال . فهوّن عليك . . .

قلت :

ــ أتريد الحق ؟ أقسم ما جئتك لأستشيرك بالمعنى المفهوم ، ولكن لأقول لك : انظر يا سيدى كيف ترامت

بى المرامى وأشرفت على نهايتى ! وكنت أقدر أنك ستردنى عنها ، بل كنت أراك ساخراً منى مشفقاً مع ذلك علىّ !

قال :

— ولم ذاك ؟ إن فيها خيراً كثيراً . . . أيسوؤك منها اسمها ؟ إن التكايا كثير . ولها أسماء متعددة ، ومع ذلك فقد تستطيع الوزارة أن تغير اسمها يوماً من الأيام ، فلا تبتئس !

وابتسم أستاذى ابتسامة حاول أن يبعد عنها ما عسى أن أجد فيها من سخرية ، بل خيل إلىّ أنه دافع ضحكة من ضحكاته المدوّية التى أعرفها ، وطلب إلى ألا أتردد فى قبولها .

وخرجت يا صديقى من عند أستاذى تلك الليلة ، وأخذت الطريق إلى بيتى وأنا مأخوذ لا أكاد أعى شيئاً ! وكأنما قضى الأمر وأصبحت حقاً شيخ التكية ، فهذا أستاذى الذى أراه كل شيء فى حياتى يحثنى على هذه الوظيفة ويطلب إلىّ ألا أتردد فى قبولها ، بل يعد أنه سيزكينى لها . وهذه زوجى تكاد كما قلت لك تحملنى بيديها لتطير إليها ! وها أنا قبل كل شيء قد كتبت الطلب برغبتى وإرادتى ، فلم يبق إلا أن يصدّق الوزير ، فأخلع روب الجامعة وألبس

ثوب شيخ التكية .

وهكذا خرجت من عند أستاذى تلك الليلة وكأنما خرجت من حياة عرفتها إلى حياة لا أعرفها . وقطعت الطريق إلى بيتى وأنا لا أدرى كيف قطعته . كنت أنظر إلى نفسى وأتأمل حياتى كلها . كنت أسأل نفسى ما الذى حداك لتفعل هذا ؟ أمن أجل المال فعلت ما فعلت ؟ أم لأنى ضيق الصدر بالجامعة برم بما صرت إليه فيها ؟ ولكن ما عسى أن يقول الناس عنى حين يروننى أنتقل هذه النقلة العجيبة المفاجئة ؟ ! ماذا يقولون حين يروننى شيخاً لتكية بعد أن كنت أستاذاً فى كلية ؟ ! أنا الذى عشت أسخر من الناس وأصورهم صوراً منكرة ! لقد كنت أريد أن ألعب فى الحياة دوراً فإذا بالحياة أخيراً تختار لى دوراً مضحكاً يثير الإشفاق ! دور ممثل عاشق ظهر على المسرح محبًّا كاد يقتله الولـه ، ظل يغنى لمعشوقته ويناديها حتى خطرت له ، ودنت منه . لكنها كانت سكرى تريد أن تعبث به وتسخر منه . . . حاول أن يقترب منها فصدته عنها ، وأراد أن يمزح معها فصفعته على وجهه أمام الناس ! فضحك

الناس وضحكت هى ضحكات تفوح منها رائحة الخمر ! وظلت الحبيبة سادرةً فى عبثها، وظل هو يترضاها منتظراً أن تثوب لرشدها . ولكنها جاءت بقبعة وبيبة، وأمرته أن يضع القبعة على رأسه والبيبة فى فمه ، فامتثل طائعاً، ولكنه ما كاد يفعل حتى هجمت عليه وهى تضحك منه ضحكاً جنونياً، فطوحت بالقبعة من على رأسه وبالبيبة من فمه، فضحك الناس وصفقوا، وضحكت الحبيبة واسترسلت فى عبثها .

ووجم صديقى وجوماً كان أقرب شىء إلى الذهول، فذكرت أنه كان فى العام الماضى مرشحاً للتدريس فى جامعة لندن، وكاد يحزم متاعه ، لكن عائقاً عاق .فبقى وفى نفسه لوعة . وها هى الحياة فى هذه المرة تدفعه إلى مكة، فهل تراه يذهب إليها حقاً ؟ ! وكأنه كان يسمع ما فى نفسى كما كنت أسمع ما فى نفسه فقال :

— نعم يا صديقى ! طوّحت الحبيبة بالقبعة، وطوحت بالبيبة، وجعلت الناس يضجون بضحك خبيث ، وعادت لتضع على رأسى هذه المرة عقالاً ! ولكنى لا زلت أراها عابثة ، ولا زلت أسمعها تقهقه . وكأن الناس ينتظرون أن تعود

فتطوح بالعقال كما طوحت بالقبعة !! وكأنى أنظر فلا أرى إلا موجاتٍ من الضحك الصاخب ، وسأخرج من المسرح فى أغلب الظن وعلىّ دخان من مداخن لندن ، وفى يدى سراب من بطحاء مكة !! أرأيت ؟ !

ولنمضِ يا صديقى فى القصة لآخرها ، فمن يدرى كيف تكون نهايتها ..؟! ويظهر أن الحبيبة ما شربت ولا عبثت ، ولكنى أنا الذى سكرت حتى ثملت لعلى أنسى آلامى ، أو لعلى أنتقل إلى تجربة شعورية من هذه التجارب القاتلة التى أحبها ، فارتميت فى الطريق فى حلكة الليل ، فمرّ جندى الداورية فرأى جثة ملقاة فى شارع من شوارع المنيل بالقرب من النيل . . . كان الليل مظلماً حالك الظلمة ، بارداً لاذع البرد ، وكان الجندى رجلا طيب القلب ، رقيق النفس ، فانحنى على هذا السكران ، وعرف أنها ضربة الخمر ، وسرى إليه خاطر من مأذنة قريبة ، فانطوى على السكران وحمله حتى المسجد ، ووضعه فى داخله وقد أمن عليه من شر الليل وخطر الطريق ، وضمن أنه لن يحرّر له محضر ...! واستيقظ السكران على صوت المؤذن فى مطلع الفجر يهتف :

الله أكبر الله أكبر ، حى على الصلاة حىّ على الصلاة ، حىّ على الفلاح حىّ على الفلاح ، الله أكبر الله أكبر ، لا إله إلا الله ! وانتفض السكران نشوان ولكن فى خوف ، فرحان ولكن فى وجوم ، ورأى أنه فى المسجد يسمع آذان الفجر ... فنهض واغتسل، ثم وقف يصلى ، وحين كان يسجد لله خاشعاً انحدرت دموع عينيه لأنه رأى برهان ربه . فلقد ذهب ليشرب الخمر فعاد ليجد نفسه يصلّى الفجر !

وهكذا يا صديقى تفتح لى هذه الوظيفة كلّ منافذ حياتى ، وتنقلنى إلى أفق ما كنت أحسب أنى ذاهب إليه !

فى مفترق الطريق

وصلت الحال بصديقى إلى أكثر من الصور والألوان ، ومن العبث والسخرية ، وأصبح يتحدث عن تكيته جاداً بعد أن كان مازحاً ، وكلما حاولت أن أردّه لنفسه أو أذكره بعبثه نظر إلىّ نظرة الذى يريد أن يتذكر شيئاً غاب عنه ! وأشفقت عليه لهذا التحول فى حياته ، فقد ظلّ المسكين يصنع من أوهامه صوراً وألواناً إلى أن صنعت منه الحياة صورة غريبة ، وأحالته أوهامه لوناً صارخاً . . . ! ذلك الصديق الذى كان يأخذ من الناس عبثاً يتسلّى به ، فها هو القدر يجعل منه للناس قصة يسمرون بها ! ها هو أخيراً يصبح لوحة ناطقة بكل ما فى الحياة من مفارقات وعبث . . . ها هو قد صار يهذى كلما لقينى بكلام يقوله جاداً مؤمناً به ، بعد أن كان الجِدّ عنده سخرية !! نعم ها هو يرى مهزلة حياته بعينه جداً لا موضع للعبث فيه !!

كان تلك الليلة فى مفترق الطرق ، زائغ العينين، موزّع

النفس ، يهمّ ليسير الشوط الأخير من حياته ، لكنه لا يدرى إلى أين يتجه ولا كيف يسير ! لقد وقفت به تلك الوظيفة هذه الوقفة الحائرة حتى كاد يجمد فى مكانه ! !

زرته فعاد بنا الحديث إلى التكية فسألنى :

— ماذا يقول أصدقاؤنا عن وظيفة التكية تلك ؟

قلت :

— إنهم لا يقولون شيئاً ، ولكنهم كلما ذكروها أراهم يبتسمون . . . !

فاختلجت شفتاه قليلا ، وقال :

— دعهم يبتسمون ! فأنا أعرف مصدر سخريتهم . . .

قلت :

— ولكنهم مشفقون أيضاً . . .

قال :

— نعم وأعرف أيضاً مصدر إشفاقهم . . . لقد كانت حكايتى تلك حكاية الموسم ، وما أكثر ما أحسست من تندر ماكر ، وما أكثر ما قابلت من ابتسام ساخر ! بعضه فيه إشفاق ، وبعضه ملىء بالخبث ! ! لقد حزّ هذا فى

نفسى وكثيراً ما أقضّ مضجعى . . . لكننى صابر ، ولا أستطيع أن أعود إلى العيش فى الجامعة بعد ربع قرن من الزمان ، بلوت فيه ما بلوت ، وأخيراً خرجت صفر اليدين ، كسير القلب ، أعيش وأولادى على بعض المعانى ! !

أنت تعلم أنى ارتميت على هذه الوظيفة فى فترة كانت نفسى فيها تتدلّى إلى هاوية سحيقة من اليأس . . . أتذكر ذلك الإنسان الغريق الذى جلس على الشاطئ يرتعد فأنقذوه وأوقدوا بجانبه النار ؟ ! أتذكر ذلك السكّير الذى ارتمى ليلا فى الطريق فأخذه رجل البوليس ذاك ووضعه بالمسجد ؟ . لقد أخذ الغريق يحسّ الدفء ، وبدأ قلبه ينبض نبضات قوية . . . ! ويل لهؤلاء الأصدقاء الساخرين المشفقين ! أكانوا يظنون أن هذا الغريق يفكر فى بلل ثوبه وحسن هندامه وهو يجاهد الحياة أن ترتدّ له ؟ ! أكانوا ينتظرون من هذا المعربد السكير أن يخرج من المسجد كما دخله دون أن يركع لله شكراً على نجاته ؟ !

الحق يا صديقى أننى أعشو إلى قبس يضىء لى من بعيد ، لكنى لا أدرى حتى الآن أهو نور الإيمان أم هو

ذهب مكة المتوهج ! ويحتويني الليل ، فأرنو بعيني إلى هذا الضوء الآتي من بعيد ، فأظل أقترب منه إلى أن أراه متوهجاً أمامي يكاد يلفح وجهي ! ! ولا أكتمك فقد تمرّ على فترات أعبّ من هذا اللهب بيديّ ، وأختزنه في خزائني ، وتمر على فترات أخرى أحس فيها جمال الإيمان ، ويشرق في قلبي نور اليقين ، حين أراني مقيماً بالقرب من بيت الله . . . هنالك حيث يقف الناس على عرفات ، فيرى هذا الإنسان السادر قيمة الحياة الحقة ، ويسمع أصواتاً من الضراعة والابتهال تزرى بكل ما في هذه الدنيا من متاع ! هنالك أحس أن قلبي يكاد يتفتح حين أرى الناس جميعاً واقفين مطأطئي رءوسهم ، فأنسى هذا الذهب المتوهج ، وأرى قلبي يغمره نور أبهى وسناء أشهى ! وأبحث عن نفسي ، وأظل طول ليلي أقول : أيها الفجر الذي طال انتظاره ! ها أنت تقترب مني . . إنّ ليل الشتاء يغريني بالنار . . ! وماذا يخيفك أيها القلب من هذا الضوء الآتي من بعيد وقد طالما كنت ترقبه وتدعوه ؟ . ما بالك أيها القلب تشتهيه، فإذا اقتربت منه أو اقترب منك كدت تصدّ دونه ؟ إن الايمان يا صديقي —

كما عرفته يوماً من الأيام – جميل حقـًّا ، وجماله يروع ويبهر ، ويوقظ النفس النؤوم الضحى ، وينبه الإنسان الحالم فى وضح النهار ! ! لقد آن لنفسى أن تستيقظ ، وآن لقلبى أن يفيق ، ولكن أنـّى لى ذلك وبرد الليل ووَهَج النار ونشوة الحياة لم تدع لى قلباً ؟ ! أنا أعلم يا صديقى أننى سلالة رجل صوفى قديم ، أودع جـدّى الأول بعض وجده ومضى ، فانحدر إلينا هذا الوجد ، وظهر فينا بمظاهر شتى . ولقد شفـّنى هذا الوجد صغيراً حتى لقد كنت أغشى حلقات الذكر . . . أتصدق أننى كنت أغشى حلقات الذكر ؟ ولكنى حين صرت مسئولاً أشفقت على نفسى منه ، وحبسته فى زاوية بعيدة من حنايا فؤادى . . . ! أفهمت عنى ؟ ! فإن كان الذى أخشاه وأحبـّه معاً ، وعاد هذا القلب إلى شجوه القديم ، وحنينه الأول ، ووجده الموروث ، فطوف حول البيت ما طوّف ، فيا لهنائى وشقوة أبنائى ! آه يا صديقى ما أخوفنى على بنياتٍ ينظرن إلىّ بعيون باسمة وثغور مشرقة ! فلقد أخشى أن تتحولَ عيناى عنهن إلى حيث هذه الأضواء الباهرة . . . ومن هذا الذى يدنو فمه من المنهل العذب فلا يرتوى وهو

ظمآن ؟ ومَن هذا الذى يرى فى الظلام مثل هذا القبس المقدّس فلا يعشو نحوه وهو ضال ؟ ! سأكون هناك بالقرب من بيت الله ، فهل أفسح لهذه الأضواء الجميلة كلّ ثنايا نفسى ، وأغفل عن هذه الثنايا الصغيرة الباسمة ؟ ! أم أستطيع أن أجمع بين سناً وسناً وثنايا وثنايا ؟ ! ويل لى ! ! فلقد تأخرت فى كل شىء ، فجئت أستشعر التقوى فى الوقت الذى أطلب فيه الغنى ، ورحت أعمر قلبى بالإيمان لكى أعمر جيبى بالأصفر الرنّان ! !

ماذا أقول لك يا صديقى ؟ ! إننى أريد أن أعود من هذه الطريق الجديدة التى دفعتنى إليها الحياة دفعاً ، لكنى لا أقوى ! وكلما عدت فالتفت إلى شارع الجامعة لأستأنف السير فيه بدا لى فوقفت بعيداً عنه وأنا أقول لنفسى : ماذا أفدت منه ؟ هل استروحت حقاً بظل أشجاره وشممت أرج أزهاره ؟ ! وليتنى تملكتنى نشوة العلم فأنستنى متاع الحياة . . ! فلقد كنت أرانى موزّع القلب بين ما فى الصفحات وما فى الفترينات ! ! نعم كثيراً ما كنت أرانى أطيل الوقوف أمام هذه الفترينات كما أطيل التأمل فى

المخطوطات !! لكنى كنت دائماً أعود فأذكر الآية الكريمة :
يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم !!
مَن يدرى يا صديقى فقد أعود من مكة صوفياً من أولياء الله ، وقد أعود منها ورصيدى فى البنك عدة آلاف . . . أيهما خير وأجدى ؟ ! إنما الحياة لملاك طاهر أو شيطان رجيم ، وويل لمثلى ، أولئك الذين يشفقون على أنفسهم من روحانية الملائكة لأنهم يعيشون على الأرض ، كما يشفقون على أنفسهم من خبث الشياطين لأنهم يتطلعون إلى السماء ! !

وسكت صديقى كأنما استراح قليلا من عنائه ، وأخذت أهوّن عليه الأمر ، وأخلّصه من أوهامه الكثيرة ، وقلت له : دع القدر يفعل ما يريد، فسواء عدت رجلا تقيا أو غنياً فقد ذقت طعم حياة جديدة على كل حال ، ولا شك أن فى هذا بعض الخير لك ولأسرتك .

لكن نفسه كانت لا يزال فيها بقية من هم ، فنظر إلىّ وقال :

— بعض الخير لى ولأسرتى ؟ ! أنسيت أنهم سيكونون عرضة لمن يقول لهم يوماً من الأيام : كنتم فى تكية ! آه

يا صديقى ! فلكم قلت هذا المثل وتندرت به على بعض الناس؟
فما بالى اليوم آخذ أولادى وأحيا بهم فى تكية ؟ !

ويبدو لى فأريد أن أشيح بوجهى عن هذه التكية ، لكن الرجل الغريق المرتعد قد شبّوا إلى جواره النار ليلاً ، وسقوه مع ذلك خمراً قوية ليتحرك ، فإذا هو بعد قليل سكران يهذى ويصيح ، ويغنى ويصخب ، وينظر إلى هذه النار فيرى فيها عرائس من المنى ترقص ، فيهجم عليها ويمد يده إليها ! !

وأعود فأستفيق ، وأحاول أن أفلسف الموقف ، وأبرّر لنفسى ما أنا فيه ، وأنظر إلى صورة الكلية بالجيزة ، وصورة التكية بمكة ، وأظل أتأملهما وأؤلف بينهما ، وما كنت أستريح وإن لاح الفجر إلا إذا استحالت الصورتان إلى صورة واحدة فى كل شىء !

كدت أجن والله يا صديقى ، لكن جنونى هذا كان منقذى !
وإذا كانت حياة التكية حياة غير ذات موضوع كما يتندّر علىّ بعضهم ويطلق عليها هذا التعبير المستحدث ، فأى حياة تلك التى كان يعيشها مدرس مثلى يقضى وقته فى دراسة حياة الشعراء وقراءة أشعارهم فإذا حصّل من ذلك شيئاً تحدث به لطلبته ؟! إنما الحياة ذات الموضوع حقاً

هى حياة الخير الذى سأقدمه للناس هناك ، فأطعم البائس والمحروم ، وأكسو العريان ، وآوى المسكين وابن السبيل . . . سأعيش بالقرب من بيت الله ، تلك المثابة التى تهوى إليها الأفئدة . . سأروح إليها وأجىء منها كل يوم ، وارداً إليها وصادراً عنها . ومَن يدرى فقد تقع خطوة من خطواتى على موضع خطوة من خطوات النبى عليه السلام فى ساعة جهدته فيها الدعوة ، فدعا ربه هذا الدعاء الإنسانى الحار : اللهم إنى أشكو إليك ضعفى ، وقلة حيلتى ، وهوان أمرى على الناس . . ! مَن يدرى يا صديقى ! فلا شك أنى سأرى أشياء رأتها عيناه ، وألمس أشياء لمستها يداه ، وقد تطوف بى رؤىً كانت تهوّم فى نفسى . . . قد يستيقظ فى قلبى جدى الأول فأستشعر صوفيته ، وتغنينى خير غَناء ! ! لو رأيتنى وأنا أتقلب فى فراشى ليلاً أهتف بهذه اللمحة القدسية ، وأدعوها لتسرى إلى نفسى فتضىء شعافها الجرداء المظلمة . . ! إنّ برد اليقين وحلاوة الإيمان أجدى على من هذا الذهب المتوهج ، لكن كيف أصدف عنه وهو يملأ ليلى كلّه وهجاً ؟ !

وسكت صديقى ، وتركته لألقاه بأقرب فرصة ، فقد بدأت أتابع قصة لم أدرِ بعد إن كانت ملهاةً أم مأساة !

خطوات أخيرة

نعم! كنت موقناً أنّ هذه الوظيفة ستفعل بنفس صديقى الأفاعيل ، وأنه ربما أتى على ألوانه واستنفدها من قبل أن يذهب إليها ! وكنت ألقاه من حين إلى حين، وأسأله عما تم فيبتسم ويقول : إن الأوراق لا تزال فى مكتب الوزير دون إمضاء .

ومضت أيام فلقيته قلقاً متبرماً ، فسألته فقال :

— أرجو أن يسرع الوزير بإمضائه الكريم قبل أن أجن . . . ! !

قلت :

— أ إلى هذا الحد ؟ ! إنّ شيخ التكية يجب أن يكون حليما صبوراً راضياً عن الحياة !

قال :

— مسكين شيخ التكية هذا ! فليس له من تلك المؤهلات وهذه الصفات شىء . ومن أين لى الحلم والصبر والرضا عن

الحياة ؟ ألا تعرفنى ؟ مَن قال لك إننى شيخ تكية ؟ ثم سكت ، ثم ابتسم قائلا :

— ومع ذلك فهم يقولون إن الوظيفة تخلق العضو ، فلنرَ ماذا يكون منى بعد ذلك ! آه يا صديقى ما أقسى أن تسير طول حياتك فى طريق من الطرق حتى إذا كدت تبلغ نهايتها بدا لك فعدت منها !! أيمكن أن يصلح الإنسان منا لكل شىء حتى لو انتقل من النقض إلى النقيض ؟ ! سأحدثك ببعض الذى ألقاه ، فقد يخيل لى أن الأشياء كلها تحدثنى عن هذه الوظيفة حديثاً عجيباً هو أشبه بالهذيان . . .

قلت :

— لقد كنتَ تصوغ من الألم دعابة ، فما بالك أصبحت تصوغ من الدعابة ألماً ؟ !

قال :

— الحق أن هذه الصور التى لا أعرف من أين تأتينى كادت تقضى علىّ . . انظر يا صديقى ، فلقد كنت أغادر الكلية أمس وأنا متحامل على نفسى ، وخيل إلى أن كل شىء يمسك بى ويدعونى لأتريث قليلاً . حاولت أن أطرد

عنى هذه الأوهام ، ولكنى فى الحقيقة كنت أستشعر شيئاً من الرهبة الغامضة وأنا أهبط الدرج وأصغى لوقع قدمىّ . كأنما كانت خطواتى وأنا عائد أمس هى خطواتى الأخيرة فى حياتى الجامعية كلها . . . كنت أصغى لوقع أقدامى وكأنما كنت أصغى لموسيقى حزينة بطيئة . . ! ! ومع أن الطلبة والأساتذة كانوا حولى فى صخب يصعدون ويهبطون ، ويمرقون فى ممرات الكلية كأنهم سهام سريعة منطلقة ، فقد كنت أجد نفسى أقتلع قدمىّ اقتلاعاً ، وأحمل نفسى على الحركة حملاً ! لم أسمع من ضجيجهم وصخبهم شيئاً ، ولكنى سمعت وأنا متوجه إلى الباب الكبير صوت دعبل الخزاعى ذلك الشاعر العباسى الثائر المحنق يهمس فى أذنى بهذا البيت :

معاهد آياتٍ خلت من تلاوةٍ ومنزل وحيٍ مقفرَ العرصاتِ

وخرجت إلى طريق الجامعة ، وكأنى أحمل معى ذكريات ناء بها قلبى ، ذكريات ربع قرن من الزمان قضيتها طالباً ومدرساً بكليتى . خيل إلىّ فى هذه اللحظة أنى موشك على الاختناق ، ولكنى جاهدت وسرت فى هذا الشارع الجميل وسط حدائق الأورومان الغناء ! وما كدت أخطو بضع

خطوات حتى أحسست أنى أسير فى عراء مخيف . وكان لا بد لى من الجلوس . فألقيت بنفسى تحت ظل شجرة . ونظرت فأحسست أن هذه الطريق لم تعد لى، وإن كان لى فى كل شبر منها ذكريات . . . وارتميت واجماً لا أدرى متى أستطيع أن أنهض من مكانى . . ورأيت نفسى ممسكاً بعود من الحطب الجاف، وصرت أخطّ به خطوطاً مضطربة مهوشة ، أمحو بعضها سريعاً وأمحو بعضها الآخر فى بطء وإعياء ! حتى لكأنما انتهت حياتى الجامعية تحت ظل هذه الشجرة فى تلك الطريق التى لم أقو على أن أبلغ نهايتها ! !

وكأنما استحالت رقعة الأرض الصغيرة أمام عينى إلى معرض ملىء بالصور والوجوه . . . صور ووجوه كان نظرى يقف عند بعضها طويلاً ، ووجوه أخرى كنت أشيح بوجهى عنها . . . وأنا لا أدرى لِمَ وقف نظرى طويلا عند هذه الصورة أو تلك ، ولم لم أشأ أن أرى من بعضها الآخر إلا لونها الغالب وظلّها السابغ ! فأما ملامحها الدقيقة ودلالاتها الحقيقية فإنى كنت أضيق بالتأمل فيها . ! ! صور من حياتى الجامعية التى قضيت فيها شبابى وصدراً من كهولتى ،

ووجوه عرفتها عند أول لقائى لها ، ثم عرفتها بعد عشرة طويلة معها ، ثم حرت فى معرفتها بعض الأحيان ، إلى أن استقرت على فكرة ثابتة ولون أخير ! ولقد يكون فى هذا اللون الأخير الثابت ، وهذه الفكرة التى تجمدت، بعض الوهم والخداع ، لكنى لم أعد قادراً لأراها على غير ما كنت أراها عليه وأنا أعبث بعود الحطب الجاف فى يدى المصفرة الذابلة على حافة طريق الجامعة !

أحلام يا صديقى يقعد بها العجز ، وعجز تهوّن أمره الأحلام ، ودنيا صغيرة تريد أن تتميز فى هذه الدنيا الكبيرة وتطبع صورتها على الأفق كلّه ، فتأتى يد من الأيدى وتطمسها بلون من الألوان ، فكأنما هى إعلان قديم كان على جدار خرب فجاء لاصق الإعلانات ووضع فوقه صورة أخرى لإعلان جديد ! !

أترانى ألغز ؟ ! معذرةً يا صديقى ، فما قصة التكية هذى فى الحقيقة إلا قصة نفس تتأرجح فى خيط كاد يبلغه البلى ! !

ولكنى مسرع لأعود بك إلى ما كان منى وأنا أحاول

أن أنهض من مكانى لأعود إلى بيتى. ولكن قبل هذا أريد أن أذكر لك صورة رأيتها على أرض الطريق وأنا أعبث بهذا العود من الحطب . صورة ملأتنى خوفاً وحنيناً وإشفاقاً ، صورة جماعة من الصبية الصغار يسيرون فى الصحراء وحدهم ، فتبينت وجوههم فإذا هم بنياتى وأولادى قد ضلّوا الطريق دون راحلة أو زاد ، فارتعت وأشفقت ، إلى أن رأيت قطرات من الدموع تبلّل ذلك العود الجاف فى يدى !

ثم سمعت الساعة تدق وأنا جالس مهموم دقاتٍ رهيبة هزت قلبى هزّاً عنيفاً ! لكأنما كانت تدقّ من داخله ! كان الجرس أشبه بجرس كنيسة يدق دقاتٍ رهيبة حزينة ساعةَ رحيل بعض الموتى . وكأنما كانت هذه الأقدام الكثيرة التى نروح وتجىء أمامى وأنا جالس مذهول أفكر وأتذكر هى أقدام بعض الأصدقاء من المشيعين، هرعوا لتحيتى تحية أخيرة فى هذا المعبد المقدس. وها هم أولاء قد خفّوا ليروا صديقهم وزميلهم مسجىً فى جدثه ، وعليه بعض الزهور. وحوله قوم هم أشبه بالقساوسة فى روباتهم الداكنة ، وهم يتلون آياتٍ غير مفهومة من كتاب قديم غير مفهوم !!

وسكت صديقى برهة ، ثم نظر إلىّ وقال :

— ألم أقل لك إن هذه الوظيفة بدأت بتشييع جنازة شاعر وستنهى بتشييع جنازة شاعر آخر ! !

ووجم صديقى ، ثم قال :

— ثم عدت إلى بيتى وأنا مأخوذ لا أدرى ماذا أصنع . . أحقاً أنا تارك حياتى التى ألفتها وغادٍ لأكون فى هذا الزىّ الغريب الذى لم آلفه ؟

أحقاً أنا ذاهب بعد قليل مع أهلى وصغارى لأحيى بمكة رجلاً طيباً متعبداً ؟

وابتسم صديقى ابتسامة ساخرة ، وقال :

— مَن يدرى؟! فلعلى أصلح أن أكون رجلاً طيباً متعبداً يعيش بالقرب من البيت ؟ !

ثم لقيته بعد ذلك ، فبادرنى بقوله :

ـ ألم أقل لك إنى سأجن ؟ ! لقد طال انتظار الإمضاء ، وكادت هذه الصور تذهب بما بقى من عقلى ! كنت أشكو من جمود حياتى واستقرارها ، فليتها كانت جامدة مستقرة ، أو ليتنى كنت اليوم فى تكيتى ! أما وأنا معلّق بين الكلية والتكية فهذا هو الشر الذى ليس بعده شر !

قلت له :

ـ لقد كنت تصرخ وتقول أريد أن أتحرك . . . فها أنت تحركت !

قال :

ـ نعم يا صديقى ! فإنّ لون حياتى شاحب كريه . . . لقد ذهب عنى الشباب أو كاد ، ولم أبلغ من الشيخوخة بعد مثابة أراها هادئة مطمئنة فى سهل خصيب من الدعة والقناعة . . . وظننت أن التكية هى هذه المثابة ، فإذا بها

بيت ملىء بكل ما يثير النفس ! ! أى تجربة خطيرة أخشى على نفسى منها ! فى كل ليلة لى أحاديث مع نفسى تجعلنى كما قلت لك أقرب إلى المجانين . . . فمثلا كنت وأنا فى مخدعى ليلة أمس ألقى على طلبتى محاضرة لا كهذه المحاضرات التى مرنَّا عليها وألفناها ، ولكنها محاضرة غريبة قد لا تخطر لك على بال . . . محاضرة قلت للطلبة فيها كثيراً مما كان محتبساً فى نفسى طوال هذه السنوات .

فلقد خيّل إلى أنّ الوزير أمضى الورق ، ولم يعد لى إلا زيارة للكلية أصفى فيها كل شىء وأقفل راجعاً إلى بيتى ، ثم بعد ذلك إلى تكيتى . وكأنما أردت أن أحدث شيئاً ذا بال ، فقلت لنفسى : لماذا لا تحاضر الطلبة محاضرة أخيرة تسرّى بها عن نفسك قليلا . . ؟ فها أنت تارك كليتك وذاهب إلى تكيتك ، فما قال لك أحد الأساتذة الزملاء قولا يشعرك بالسلوى أو العزاء ، فهل معنى ذلك أنهم لم يفتقدونى ؟ !

لا أذود الطيرَ عن شجرٍ قد بلوتُ المرّ من ثمره !

وكأنى لقيت العميد مبتسما ، ورجوته فى جمع الطلبة والإعلان

عن محاضرة أخيرة، فوافق مبتسما هو الآخر، وظنّ أنها نصائح تُسدى، ووداع على غرار وداع الأساتذة المنقولين . وأمر بكتابة إعلان على السبورة في مدخل الكلية . وفي الموعد المحدد ذهبت إلى الكلية، وسرني أني رأيت كثيراً من الطلبة يهرعون إلى المدرج الكبير ، وما كدت أدخل حتى قابلني الطلبة بتصفيق قوى متصل، وهتاف عاصف ما سمعت مثله طول حياتي، فأحسست بكثير من الزهو والخيلاء، وبدأت محاضرتي . قلت لهم كما أذكر : أصدقائي الأعزاء . . . هذه هي المحاضرة الأخيرة لي معكم ، بعدها سأغادركم لأشغل وظيفة قد لا تخطر لكم على بال . . وكأنما بدا على الطلبة ذهول وحيرة — أو هذا ما خيل لي وأنا أتقلب في فراشي وأجول بعيني في فراغ مخدعي — نعم خيّل إلى أن أن خروجي من الكلية حدث من الأحداث قد لا يهتز له بعض الزملاء من الأساتذة، لكنه يهز طلبتي هزًّا عنيفاً، لأني كما أوهمت نفسي كنت حبيباً إليهم جميعاً . وربما كنت كذلك حقًّا ، وفما أذكر أني أثقلت عليهم في شيء . بل كنت كالزائر الخفيف الظل ألمّ بهم وأمضي لشأني دون أن أثقل

عليهم . . . وكنت دائماً أعطيهم من نفسى أكثر مما أعطيهم من درسى . . . لم أكن كغيرى من الذين يتزاحمون و يتدافعون على الصدارة بوسائل لا أحسنها . . . هؤلاء الذين تخيّلوا فخالوا ، وجهلوا ثم تجاهلوا . . هؤلاء الذين جىء بهم لضرورة من الضرورات ، فنسوا هذا أو تناسوه . . . ولكن دعنا منهم الآن فما قبلت التكية إلا لأنسى ذكرهم ! !

دخلت المحاضرة وفى نفسى الكثير مما أريد أن أفضى به للطلبة ، لكنى أحسست بشىء من الحرج إذا أنا ذكرت كل ما فى نفسى مما تراه عينى فى حياتنا الجامعية . . . وتوقفت عن الكلام ، وادعيت لهم أنى إنما جمعتهم لأودعهم . . . ولكن الطلبة كانوا كأنما يشعرون بما فى صدرى من هذا العناء الصامت ، وكأنما كانت نفوسهم تمتد فتدخل نفسى وتمسها مساً قريباً . لقد كنت أفسّر لهم طول العام نصوصاً أدبية ، وما كنت أعلم أنهم غدوا يقرءون وجهى كما كانوا يقرءون نصاً من هذه النصوص . . .

وعدت فقلت لهم : أيها الأصدقاء ، بعد قليل سأحرم لقاءكم والتحدث إليكم ، وأصبح فى قوم أراهم لأول مرة

ويروننى كذلك، لأول مرة، وأباشر عملا قد لا يمتّ بسبب إلى ما أخذت به نفسى طول حيـاتى . . . إنها الحياة أيها الأبناء الأعزاء ، تدفعنا هنا وتدفعنا هناك دفعاتٍ ليس لإرادتنا فيها من سلطان. ومن يدرى، فقد أغدو أسعد حالاً ، أو قد أصبح أكثر تعاسة ! وعلى كل حال فأنا موشك أن أذوق من الحياة لوناً من الطعام ربما اشتهته النفس قبل أن تراه العين ، فلعله أن يكون سائغاً ! !

ربع قرن من الزمان أو أقلّ قليلا قضيته فى هذه الكلية طالباً ومدرساً ، وها أنا موشك على الخروج منها، وأظن أنه من حقى على نفسى ومن حقكم علىّ أن أنظر إلى هذه الحقبة الطويلة من حياتنا الجامعية — وقد أوشكت أن أغادرها — نظرةً جامعة مجردة من الذاتية والهوى، فأمّا وأنا داخل سور الجامعة فما كنت أستطيع أن أرى هذه الحياة الجامعية إلا بشىء من الرفق والمجاملة . . . ولكن ماذا عساى أقول لكم الآن وأنا لا زلت داخل سورها . . ؟ !

ثم ذكرت لهم بعض ما تعرف من هذا العوج الذى ينبغى أن يُقوم ، ومن هذا الفساد الذى يجب أن يصلح، وما نحن

فيه من غفلة نريد أن نتنبه منها ، ومجاملاتٍ نريد أن نخرج عنها . . . والحقيقة أنى كنت أخشى أن يظننى بعضهم ذلك الثعلب البائس الذى حاول أن ينال العنب فلما أعيته الحيلة قال إنه مرّ . . . لذلك كنت رفيقاً فى قولى ، لا أبتغى من ورائه إلا ما أشعر به من وجوب الإصلاح . . .

ولكنى بعد قليل سمعت همهمة بين الطلبة ، ورأيت طالباً ينهض واقفاً ويقول لى :

ــ حدثنا إذا سمحت لماذا تركت الجامعة ، وأىّ عمل ستشغله ، فمن حقنا عليك وعلى الجامعة أيضاً أن نعلم المصير الذى ينتهى إليه أستاذ لنا خرج من الجامعة راضياً أو مكرهاً . . .

فاضطررت أن أحدثهم عما تعرف من قصتى بالكلية ، ومن ربط حياتنا بالجامعة بتلك الإجازات الرسمية ، واضطررت أن أشير إلى بعض الرسائل التى نال أصحابها عليها إجازة الدكتوراه ، وحدثتهم عن الاتصالات الشخصية ، والأبواب الخلفية فى الكلية ، وعدت بهم إلى حياتنا الجامعية الأولى أيام كنا بالزعفران ، حدثتهم عن أساتذتنا القدماء ، وما

نحن فيه اليوم من منهجية تشبه الحياة المدرسية ! وأخيراً قلت لهم إنى ذاهب لأكون شيخ تكية !! وحدِّث ما شئت عن تصايحهم وتضاحكهم حين سمعوا هذا ، واستغلّ الشياطين الموقف ، وما رأيك فى أننى لم تنم عينى تلك الليلة إلا على ثورة كادت تهدّ علىّ مضجعى وتفزّعنى فزعاً كاد يكون جنوناً ؟!

قلت :

ــ ثورة ؟ ! هل حطّم الطلبة زجاج المصابيح ؟ !

قال :

ــ ليت الأمر وقف عند هذا الحد ! فقد هاج الطلبة وماجوا ، وهبّوا يطالبون بإصلاح الجامعة ، واتخذونى زعيما لهم ، وصاروا يهتفون بسقوط الجامعة والجامعيين ، والرسائل والمشرفين ، والأساتذة الجهلة المغرورين ، والمعيدين والمدرسين المظلومين ، وهتفوا ببعض الأسماء ، وطلبوا منهم الجلاء ! ففزعت وأشفقت على نفسى من هذه الثورة التى شببتها فكاد يصيبنى لهبها ! وأقول لك الحق ، فقد كان هذا اللهب يثلج صدرى ! أرأيت إلى اللهب الذى يثلج الصدر ؟ ! وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، أو ليتنى انسللت من باب المدرج ومضيت

لشأنى بعد أن شفيت نفسى . . . فقد أبى الطلبة إلا أن يحملونى على الأعناق ، وخرجوا بى إلى الحرم الجامعى وهتافاتهم تشق عنان السماء، واجتمعوا حول النصب التذكارى، وقرروا قرارات هامة ...

وهنا أخذ صديقى يضحك ويهز رأسه . ثم قال ل :

— لم أقل لك إن هذه الوظيفة ستؤدّى بى إلى الجنون ؟! اضحك ما شئت ، فسأتلو عليك أهم هذه القرارات التى تمخضت عنها هذه الثورة . . . فقد قرروا إقامة نصب تذكارى آخر يوضع إلى جانب النصب التذكارى المقام هناك ، فهذا لشهيد الوطن، وذاك لشهيد العلم . . وما كان أشدّ فزعى وأنا نائم أجول بعينى فى فراغ الغرفة الملىء بالوجوه والأصوات ! نعم ما كان أشدّ فزعى يا صديقى حين رأيت اسمى مكتوباً على هذا النصب التذكارى الجديد ! أتدرى ماذا كتبوا عليه ؟ !

« فى سنة ١٩٢٦ دخل فلان الكلية »

« وفى سنة ١٩٥٠ دخل التكية »

« هذه حياته ، إنه لشهيد »

وصارت هذه اللوحة الرخامية تتخايل أمام عينيّ فى الظلام ، عينيّ المتراخيتين مما أثقلهما من هذه الرؤى الغريبة ، حتى لكأنهما أجنحة ثقيلة مبللة بالماء !

ويلاه يا صديقى من هذه الوظيفة التى جعلت منى بطلاً لا أدرى أيضحك الناس منه ، أم يعجبون به ! وعلى كل حال فقد كنت مغتبطاً ومستخذياً فى آنٍ واحد . . . أتدرى ماذا حدث بعد ذلك ؟ لقد استبدت بى هذه الصورة المزعجة حتى الصباح ، حتى لأفتح عينى على بعض الجرائد فكأنى أقرأ كلاماً مكتوباً ! نعم خيّل إلى أنى أقرأ خبر هذه الثورة مكتوباً بهذه الأحرف الضخمة الغليظة التى تسمى « مانشيت » : « ثورة الجامعة » « الشهيد الجديد » « مطالب الجامعيين » .. إلخ . وبعد أن وصفت الجرائد الثورة ذكرت مطالب الجامعيين وقراراتهم ، وذكرت أنهم أعطوا السلطات الجامعية مهلة ثلاثة أيام لتحقيقها سيقضونها معتصمين بالكلية وإلا فإن الحكومة تتحمل بعد ذلك تبعة الموقف . . . أرأيت ؟ !

وسألت صديقى بعد أن كاد يعدينى بجنونه ، فقلت :

— وما هى هذه المطالب ؟

قال :

— إنها كثيرة ، ولكنى أذكر لك أهمها . فقد طلب المعتصمون فرض امتحان للأساتذة ، نعم امتحان للأساتذة من ذوى الكراسى كل بحسب اختصاصه ، وإحالتهم جميعاً إلى هيئة الأمم المتحدة ، قسم التعاون الثقافى ، فتؤلف لجنة علمية فى هذه المؤسسة العالمية لهذا الغرض ، ومَن أجازته عاد إلى التدريس بالجامعة ، ومَن لم تجزه رجع كما كان ، أو بحث له عن عمل آخر .

قلت وقد فاض بى الأسف لحالة صديقى .

— وأظن أنه لا بد من حضور مندوب أو أكثر للطلبة فى هذا الامتحان ؟ !

قال :

— هذا طبيعى ، لا بدّ من ذلك .

قلت :

— والأساتذة الراسبون ماذا يعملون بعد ذلك ؟

فضحك وقال :

— ليأتوا معى إلى التكية فإن فيها متسعاً للجميع !

ثم عاد صديقي يضحك ضحكاً أرابني، حتى بدأت أخشى عليه من هذه الوظيفة التي تلقي به في هذه الأوهام الغريبة، وتأتي له بتلك الصور المزعجة ، وبدأت أدعو الله أن يصرفه عنها صارف من نفسه أو من غيره . . .

ومضت أيام أيضاً ، وكنت ألقاه من حين إلى حين .
وكلما سألته عن حاله قال : إننى طول الوقت فى التكية
أعيش فيها من قبل أن أراها . . . لقد بدأت أعيش عيشاً
مغايراً ، وأحيا حياة أخرى . . . وحين كنت أستزيده
يعتذر لى مرجئاً الحديث إلى وقت قريب . . . إلى أن زرته
يوماً فى منزله فلقينى أحسن لقاء، وما كدت آخذ مكانى حتى
أخذ ينظر إلىّ مبتسما كأنما يريد أن يقول شيئاً ، فأسرعت
وقلت :

— كيف الحال الآن . . . ألا تزال تتوالى عليك بعض
الصور ؟ أحسب أنّ علبة ألوانك قد نفدت !

فابتسم فى رفق، وبعد أن فرغنا من القهوة نهض واقفاً
وذهب إلى ردهة البيت،ونظر هناك فى مرآة كبيرة معلقة على
الحائط ، ثم رأيته يفتر ثغره عن ابتسامة عريضة ، ثم رأيته يقدم
نحوى ويمدّ يده لى ، فمددت يدى له ، فجذبنى وعاد بى

إلى الردهة حتى وقف بي أمام المرآة ، ونظرت إلى المرآة فرأيته يبتسم فابتسمت أنا الآخر . ولم أفهم ما يعنى من كل هذا . ثم عدنا إلى حجرة المكتب . وقلت له مازحاً :

ــ يظهر أن مرآتك تجعل مَن ينظر فيها أكثر رونقاً وشباباً . . !

فابتسم وقال :

ــ وتستطيع أن تخلع عليك التقوى دون أن تكون تقيًّا ! أصغ إلىّ يا صديقى ، ففى ليالى التكية تلك ، أى فى هذه اللحظات التى أقف فيها أمام تلك المرآة إذا جنّ الليل وهدأ البيت هدوءاً يوقظ الحس ، ويردّ الإنسان إلى نفسه . . فى هذه الفترات التى يحسّ الواحد منا أن العيون من حوله استراحت ، والرغبات من حوله هدأت . والأصوات فى آذانه سكتت ، فلم يبق من صخب الحياة وضوضائها إلا ضوء خافت ضئيل يتحسّس الأشياء هيناً رفيقاً . . . فى هذه اللحظات أرانى هذه الأيام أقف أمام تلك المرآة قبل أن أذهب إلى حجرة نومى لأرى صورة لوجهى ، صورة أريدها من هذه المرآة ، حتى إذا أعطتنيها أخذتها معى إلى فراشى ، وظللت أجيل فيها

عينىّ إلى أن يثقلهما النوم !

قلت :

ـــ أىّ صورة تلك ؟

قال : وجه لشيخ التكية ؟ !

فضحك وضحكت ، ثم قال :

ـــ نعم يا صديقى هو هذا . . . لقد صرت أروّض هذه المرآة كل ليلة حتى أعطتنى الوجه المطلوب أخيراً ! إن وجوه الناس يا صديقى ـــ ومنها وجهى بالطبع ـــ تتشكل بأشكال اجتماعية حين تحتاج إلى ذلك ، كأنما سحنة الإنسان منا طوع يديه فى بعض الأحيان ! وقد تجمد بعض السحن كأنما عقدها المجتمع عقداً محكماً لا تريد أن تنفك منه ، أو كأنما كل وظيفة تحتاج إلى ملامح خاصة تتفق وطبيعة هذه الوظيفة!

قلت : ـــ نعم يا صديقى ، فأما وجه شيخ التكية فهو على ما أتصوره عليه يجب أن يكون وجهاً هادئ القسمات ، رضىّ التعابير ، تشيع فيه الطمأنينة ، ويترقرق فيه ماء السلام ! أليس كذلك ؟ ثم إنه فوق هذا يلزمه مسحة من الزهد وقليل من . . . .

وأردت أن أكمل الصورة التى أتصور عليها وجه شيخ التكية لعلى أساعده فيما يريد أن يأخذه معه من مؤهلات ! لكنى رأيته يضحك ويقول :

— وشىء من الغباوة ! أليس كذلك ؟

قلت :

— عفواً ما ذهبت إلى هذا الحد . . !

وتضاحكنا ، ولكنه عاد فقال :

— نعم يلزمنى على كل حال قدر من الغباوة ، فى وجهى أولا ، وفى ضميرى ثانياً ! ولكن قل لى كيف ترى استعداد وجهى لوظيفة شيخ التكية تلك ؟ أأترك لحيتى لتكمل ما ينقصنى من المؤهلات ؟ أم ترى أنت فى هذه القسمات الكفاية ؟ لكم شددت عليها حتى أوصلتها إلى الرضا فرضيت وإلى القناعة فقنعت !

قلت له :

— لو قد رضيت عن الحياة لكان وجهك وجه ملاك !

ونظرت إليه فإذا به قد نسى أنه يحدثنى ، وصار ينظر من شرفته إلى النيل ، وإلى الأفق الأخضر الجميل ؛ نظرة أضمت

على وجهه إشراقة هادئة ، فلم أشأ أن أفسد عليه بعض ما يرى على هذا الأفق ، فربما كانت أحلاماً افتقدها على الأرض فلاحت له على الأفق . وظل مستغرقا برهة ، ثم انتفض كأنما استفاق من وهم ، ثم عاد إلى ابتسامته العذبة الطروب ، ثم قال لى :

ـــ أظننى فى حاجة إلى وجه يشبه وجه رضوان ؟ ! سيدنا رضوان حارس الجنة الأمين . . . أليس كذلك . . ؟ !

وعجبت له ، فلقد كان إذن ذاهباً بخياله على الأفق، أفق الجزيرة الخضراء ، ليستعيد فى مخيلته وجه هذا الملاك الطاهر الأمين . ثم عاد صديقى فهز رأسه كأنه يأسو على شيء فاته ، فقلت :

ـــ ماذا ؟

قال :

ـــ لولا شيء واحد لكنت رضوان بنى الإنسان . . .

قلت :

ـــ وما ذاك ؟

قال :

ـ إن عينيّ لا كعينيه . .

قلت :

ـ أفيما يشيع فيهما من رضاً ووداعة ؟ !

قال :

ـ كلا ولكن فى خضرتهما .

قلت :

ـ ومن أنبأك أنّ لراضون عينين لونهما أخضر؟ !

قال :

ـ أليس يعيش طول عمره فى الجنة ؟ فلا بد أن تكون الجنة قد أضفت على عينيه خضرتها الجميلة الدائمة !

ولكن لا ، فليس هذا ، فالحقيقة أنى رأيته أول ما رأيته هكذا . . .

ـ وأين رأيت رضوان ؟ أكنت متّ قبل ذلك ودخلت الجنة . . ؟ !

ـ رأيته وأنا غلام صغير ، فقد حدثتنى أمى عنه ، ووصفته لى من رؤيا رأتها ، فقالت إنه يلبس جلباباً أبيض ؛ وفى يده مسبحة ، ووجهه صبوح أبيض مشرب بحمرة ، وعيناه لونهما أخضر جميل . . .

قلت :

— ربما كان كذلك ، وعلى كل حال فصورة سيدنا رضوان فيما أرى تختلف باختلاف الزمان والمكان ، ومن يدريك فلعل الغلام السودانى إن حدثته أمه عن رضوان فربما صوّرته له على نحو آخر . . .

وابتسمت فابتسم ، وقال :

— يالك من خبيث ! ! وعلى كل حال فسواء كان رضوان يلبس جلباباً من الجوخ المزركش ، أو كان يلبس « سموكن » قديم وياقة منشاة عالية ، فلا بد أن وجهه يدل على طيبة القلب ، وهدوء النفس ، ونقاء الضمير ، فهل ترانى هكذا ؟ !

قلت :

— وهل تشك فى هذا ؟

وسكت وسكت ، وأخذنا ننفخ دخان سجايرنا كأنما جعلنا الدخان يتلاقى ويتحدث بما فى صدورنا ، ثم سمعته أخيراً يقول لى :

— أرأيت إلى ما صنعت بى هذه الوظيفة ؟ ليتها اضطرتنى

إلى أقلمة وجهى فحسب ، ولكنها تريد أن تضطرنى لأغدو رجلا راضياً عن الحياة ... رجلا قانعاً لم يعد له أمل فى الحياة . . . هل تصدق هذا . . ؟ ! أى مؤهل صعب تتطلبه منى هذه الوظيفة ؟ ! وسكت صديقى ، وتلهينا بالقهوة ، ولكنه عاد فقال :

— وذات ليلة نظرت إلى وجه رضوان فسررت به ، وأديت الصلاة كما ينبغى أن يؤديها شيخ التكية ، وذهبت لأنام . . . ويلاه يا صديقى من نفسى ، وويلاه من سخرية الحياة ! لم أكد أطمئن إلى أنى غدوت رجلا طيباً حتى سمعت هاتفاً يهتف من داخل ضميرى ويقهقه ويقول : يا لك من أفاق منافق ! أبد ما شئت أن تبدو عليه ، فقلبك لا يزال يقفز ويتوثب ، وعيناك زائغتان إلى ذهب مكة ! ألا تذكر أنك نسيت صديقك الشاعر الذى ذهبت لتشييع جنازته بعد دقائق من رحيله حين لقيت صديقك ذاك بوزارة الأوقاف ؟ ! وهاأنت موشك على الإقامة بالقرب من بيت الله ، فكم من مرة ذكرت ربك ، وكم مرة ذكرت مرتبك ؟ ! تبّاً لك من شيطان يحاول أن يبدو للناس فى زى رضوان ؟ ! ثم قضيت الليل وأنا أحاول أن أسكت هذا الصوت الجهورى الذى

يقهقه في ضميري فيؤرقني ويفزعني ، وأستيقظ في الصباح بعد أن أكون نمت أو لم أنم . وحين أمرّ على هذه المرآة في تلك الردهة أراني كأنما استودعتها وجهاً سأعود في المساء لألقاه فيها وأطلبه منها ؟ ! أرأيت يا صديقي ماذا فعلت بي تلك الوظيفة ؟ !

وسكت صديقي ، ووجم وجوماً كاد يكون مخيفاً ، وحاولت أن أمزح معه ، وأن أجعل الأمر لا يتعدى هذا الذي تعودناه من الصور العابثة .

لكني وجدت أن الأمر تعدى هذا بكثير ، وصار ما يتخيله صديقي يفعله ، وهذا شر ما خشيته عليه .

وتركته وعدت إلى بيتي وأنا أتابع القصة الشيقة التي أخذت تحلو لي ، وهكذا نستعذب الألم إذا صيغ لنا في فن ، وكان يمس نفوس الغير لا نفوسنا ، حتى وإن كانت نفوس أصدقائنا !

صراع

فرغنا من القهوة ، وأخذت أنظر إلى بطل القصة لا إلى لصديق ، ولكنه كان لاهياً عنى ، فصرت أغريه بالكلام حتى قال ضاحكاً :

— ماذا تريد ؟

قلت :

— بعض صورك ، وما رأى شيخ التكية فى مرآته ؟

فقال :

— قل امرأته لا مرآته ، فهذه هى الصور الغريبة ، وذاك هو الصراع العابث !

قلت :

— لا شك أنّ صاحبتك سعيدة بما تحدثها به عن حياتكما هناك بالتكية . لا بد أن يكون لديها الآن مجموعة رائعة من تلك الصور لا سيما حين يجنكما الليل . . .

قال :

— نعم ! وكم حاولت أن أثنيها عن هذه الوظيفة بمثل تلك الصور ، ولكنها لا تريد أن تقتنع ، فهذه الهواجس كانت كفيلة أن تستدر شفقتها فتثنيني عنها . . . إنها وحدها التي تستطيع أن تثنيني . . ! لكنها دائماً تضحك مما أقول، وتأخذ حديثي على أنه خيالات شاعر لا أكثر ولا أقل ، وأخيراً ترجوني أن أذهب من غد لأقابل الوزير وأرجوه أن يمضي الورق ، فأعدها راضياً مسروراً ! !

وكثيراً ما حاولت أن أصوّر لها شيخ التكية هذا بصور منكرة غاية في الشناعة، غير أنها كما قلت لك لا تريد أن ترتد ، وترى أن الصور التي يتخيلها أمثالنا شيء ، وذهب مكة وحياة القصر هناك شيء آخر !

وسكت صديقي كأنه ذكر شيئاً تردّد في الافضاء إليّ به ، ثم رأيته يبتسم ويقول :

— ولأضرب لك مثلا من هذا الصراع بيني وبينها . ذات ليلة رأيتني أنهض من فراشي مرتاعاً أحدث نفسي بصوت مسموع وأقول : يا لله ! أي حياة تلك ؟ ! إنها حياة فراغ قاتل . . .

فاستيقظت صاحبتى وقالت :

ــ ماذا بك ؟ ألا تعجبك حياتنا ؟

قلت لها :

ــ عفواً . . . وإنما أردت حياة التكية التى سنحياها هناك بمكة . . .

قالت :

ــ ألا يمكن أن تريح نفسك قليلاً من هذا . . ؟ ! ماذا ؟ ألا تحب أن نحيا هناك سعيدين ونعود موفورين ؟ !

قلت :

ــ ولكن الثمن يا عزيزتى فادح . انظرى . . . أترضين لى أن أحيا حياة غير ذات موضوع كما يقول هذا الزميل الفاضل ؟ ! أليس هذا مزعجاً ؟

فابتسمت صاحبتى فى رفق وقالت :

ــ أنسيت أنك ذاهب لتفعل الخير وتساعد الناس هناك ؟ فهل حياة الخير حياة غير ذات موضوع ؟ ! ألا إنّ بعض زملائك ليتجنّى عليك ويزيد فى مزاحه معك !

قلت لها :

ـ الحقيقة أننى دائماً أتصور نفسى سيداً بلا عمل هناك . . . رجلاً قد استمرأ الراحة واستطاب الجلوس ، واستحلى الحديث مع الناس فى التافه والملآن ، وأنت تعلمين أى حياة اجتماعية أحبها . . . فهل أصبر على هذه الحياة الفارغة !

قالت :

ـ هوّن عليك.. تستطيع أن تمضى الوقت فى القراءة والكتابة .

قلت :

ـ إنّ الناس هناك ينتظروننى ليقضوا الوقت معى، فهل أغلق دونهم الأبواب ، أم هى تكية أبى ؟ !

وهنا تضاحكنا ، وتصورت وقع هذه الكلمة على نفس هذه السيدة الفاضلة الرقيقة ، ولا سيما أن هذه المناقشة كانت فى ساعة من الليل يهدأ فيها كل شىء . . . .

ـ قلت لها :

ثقى أننى سأقضى معظم النهار وشطراً من الليل مع الناس لأن طبيعة الوظيفة التى سأشغلها ستضطرنى إلى ذلك . . . قوم جلوس على سجـــاد نفيس ، وأمامنا أكواب

الشاى يتصاعد منها بخار رقيق شفاف ، يطوف بالوجوه الشاخصة إلىّ ثم يتصاعد ليغدو سراباً ! هذه هى الحياة فى حجرة شيخ التكية . . لكأنى أرى كل شىء ساكناً لا يكاد يتحرك . . . وكأنى لا أسمع إلا رشفات الشاى من أفواه ظامئة . . . بل كأنى لا أسمع إلا أزيزاً محتبساً فى جوف « صاموار » تركى قديم ، قد توسط الحجرة ، وصفّت حوله الأكواب . . . لا بل كأنى لا أسمع إلا مواء قطة الشيخ وهى واقفة تتمطى أو جالسة على ركبته . . . أترضيك هذه الحياة يا زوجتى العزيزة ؟ !

فتأملتنى زوجتى ونظرت إلىّ نظرة طويلة هادئة ، ثم افتر ثغرها عن ابتسامة لا أدرى أكانت مشوبة ببعض الإشفاق أم بعض العزاء ، أم كان فيها سخرية ، وقالت :

— تقول قطة الشيخ ، هل للشيخ قطة ؟

قلت :

ـ نعم فهى قطة من أصل فارسى كريم ، لها فراء ناعم أملس . . . عاشت هى وأسرتها فى التكية ، وربيت ودللت فهى تعيش على الأرائك الوثيرة . . .

فابتسمت وقالت :

— وعلى ركب الشيخ اللدنة . . !

فضحكت وقلت :

— لقد تعودت هذا . . . إنها قطة كسول ، ولكنها مع ذلك موضع الحفاوة والإكرام . . . وأخيراً فهل ترضيك هذه الحياة ؟

قالت :

— إنك جاحد يا صاحبى . . . تحبوك الأيام بالمال وبالحياة الهانئة الهادئة ، وتعيش فى قصر وثير الفراش وبجانبك أو على حجرك قطة فارسية جميلة ، وأمامك أكواب الشاى حول « السموار » ، وحولك قوم جاءوا ليسمروا معك . . . ومع ذلك تشكو وتصيح ! لتلك حياة أمير من الأمراء . . . اذهب فى الغد إن شاء الله إلى الوزارة .

قلت :

— سأذهب وأتعجل الورق . . ولكنى مع ذلك برم بهذا اللون من الحياة ، فهناك آداب لم أمرن عليها ولا أطيقها . . .

قالت :

ـ أى آداب ؟

قلت :

ـ آداب اللياقة والمجاملة التى سأفرغ لها فى مثل هذه الجلسات الطويلة . . . فمن شرب لا بد أن أقول له هنيئاً ، ومن عطس لا بد أن أقول له يرحمك الله ، وهكذا طول الوقت . . . أرأيتِ ؟

قالت :

ـ وماذا يكلف هذا ؟ إنها أشياء بسيطة ، ومواضعات لا تلبث أن تعتادها . . . وسكتنا . فأردت أن أمزح فقلت لها :

ـ أتعرفين التشميت ؟

ـ أى تشميت ؟

ـ تشميت العاطس ، شمّتَ العاطس أى قال له رحمك الله . . .

ـ ما شاء الله ! وتقول إنك لا تحسنها ؟ !

ـ لو عطستِ الآن لشمّتك !

ـ لست فى حاجة لعطس أو تشمت . . .

— سؤال بسيط . .

— ماذا ؟

— ماذا يقال للذى يتوضأ ؟

— من زمزم طبعاً . . أفى هذا شك ؟

— كلا أنت مخطئة . . . وماذا يقال للذى يصلى ؟

— حرماً . .

— كلا أيضاً . فهل نسيت أننا سنكون فى الحرم بالقرب من زمزم . . . فلا لزوم إذن لهذا الدعاء . . أعرفت ؟

— سؤال أخير . .

— قل يا مولانا ، فهذا امتحان لم أعدّ له ، ومع ذلك فمن منا سيكون شيخ التكية . . .

— أنا بالطبع ، وما أظن أن مشيخة التكية مما يطالب به الجنس اللطيف . . . فماذا تقولين للذى يتثاءب ؟

— لا أدرى ، فماذا يقال لهذا أيضاً ؟

— لا يقال له شىء . .

— ولماذا ؟

— لأن التثاؤب من الشيطان ، والعطس من الرحمن . . . أعرفت ؟

ـ آفادك الله يا مولانا فقد أصبحت حجة . . . ومع ذلك فهل ستفرغ لمن تثاءب ولمن تمطى ؟

ـ يخيل لى هذا ، فأنا شيخ التكية ، فهل يجلس شيخ التكية فى ندوته وحواليه القوم ولا يجاملهم ؟

وسكتت صاحبتى وسكت ، وادعت النعاس وادعيت ، ولكنى سمعتها تقول بصوت خافت نصف مسموع :

ـ إنّ السجاد هناك جميل . .

ففاجأتها وقلت :

ـ لا شك فى ذلك ! ولكن هل أبيع نفسى بسجاد ؟ !

وعادت فسكتت ، ولكنى سمعتها تهمهم :

ـ نحن فى حاجة إلى عشر قطع . . نعم عشر قطع على الأقل. . . وأخذت تحدث نفسها أو تحدثنى ـ لا أدرى ـ ـ عن المقاسات المطلوبة والألوان المفضّلة . فاغتظت وقلت :

ـ أنت كثيرة الطمع ! ومن أين لنا ثمن قطع عشر من السجاد النفيس ؟

فتأملتنى ثم قالت :

ـ أنت ناظر التكية . . حضرة الناظر ! أنسيت ذلك ؟

اطمئن يا عزيزى فلن ندفع فيها شيئاً . . .

قلت :

وماذا نعمل بالسجاجيد العشر وشقتنا غرف أربع مفروشة بالسجاد كلها ؟

قالت :

ـــ أنسيت أنه سيكون لنا بعد عودتنا ڤيلا ؟

قلت :

ـــ آه نسيت ذلك . . . سيكون لنا إذن ڤيلا ؟ !

وفى الصباح بعد أن تناولت قهوتى قلت لها :

ـــ أنا ذاهب لوزارة الأوقاف !

فنظرت إلىّ مبتسمة ، ودعت لى بالتوفيق !

تجربة

شربنا القهوة، ودخنا ما دخنا من السجاير، وصديقى لا يشير إلى التكية من قريب أو بعيد، كأن أمراً جد جعله يعرض عن صوره التى يتخيلها : وهو الذى كان إذا التقينا يبدأ الحديث عنها قبل التحية فى بعض الأحيان . . . وأخيراً قلت له :

ــ ماذا هناك من جديد ؟

فقال :

ــ فيمَ ؟

ــ فى تكيتك . . .

ــ لا . لا يزال الورق تحت الإمضاء . . . ما أثقل هذا الموقف ! وليتنى كنت أستطيع الفكاك منه . .

قلت :

ــ لا شك أنك تستطيع ذلك، فما عليك إلا كتابة ورقة صغيرة تقول للوزير فيها إنك عدلت . . .

ــ لست وحدى سيد الموقف . . . أنسيت الذهب

المتوهج هناك . . . هناك هاتف من نفسى يهتف بالغنى والثراء . وهناك صاحبتى التى لا تريد أن تدعنى . . . ثم هل أستطيع أن أعود إلى الجامعة ؟ !

الحق يا صديقى أنّ الموقف ثقل علىّ وكادت نفسى تزهق . . . حتى هذا الذى أرضاه لا يريد أن يرضى بى ! ! وكلما هممت أن أفقد الصبر عادت زوجتى فردته إلىّ بحيلة من حيل النساء . . . ورأيت أنه لم يبق إلا خيط واهٍ أستطيع أن أقطعه ، فاحتلت للأمر ، وقلت لا يأكل النار إلا النار ، وجرّب فعسى أن تنفع التجربة . . .

وفى الصباح نهضت من النوم وتثاءبت ، وقلت كأنى أحدث نفسى : اللهم اجعله خيراً ! ففتحت عينيها وقالت :

ــ خيراً إن شاء الله . . . ماذا ؟ أرأيت رؤيا ؟

قلت وأنا أفرك عينىّ مرة أخرى :

ــ خير . . . لا شىء ، لا شىء . . مرى لى من فضلك بكوب من الشاى . . .

ــ لكن ماذا رأيت ؟

ــ أضغاث أحلام . . .

ـ ما هى هذه الأضغاث ؟

ـ ماذا كان عشائى بالأمس . . . ؟

ـ لا أذكر ، ولكن ماذا رأيت . .

ـ أخشى أن تؤاخذينى . . . .

ـ أيؤاخذ النائم على ما يراه فى حلم ؟ يا لك من رجل طيّب القلب. . ! قل ماذا رأيت ؛ فلعله خير إن شاء الله . . .

ـ رأيت نفسى بمكة شيخاً للتكية . . . رجلاً فاضلاً موقراً . أقابل الناس بالبشر والترحاب ، ويقابلنى الناس بالتجلة والاحترام . . ولا أدرى لماذا رأيت نفسى لابساً بدلة طويلة ، وعلى رأسى طربوش من غير خوص . . وكان فى يدى سبحة لها شرابة ذهبية جميلة . . . كان القيظ شديداً، وكانت السبحة تتوهج ، وكان موسم الحج فى أوجه. وكنت لا أفتر عن الحركة ومقابلة الحجاج . . .

وهنا سكتُ، وتنهدت فقالت :

ـ ثم ماذا . . . إنها رؤيا جميلة، فلماذا تبتئس . . ؟ !

قلت وأنا أصطنع الأسف :

ـ وفى وسط هذا الزحام حدث أن تقابلت مع سيدة

من الحجاج . .

— سيدة ؟ ! من تكون وما اسمها ؟

— انتظرى قليلا فسأحدثك بكل شيء . . . كانت عائدة من رجم إبليس، وتعبت فأغمى عليها فأسرعت إلى مساعدتها حتى استفاقت وشكرتنى . . . ولكن الحديث اتصل بينى وبينها . . . آه يا زوجتى العزيزة إن الأقدار تلعب بنا حتى فى نومنا . . !

— وماذا قالت لك هذه السيدة، وماذا قلت لها ؟

— قالت إنها سمعت عنى منذ أول قدومها ، ورأت الناس هناك يثنون علىّ ، فتواضعت وحمدت الله على إكرامه لى برضا الناس عنى ، وأشرت إليها أننى إنما اخترت هذه الوظيفة لأكون بالقرب من بيت الله، فأساعد الحجاج وآخذ بيد المحتاج ، وعرّفتها أنى مؤتمن على كثير من الصدقات، آخذها سراً ، وأنفقها سراً، لا يعلم بذلك إلا الله وحده ، وهززت لها رأسى هزة التقىّ والورع الزاهد فى متاع الدنيا، وقلت ماذا نأخذ من دنيانا ياست هانم . ؟ لن ينفعنا إلا العمل الصالح . . .

وهنا سكتُّ ، وطلبتُ إلى زوجى أن تتعجل الشاى ، فقالت :

ــ سيأتى الشاى بعد قليل . . . ولكن أتمم أتمم . . . ماذا كان بعد ذلك ؟ ولكنك لم تذكر لى اسم هذه السيدة ولم تصف لى شكلها . . . أعرفت اسمها ؟

ــ نعم نعم . . اسمها آنجه هانم . .

ــ آنجه هانم ؟ ! اسم غريب . . . أهى تركية ؟

ــ نعم هى شركسية الأصل . . .

ــ أهى عجوز ؟

ــ لا إنها سيدة نَصَف . . .

ــ تعنى أنها متوسطة العمر ، فكم تبلغ ؟

ــ لا أدرى بالضبط ولكنها كانت فى الأربعين تقريباً أو دونها ، وربما كانت تبدو أقل من ذلك . .

ــ أجميلة هى ؟

ــ أعفينى من هذا السؤال . . .

ــ غريبة ! أنسيت أنك تقص علىّ رؤيا ؟ !

ــ الواقع أنها رائعةُ الجمال . . .

ــ وهل هى متزوجة أم . . .

— مات عنها زوجها منذ عامين . . .

— أهى ثرية ؟

— ثراء فاحش . . .

— قل لى ما حدث بالتفصيل بينك وبينها ، وماذا كان بعد مساعدتك لها حين إغمائها واتصال الحديث بينكما . . .

— معرفة تدرجت إلى صداقة .

— ثم . . .

— ثم انتهت الصداقة إلى شىء أكثر من الصداقة . . .

— إلى زواج ؟ ! قل هل تزوجتها . . .

— تقريباً . . .

— تقول تقريباً ؟ كيف ؟ أتزوجت هذه السيدة حقا ؟

— فى المنام . . .

— ولكن كيف . . . ألا تفضلت فأخبرتنى بالتفصيل . .؟

— أعجبها منى تقواى وأمانتى ، فسألتنى وهى موشكة على العودة بعد انتهاء الزيارة : هل أقبل أن أكون وكيلاً لدائرتهم . . .

— دائرة . . ألها دائرة ؟ !

— نعم هى وخالتها العجوز كلبياظ هانم وآخرون أكثرهم

انقرض ، ولم يبق من العائلة إلا بقايا . . . وقف يبلغ الألفين من الفدادين . . .

— وبعد أن صرتَ وكيلاً لهذه الدائرة ماذا حدث . . ؟

— صرتُ وكيلا فى كل شىء . . . صرتُ زوجاً . . .

— ألم تفكر فينا فى كل هذا . . .

— لا ، فقد أنستنى هذه الحياة الجديدة كل شىء . . .

— ولكنك لم تذكر لى بالتفصيل ماذا كانت تقول لك وماذا كنت تقول لها . .

— لا أذكر الآن . .

— ثم . . ؟

— ثم استيقظت على نفير سيارتنا الفخمة ، وحين فتحت عينى عرفت أنها سيارة جارنا ذاك الذى تعود أن يزعجنا بنفير سيارته . . . ألا تفضلتِ فتعجلت الشاى . . . ؟ !

ونظرت إلىّ زوجتى نظرة فاحصة خشيت معها أن تتبين تدليسى وكذبى ، وفرحتُ حين تبينت أنى نجحت وأنها لم تشك فيما قلت . . . ولم تشأ أن تفصح لى عن أثر هذه الرؤيا فى نفسها ، وإنما ابتسمت ابتسامة ساخرة وقالت :

ـ أهذا كل شيء ؟ ! حقّق الله أحلامك !

فوخزتني هذه الكلمة، فأردت أن أمضي في التجربة إلى آخرها فقلت :

ـ أرأيت أن هذه الوظيفة تفتح لي منافذ غريبة أخشى منها ؟ !

فقالت :

ـ أواثق أنت أنك كنت في سبات عميق حين رأيت ما رأيت ؟

ـ لا أستطيع أن أجزم بذلك . . ولكنها على كل حال رؤيا نائم . .

ـ أو ربما كانت خيالات حالم وأماني هائم ؟ !

وسكتنا على ذلك ، وحين هممت بالخروج عجبت لها ، فقد رجتني وهي تصحبني إلى الباب أن أمر إذا استطعت على وزارة الأوقاف لأتعجل الإمضاء . . . أرأيت ؟

وهكذا حاولت أن أحتال على نفسي وعلى صاحبتي لعلي أعرض عن هذه الوظيفة فأريح ذهني من هذه الحياة الغريبة ومن تلك الصور المتلاحقة ، احتلت مما صرت

أصوره لنفسي وأصوره لزوجي ، فما أراحتني نفسي ، وما أراحتني زوجي . . . !

وأخيراً أسقط في يدي . وقلت لابدّ مما ليس منه بد ، فإذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون ، ولم يبق لي إلا أن أؤهل نفسي وأعدها لما أنا مقدم عليه مهما كلفني ذلك .

المدير العام

لقينى فى تلك الليلة ضاحكاً مستبشراً كأنه وجد ما كان يفتقده ، أو كأنه اطمأن من هذا القلق الدائب الذى هو فيه ، وقدّرت أن الوزير لا بد أن يكون أمضى الطلب ، فسألته فى ذلك فقال : كلا ! لا يزال معروضاً ، ولا زلت أنا فى هواجسى وظنونى . . . على أنى رسمت لنفسى الطريق وخلصت إلى الغاية .

قلت :

— أى طريق وأى غاية ؟

قال :

— ليست هذه الوظيفة من الوظائف الدينية فى شىء . ولا هى تحتاج إلى وجه رضوان أو تقوى الملائكة . . . إنها تحتاج أول ما تحتاج إلى رئيس حازم يحسن الإدارة ، وبدل أن أجهد نفسى فى استعارة وجه رضوان فسوف يتيسر لى أن أستعير وجه موظف قديم . . .

قلت :

ـ وما وجه هذا الموظف القديم وما صفاته ؟

قال :

ـ لا شك أنك تعرف ما أريد فلا تتخابث . . !

قلت ضاحكاً :

ـ أيهم تريد ؟ صاحب التكشيرة الصفراء ؟ !

ـ بل صاحب الضمير الأصفر !

قلت :

ـ وهل رأيته فى المرآة ؟

ـ نعم رأيته بعينى ، برأسه الأصلع ، ووجهه الجامد ، ونظارته المدلاة على أنفه ، ونظراته الأميرية . . .

فضحكت من هذا التعبير وقلت :

ـ أفى نظرات الناس حكومية وأهلية ؟ !

قال :

ـ أنسيت أننا كنا نوزع على الناس حتى أسماءهم ؟ ! ولكن دعنا من هذا : فقد انتهيت إلى أن أكون فيما بقى لى من الحياة موظفاً بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى قديم حين أشغل

وظيفة ناظر التكية تلك . . . ولقد محوت الصورة الأولى من المرآة ، صورة رضوان ، واستبدلتها بصورة رجل كهل متأنق بعض الشيء فى ملبسه ، يتحرك إذا تحرك بتؤدة ونظام ، وينطق إذا نطق بالقوانين واللوائح والأحكام ! كم رأيت نفسى فى هذه المرآة جالساً وأمامى على مكتب مدير التكية كثير من الدوسيهات والأوراق ! وكم رأيت نفسى جالساً على كرسى من هذه الكراسى المتأرجحة أتطوح إلى أمام ، وأتطوح إلى خلف . وبلغ بى الأمر أنى كنت أسمع كرسى المدير يصوّت إذا تحرك . . .

ــ لقد كان من الخير أن تظل « رضوان » ، أما وأنت ذاهب إلى هناك لتغدو هذا الرئيس الثقيل ، فلا حرك الله يد الوزير بالإمضاء . . . !

فنظر إلىّ متجهماً وقال :

ــ أأنت أيضاً تريدنى أن أقضى حياتى وأنا رضوان ؟

قلت :

ــ وهل بعد طيبة الإنسان وطهارة قلبه وأمنه وطمأنينته شىء ؟

قال وقد ابتسم ابتسامة شاحبة فيها شيء من سخرية :

ــ لا يا سيدى ! فقد مللت الجلوس بالقرب من الباب ! ! لقد انتهيت إلى أننى إما إلى داخل الجنة أنعم فيها طلقاً حراً ، وإما إلى قرارة السعير ! !

ــ ماذا تقول ، وأى شيء تعنى ؟ !

ــ لا شيء لا شيء . . . فأين ذهب بنا الحديث ؟ كنت أقول لك إنها وظيفة إدارية ، فأردت أن أضع لنفسى برنامجاً أسير عليه حين أكون هنالك رئيساً . . . أعنى . . .

وسكت صديقى برهة ، وأطرق كأنه لا يزال حائراً ، ونظر إلىّ كأنه يطلب منى أن أوهمه بأنه رئيس إدارى ممتاز ، ولكنى نظرت إليه نظرة حطمت هذا الأمل فى نفسه ، فقال :

ــ أصغ إلىّ يا صديقى ! فما أحب أن أزكى لك نفسى أو أبرّر لك حماقتى ، ولكن ذلك شيء أتخيله لأشفع لنفسى عند نفسى ! أنا أعلم أنك ستسخر منى حين تعلم أنى أريد أن أكون رئيساً إدارياً قوى الشكيمة لأن كل مظهر من مظاهر حياتى لا يدل على ذلك ولا يؤهل له . . . . والحقيقة أن الحياة الطويلة التى عشناها فى الكلية لم يكن من

طبيعتها معاملة الناس والاتصال بهم ، لكن هذه الوظيفة الجديدة ستقوم قبل كل شىء على ما سيكون بينى وبين الناس من صلات، وبينى وبين الوزارة من مكاتبات تحتاج إلى حزم وإدارة . . . سأصطنع الحزم والإدارة بالتكية كما اصطنعت العلم بالكلية . وهذا كل شىء !

وابتسمت لقوله هذا . ونظرت إلى الأفق الذى كان ينظر إليه . فإذا سحب وادعة تسير فى رفق وعليها غلائل ورديه شفافة، فصرنا نتابعها بعيوننا وقد توقفنا عن الكلام . . . أما أنا فقد كنت أرى صديقى سحابة من هذه السحب الرقيقة الناعمة التى تسير حيث سيّرتها الريح ،وتمطر إذا حدتها الشمال أو مستها قمة باردة !

وسمعته يقول :

— ويلاه يا صديقى ! لم أتعود طول حياتى أن أكون صاحب الأمر فى شىء ! فإذا شغلت هذه الوظيفة بالروح التى أحيا بها فى بيتى أو كليتى فالويل لى ! لكنى مع ذلك بدأت أمرن على مظهر الرئاسة وسترى !

وأشفقت عليه ، ولمت نفسى على أن أبديت له الشك

فيما يزعم لنفسه من حزم وعزم ، فقلت له :

ــ لعلك مخطئ فى هذا يا صاحبى ، وما أرى إلا أنك ستكون رئيساً حازماً قوى الشكيمة ، نافذ الكلمة ، مطاع الأمر . وقد يظهر لى أنك موشك أن تعوض كل شىء فاتك من هذه الصفات . . . ما أظن اصطناع الحزم والعزم أمراً مستحيلاً على مثلك ، وإنها لتجربة على كل حال . . . ومع ذلك فمن قال إن الرؤساء الحكوميين لهم جميعاً تلك الصفات من الحزم والعزم وقوة الإرادة وحسن الإدارة ؟ ! كلا يا صديقى كلا ! فهوّن عليك ، ففى مظهرك على الأقل الكثير من ذلك !

وبعد قليل من قولى هذا نظرت إليه فإذا به ينهض واقفاً ويضع يده فى جيب صدريته ، فتأملته فإذا هو مقطّب الجبين كأنما أراد أن يبدو رجل الإدارة المطلوب . وأخذ يذهب ويجئ فى حجرة المكتب كأنما قد أصبح مديراً لشركة ضخمة من الشركات الصناعية ، ثم أخذ يحدثنى وهو يخطو مقطباً مفكراً ، وقال

ــ لقد فكرت فى النظام الإدارى الذى ستكون عليه

التكية . . . لا بد أن يكون هناك على الأقل سكرتير وكاتب أو كاتبان ، وربما كان هناك بعض الموظفين غير هؤلاء خارج هيئة العمال . . . هذا هو الطقم ، وهؤلاء هم رجال دولتي الصغيرة . . ماذا يعمل هؤلاء الموظفون هناك ؟ سيرون الفرق بين عهد وعهد ومدير ومدير ! ! لا بد أنهم سمعوا بترشيحي ، ولا بد أنهم يتحدثون كثيراً عني في هذه الأيام . . أخشى أن يكون المدير طمأنهم وقال لهم إني رجل طيب وابن حلال ... لشدّ ما هو واهم في ذلك . . . أيحسبني كما عرفني من قبل ؟ !

وأردت أن أضحك ، لكن هيئة صديقي وما أخذ نفسه به من جد لم يدع لي فرصة للضحك ، ونظرت إليه فكأنما استحال حقاً إلى مدير يبرق ويرعد ، ويهدد ويتوعد ، وتوقف عن الكلام ، ونظر إلى الأفق نظرة طويلة ، ثم التفت إليّ وقال :

– حين أذهب إلى هناك سأفعل الشيء الكثير ! سوف يعلم الناس أن تكيتي لا كالتكايا !! سأغير من أماكن الموظفين قبل كل شيء ليشعروا أنهم تحركوا ! أظن أنه

يكفى فى ذلك أمر إدارى . . . أليس كذلك ؟

ثم نظر إلىّ وابتسم وقال :

ـــ أصحيح أنى سأصدر أمراً إدارياً ؟ ! هذا شىء غريب علىّ حقاً ! ولكن لا بد من ذلك لأن مسئولية الرئاسة تقتضى أكثر من هذا . . . لا خجل بعد اليوم ولا حياء ، ولا شفقة ولا هوادة ، ولا لين ولا ضعف ، لا بد من حزم وعزم ، وإرادة نافذة وأعصاب من حديد ، وإلا فكيف ألقى الهيبة فى النفوس ، وكيف يسير العمل منتظماً دقيقاً كالساعة . . .

فضحكت وقلت :

ـــ كساعة جامعة فؤاد الأول ! !

فابتسم وقال :

ـــ أخشى أن أسمع دقاتها هناك ! !

واستطرد قائلاً :

ـــ ليس لدى فكرة واضحة عن نوع العمل هناك . . . ولكنى سأنظر من جديد فى توزيع العمل ، وأقسمه تقسيما جديداً ، تقسيما يتفق مع عهدى الجديد ، عهد الإصلاح والمسئولية !

فلم أتمالك نفسى من الضحك ، وقلت حين سمعت ذلك :

— وتقول إنك لم تمرن على الرئاسة من قبل ؟! أىّ موظف قديم تحت جلدك ؟ ! كنت إلى الأمس كرضوان . .

فقاطعنى قائلا :

— واليوم أنا شيطان . . . أى شيطان !

قلت :

— ولكن الشياطين لا تذهب بالقرب من بيت الله . . . أنسيت ذلك ؟

فوجم طويلاً وقال :

— كلا لم أنس ذلك ، ولكن تقوى الله شىء ، ونظام التكية شىء آخر . . . أرجوك يا صديقى ! لا تفسد علىّ مشروعاتى . . .

وضحك ضحكة ساخرة من ضحكاته القديمة العابثة ، وقال :

— لا شك أنه سيكون لى سعاة ، ساعٍ أو ساعيان ، وربما أكثر من ذلك . . .

قلت :

ـ عفواً يا صاحب السعادة ، وماذا تصنع بالسعاة هناك ؟

ـ يجلسون أمام باب حجرتي . . .

ـ ولماذا ؟

ـ لأني مدير ، ولأن المدير لا بد أن يجلس أمام باب حجرته ساع أو سعاة . . .

ـ ولكن العمل هناك لن يحتاج إلى ذلك . . .

ـ أي عمل ؟

ـ العمل في التكية . . .

ـ ومالي أنا وهذا . ومالي أنا وطبيعة العمل ؟ ! أي أستاذ أبله أنت ؟ أنا يا حضرة الأستاذ الجامعي المحترم مدير ، مدير قبل كل شيء ، والمدير كما جرت العادة وكما يقتضيه النظام الحكومي لا بد أن يكون له بعض السعاة ، سواء كان في حاجة إليهم أم في غير حاجة ، وقد ترى على باب بعضهم من السعاة من على ذراع بعضهم شريط ذهبي واحد ، وترى من له شريطان ، ومن له أكثر من ذلك . وماذا أنت قائل إذن إذا عرفت أني سأكون في حاجة إلى سيارة حكومية ؟

ـ وبماذا تبرر طلبها ؟

— لن تعزنى الأسباب وسترى . . . سيارة وسعاة ، وحقيبة حكومية ضخمة بها الأوراق . هذه الأشياء من مستلزمات الرئاسة وطبيعة الوظيفة . . . وهل نسيت أنه يجب أن نظهر بالمظهر اللائق هناك ؟ !

قلت وقد بدأت أغتاظ :

— أكل هذا فى تكية ؟ !

ويظهر أن كلمتى هذه كانت قاسية ، فقد رأيته يبتلع ريقه، ويغمغم ويدير فى نفسه همًّا تحتلج به شفتاه ، وعاد فنظر إلىّ نظرة سخط وتحدٍّ وقال :

— ماذا تقول ؟ أعدت لتقول تكية ؟ ! من قال لك إننى سأبقى على هذا الاسم ؟ ألا زلت تسميها تكية ؟ لا شك أنى سأغير هذا الاسم القديم البالى الذى يوحى بمعانى كثيرة . . . كل شىء قابل للتغيير يا صديقى، فلا علىّ إذا غيرته إلى اسم من هذه الأسماء المستحدثة، وهى والحمد لله كثير . . . لقد اقترح على أستاذى بعضها وإن كان تحت حديثه سخرية . . . كل ما فى الأمر أنى لم أنته بعد إلى الاسم الذى سأقترحه على الوزارة . . لقد فكرت فى هذا كثيراً ،

وطالما سألت نفسى : بماذا ينبغى أن تسميها ؟ دار البر ؟ اسم لا بأس به وإن كان متواضعاً بعض الشى ، وأكون أنا مدير دار البر . . . ! لا لا ، فهذا ليس شيئاً . أسميها إذن المعهد الخيرى المصرى بالحجاز . . . اسم أضخم وعنوان أفخم ، وهو أقرب إلى الصيغ الحكومية والأسماء الأميرية . . . ! ولكن خير منه أن تسمّى : « المعهد الخيرى المصرى بالمملكة السعودية » وأصبح أنا « مدير المعهد الخيرى المصرى بالمملكة السعودية . . . » فأنت ترى يا صديقى أن لفظة « تكية » وما تحمل فى طياتها من إيحاء يشعر بالذى تعرفه ستموت مع الزمن إذا أطلق عليها اسم من هذه الأسماء . . . ومَن يدرى؟ فقد يصبح عما قريب مصلحة من المصالح . . . نعم مصلحة الشؤون الخيرية مثلاً !

وهزّ رأسه كأنما يتحدث جاداً ، وقال :

— ولم لا ؟ إذا اتسع اختصاصها وزادت ميزانيتها فإنى زعيم لك أننى ساصل بها لتكون مصلحة . . .

قلت وقد أردت أن أعيده لصوابه ، أو على الأقل أذكّره بأن الموضوع لا يزال فيه جانب من المزاح :

ـ ما أظن الناس سينسون كلمة « التكية » أو يسقطونها من وعيهم مهما غيرت من اسمها واختصاصها وميزانيتها . . .

فقاطعني محتدًّا وقال :

ـ الناس . . . الناس . . . أنت دائماً تقول الناس ! مالى أنا والناس ؟ قلت لك إنما أنا مدير ، والأمر فى هذا بينى وبين الوزارة ، فإذا وافقت الوزارة على تغيير الاسم فسيكون لى لقب يكتب تحت اسمى فى سطر طويل مكون من . . .

قلت :

ـ من ستة ألفاظ على الأقل ، ولا شك أنك حين تخرج إلى المعاش ستضيف إليه « سابقاً » . . . ما شاء الله !

ولكنه هز رأسه ولم يحر جواباً ، وبدا أنه ممتعض منى بعض الشى .

والحق أننى وجدتنى أصبحت أميل إلى لذعه بمثل هذه السخرية ولا أدرى لماذا ، فلعلنى كنت أخذت أشفق عليه من هذا اللون من الحياة الذى هو صائر إليه وآخذ نفسه به ، وبدأت أحاول أن أثنيه عن هذه الوظيفة ،

فقد حسبت أن الأمر فى بدئه لا يعدو أن يكون تغييراً لمدة قصيرة يعود بعدها صديقى إلى كليته ليستأنف حياته العلمية بيننا ، فإذا هو يريد أن يحيل تلك الصور إلى حقائق وإلى عمل ، وإذا هو جاد فى هذا كل الجد ، وبالغ فيه إلى هذا الحد ! وشر ما فجعنى فيه أن هذه الوظيفة بدأت تسلبه ضحكه وسخريته وعبثه الفنى الطلق ، وتريد أن تستبد به وتحيله إلى هذه الصورة ، صورة المدير الإدارى الذى ينشد المظاهر ويغالط نفسه من أجل الحصول على الألقاب . . .

ومع ذلك فلم تثنه سخريتى فقد ظل متشبثاً برئاسته المنتظرة وسيطرته المرتقبة ، وتركته وأنا أدعو الله أن يزيح عن نفس صديقى هذه الغمة ، وينجيه من هذا البلاء !

التحول

لقد حدث ما كنت أخشاه وبدأت نفس صديقى تتلف . . . !

لقيته بعد ذلك كأنه كان مستمرًّا فى آخر حديث كان بيننا . . . هذا الحديث الذى كان عن نظام التكية وموظفيها . . قال :

— أتظن أنى سأسكت ؟ بعد أن آخذ موافقة على تغيير الاسم ستجدّ أمور وأصل إلى أشياء ! ثم توقف قليلا وهز رأسه وقال :

— لا أدرى هل تغيير اسم التكية يجب أن يكون بقرار من الوزير أو من مجلس الوزراء ؟ على كل حال سيتغير الاسم عاجلاً أو آجلاً لأن اختصاصات التكية ستتغير وعملها سيتسع . . .

وهنا ابتسمت ، فاغتاظ وعاد يقول لى :

— إنك يا حضرة الأستاذ كما قلت لك غشم حكومة

أو غمر إدارة . . . فإذا حدث وأصبحت يوماً من الأيام مدير تكية مثلى ، أقصد مدير مصلحة الشئون الخيرية ، فيجب أن تعدّ لهذا المنصب الخطير خير إعداد كما تعد لدرسك تماماً . . . إذا كنت مديراً مثلى ففكر أول ما تفكر فى تكبير مصلحتك أو إدارتك بتفريعها إلى أفرع كثيرة وأقسام متعددة ، وأكثر من الأسماء ، وفخم من الألقاب ؛ ووزع الاختصاصات ، والألقاب فاجعل بينها انسجاما ، والدرجات فاجعلها كالسلّم ، وإن استطعت فليكن كسلم المطافئ ! وأخيراً ستجد وزارة المالية نفسها أمام الأمر الواقع ، ستجد أنها أمام مصلحة كبيرة خطيرة لها هذه الألقاب الفخمة والميزانية الضخمة . . . أفهمت ؟ ! إن هم وزارة المالية كما عرفت لا يتعدى الرجاء لهذه المصلحة أو تلك ألا تغلو فيما تطلب من اعتماد لأن الميزانية مرهقة . . .

وربما كان أهم من ذلك اللجنة المالية . . . أتعرف اللجنة المالية بمجلس النواب ؟ فلا تنسى أن تعدّ للأمر عدته من هذه الناحية ، لأن هذه اللجنة قد تشك فيما تقول ، وتتهمك بالإسراف والمبالغة ، وترى أن مصلحتك لا تعدو أن تكون

تكية من التكايا . . . وأنصحك لوجه الله لا تنتظر حتى يتسرب الشك إلى نفوس أعضائها المحترمين فيبطشون بميزانتيك بطشة تأتى على تكيتك ! فحاول أن تخلق الأسباب وتوجد المبررات ، وانفخ فيها من روحك حتى ينقطع نفسك ، وأظهرهم على ما تقوم به مصلحتك من جلائل الأعمال وجسيمات المهام ، وكن فى هذا كيّساً لبقاً . . . أفهمت ؟ !

وعجبت فما الذى أوحى لصديقى بهذا كله ، وكيف تغير إلى هذا الحد ، وقلت له :

ـ أأنت الذى تقول هذا حقًّا ؟ أنت الذى لم تكن تعرف إلى الأمس القريب كيف تملأ استمارة ؟ !

قال :

ـ نعم أنا ذاك ! أنا ذاهب إلى هذه التكية المجهولة . . . إلى هذا المطبخ الكبير . . . إلى هذه الوظيفة الحقيرة . . . سترى أنى سأصنع من هذه التكية مصلحة من المصالح الحكومية الخطيرة الشأن . . سأكتب التقرير تلو التقرير ، وأوسط من أستطيع أن أوسط ، وسأكذب على نفسى وعلى الدولة ، بل سأكذب على الله حين أخلق الأسباب المبررة

التى تؤدى إلى تكبير التكية وتوسيعها . . . سأنشئ فيها إدارات كثيرة مختلفة ، حتى تنتهى إن شاء الله لتكون كما قلت لك .

قلت وقد بلغ بى الغيظ نهايته :

ــ أى إدارات وأى اختصاصات ؟ أكل هذا فى تكية أم جننت يا صديقى ؟ فلم يعبأ بقولى هذا ومضى يقول :

ــ نعم سيكون ذلك كله فى تكية ، وسترى يا حضرة الأستاذ المحترم . . . سيكون هناك أرشيف وإدارة مستخدمين وحسابات إلى آخره . . . وكل إدارة من هذه الإدارات سيكون لها أقسام ، وكل قسم من هذه الأقسام سيتفرع إلى فروع ، وكل فرع إلى أقلام . . . أتضحك ؟ ! ولكن صدق أو لا تصدق ، فقد يظهر أن أساتذة الجامعة كلهم مثلك . . .

ــ كلهم ماذا ؟

ــ مثلك !

ــ ماذا تقصد ؟ !

ــ ألستم تحيون على الألقاب والدرجات . . ؟ ولكن

ما علينا من هذا فلم أعد فى الجامعة، وإنما أنا مدير تكية . . .

وأطبق صديقى عينيه ، وغاب عنى فترة لا أدرى أين ذهب بنفسه فيها ، وعاد فنظر إلى يسألنى : فيم كنا نتحدث ؟

قلت :

— كنت تنشىء الإدارات ، وتنسق الدرجات ، وتؤقلم الأقلام ، وترقم الأرقام . . .

قال :

— حسبك . . . نعم نعم ! أرشيف . . . مستخدمين . . . حسابات . . . توريدات . . . لا بد من حركة . . . لا بد من دورة .. لا بد من ذلك كله فى التكية، وإلا ما كان لنا هذه الصبغة الحكومية . . !

وهنا التمعت عيناه ، وأشرق ثغره ، وابتسم ابتسامة عريضة فيها شىء من الخبث ، وطلب أن تعدّ لنا قهوة ، وقام يمشى فى الغرفة ، وعاد إلى مكانه بحركة آلية غريبة ، ثم أخذ يتحدث وكأنما كان يحدث نفسه دون أن ينظر إلىّ ، فسمعته يقول :

— الأموال المعـلاة ! ! أمانات . . . مصروفات منظورة ومصروفات غير منظورة ! تجاوز البنود . . . مشروع

الميزانية . . . جميل جميل . ! لقد عرفت كل شيء وحذقت الصنعة . . . إدارة التوريدات . . . لا شك أننا سنطبخ طعاماً كثيراً كل يوم . . !

وهنا أخذ يضحك كالمعتوه، وصفق بيديه يطلب القهوة، ثم استأنف الحديث لنفسه وهو يضحك ويهز رأسه ويقول :

— نعم نعم ! إدارة المطابخ . . . مدير إدارة المطابخ . . . والمتعهدين وعطاءاتهم . . ! جميل جميل !

خلا لك الجو فبيضي واصفري
ونقّري ما شئت أن تنقري !

ثم أخذ صديقي يردد هذا الشعر مسروراً به، تارة يوقعه غناء، وتارة أخرى صفيراً ، وثالثة همهمة ، ورابعة غمغمة ، ثم سكت وكأني لا زلت أسمع نفسه تغمغم وتهمهم ، ثم التفت إليّ وقال جاداً :

— ليس لدي فكرة واضحة كل الوضوح عن إدارة التوريدات تلك . . ولكني أعلم أنها لرصد المبيعات . . أردت أن أقول المشتروات، فنحن نشتري هناك ولا نبيع ! ولا بد أن نشتري بفواتير . . . جميلة جداً هذه الفواتير !

ولا شك أننا سنضطر لعمل عطاءات ومناقصات تمشياً مع القانون المالى. . . حسن جداً ، فلا بد من العطاءات ، ولا بد من فض المظروفات ! ! سيكون رئيس إدارة التوريدات عندى فى الدرجة الثالثة على الأقل ، وإذا جاء التنميق وهو تنسيق التنسيق وملحق التيسير ، فقد تحول هذه الدرجة تحولا تلقائيًّا إلى الثانية . . . على كل حال سيوضع مؤقتاً على الثالثة . . .

وهنا أخذ صديقى يتشمم بأنفه لا أدرى ماذا ، ثم قال :

– لا أعلم أين تقع إدارة المطابخ فى التكية ، ولكنى سوف أجعلها بعيدة عن إدارة التوريدات، فلا ينبغى أن يشم كتبة الحساب رائحة الشواء ! ! أليست فكرة مبتكرة ؟ !

قلت وقد فاض بى ، وأردت أن أذكره بأنه ما زال يمزح :

– ألم أقل لك إنك أصبحت موظفاً قديماً من أخمص قدمك إلى القطب الشمالى من صلعتك ؟ !

لكنه لم يهتز ولم يضحك ، وهو الذى كان يلقف النادرة

ويتبعها بأحسن منها . . بل ظل يتحدث عن مشروع الميزانية الذى سيقدمه ، ويحدثنى عن الدرجات التى استطاع أن يحصل عليها هذا العام ، وكيف استطاع أن يقنع وزارة الأوقاف ووزارة المالية ، وأخبرنى متأسفاً أنه اضطر لرفع درجته إلى درجة مدير عام حرف « ا » لأنه برفعه من منصب المدير — بصرف النظر عن شخصه — إنما يرفع من المصلحة كلها . . .

كان صديقى يحدثنى بهذا على حين كنت أحدث نفسى أنا الآخر فأسأل : أهذا جد أم هزل ؟ ! كأنى أصبحت أنا الآخر أقول إنه جد كلّ الجد ! فقد يظهر أن صديقى أمعن فى العبث بى حين كان يعبث بنفسه ، حتى أحالنى إلى مصدق يرى أن ما يقوله شىء طبيعى معقول !

رجل الأعمال

ما زال صديقي يتحوّل ويتحول، على حين كان ورق تعيينه لا يزال رهن إمضاء الوزير ، ما زال صديقي قريباً من النار المشبوبة المتوهجة يغذيها بكل ما تقع عليه يده من حطب ، حتى همّ أن يلقى فيها بنفسه لتظل مشبوبة متوهجة يأخذه أو يأخذ من حوله من أهله وبنيه ضوؤها ، ويدفئه أو يدفئ أهله وبنيه سعيرها ! والعجيب أنه كان يرتعد رعدة المقرور وهو يتصبب عرقاً ، ويخشى هذه النار ولكنه يمد يديه نحوها ! !

لم يكتف بما وصل إليه من مركز ممتاز إذ أصبح كما زعم لنفسه فى هذه الدرجة الحكومية العالية ، ولم يكتف بما سيتيح له هذا المركز من غنى ووفر خطّ طريقة فى ضميره حين أقام إدارة التوريدات وحلم حلم العطاءات . . .

زرته فوجدته تلك الليلة فى صورة أخرى كان طبيعياً أن ينتهى إليها ، فقد بدا لى كأنه رجل من رجال الأعمال

الحكوميين ! أعنى هؤلاء الموظفين الكبار الذين يشتركون فى تأليف الشركات ويستثمرون الأموال وهم فى مراكزهم الحكومية يستغلونها لهذا . . .

نعم فقد ظل تلك الليلة يحدثنى عن مشروعاته التجارية بالحجاز حديث الخبير العارف ببواطن الأمور ، حدثنى عن شركات سينشئها وكيف سيستغل النفوذ ويلعب بالناس ، ولولا أنه طلب إلىّ ألا أذيع سره من أجل مركزه لذكرت ما حدثنى به . . . ولو قدّر له هذا الذى يرسمه لنفسه لكان أغنى رجل ، ولرأى الناس موسم الحج على صورة لم يشهدوا مثلها !

يا لله ! فلقد أصبح رأس صديقى بنكاً من البنوك ، هذا الرأس الذى ظل لا يعرف الأرقام طول حياته ، تحوّل الآن إلى شركة من الشركات بعد أن كان لا يعلق به إلا الأوهام المعنويات . . . تحولت أحلام الشاعر إلى واقعية التاجر ، وتحول ضمير الفنان إلى حجر من صوّان !

كان يحدثنى وهو مقطّب قليلا ، وكان كلامه مركزاً أكثره بالأرقام ، كل كلمة منه كأنها رقم يكتبه على شيك !

ونظرت فإذا بى كأنى أتحدث إلى رجل غنى عريض الغنى صاحب شركات ضخمة . . . لكن الذى أخافنى منه حقاً هو هذا الظلام فى نفسه والالتواء فى ضميره ، ظلام يقربه من الجريمة ، والتواء كان خليقاً أن ينفرنى منه فلا ألتقى به بعد ذلك . فلقد أخبرنى أن هناك أموالاً كثيرة يسلمها بعض الحجاج الأغنياء لناظر التكية ليوزعها بمعرفته على المستحقين . . . قلت حين سمعت هذا :

— أموال كثيرة فى يديك توزعها على من شئت دون أن يكون عليك رقيب ؟ !

قال :

— نعم نعم ، عدة مئات من الجنيهات كل عام آخذها سراً وأنفقها سرًّا ، لا أسال فى هذا ولا أحاسب . . . أفهمت ؟ أوعيت ؟ فلوس كثيرة آخذها من بعض الأغنياء الحاجين لبيت الله . . . هناك فى حجرة من حجرات التكية الوثيرة الأثاث يجلس معى هذا المهراجا أو ذاك مثلا نشرب الشاى ونتحدث ، ثم يعطينى كيساً مملوءاً بالروبيات الفضية لتكون حسنة مستورة ، فآخذها منه وأسلم عليه ، ثم أخلو إلى نفسى

وأفتح الكيس ، وأستجلى ضوء الفضة الذى هو أجمل من لون الفجر ! أفهمت ؟ نعم أخلو إلى نفسى ، وأغفو إغفاءة قد تكون حلماً جميلا ، وقد تكون رؤيا مفزعة أهد فيها نفسى هداً عنيفاً قاسياً لأقيم من أنقاضها عمارة مثل عمارة إيموبليا ! ! وأخيراً أجلس إلى مكتبى وأمد يدى ببطء وتثاقل لأضرب الجرس كى آمر الحسابات لترصد هذا المبلغ أو بعضه فتعليه على الإيرادات . . . قلت وقد أفزعنى منه هذا الذى يقول :

ـ تقول هذا المبلغ أو بعضه . . ؟ !

قال :

ـ نعم فماذا فى هذا ؟ أليست لدينا مصروفات غير منظورة ؟

وقطع صديقى حديثه وصار ينظر إلى الأفق ويبتسم ، وعاد فنظر إلى وقال :

ـ لقد تخففت من هذه المخطوطات التى كنت أحققها ، وهذه الكتب التى دفنت نفسى حياً بينها ! سأستعيض عن هذا كله بدفتر صغير واحد . . . قلت :

ـ هو دفتر الشيكات بالطبع !

انتهى صديقى إلى فلسفة مادية قاسية كانت موشكة أن تفرخ فى نفسه بعد أن باضت هذا البيض الذى يشبه بيض الأفاعى . . . خفافيش سود عليها غلائل من ذهب تهرب من الضوء فلا تهتدى إلى أوكارها ، فتضرب بأجنحتها على هذا القلب المسكين فيهفو ويصفق ! ! أإلى هذا الحد يتحول رضوان إلى شيطان ؟! أين هذا الصديق من نفسه التى كنت أعرفها . . . ؟ لقد كان يصرخ فى وجهى ويقول :

— انتهت يا صديقى هذه المثالية ، وشبعت هذه الحياة الخيالية... مالى والشعراء الذين ماتوا ومالى ولأشعارهم . . . مالى ولهذه المعانى التى نسجوها من أوهامهم ، وهذه الرؤى التى صنعوها من أحلامهم ؟ ! أى حماقة أخذت نفسى بها سنوات طويلة حتى تقضى الشباب وكدت أدلف إلى الشيخوخة ؟ ! ومالى وللناس أظل أنسل إلى نفوسهم وأقرأ ما فى وجوههم لأرسم فيها صوراً لا تفيدنى شيئاً ؟! مالى وما فيها من دلالات وما هم عليه من حمق وغفلة ؟ ! وجوه الناس وصورهم أصبحت عندى أرقاماً بعضه أمامه صفر ، وبعضه

صفران، وبعضه أكثر من ذلك ، وبعضهم أيضاً ليس فيه إلا أنفه الذى لا يساوى شيئاً ! !

أما هذه الفتاة السكرى التى حسبتها تقدر الشعر وترق للغناء فوقفت أمام شرفتهاوهتفت، فنزلت فصنعت بى أمام الناس ما صنعت ، فسوف يكون لى معها بعد اليوم شأن آخر ! لن تصفعنى بعد اليوم ، ولن تسخر منى هذه السخرية التى أثارت ضحك المشاهدين، وجعلت الزملاء يبتسمون ويشفقون ! لا دموع بعد اليوم ولا أشعار ، ولا نجوى ولا استرحام ، إنما هو نفير السيارة الفخمة فإذا فتاتى بجانبى وإذا الدنيا كلها فى يمينى . . . أسمعت أيها الأستاذ الجامعى الأحمق ؟ !

ووجم صديقى وجوماً كأنما كان يغالب نفسه ليطرد منها آخر بقية من ضميره النقى وشاعريته الحالمة ، ثم انتفض كأنما تذكر شيئاً ، وقال لى :

— آه لو رأيتنى وأنا بشارع الموسكى ومعى زوجى وأولادى الخمسة ؟ ! لوحة والله من هذه اللوحات التى تثير الإشفاق وتبعث على الأسى . . . فى معرض قديم مترب ! !

كم من الدكاكين دخلناها ، وكم من الدكاكين خرجنا منها ، بين كتل من الناس كانت تدفعنا هنا وتدفعنا هناك، وأنا موزع النفس ، زائغ العينين، مضطرم القلب! مساومات لا تنتهي، وحرب باردة ثقيلة بيننا وبين زبانية الموسكي . . . مسكينة زوجتي! فليس في يدها إلا القليل من المال وتريد مع ذلك أن تشتري للأولاد كل شيء . . . نعم كل شيء! وعدنا آخر النهار وقد اختلطت الأشياء كلها في ناظري . . . وكانت الشمس موشكة على الغروب ، ولو رأيت أولادي وهم يحملون بعض أمانيهم في أيديهم لأشفقت علينا، واستوقفتنا مع ذلك لتتملى منا ! أرأيت بائع الأوز الذي يسير وأمامه أوزه على رصيف الشارع ؟ ! حقاً إن هؤلاء الموظفين قوم مساكين !

لا لا يا سيدي! فإن الست هانم بعد ذلك ستكون في سيارتها الفخمة الأنيقة ، وسيقابلها مدير الصالون الأخضر أو الأحمر أو الأبيض لا أدري ، سيقابلها المدير وهي لم تكد تنزل من باب سيارتها فيحني لها رأسه احتراماً وإجلالا ، فتومئ له إيماءة قصيرة أو هي لا تلفت له ، وإنما ذهبت لتختار

لا لتشترى ، وليس من الضرورى أن تخبرنى أنها اشترت بمائةجنيه مثلاً ، فسيقدم لى وكيل أعمالى فيما يقدم من أوراق فاتورة من الفواتير فأمضيها دون أن أحقق فيها وفى فى سيجار من سيجار هافانا ! لعنة الله على دكاكين الموسكى والمتسكعين بينها ، ولعنة الله علىّ وعلى أهلى إذا أنا بقيت على تلك الحال من الفاقة والحرمان . . ! لا بد أن تتحول هذه الحياة التى أحياها عن طريقها القديم المألوف ! أسمعت ؟ !

يا لهذا الصديق المسكين والشاعر الحائر الذى ذهب يوماً يشيع شاعراً فإذا هو قد ذهب فى الحقيقة يشيع مثله العالية، ويهبط من عالم المعانى والخيال إلى عالم الوظائف والمال !

أيستطيع صديقى حقًا أن يفعل هذا كله ؟ أيستطيع أن يكون له هذا القلب الذى لا يخفق إلا بالأرقام . . . أيستطيع ألا يرى الناس إلا أرقاماً يضيفها إلى رصيده ، فمن أفاده بشىء ضمّه إلى حسابه ومن لم يفده أسقطه من حسابه . . ؟! لكن السؤال الذى هلعت له نفسى وكلما نفيته عنى عدت فرددته : أيستطيع صديقى أن يسرق ؟ هذا الإنسان الكريم

العفّ اليد النقيّ الضمير الذى يزهد فيما يملك، أيستطيع حقاً أن يسرق ؟ !

لكنه يبدو جاداً فيما اعتزم وقد بدأ بالفعل يتغير . . .

ونظر إلى ساعته وقال :

ـ إننى أعدّ ما بقى لى من هذه الحياة التى أحياها . . . أعدّه بالدقائق فمتى يضع وزير الأوقاف حداً لهذا العناء الذى أنا فيه، فيمضى الورق وأمضى أنا لتكيتى ! هناك حيث تبدأ حياتى الجديدة ، حياة الجنة والسعير ، حيث تتلاقى الظلال الرطبة والنار الملتهبة ! ! نعم هناك حيث يستشعر المرء برد الراحة فى وهج القيظ ، ويتنسم نسمات الحياة من رمضاء الصحراء ! !

نعم هناك حيث ينبئ دخان التكية عن شواء تشمه الأنوف ويتحلب له ريق بعض الجائعين ! فليس على الجائع من حرج إذا هو تعجل النار ! ! أسمعت يا صديقى ؟ !

طريق جديدة

ما كاد يرانى حتى نهض واقفاً لاستقبالى والحفاوة بى؛ كأنما يرانى بعد غيبة طويلة ، فعرفت أن حديث التكية على طرف لسانه ، وما كدت آخذ مكانى حتى ابتدرنى قائلا :

ـ أرأيت ! لقد عادت الفتاة السكرى تعبث بصاحبها ؟ !

قلت :

ـ أصحيح ؟ فماذا وضعت على رأسك هذه المرة ؟

فابتسم صديقى وقال :

ـ عادت لتضع القبعة والبيبة بعد أن نزعت العقال . . . !

ـ فأنت إذن ذاهب إلى لندن . . .

ـ نعم فقد وصلنى بالأمس خطاب من العميد هناك يقول إنهم يرحبون بتعيينى بعقد لمدة ثلاث سنوات . .

ـ والتكية ؟ !

ـ عفاء عليها . . .

ـ وإذن فقد انتهت قصة التكية . . .

ـ نعم وبدأت قصة لندن . .

وسكتنا ، وأخذ هو ينظر إلى أفقه الجميل فوق النيل ، وأخذت أنا أتامل فى مصير هذا الصديق الذى ضاق بعيشه فى الجامعة فاندفع إلى الحجاز ، ثم اندفع إلى لندن ، وهو مع ذلك جالس لا يريم يتصور ويصور ، ويتخيل ويخال ، ويقيم حياته ويقعدها من صور يراها . . .

قلت :

ـ وهل أنت سعيد بالسفر إلى لندن ؟

فهز رأسه وقال :

ـ رحم الله أبا تمام حيث يقول :

فغرّبت حتى لم أجد ذكر مشرق ... وشرّقتُ حتى قد نسيت المغاربا

خطوب إذا لاقيتهن رددننى ... جريحاً كأنى قد لقيت الكتائبا

ومن لم يسلّم للنوائب أصبحت ... خلائقه طراً عليه نوائبا

إى والله !

ومن لم يسلم للنوائب أصبحت ... خلائقه طراً عليه نوائبا

قلت :

ـ على كل حال فهذه أمنية لك كنت تتمناها ، ولقد تحققت . . . فاجعل منها صوراً مشرقة . . .

قال :

ـ ليتنى لا أتصو رشيئاً هنا أو هناك . . ! فهل تصدق أننى ما كدت أقرأ خطاب لندن حتى أخذت أرسم لنفسى صوراً من الحياة هناك ؟ صوراً من حياتى الجامعية ، وصوراً من حياتى المنزلية الإنجليزية . . .

ثم أخذ يضحك ويقول : الـ Home Life ! أسمعت ؟ لقد استحال « السمبوار » فى الحال إلى مدفئة تتوهج بالنار أيضاً . . . رأيت نفسى جالساً على مخدع يغوص فيه الجالس عليه ، أنظر إلى الفحم المتوقد وكان فى يدى كتاب وعلى المائدة بجوارى شراب . . .

قلت :

ـ والقطة الفارسية الجميلة ، قطة التكية !

ـ استحالت إلى « بول دج » عجوز !

ـ ورضوان ؟

ـ أصبح فى زى جنتلمان !

وصرنا نتضاحك ونقابل صور الحياة فى التكية بالحياة فى لندن ، وسألته عن حقيقة شعوره ، فأخبرنى أنه سعيد بذهابه إلى إنجلترا لولا موقف زوجته منه .

قلت :

— كنت أحسبها هى الأخرى سعيدة بالذهاب إلى لندن .

قال :

— كلا فى الحقيقة ، فما كدت أقرأ الخطاب وأخبرها الخبر حتى رأيت وجهها قد تجهم قليلا ، ولكنها حاولت أن تخفى عنى ما فى نفسها فتماسكت وهنأتنى ، ولكن كان على شفتيها خلجة تنبئ عن كل شىء . . .

— ولماذا تبتئس والعيش فى لندن يتمناه كل إنسان . . ؟!

— سلها فى ذلك ، فمنذ أمس وأنا أغتصب ابتسامتها فتبتسم ابتسامة المجامل . . . لشدّ ما كانت سعيدة بالتكية ! علىّ فى هذه المرة أن أحملها بيدى إلى لندن كما كانت تحملنى على الحجاز . . . لكم جاهدت أن تغرينى بالتكية فعلىّ أن أجاهد لأغريها بلندن !

ــ وهل تقوى أنت على ذلك . . .

ــ سأقوى إن شاء الله . . .

وساد بيننا صمت ، وكنت أسأل نفسى ما عسى أن يكون سبب ضيق زوجة صديقى بالحياة فى إنجلترا وهى التى عرفتها فكنت دائماً أعجب بذكائها وبعد نظرها وإخلاصها لزوجها . . وكان صديقى يشكو لى بعض تعنتها وصلابتها وخاصةً فى مشكلة التكية تلك ، فكنت أقول له : دعها فهى بعيدة النظر ، ولا شك أنها تعرف بفطرتها ما وراء ذلك من خير ! فكان يقول لى : نعم هى بعيدة النظر ، وأستاذى أيضاً بعيد النظر ، وأنت كذلك بعيد النظر ، أما شيخ التكية فهو وحده الأبله ! ليتكم ترون قطع نفسى وهى تتناثر على وسادتى فى حلكة الليل !

ثم عدنا إلى الصمت ، وقدرت أنها لا بد ستلقانى اليوم ، فلقد كانت تلقانى فى كثير من الأحيان وتشترك فى بعض أحاديثنا ، وحين نبدأ بعض التندر والعبث تستأذن وتتركنا .

وما لبثت أن أقبلت فابتسمت كعادتها وحيت ، ولكنها ابتسامة مغتصبة ، وتحية متخاذلة ، وأخذت مكانها بيننا ،

وقدمت الشاى لنا ، وكأنا جميعاً ننتظر حديثاً بعينه . . .
أخيراً قلت لها :

ـــ مبروك !

ـــ شكراً . . . هل أخبرك ؟ لا شك أنه أخبرك بمجرد وصولك . . .

ثم سكتت ، وأخذت أغريها بالكلام ، وأطرى لها الحياة الجديدة التى تنتظرها بلندن ، وهى تؤمن على كلامى لمجرد مجاملتى . . . أخيراً قلت :

ـــ أرى فى الأمر شيئاً ، فماذا هناك ؟ أم ليس من حقى التدخل ؟

فقال صديقى :

ـــ انظر كيف تشقى هى بما أسعد به ، وتسعد بما أشقى به ! تريدنى شيخاً للتكية بمكة ولا تريدنى أستاذاً بجامعة لندن ! ! أرأيت ؟

قلت :

ـــ قد يكون لها بعض العذر فى ذلك فهوّن عليك !

ونفخ صديقى دخان سيجارته بحنق واضطراب ، ونظر

إليها شزراً وقال ثائراً : إنه مستقبلى أنا ، وحياتى أنا ، ولن أدع غيرى بعد اليوم يتحكم فى أمرى ! ألا لعنة الله علىّ إذا أنا ضعفت بعد ذلك أو ترددت .

ونظرت إليها فإذا دموع تنحدر من عينيها ، فأحسست بحرج الموقف وقلت له :

ـ ماذا ؟ انظر إنّ السيدة تبكى !

فانتفض ونهض من فوره وأخذ يربت بيده عليها ، ويمسح على رأسها ، ويعتذر لها ويقبل جبينها ويسترحمها . . .

يا لهذا الصديق المسكين ! ، فطره الله ليّن الجانب ، كريم النفس ! نقى الضمير فأحس الشقاء من ذلك ، فأراد أن يكون قاسى القلب ، فظ الطبع ملوث الضمير ، فتخيل ذلك بخياله ولكنه أسقط فى يده عند أول تجربة !!

وانفرجت شفتاها عن ابتسامة هادئة حزينة ، وقالت فى صوت خافت :

ـ أنا خائفة من الذهاب إلى لندن .

وكأنه كان يُعرف سبب خوفها وما تحت قولها هذا ، وكأنى أنا أيضاً بدأت أتعرف السبب ، فاستوضحتها ، فقالت

وهى تنظر إليه :

ـــ إن قلبي يحدثنى أنه سينطلق هنالك من عقاله !

فاحتج عليها قائلا :

ـــ ألستُ زوجاً وأباً ؟

قالت :

ـــ نعم الزوج ونعم الأب ! غير أنك شاعر أيضاً !

فضحكت وقلت :

ـــ شاعر يتخيل ولا يفعل !

فعقّب بقوله :

ـــ أم كان يسرها عكس ذلك ؟ !

فأغضت برهةً ، ثم رفعت رأسها وقالت :

ـــ أنت دائماً تبحث عن صور . . . وهذا هو الذى أخشاه ! وأحسب أنه لولا أبوتك وما فيك من وفاء لما امتدت حياتنا معاً أكثر من خمسة عشر عاماً !

فنظر إليها وقال :

ـــ ولن تفارقنى أبوتى أبداً ، ولن أحيا بغير وفاء !

قالت :

ــ وإنما أخشى أن يكون العيش فى لندن نقطة تحول فى حياتنا . . . فإن رأيتنى مأخوذة أو ساهمة فاعذرنى فإن شيئاً خفياً يخيفنى . . .

وعادت ساهمة مطرقة تعبث بخاتم الخطبة فى إصبعها ، ثم قالت لى :

ــ لعله حدثك يوماً عن قصة زواجنا !

قلت :

ــ الذى عرفته أن الله أرسلكِ إليه رحمةً به . . .

ــ شكراً ولكن قل قبل ذلك إن الله أرسله إلىّ حلماً جميلا لحياة كانت خالية من الأحلام . . . إنه يحبنى ولكنه يرانى قيداً . . . إنه يحب الانطلاق ولا يصبر على عيش واحد . . . تلك فطرته ، وما حياتى معه إلا صراع بين واجبات الزوجية ونزوات الشاعر ، ولولا طيبته لفرّ من يدى . . . إنه لا يسعد إلا بالخيال . . .

قال :

ــ فما الفرق فى هذا بين جامعة لندن وتكية مكة ؟ أما كنت تخشين أن تكون التكية أيضاً نقطة تحول ؟

قالت :

ـ ما تخيلت العيش فى مكة إلا وامتلأت نفسى طمأنينة. . . كأن مكة لى ولك وحدنا . . . أما لندن . . .

فقال :

ـ لك علىّ أن أجعلك تشعرين أن لندن لنا وحدنا . . .

فقالت :

ـ إننى أشفق عليك وأعود باللوم على نفسى ، فما قدرت أن أملأ حياتك من كل نواحيها . . . وأى امرأة تستطيع أن تشبع نفس الشاعر إذا هى صارت يوماً من الأيام زوجة ؟ !

ثم سكتت ثم قالت :

ـ ومع ذلك فلننتظر إمضاء الوزير الآخر . . .

قلت :

ـ قد يبطئ هو الآخر حتى يمل صديقنا العيش بلندن كما مل العيش بالحجاز . . .

فانزعج وقال :

ـ فإلى أين أذهب بعد ذلك ؟

قلت :

ـ من يدرى ؟ فلعلك تعود مرة أخرى للتكية ؟ !

فنظر صديقى لزوجه وقال لها مسترحماً :

ـ أرجوك !

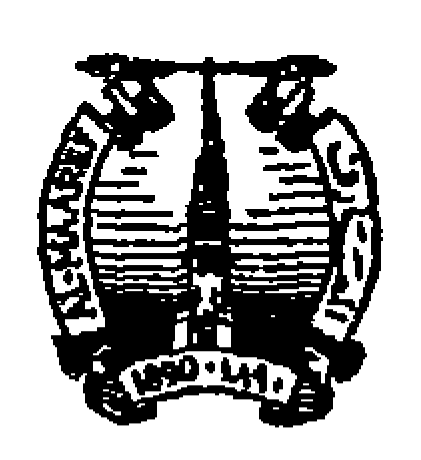
فضحكت وضحكنا وودعنهما عند بدء تلك الطريق الجديدة .

الكتاب

المجلة الشهرية التى تساعدك على
التزود من الثقافتين العربية والغربية

تصدر عن دار المعارف بمصر
رئيس التحرير: عادل الغضبان

ثمن النسخة ٦ قروش



دار المعارف

أسست بالقاهرة سنة ١٨٩٠

تقدم إلى القارئ فى مختلف مراحل حياته ومتباين درجات ثقافته كل ما يحتاج إليه فى تكوين مكتبة عربية فى منزله لتساعده على الاستزادة من الثقافة والطموح إلى حياة عقلية راقية .

●

المركز الرئيسى بالقاهرة : ٥ شارع مسبيرو تليفون ٤٩٨٦٨
فرع الفجالة بالقاهرة : ٧٠ شارع الفجالة تليفون ٤٩٨٦٦
فرع الإسكندرية : ٢ ميدان محمد على تليفون ٢٣٥٨٨
س. ت. ٥٢١٢١

١٩٥٠/٢٩٧٦

اقرأ

- عنوان هذه السلسلة خير ما يوجه إلى الأفراد والجماعات، بل هو خير ما وجه إلى الإنسان منذ عنصر إلى الآن.
- السلسلة الشهرية الوحيدة التي تعمل منذ أكثر من سبع سنوات على جعل الثقافة في متناول الجميع.
- نواة صالحة لإنشاء مكتبة زهيدة الثمن كبيرة الفائدة في كل منزل يستفيد منها الشباب والشيوخ على السواء.
- تصدرها دار المعارف بمصر في طباعة أنيقة بمعاونة حضرات الدكتور طه حسين بك والأستاذ عباس محمود العقاد والأستاذ فؤاد صروف

٦٠ ملاً في فلسطين وشرق الأردن — ٦٠ قرشاً في لبنان

٦٠ فلساً في العراق — ٦٠ قرشاً في سوريا

اقرأ

عباس محمود العقاد

فلاسفة الحكم في العصر الحديث

دار المعارف بمصر

فلاسفة الحكم
فى العصر الحديث

عباس محمود العقاد

فلاسفة الحكم في العصر الحديث

97

اقرأ

دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ٩٧ — ديسمبر سنة ١٩٥٠



مقدمة

هذه عجالة فى مذاهب الحكم التى تشيع فى القرن العشرين وقد صدق من قال : « لكل زمان دولة ورجال » ويصدق مثله من يقول إن لكل دولة مذهبا فى الحكم وفلاسفة يسجلون ذلك المذهب أو يروجونه ، ولعل هذه المذاهب دليل محسوس على خطأ الذين يقولون ببقاء نظام الحكم على حال واحدة لا يتبدل منها غير الأسماء والعناوين ، فإن التطور فى مهام الحكومة وفى نظر المحكومين إليها يتجلى فى عرض مذاهب الحكم منذ وجدت للحكم فلسفة إلى ان ترددت مذاهبه التى تشيع بيننا اليوم فى القرن العشرين .

وقد تطور الحكم قبل ظهور المذاهب الفلسفية التى تشرح قواعده ونظرياته ، وانتقل الناس من تأليه الملوك إلى الإيمان بولايتهم الملك من عند الله ، إلى الفصل بين السلطان الإلهى والسلطان الإنسانى قبل انتشار الفلسفة السياسية وقبل انتشار الفلسفة على الإجمال ، وكانت الأديان الكتابية الثلاثة آية بالغة من آيات هذا التطور البعيد ، فكتاب العهد القديم سجل لزعامة النبى وزعامة القاضى وزعامة الملك

مع الجمع بين الحكم والقداسة الدينية فى حين والفصل بينهما بعد ذلك الحين ، وخطبة السيد المسيح على الجبل دستور كامل للإنسان الصالح الذى ترتضيه المسيحية السمحة فى كل مجتمع وفى ظل جميع الحكومات ، والدين الإسلامى قد فصل مذهبه فى الشورى والمساواة واحترام الإجماع وسؤال أهل الذكر تفصيلا يتناول أصول الحكومة ويوافق تطورها مع الزمن ، وكانت هذه الأديان حجة لطلب الإصلاح والكف من طغيان الإنسان فى جميع العصور .

ونود فى هذه المقدمة الموجزة أن نربط حلقات السلسلة من العصور القديمة إلى العصر الحديث ، لأن الحلقات التى صيغت فى القرن العشرين أو شاعت خلاله لم تكن لتصاغ من معدنها هذا لولا ما تقدمها من حلقات الحكم القديم والفلاسفة الأولين ، وغنى عن القول أن هذا البيان لن يكون إلا تلخيصاً مجملا غاية الإجمال على القدر الذى يكفى هنا للتمهيد المطلوب .

تفلسف حكماء اليونان فى مسألة الحكم كما تفلسفوا فى سائر المسائل التى عرضت لعقل الإنسان فى الزمن القديم ، وأعانهم على فلسفتهم أنهم جاءوا بعد فترة من التجارب الحكومية فى أثينا وسبرطة كفيلة بأن تمد الفيلسوف بالزاد

الضرورى للمقارنة والمقابلة بين هذه التجارب المتوالية ، ويضاف إليها ما عرفوه من صراعهم مع دولة فارس ومن صلاتهم الودية مع الدولة المصرية ، فكان القرن الرابع قبل الميلاد فترة صالحة للتعقيب على تجارب الحكم وأنواعه فى عدة أقطار أجنبية أو وطنية تتفق فى الوطن وتختلف بالمعيشة والعادات ، كما يختلف الأثينيون والسبرطيون .

وقبل أن يصبح مذهب الحكم فى اليونان فلسفة كان قد أصبح من الملاحظات الواقعية التى يدونها المؤرخون ، فكتب هيرودوت قبل مولد أفلاطون يقول فى المساواة : « إنه من الواضح جيدا فى هذه الحادثة ومثيلاتها المتعددة أن المساواة شىء عظيم . فقد كان الأثينيون ولا فضل لهم على من جاورهم فى الشجاعة أيام خضوعهم للطغاة ، فما هو إلا أن نفضوا عنهم نيرهم حتى تقدموا إلى الرعيل الأول بين الجميع ، وتبين من هذا أنهم رضوا بالهزيمة حين كانوا مقهورين يعملون للسيد المسلط عليهم ، فلما ملكوا زمامهم حرص كل منهم على أن يبذل غاية ما فى وسعه لنفسه » .

ولو أن هيرودوت قد امتد به الأجل حقبة قصيرة لاستطاع أن يزيد على دليله هذا دليلا جديدا على فضيلة الحرية ، وهى ارتقاء الفكر ونبوغ الفلاسفة الذين يلقون أنوارهم على

المسألة بحذافيرها ويتناولون قواعد الحكم وحقوق المحكومين على وجوهها المتقابلة كما تناولها أفلاطون وتناولها من بعده تلميذه أرسطو ومريدوه .

فهذان الفيلسوفان قد تقابلا فى مذاهب الحكم كما تقابلا فى غيرها من المذاهب العملية والعلمية ، وكانا كالقطبين المتقابلين للدائرة الواحدة ، فكل منهما طرف يكشف محاسن رأيه ومآخذ الرأى الذى يعارضه ، وتتم الدائرة على سعتها بهذين القطبين المتقابلين .

كان أفلاطون (٤٢٧ — ٣٤٧ ق . م) يعظم شأن الدولة بالقياس إلى الحرية الفردية ، فالقوانين لا توضع لتمكين الفرد من فعل ما يشاء ، ولكنها توضع لهدايته إلى فعل أحسن ما يستطيع ، ولا ضير من إكراهه على صلاح أمره إذا كان فى حاجة إلى الهداية والإصلاح ، وأكثر الناس فى حاجة دائمة إليهما يجوز فى تربيتهم ما يجوز فى تربية القصر والأطفال .

وواضح من هذا أن الحاكم فى مذهب أفلاطون بمثابة الأب والمعلم وليس قصاراه أنه خادم مصالح المحكومين ، ولهذا يوصى بإسناد الحكم إلى الحكماء والعلماء ، ويوصى إلى جانب ذلك بتجريدهم من روابط الأسرة وشواغل الثروة تنزيها لهم عن الفتنة والمحاباة ، ولا حرج على ولاة الحكم

من استخدام الأساطير والخرافات واختراع قصص البطولة والأعاجيب لترويض الرعية على الخضوع لما فيه نفعها ورشادها ، فهذه فى مذهبه « أكاذيب نبيلة » لا غنى عنها فى إقناع الدهماء ، ولا يلبثون أن يعرفوها ويعرفوا أعذار من استخدموها متى ارتفعت عنهم غشاوة الجهل والخرافة .

وينظر الفاشيون والاشتراكيون معا إلى أفلاطون كأنه رائد سابق للفاشية والاشتراكية ، فيرضى عنه الفاشيون لأنه يكل الأمر إلى الولاة والزعماء ، ويعظم شأن الدولة والحكومة ، ويرضى عنه الاشتراكيون لأنه يحرم الملكية على الولاة ويسمح باشتراك الجمهور فى الملك الواحد ويجعل للنساء حق الحكم مع الرجال ويفرض عليهن واجب الدفاع معهم . ويسوق الفاشيون والاشتراكيون كلمات له وردت فى كتاب الجمهورية تعزز ما يقررونه لتأييد آرائهم ونقد آراء خصومهم . ومنها قول بعض المحاورين فى كتاب الجمهورية : « إن العدل مصلحة الأقوى » وإن الرجل العظيم فى حل من إرضاء عظمته بالسيطرة على من دونه ، وإن الوازع الأخلاقى رياء ونفاق مالم يكن ضرورة من ضرورات البيئة ، وغير ذلك من دعاوى الحوار التى تقال كما يقال الرد عليها ، ولا تعبر كلها عن رأى أفلاطون .

ولا شك فى ميل أفلاطون إلى حصر السلطان فى الأيدى القليلة وإعراضه عن إطلاق حقوق الحكم لجميع المحكومين ، بيد أن الشراح الذين يستندون إليه فى تسويغ الاستبداد يخطئون تفسيره وقد يتعمدون تحويله عن معناه ، لأنه شديد الإنكار لحكم القوة شديد الإعجاب بحكم الرضا والإقناع ، وتفرقته الكبرى بين الملك والطاغية أن الملك يهتم بحب رعاياه وأن الطاغية يفرض عليهم طاعته غير مبال منهم بشعور بعد شعورهم بالرهبة والولاء . وقد فاضل أفلاطون بين حكومة الفرد بغير قانون وحكومة الخاصة بغير قانون وحكومة الدهماء بغير قانون ، فقال إن حكومةالدهماء هى أفضل هذه الحكومات وإن شرورها أهون من شرور الحكومة الفردية المطلقة وشرور الحكومة التى يحتكرها الخاصة مع إطلاقها واستبدادها ، إذ كان فساد المستبد يشمله ويشمل كل من عداه وتمتد أوهاق ظلمه إلى جميع الطبقات ، وإنما يسوء حكم الدهماء حين يشرعون له القوانين لأنهم يجهلون أصولها ويولون أمرها غير أهلها ويسيئون التشريع كما يسيئون التنفيذ ، وليس كذلك الخاصة المقيدون بالشريعة كما يتفق عليها من يفقهونها ويحسنون الرقابة عليها .

وقد توزع مذهب أفلاطون حديثا بين أناس متفرقين

يدعى كل منهم أنه قادر على تطهير نظامه من النقائص التى احتاط لها الفيلسوف فى زمانه ، والواقع أنه مذهب مفروغ من استحالة تطبيقه ، فالمناقشة فى نظرياته تسلس لمن يريدها دون أن يحبسها الواقع عند حد محدود .

* * *

إلى الطرف المقابل لهذا الطرف يتجه أرسطو تلميذ أفلاطون الأول الذى لقبه الأقدمون بالمعلم الأول .

فالحكم عنده وظيفة خبرة يتدرب عليها ذووها وليس وظيفة فلسفة وحكمة ، وهو يقسم الحكومات إلى ثلاثة أنواع : هى حكومة الفرد وحكومة الأعيان وحكومة الشعب أو الديمقراطية ، ولكل منها آفة تمسخها وترجح سيئاتها على حسناتها ، فإذا مسخت حكومة الفرد غلب الهوى فى نفس حاكم واحد على مصلحته ومصلحة الرعية كلها ، وإذا مسخت حكومة الأعيان فهو الاحتكار الذى يسخر الأكثرين من المحكومين للأقلين من الحاكمين ، وإذا مسخت الحكومة الديمقراطية فتلك هى فوضى السوقة والدهماء .

وليس عدد الحاكمين هو الفرق الجوهرى بين الحكومات الثلاث ، ولكن الفرق الجوهرى هو الفرق بينها فى حقوق المواطن ، وخيرها ما تكفل لجميع المواطنين بالمساواة فى

الحرية ، وهذه المساواة هى التى تبطل القول بأن الحرية هى أن يفعل كل إنسان ما يشاء . فلو جاز لكل أن يفعل ما يشاء لجاز له أن يعتدى على غيره فتبطل المساواة ، وإذا تساوت حريتهم جميعاً فهذه هى الحرية فى حدود القانون ، وذلك هو القانون الذى يوضع لجميع الرعايا ولا يوضع لطبقة منها دون طبقة .

وإذا تكلم أرسطو عن المواطنين وحقوقهم فإنما يتكلم عن الأحرار ويستثنى الأرقاء ، فالمواطن من يشترك فى تسيير الدولة برأيه أو بعمله ، ولم يكن للأرقاء على عهد أرسطو شىء من المشاركة فى الحقوق السياسية .

والتفرقة بين الحكومتين الصالحة والفاسدة عند أرسطو هى أصدق تفرقة قال بها الفلاسفة حتى اليوم . فالحكومة صالحة متى عملت لمنفعة المحكومين ، وفاسدة متى عملت لمنفعة الحاكمين . مثلها مثل كل أداة توضع لغاية ، ولا تؤدى الحكومة غايتها إذا كانت لا تنفع رعاياها .

وليس من رأى أرسطو أن « خير » الناس هم الحكام ، فمعنى هذا أن الذين لا يتولون الحكم أشرار ، أو معناه أن أخيارا قلائل يستأثرون وحدهم بحقوق جميع الأخيار .

وليس من رأيه أن الحكم حق للثروة ، فمعنى ذلك جمع الثروة والسلطة فى أيد قليلة .

وليس من رأيه أن الكثرة تباشر الحكم بجميع آحادها فتلك استحالة لا تتحقق فى الواقع ، ويكفى من الكثرة أن تكون مكفية المؤنة راضية عن معيشتها .

واشتراط الرضا من جانب الأكثرين ضمان لإخلاص الحكومة فى خدمتهم . ووفرة الناس ، فى رأى أرسطو ، كوفرة الماء التى تعصمه أن يأجن ويتعفن كما يتعفن الماء القليل بأقل شائبة .

وقد وجد أرسطو أن توزيع مهام الحكم ضمان آخر لمنع التفرد بالسيطرة الحكومية ، فتنقسم الحكومة بين الاستشارة والإدارة والقضاء ، وتنشأ من تخصص الحكام لكل قسم من هذه الأقسام طائفة خبيرة بما تتولاه ، وقيام الحكم على القواعد الديمقراطية يمنع أن تنحصر هذه الطوائف فى كبار السادة والأغنياء ، ويمنع أن تنحدر إلى السفلة والجهلاء ، فسبيلها أن تؤول إلى طبقة وسطى لا تستبد استبداد الأعلياء ولا تسف فى أعمالها وأخلاقها إسفاف الأدنياء .

ويعارض أرسطو أستاذه فى شيوع الملكية كما يعارضه فى احتكار السلطة ، فقد بحث شيوع الأرض وتقسيم الغلة ، وبحث شيوع الغلة وتقسيم الأرض ، وبحث شيوع الأرض والغلة معاً ، فخلص من هذه البحوث إلى ضرر الشيوع فى هذه الحالات جميعاً ، لأنه باب النزاع وسوء الاستغلال ،

وأضمن منه للسلم أن تباح الملكية مع تقريب المسافة بين الأغنياء والفقراء .

بهذين المذهبين — مذهب أرسطو وأستاذه — تمت لأثينا رسالتها العظيمة فى فلسفة الحكومة ، وهى أوفى رسالة فلسفية كانت مستطاعة قبل عصر الميلاد .

* * *

وتأتى رسالة روما بعد رسالة أثينا ، وهى رسالة عملية يقل فيها نصيب الدراسات الفلسفية . ومع استثناء القوانين المسطورة لم يبق من تراث روما فى فلسفة الحكم غير كتابين لخطيبها الأكبر شيشرون (١٠٦ — ٤٣ ق.م) وهما كتاب الجمهورية De Republica وكتاب القوانين De Lagibus .

عرفت روما ضروب الحكم جميعاً مع تعدد أنواع الحكام وتعدد أنواع المحكومين : عرفت الملك والجمهورية والقنصلية وحكم الدكتاتور العادل والدكتاتور الظالم ورقابة الشيوخ الأعيان ورقابة الوكلاء الشعبيين ، وعرفت الحكم الذى يقوم على حقوق العلية والحكم الذى يقوم على حقوق العلية والعامة ، والحكم الذى يستثنى منه الأرقاء والحكم الذى يقبلون فيه بعض القبول ، وتركت بتجاربها العملية رسالة عامرة

بالنماذج والتعديلات لا يستغنى عنها باحث من الدارسين لنظم الحكومة فى جميع الأوضاع وبين جميع الأقوام .

أما رسالتها الفلسفية فهى كما تقدم محصورة فى كتابى الخطيب الكبير ، وجانب الاقتباس فيها من المدرسة الأثينية أكبر من جانب الاستقلال بالرأى والابتكار ، ولعل إيمان شيشرون بالنظريات هو الذى جنى عليه فجعله يصر فى أثناء ولايته للحكومة على توخى الغايات التى لا تدرك وسوم الشيوخ والأعيان مالا طاقة لهم به من النزاهة والاعتدال ، فكان الموت جزاءه على هذه النزعة المثالية التى لا تقبل التطبيق .

نقل شيشرون عن الفيلسوف اليونانى زينوقراط Xenocrates أنه سئل : ماذا استفاد منك تلاميذك ؟ فقال : إنهم استفادوا أنهم بمحض اختيارهم يعملون ما توجبه القوانين على الآخرين .

يقول شيشرون : « إنه من رأى أعقل الحكماء أن القانون لا يرجع فى أصوله إلى فكر إنسانى ولا إلى عمل أمة من الأمم ولكنه شىء خالد يحكم الكون كله بما يوحيه من أوامره ونواهيه » ، وإن أفضل المجتمعات هو المجتمع الذى يوافق إلهام الطبيعة ولا يعطل هذا الإلهام بزيغان المطامع والشهوات .

وينكر شيشرون قول أفلاطون إن ذوى الاستعداد لفهم

الشريعة جد قليلين بين البشر ، ففى اعتقاده على عكس ذلك أنه ما من إنسان إلا وهو قادر على فهم الشريعة كما توحيها الطبيعة ، وإن القانون الطبيعى يقضى بالمساواة بين البشر فى هذا الاعتبار ، وإنه عند عصيان هذا القانون الطبيعى يقع من الناس الاجتراء على نصوص الشرائع المسطورة .

ويقول على لسان سيبيو وهو يلخص حجج الديمقراطية : « إنهم يقررون أنه ليس من الإنصاف أن تدان الديمقراطية على عمومها لأن الجمهرة الجامحة من سواد الناس لها عيوبها ، وإن الناس ما داموا متناسقين يخضعون كل شىء لسلامتهم وحريتهم فلا حكومة أنأى عن خطر الثورة وأمكن استقرارا من حكومتهم . اى من الحكومة الديمقراطية »

ويمضى سيبيو قائلا : « وعلى الجملة لا يعتبر أنصار الديمقراطية أن الحكومات الأخرى جديرة باسم الحكومة ، فمالى مثلا أطلق اسم المالك الذى هو أليق الأسماء برب الأرباب على مخلوق بشرى متلهف على السيادة والاستئثار بالغلبة كأنه فى سوقه للرعية يدفع أمامه قطيعا من العبيد ؟ أليس الأحرى بى أن أطلق عليه اسم الطاغية ؟ . . . »

والعجب فى هذه الديمقراطية الغالية وهذا القانون الطبيعى أن

تتمخض عنهما الدولة الرومانية التى كانت رسالتها فى العالم « صناعة » القوانين ... ! فقد أصاب من قال إن شيشرون كان رائداً للثورة الفرنسية والثورة الأمريكية قبل ألف وسبعمائة سنة ، وإنه بهذه الأقوال عن القانون الطبيعى وعموم المساواة بين البشر كان زميلا لجان جاك روسو ظهر فى العصر الغابر قبل الأوان .

* * *

مضى من القرن الأول قبل الميلاد عصر شيشرون ، إلى القرن الخامس عشر بعد الميلاد عصر ماكيافلى (١٤٦٩—١٥٢٧) أكثر من خمسة عشر قرنا لم ينبغ فيها من فلاسفة الحكم من يستحق أن يذكر غير ثلاثة ، اثنان منهم حبران جليلان من أحبار الكنيسة وعلمان بارزان من أعلام الفكر وهما القديس أوغسطين والقديس توما الإكوينى ، والثالث هو جون أوف سلسبورى القس الشاعر الفيلسوف الذى عاصر الملك هنرى الثانى فى إبان الخلاف على الدين والسياسة .

ولد القديس أوغسطين فى منتصف القرن الرابع (٣٥٤ — ٤٣٠) وألف كتابه عن مدينة الله تفنيدا لقول القائلين إن روما آمنت بالأرباب الوثنية فعاشت فى القوة والرخاء عدة قرون ، وآمنت بإله الدين المسيحى فعجل إليها البوار بعد قرن أو قرنين ، وقد استغرق تأليفه ثلاث عشرة سنة فى

أوقات متقطعة فكثرت فيه النقائض كما كثر فيه الاستطراد من موضوعات الحكم والسياسة إلى موضوعات الفقه واللاهوت ، ويتحدث القديس أوغسطين عن مدينة الله كأنها مدينتان إحداهما في السماء والأخرى على الأرض ، وهو لا يعني بمدينة السماء سلطان الكنيسة ولا يعني بمدينة الأرض سلطان الملوك والأمراء ، ولكنه يعني بهما مدينتين مثاليتين يبنيهما الله والصالحون من عباده بالتقوى وعمل الخير والزهد في الملذات والشهوات وقضاء الحياة في رعاية أوامر الله واجتناب نواهيه ، وتنعقد الصلة بين أبناء المدينة بأن يحبوا الله ويحب بعضهم بعضاً في الله ، ويضرب الشراح المثل لهذه الصلة الروحية بالصلة التي يشعر بها قراء الكتاب الواحد إذ يعجبون بمؤلفه ويستروحون جمال فكره وبلاغة كلامه ، فالأمم التي تشترك في حب الله وتمجيد آياته هي أمة واحدة في مدينة الله .

وأهم المبادئ السياسية التي اشتمل عليها كتاب القديس أوغسطين هي : (١) أن اقتناء الأملاك وجمع الكنوز هو شهوة من شهوات النفس البشرية الخاطئة وليس شريعة من شرائع الله ، وأن أفضل المجتمعات ما كانت خيرات الله فيه مباحة لجميع عباده يأخذون منها بمقدار ما يحتاجونه في لوازم الحياة و (٢) أن المستقبل للوحدة الإنسانية التي

تؤلف بين المؤمنين فى حب الله و (٣) أن الأمل الأكبر للجماعة الإنسانية هو « السلام » وهو فى حكمة القديس أوغسطين مرادف لكمال الروح وكمال الألفة بين البشر ، وليست غايته اجتناب الحرب وكفى . إذ لا سلام بغير إخوان كما أنه لا حرب بغير أعداء و (٤) أن الرق ثمرة الخطيئة والخطيئة هى السبب الأول لخضوع الإنسان للإنسان ، ولعل كبرياء السيد عقاب له وضراعة العبد غفران وتكفير و (٥) أن خضوع المؤمنين لأصحاب السلطان الدنيوى واجب فى حدود الأمور الدنيوية ، فإذا تجاوزها أصحاب ذلك السلطان فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق و (٦) أن الناس فى مدينة الأرض حجاج إلى مدينة السماء أقربهم إليها من هانت عليه النعمة الأرضية فى سبيل النعمة السماوية الأبدية .

* * *

وتعاقبت القرون إلى القرن الثانى عشر الذى عاش فيه جون أوف سلسبورى (١١٢٠ — ١١٨٠) صاحب كتاب دليل الحاكم الذى اخترع له اسم بوليكراتكاس Policraticus واستوعب فيه الكلام على واجبات الحاكم وواجبات الرعية وشروط الحكومة المطاعة ، وأهم آرائه أن الفضيلة هى

غاية الحياة وأن هذه الغاية لا تدرك بغير حرية ، وقد ضرب المثل للحرية المطلوبة بكلام من يدعى فلب Philip فى مواجهة مجلس الشيوخ الرومانى حيث نعى عليهم جمودهم وتراخيهم فلم يغضبوا لتبكيته وقال له الشيخ الذى نهض ليخرجه : « لا عليك أن تسلم نفسك إلى فإننى لست بالشيخ صاحب السلطان فى نظرك » .

وقد أوجب فيه على الملك أن يعمل بالقانون ، وفرق فيه بين الراعى ، والحارس الأجير ، واللص ، فى تربية القطيع : فالراعى يعمل بخلوص نية وصدق رغبة ، والحارس يعمل لحساب غيره طمعا فى الأجر وخوفا من العقاب ، واللص لا يبالى من القطيع إلا أن يلتهم ما استطاع التهامه ويخفى فعلته عن أنظار مطارديه .

* * *

وانقضت حقبة فى اقتباس القوانين من بقايا الدولة الرومانية شاعت خلالها النظريات التى أشرنا إلى بعضها فى تلخيص مذهب شيشرون ، كالقانون الطبيعى وحق المساواة. وشاع معها تعريف القانون بأنه مجموعة العرف والعادة التى اصطلحت عليها الشعوب وتولى رؤساؤها القيام على تنفيذها بالنيابة عنها ، ووافق هذا الاعتقاد غرضا من سادة أوربة لميلهم إلى الاستقلال

بالسلطة الدنيوية عن السلطة البابوية ، وظهر فى تلك العصور الأولى من يقول كما قال ما نيجول أوف لاتنباخ فى القرن الحادى عشر : « لا أحد يملك أن يجعل نفسه إمبراطورا أو ملكا ، وإنما هو الشعب الذى يرفع إنسانا فوق نفسه ليحكمه ويدبر شئونه على أصول الحكم الصالح ، معطيا كل ذى حق حقه ، متوليا من يتقى بحراسته ومن يعتدى بتقمته ، وقائما بالقسط بين الجميع » .

وظهر فى القرن الثالث عشر من يقول كما قال براكتون الفقيه الإنجليزى : « لا ينبغى للملك أن يعلو على مكانه أحد، إلا أن يعلوه سلطان الله والقانون . لأن القوانين هى التى تنصب الملك ، وعليه أن يمد القانون بالقوة والنفاذ . . . . إذ لا ملك حيث لا قانون » .

* * *

بين هذه التمهيدات المختمرة نبغ الفيلسوف الدينى الكبير توماس الإكوينى (١٢٢٥ — ١٢٧٤) ونظر إليها وإلى كتب الفلسفة جميعاً فى مذهبه السياسى الذى شرحه أثناء تعليقه على كتاب السياسة لأرسطو وعاد إليه فى رسالة لم يتممها سماها « ولاية الأمراء » .

والكون كله فى مذهب القديس توما حكومة ذات درجات

Hierachy يستوى الإله على عرشها الأعلى ، وأهم آرائه أن الحكومات الدنيوية ينبغى أن تتوجه بطلب المشورة إلى آباء الكنيسة ، لأن الإنسان فى هذه الحياة يسعى إلى غايتين : إحداهما روحية والأخرى جسدية ، وليست سعادته الجسدية هى الغاية القصوى بل هى وسيلة لتحقيق غايته العليا وهى سعادة الروح . فالكنيسة التى تشرف على أمر روحه أولى بالتقديم من الحكومة الدنيوية التى تشرف على أمر جسده ، ومن حق حكومة الدنيا أن تطاع فى كل شىء تتساوى فيه طاعة المرءوس والرئيس . أما إذا فرض الرئيس على مرءوسيه ما لا يقبله هو ولا يلتزمه فلا طاعة للحكومة الدنيوية ولا حرج على مرءوسيه من عصيانه والثورة عليه . وقد توصف حكومة القديس توما بأنها مزيج من الفردية والانتخابية ، لأنه يشير باشتراك الشعب فى انتخاب الملك والنبلاء ، ليتم امتياز الممتازين وأمان الضعفاء من بغى الأقوياء ، ومساك الوفاق بين الجميع هو القانون الطبيعى الذى لا يخفى على أحد ، وهو يخول الرعية أن تقاوم راعيها أو تكف عن الطاعة إذا أقحم عليها قانونا لا يطابق ذلك القانون .

* * *

ثم جاء عصر ماكيافلى (١٤٦٩ — ١٥٢٧) وهو الرجل

الذى أصبح اسمه علما على سياسة الغش والغيلة والقسوة والدسيسة والتماس النجاح بكل وسيلة ، وتعود شهرته الى ما اشتهر من وصاياه فى كتابه الموسوم « بالأمير » .

أما الحقيقة فهى كما قال فى رسالة منه إلى بعض ثقاته « إن كتاب الأمير نزغة هوى » ، ولم يكن الرجل كاذبا فيما وصف به هذا الكتاب ، فكل ما فيه من الجد أنه طمح إلى توحيد إيطاليا كما توحدت فرنسا وأسبانيا ، ورأى أمامه طائفة من شرار الأمراء يتنازعون فيما بينهم ولا أمل فى توحيد وطنه مع بقائهم ، فمن أزاحهم من طريق الوحدة بما وسعه من وسيلة فلا جناح عليه .

على أن مذهب ماكيافلى الصحيح مفصل فى تعليقاته على كتب ليفى العشرة وملحوظ فيما بين السطور من كتاب الأمير ، فهو يقرر أن الاستناد إلى الشعب أضمن لصيانة الحرية من الاستناد إلى الأعيان والنبلاء الذين يتكلون على ما ورثوه ولا يزالون يطمعون فى زيادته بالعسف والحجر على المحرومين ، وأن وفاء الشعوب أوثق من وفاء الأمراء ، وأن الملك الحق من يحبه رعاياه ويهابونه لا من يرتاب فيه رعاياه ويمقتونه ، وأن الدكتاتور الذى يخشى خطره على الحرية هو الدكتاتور الذى يغتصب القوة ولا يستمدها من رعيته ،

فإذا انطلقت يده فى الحكم باختيار الرعية كما كان يحدث فى الدولة الرومانية القديمة فهو قمين أن يبلغ قومه من المجد والرخاء ، مالا يبلغونه فى ظل القوة المفاجئة . وعبرة التاريخ الرومانى فى رأى مكيافلى أن الجمهورية تصلح ما بقيت قوية متوازنة الأركان لا تبغى فيها طبقة على طبقة ، فإذا هى تضعضعت وآذنت بالزوال فالدكتاتور الذى تقدم وصفه خير حاكم يتعهد الوطن فى تلك الحالة . ومساك الحكمة السياسية فى كتاب الأمير وفى التعليقات على التاريخ الرومانى هو « أن سلامة الدولة مقدمة على كل مصلحة أو شريعة ، فإذا وجبت وقايتها من غائلة تهدد سلامتها فلا محل للبحث فى النصوص والفتاوى ولا حرج من اتخاذ كل وسيلة لدفع الغائلة عنها ، ولا يصعب على ولاة الأمر مع هذا أن يسوغوا عملهم للشعب بما يقنعه لاستدامة إيمانه بالشريعة وقوانين الأخلاق .

والمثل الأعلى للحكومة فى مذهب ميكافلى هى الحكومة التى تسقط أمراء الأقطاع ، وتنهض بالطبقة الوسطى ، وتؤمن الشعب على حريته ومعيشته ، وتنضوى إلى حاكم قوى يمزج بين دهاء الثعالب وجرأة الأسود ، ويلتف به رعاياه عن حب ومهابة وثقة لا عن خوف وخنوع واستسلام .

* * *

وفيما بين القرن السادس عشر والقرن التاسع عشر دخلت نظريات السياسة فى دور جديد يدور على محورين : محور القوانين الطبيعية أو الحقوق الطبيعية التى تقدم ذكرها ، ومحور الخلاف على حق الكنيسة وحق الدولة وأيهما أحق بالاتباع عند احتدام النزاع بين السلطتين .

وأدى استقلال الملوك عن الكنيسة واضمحلال نفوذ النبلاء والفرسان أصحاب الإقطاعات إلى استقلال الأوطان والدعوة إلى حقوق الوطن وحقوق الأمة ، فتركزت الحقوق السياسية رويدا رويدا فى الشعب وبرزت على طليعته طبقته الوسطى ، وهى أقدر طبقاته بعد اضمحلال السادة الأعلين من النبلاء والفرسان « الإقطاعيين » .

هذه النظريات عن الحقوق الطبيعية وحق الكنيسة وحق الدولة وحق الشعب لم تزل تتراءى على درجات متعددة ووجهات متعارضة فى بحوث الفلاسفة الذين كتبوا عن فلسفة الحكم من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر .

فأقدمهم جان بودان الفرنسى Jean Bodin (١٥٣٠ — ١٥٩٦) يشرح نظرياته فى ستة مجلدات يسميها « الكتب الستة فى الدولة » ، ويقرر فيها أن الأسرة والملكية (اى الامتلاك)

هما أساس المجتمع ، وأن النظام الملكى المقيد هو أصلح الأنظمة الحكومية ، وأن صاحب السيادة متى بويع بها حرم على الرعية نقض ولائه كائنا ما كان اعتذارها لنقضه ، وتفرقته بين السيادة الشرعية والسلطة القائمة بالقوة أن السلطة القائمة بالقوة قد تحفظ النظام ولكنها لا تحفظ القانون وهو السند الوحيد الذى يقوم عليه حق الطاعة والولاء . ولهذا الكاتب حوار أجراه بين يهودى ومسلم ومسيحى تابع لكنيسة روما ومسيحى من أنصار لوثر وأبيقورى وموحد بالله غير متدين بدين فانتهى منه على ترك الجدل فى العقائد الدينية والتلاقى بينهم جميعاً على سماحة فى أمور هذه الحياة الدنيوية .

وتوماس هوبز الإنجليزى Thomas Hobbes (١٥٨٨ — ١٦٧٩) قد حضر الثورة التى قادها كرومويل وكان معلما للملك شارل الثانى ، وبنى فلسفة الحكم على ما استخلصه من القوانين الطبيعية فى زعمه ، وفحواه أن الفعل ورد الفعل هما مدار كل حركة فى الطبيعة ، وأن تدافع الناس فى المجتمع هو مدار السياسة ، وأن العامل الأكبر فى نفس الإنسان هو حفظ ذاته ، ومن أجل حفظ الذات يطلب القوة ويطمع فى الغلبة على غيره . فمن هنا كانت الحالة الطبيعية بين الناس حالة حرب لا أمان فيها لأحد على نفسه ،

وهذه هى الحالة التى تضطرهم أن يسلموا مقادهم إلى الدولة لحماية بعضهم من بعض وتمكينهم جميعاً من استخدام حقوقهم الطبيعية التى يتعذر عليهم استخدامها بغير دولة حاكمة ، وهذا التسليم منهم أبدى لا رجعة فيه ، إذ كانت الرجعة فيه نكسة إلى فوضى الهمجية التى لجأوا منها إلى سيادة الدولة فلا يجوز استرداد هذه السيادة ممن تولاها ، ولا يحق لأحد من الرعايا أن يعترض عليه ، فإن إرادته قانون وقانونه هو مناط الأخلاق ، ولا قيمة لعهد لا يحميه سيف ، فلن تصل العهود إلى مدى أبعد من حد السيف الذى يرعاها ، ومتى عجز صاحب السيادة عن حياطة الرعية وتغليب سلطان الشريعة فذلك هو الحد الذى تنتهى إليه سيادته ويستدعى الرعية إلى تسليم هذه السيادة لغيره .

ويأتى جون لوك الإنجليزى Jhon Locke (١٦٣٢ — ١٧٠٤) عقب هوبز بجيل واحد فينقض مذهبه فى الحرب الطبيعية ويقيم فى مكانها طبيعة الاجتماع والتضامن الاجتماعى ، ويعتبر ولاية الحكم وكالة عن الأمة تحاسب عليها ، فلا تصلح سياسة الأمم إلا بمحاسبة الرعية لولاتها واعتبار الحكومة مسؤلة أمام شعبها ، وينقض لوك مذهب هوبز فى نشأة القانون كما ينقض مذهبه فى السلطة الحكومية ، فالأخلاق

هى التى توجد القانون وليس القانون هو موجدها قبل وجودها ، ولا حد لحرية الإنسان فى عمله ولا فى ملكه إلا الحد الذى يكفل لغيره حقوقا مثل حقوقه ، وخير الحكومات عنده هى الحكومة التى تنفصل فيها السلطات وتجرى على النظم الدستورية ، ووظيفتها الكبرى هى حماية الحرية وحماية الملك والثروة .

ويلى جون لوك فى التاريخ البارون دى مونتسكيو الفرنسى Montesquieu (١٦٨٩ — ١٧٥٥) صاحب كتاب روح القوانين ، ومذهبه قائم على تفسير القوانين بعوامل الإقليم وأثرها فى معيشة السكان وعاداتهم ، ويحسب مونتسكيو من تلاميذ المدرسة الإنجليزية فى تفضيل الملكية الدستورية ، مع التوسط بين المحافظة والتطرف فى الحقوق النيابية .

ويلى مونتسكيو جان جاك روسو الفيلسوف السويسرى الفرنسى Rousseau (١٧١٢ — ١٧٧٨) وكان معاصرا للفيلسوف الإنجليزى دافيد هيوم (١٧١١ — ١٧٧٦) Hume رائد المدرسة الحديثة التى تعزو أعمال المجتمعات إلى دوافع لدنية لا تخضع للتعقل فى جميع الأحوال ، وأن رابطة الاجتماع نفسها عاطفية وليست بعقلية ، فليس هناك تعاقد معقول بين أبناء المجتمع ولكنهم يتعاطفون ويتنافرون

بالحس والشعور ، وما من حكومة تدوم ما لم تكن مستندة إلى التقاليد التى تواضع عليها الناس ، ولو خرجت هذه التقاليد على المعقول .

وروسو يقتبس من هيوم فى هذه الناحية ويناقش نظرية العقد الاجتماعى على أساس هذه الفلسفة ، ويجعل شعاره « عودا إلى الطبيعة » لأن الفطرة أهدى من العقل وأجدى على صاحبها ، وأولى الناس بالاحترام عنده هم البسطاء الطبيعيون وهم كثرة الناس ، ولهم فوق ذلك حق الاحترام على اعتبار أن الناس جميعاً سواء بغير فارق فى « الطبيعة » بين أبناء الطبقات المختلفة ، فكثرة العدد إذن هى المرجح للطبقة الدنيا مع تساوى الطبائع بين أبناء الطبقات ، فالناس طيبون فطرة ما لم تفسدهم الأسباب الصناعية ، وإرادتهم التى يسميها « الإرادة العامة » هى قوام القانون والأخلاق .

وقد تعاقب الكتاب بين منتصف القرن الثامن عشر ومنتصف القرن التاسع عشر على مبدأ واحد وهو مبدأ « السيادة الشعبية » والحكم النيابى ، فإذا كانت لبعضهم رسالة خاصة فى مقدمة هؤلاء بنتام Bentham (١٧٤٨ — ١٨٣٢) وجون ستيوارت ميل Mill (١٨٠٦ — ١٨٧٣ أعظم الفلاسفة المحدثين الذين اشتهروا بالنفعيين Utilitarianists

لأنهم يردون أعمال الإنســان جميعا إلى طلب السرور والمنفعة . فإن رسالتهم هذه قد كان لها شأن فى تركيب كثير من الفلسفات التى تنظر فى التربية والإصلاح الاجتماعى من ناحيتى الأخلاق والسياسة ، ويغلو جون ستيوارت ميل فى تقديس حرية الفرد حتى ليقول إن النوع الإنسانى لو خالفه فرد واحد لما كان حقهم قاطبة فى إبداء رأيهم أصح من حق الفرد الواحد فى إبداء رأيه ، ومع هذا الغلو فى تقديس الحرية الفردية ، وذلك المذهب فى تعليل الأعمال الإنسانية بالمنفعة — يرى ميل أن جمهرة السواد تنشد منفعتها الظاهرة ولا تنشد منفعتها الحقيقية ، ولهذا يحسن أن تتبع فى الانتخابات طريقة نسبية ترشح للحكم من هم أهل له بالعقل الراجح والخلق المتين والدراية المستمدة من الثقافة والمرانة .

* * *

ثم ظهر فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر مذهب المادية الثنائية لصاحبيه كارل ماركس Marx (١٨١٨ — ١٨٨٣) وفردريك إنجلز Engels (١٨٢٠ — ١٨٩٥) وهو مذهب له شطران : شطر فى فلسفة ما وراء الطبيعة وشطر فى فلسفة الاقتصاد والسياسة .

ففيما وراء الطبيعة تقرر المادية الثنائية أن المادة يتولد منها

ضدها ثم يتولد منهما تركيب واحد لا يلبث أن يخرج منه ضده ، وتطبيق هذا المذهب على المجتمع الإنسانى يدل على أن نظام المشاعية الأولى قد خرج منه ضده وهو نظام الأقطاع ثم خرج من هذا ضده وهو نظام الطبقة الحضرية أو الطبقة الوسطى التى عرفت بالبرجوازية ، وأن هذه البرجوازية تخلى مكانها لنظام رأس المال ثم يتبعه النظام الذى يستولى فيه العمال على الحكم فتنقطع الأسباب التى أنشأت الطبقات الاجتماعية ، لأنها قائمة على استغلال بعض الناس لبعض فلا محل للطبقات مع بطلان الاستغلال .

أما الفلسفة الاقتصادية فمحصولها أن الإنتاج الاقتصادى هو أصل كل سلطة وأصل كل عرف وعادة ، وأن الطبقة التى تتسلم زمام الإنتاج الاقتصادى هى التى تضع القوانين والآداب التى تخدم مصالحها ، وسيأتى اليوم الذى يفلس فيه نظام رأس المال لما فيه من التناقص المتأصل فى تكوينه ، فيؤول زمام الإنتاج إلى العاملين الذين يديرون الآلات المنتجة ، وتسفر الفترة التى تنقضى فى « الدكتاتورية الشيوعية » عن حكومة عالمية لا سيد فيها ولا مسود ولا مالك فيها ولا أجير .

ولم يبين كارل ماركس ولا أصحابه : لماذا تكون كل طبقة ضدا لما قبلها ولا تكون مختلفة منها مجرد اختلاف ، ولم يبين

كذلك كيف يساس المجتمع بعد الدكتاتورية الشيوعية وكيف يمتنع التبديل والتعديل فى النظام السياسى ما دام للنوع الإنسانى بقاء على هذه الغبراء .

* * *

بعد هؤلاء الفلاسفة الأقدمين والمحدثين لم يظهر من فلاسفة الحكم من يعرف له مذهب مذكور غير هذه النخبة التى لخصنا نماذج آرائها فى هذه الرسالة ، وقد أغفلنا بالبداهة أصحاب مذهب الفوضى لأن مذهبهم فى فلسفة الحكم هو إلغاء جميع الحكومات .

ومزية الفلاسفة المحدثين على الفلاسفة السابقين أنهم قد وضعوا مذاهبهم مستفيدين من جميع المذاهب ومن جميع التجارب ، ومستفيدين معها من كشوف العلم الحديث فى طبائع النفس البشرية آحاداً وجماعات ، ومن كشوف العلوم الاجتماعية والاقتصادية التى كانت مجهولة قبل بضعة أجيال .

وإذا أردنا أن نجمل الفارق بين القدامى والمحدثين فى مدارس الفلسفة الحكومية فالفارق الواضح بينهم أن الأولين أكثر اقتراحا وأكثر تعويلا على عمل العقل فى الحياة الإنسانية وأشد من لاحقيهم تعلقا بالمجتمعات المثالية التى تسمى بالطوبيات Utopias وأن المحدثين يقل فى فلسفتهم الاقتراح

والتعويل على عمل العقل ، ويكثر فيها وصف الواقع والتعويل على الدوافع النفسية .

وسيرى القارئ أنهم جميعاً يخطئون وأنهم جميعاً يصيبون ، وأن مسألة الحكم مسألة تتنقل بها الحلول من عصر إلى عصر فى الغيب المجهول ... والعلم بمواطن الخطأ والصواب منها أفضل وأسلم من الجهل بها على كل حال .

جورج سوريل
١٨٤٧ – ١٩٢٢
George Sorel

كان جورج سوريل من المعمـــرين كمعظم زملائه من فلاسفة الحكم فى العصر الحديث ، فامتدت حياته من سنة ١٨٤٧ – إلى سنة ١٩٢٢ ووقعت فى خلال هذا العمر حرب السبعين وتأسست الدولة الألمانيـــة وتداولت فرنسا أنواع مختلفة من الحكومات ، ثم نشبت الحرب العالمية الأولى وقامت بعدها حكومة شيوعية فى بلاد روسيا القيصرية . فاستطاع سوريل أن يقرن بين مشاهدة الوقائع ومطالعة التواريخ ومذاهب السياسة التى كانت فى إبان رواجها حوالى الزمن الذى بلغ فيه سن العمل والتفكير ، فبنى مذهبه على ما استخلصه من المشاهدة والمطالعة ، وكان يقول إنه يطالع ليمسح من ذهنه بعض ما تعلمه فى صباه ، فهو يطالع لنسيان بعض القديم كما يطالع لتحصيل بعض الجديد.

ويعتبر سوريل أستاذاً لكثير من الكتاب فى فلسفة الحكم والسياسة، ومنهم باريتو وميشل اللذين كتبنا عنهما فى

هذه الرسالة ، وكان موسوليني يقول : « إن الذى جعلنى أنا ما أنا لست مدينا به لنيتشه ولا لوليام جيمس ، بل لسوريل »

ومن عجائب الخصائص التى امتاز بها سوريل أنه يصلح أن يكون أستاذاً لأناس يخالف بعضهم بعضا مخالفة النقيض ... لأنه فى طوية نفسه محافظ متمرد ، ويتوقف على فهم هذه الطبيعة فيه فهم كل ما آمن به وكل ما أنكره من المعتقدات والأخلاق .

كان فرنسيا من النورمانديين ، فيه ما فيهم من طبيعة الجد والمحافظة ، فهو لا يتمرد لأنه يحب الإفلات من الواجبات والمأثورات ، بل يتمرد لأنه يقدس الواجبات والمأثورات ويشمئز من التبذل والإباحة والانطلاق مع الشهوات والصغائر ، ولعل استقامته فى حياته الزوجية مثل فريد بين الأكثرين من دعاة الثورة وأنصار التجديد .

ويمكننا أن نعرف الطريق التى تنفتح أمام هذا الثائر المتمرد إذا عرفنا الآراء التى كانت طاغية فى زمانه على الأفكار ، فهناك نزعة تمرد أمام كل رأى طغى على سائر الآراء ، ومن ثم كانت ثورة سوريل على مذهب داروين وعلى تقديس العلم والعقل وعلى عصمة الحياة النيابية ، وثورته على الشيوعية الماركسية كذلك .

ولد سوريل فى شربورج وتعلم فى مدارسها ثم تخرج من مدرسة الصناعات والفنون بباريس واشتغل بهندسة الطرق والقناطر إلى أن بلغ الخامسة والأربعين وحصل باجتهاده وأمانته على وسام فرقة الشرف ، ثم ثقلت على نفسه آفات الفساد والاختلاس فترك الهندسة وعول على الدعوة إلى إصلاح المجتمع من حيث يقدر له الصلاح .

وران على ضميره شعور الاشمئزاز فملكته فكرة الانهيار والتداعى ، فراح يكتب عن تداعى العالم الحديث كما يكتب عن تداعى العالم القديم ، وليس أكثر فى كتاباته من كلمات الانحلال والانحطاط والخراب مقترنة بوصف النظم الاجتماعية التى وجب فى عرفه أن تنهدم أو تزال كما تزال الأنقاض.

واتفق أنه تصدى للسياسة والفرنسيون خاصة يتحدثون عن آخرة الزمن Fin de Siècle لاقــتراب نهاية القرن التاسع عشر ، كأنما هم يتحدثون عن اقتراب يوم القيامة ! فوافقت هذه النغمة شعوره بانحلال كل شىء وحاجة كل شىء إلى إعادة البناء .

وقد أسلفنا أن الأفكار الطاغية فى كل زمن من الأزمان تدلنا على الوجهة التى تنفتح بطبيعتها أمام المتمرد فى ذلك الزمن .

ولهذا تمرد سوريل — كما أسلفنا — على مذهب داروين وعلى تقديس العلم والعقل وعلى عصمة الحياة النيابية ، كما تمرد على الشيوعية الماركسية .

ففى أواخر القرن التاسع عشر بلغ مذهب داروين أوجه من الشيوع بين المفكرين فاستهوى إليه الباحثين والمتكلمين فى المجالس عن محدثات العلوم ، وكان المذهب كما شاع يومئذ يقوم على نظرية تنازع البقاء ونظرية التقدم والارتقاء ، وهو خطأ فى ترجمة كلمة التطور وقع فيه القراء الأوربيون كما وقع فيه قراء المشرق فى أوائل عهدهم بهذه النظريات ، لأن التقدم Progress لا يلزم من القول بتطور الحياة وتطور الأشياء على العموم

أنكر سوريل كلتا النظريتين . فقال بتنازع القوة والسيادة بدلا من تنازع البقاء ، وقال بالدورات التاريخية بدلا من التقدم المطرد فى أدوار التاريخ ، وقد رجع فى الإيمان بإرادة القوة إلى نيتشه ورجع فى القول بالدورات إلى فيكو Vico الذى يقول بنكسة الحضارة إلى البربرية وتجدد الحضارة كرة أخرى من غمرة البربرية دواليك على طول الزمن إلى غير انتهاء

وكان العلم الحديث قد أرسل معاوله لهدم كل معتقد قديم ووقر فى أذهان بعض أنصاره أنه قادر على تفسير

كل سر من أسرار الطبيعة والنفس البشرية ، وقادر على إصلاح كل عيب من عيوب الاجتماع .

وبدأ رد الفعل على هذه الدعوى فى إبان الوقت الذى تحول فيه سوريل من الهندسة إلى السياسة ، فثار على دعوى العلم بل ثار على العقليين الذين يعالجون مسائل الأخلاق ومشكلات الاجتماع كأنما هى كلها قضايا عقلية تخضع للمنطق والتعليل ، ووافقت ثورته هذه ظهور مذهب برجسون القائل بدفعة الحياة وظهور مذهب وليام جيمس القائل بأن « العمل الواقع » هو مقياس الحقيقة ، وامتزج المذهبان فى رأى سوريل فأنحى على الفلاسفة الأقدمين والمحدثين الذين حسبوا أن الإقناع كاف للإصلاح وأن الأخلاق منوطة بتعريفات العقول والعلوم ، وعد من عيوب المجتمع « البرجوازى » أو مجتمع الطبقة الوسطى أنه يعتمد على الإقناع فى جميع الأمور ، ولا يلتفت إلى الفضائل الحيوية وبواعث العمل من أعماق السرائر والطباع .

وكفر سوريل بالأحزاب البرلمانية جميعاً ، وطوى لبه على إيمان لا يتزعزع باستحالة الإصلاح والإنقاذ على يد حزب من هذه الأحزاب ، وزاده إيمانا بذلك أنه خاض معركة الدفاع عن الضابط دريفوس فلم يلبث أن لمس بنفسه كيف

يعرض المسخ لكل حركة نبيلة فى معترك السياسة ومنازعات الأحزاب ، وأيقن أن الجمهور الغالب بين سواد الناس لا ينساق لدعوات النبل والأريحية ولا تجدى مخاطبته بهذه الدعوات على أى نحو من الأنحاء ، وإنما تجدى الدعوة إلى الأريحية النبيلة إذا خوطبت بها نخبة مختارة من المطبوعين على الإقدام والمفاداة ، وخرج من تعقيبه على تواريخ النهضات جميعا بفكرة لازمته طوال حياته ، وهى أن نهضات الأديان والحضارة كانت على الدوام من عمل نخبه قليلة élite تفرض مشيئتها على الكثرة الكبرى فتنقاد لها كما ينقاد القطيع لرائده أو لراعيه .

واشترك سوريل فى السياسة العالمية أيام الدعوة إلى السلام وفض المشكلات بالتحكيم والوئام ، فنفرت نفسه من هذه الدعوة لأنه اعتقد أن آفة الإنسانية فى زمانه هى الاستكانة إلى الدعة ، والركون إلى الرغد والرخاء ، وتهيب الإقدام على أخطار البطولة والفداء ، وهى الأخطار التى لا غنى عنها لاستنقاذ « المجتمع البشرى » من الإسفاف والابتذال والنهوض به إلى المثل العليا وعظائم الطموح والآمال الجسام .

* * *

ولا يكتم سوريل أن آراءه هذه فى مجملها تنم على التشاؤم

وأنها صريحة فى السخط والنقمة ، بل هو يجهر بتفضيل التشاؤم على التفاؤل ويزعم أن المتفائلين لا يعملون شيئاً لأنهم يتخيلون أن الحوادث تجرى فى مجرى الصلاح والأمل بغير حاجة إلى جهود المصلحين وذوى الآمال البعيدة ، وقد غلا فى تشاؤمه أحيانا من غباء الجماهير التى يريد إصلاحها كما قدمنا ، وكان طوال حياته من أنصار الكاتب المعروف لقراء العربية جوستاف لوبون الذى يقرر أن الجماهير تعبد السادة ولا تبرح على استعداد للإقبال على « قيصر » يروعها بقوته وجبروته ، ولم يكن هو يكره أن تلتف الجماهير حول « قيصر » يلهب حماستها ويستنهضها لغايتها ، ولهذا جنح فترة من الزمن (١٩١٢) إلى حزب اليمين المتطرف الذى اشتهر باسم « أكسيون فرانسيز » Action Francaise لأنه الحزب الذى يؤمن بالعمل والقوة ويقدم النظام على الحرية وينكر المجالس النيابية فى صورتها الحاضرة ، ومن الواجب أولا فى عرف سوريل أن تنصرف الجماهير عن لغط الديمقراطية وتلتف حول راية واحدة ، ثم تسعى بها النخبة المختارة إلى غايتها المنشودة .

أما هذه الغاية المنشودة فهى موضع الافتراق بينه وبين أصحاب المذاهب الأخرى . فهو مع إقباله على مذهب كارل ماركس فى أوائل شبابه يخالفه كل المخالفة فى جدوى المساعى

السياسية والاعتماد على الحكومة ، وهو كذلك يخالف الاشتراكيين النيابيين ويعتقد أن حكومتهم إذا قبضوا على زمام الدولة لن تختلف عن حكومات النبلاء أو الطبقة الوسطى .

إلا أنه — مع مخالفته لكارل ماركس — يدين بقوة العوامل الاقتصادية ويستند إليها فى اختيار الحركة التى تؤدى إلى الإصلاح . فلا بد من التعويل على طبقة اقتصادية لإنشاء المجتمع الجديد ، ولن تكون هذه الطبقة بالبداهة طبقة العلية لأنها هى التى فسدت وجنت بفسادها على المجتمعات الحاضرة ، ولن تكون هى الطبقة الوسطى لأن أوساط الناس يتحرون الأمثلة العليا التى يتحراها علية الناس ولا يجدون فى شئون معاشهم موضعا لفكرة جديدة يجرون وراءها لتقويض مجتمع وإقامة مجتمع فى مكانه . فلم يبق إلا سواد الدهماء من الأجراء والمعوزين للنهوض بأمانة الرسالة الجديدة وراء هذه « النخبة المختارة » .

وعلينا أن نذكر دائما إعراض سوريل عن التفصيلات العلمية والبرامج المعقولة التى يتوخاها الطوبيون إذ يتوهمون أنهم مطلعون سلفا على كل خطوة من خطواتها فى الحاضر والمستقبل . فأمثال هذه البرامج لا تقدم ولا تؤخر فى حوادث التاريخ ،

ولا يبلغ من أثرها أن تستجيش نفوس الجماهير وتلهب فيها الحماسة والنخوة وترتفع بها إلى التفدية والاستشهاد .

إنما اللازم فى هذه الحالة خرافة أو أسطورة أو أمثولة أو فكرة ساحرة ، ولا يلزم عند عرض هذه الفكرة إلا أن تروق السامعين بصيغتها وتلقى فى روعهم أنها قابلة للإنجاز فى جملتها ، ومهمة النخبة المختارة هى توكيد هذه الفكرة بالتكرار والتعزيز والعمل الذى لا يحجم عن العنف إذا اقتضاه .

ويسمى سوريل هذه الفكرة « Myth » وهى فى اللغات الأوربية تقابل الخرافة والأسطورة كما تقابل الشخص المتخيل أو المثالة التى يتمثلها من ينظر إليها ولا يكاد يتبينها ، وقد اخترنا لها كلمة الأمثولة لأنها وسط بين معنى الفكرة ومعنى الخرافة . فإنسوريل لا يبلغ بمعنى الكلمة أن تكون فكرة قابلة للدرس والبرهان ، ولا يبلغ بها أن تكون خرافة يعلم السامع لها أنها خرافة لا تثبت فى عالم الواقع ، وقد قال فى تعريفها إنها لا تقبل التفنيد لأنها مشروع عمل ومحاولة ، فكل ما يقال عنها إذا أخفقت أنها لم تتحقق اليوم وسوف تتحقق فى المحاولة التالية .

والأمثولة التى اختارها سوريل لتكويف الجماهير حول

الراية هى « إضراب عظيم » تتحفز نقابات العمال والصناع لإعلانه فى وقت من الأوقات ، ولا ضير فى تصويره لهم فى صورة الواقع القريب .

وفحوى الأمثولة أن تعرض الطبقة الفقيرة عن الانتخابات وتنصرف بجهودها كلها إلى تنظيم النقابات وإعدادها ليوم « الإضراب الأعظم » متى تم لها أن تقبض على أزمة الإنتاج فى المجتمع كله . ويومئذ تضرب عن العمل وتشل حركة الطبقة العليا والطبقة الوسطى وتبرم أمرها فى إدارة المرافق العامة وتوزيع مطالب المعيشة بالمبادلة والمقايضة أو بأسلوب المعاملة الذى تمليه الضرورة فى حينها .

أيمكن هذا ؟

فى رأى سوريل أنه يمكن ، ولكنه يرى أيضا أن المهم هو فعل « الأمثولة » فى نفوس المتمثلين بها لا إمكان وقوعها بجميع أجزائها ، وقد يقع الإضراب الأعظم أولا يقع على طول الزمن ، ولكنه ينفع فى بلوغ غرضه ويؤدى إلى نتيجة تهدى إلى ما بعدها .

فالأمانى التى أذاعها الحكيم الإيطالى « ماتسينى » بين قومه كانت كأضغاث الأحلام فى رأى النقاد « المعقولين » . . ولكن إيطاليا الحديثة لم تكن لتصبح شيئاً مذكورا فى العالم

الأوربى لولا تلك الأمانى والأحلام .

وجنود نابليون بونابرت كانوا يقدمون على « الاستشهاد » إيمانا بمجد البطولة ومجد الدولة ، وهم يعيشون ويموتون فى فاقة لا ينفعهم فيها هذا المجد ولا ذاك .

وبعد فمن ذا الذى يسوغ له أن يدعى الجزم بما يكون أولا يكون من أطوار الجماعات البشرية فى المستقبل البعيد ؟

إن العقائد الكبرى قد انتشرت بين أتباعها لأنها ملأت قلوبهم بالثقة وعمرت صدورهم بالأمل ووافقت منهم دخيلة السخط على ما هم فيه ، ولم تنتشر لأنهم عرضوا وعودها على موازين الاحتمال فرجحت عندهم كفة الإمكان . . . ويقول سوريل إن الدين الذى يوضح كل عقيدة بالعقل والبرهان يضعف ويتزعزع وإن الدين الذى يترك للغيب المجهول محلا من الضمير يقوى ويستقر ، وبهذا يعلل غلبة الكثلكة على اللوثرية فى الديانة المسيحية .

يقول : إن البدعة الحديثة التى جاء بها القرن التاسع عشر قد خيلت إلى جماعات المتعالمين أن العلم التجريبى قادر على شق الحجب والنفاذ إلى غياهب المستقبل : « ولأن الفلكيين سجلوا جداول القمر ترى المتعالمين يتوهمون أن غاية العلم كله هى استطلاع المجهول بدقائقه وخفاياه ،

ولأن فرييه Verrier قد استطاع أن يومئ إلى موقع السيار نبتون الذى لم يكن مرئيــا قط وكان فرض وجوده مفيدا فى تعليل الاضطراب على السيارات المرئية — ترى المتعالمين يتوهمون أن العلم قادر على إصلاح عيوب المجتمع والإيماء إلى الخطط التى تزيل المساوئ من هذه الدنيا . ومن الجائز أن نعتبر أن هذا هو تصور الطبقة الوسطى للعلم وأنه على التحقيق يطابق النزعة الفكرية التى هيمنت على رءوس أصحاب الأموال حين رأوا أنهم — مع عجزهم عن الإحاطة بشئون مصانعهم — يجدون على الدوام المخترع الألمعى الذى يخرجهم من ورطاتهم ، وكأنما كان « علم الطبقة الوسطى » طاحونا تخرج لنا حلولا لجميع المشكلات التى نلقاها فى طريقنا ، فليس العلم إذن وسيلة من وسائل إتقان المعرفة ، بل هو حيلة لتحصيل بعض المنافع المطلوبة » .

وكذلك يتقى سوريل إعتراض العلماء والباحثين المحللين على فكرته العزيزة التى ساهم بها فى حركة الثورة النقابية ، وهى الإضراب الأعظم .

ونقول إنه ساهم بها فى الحركة النقابية لأن الحركة النقابية فى ذاتها كانت قائمة منتشرة قبل انتمائه إليها ، ولكنه برز فيها لأنه اشتهر بتوكيد أمثولة الإضراب الأعظم وساعد على تدعيم الحركة

النقابية بنظريات الفلسفة وعلم الاجتماع ، وقد أراح نفسه وأراح أصحابه من مؤونة المناقشة والجدل حول هذه الأمثولة ، فتقرر لديه أن العلم مخطئ فى ادعائه الإحاطة بما ينجم عن التبشير بالإضراب الأعظم ، ولكن المبشرين به غير مخطئين لأنهم على يقين من إنجاز شيء على سنة العمل والتغير التى حلت فى اعتقاده محل سنة التقدم والارتقاء .

وقد أسلفنا أن الرجل صالح لأن يتتلمذ عليه المتفقون والمتناقضون ، ولعل طبيعة الحركة النقابية نفسها ترشحها للالتقاء بكثير من المذاهب على فرط ما بينها من التناقض والافتراق .

فهى تلتقى بالفوضية لأنها تنكر الحكومة وتنفى عن برنامجها استخدام الجند والشرطة فى مجتمعها الذى تسوده بعد نجاحها ، وتصر على أنها إذا بلغت من القوة أن تستخدم الجند والشرطة فقد بلغت من القوة ما يكفى لإدارة المجتمع بالنقابات دون غيرها ،

وهى تلتقى بالشيوعية لأنها تؤلب الأجراء والفقراء وتعتبر الحرب بين الطبقات أصلا من أصول الأطوار الاجتماعية .

وهى تلتقى بأحزاب اليمين المتطرفة لأنها تحارب الديمقراطية والحكومة النيابية وتكل الأمر إلى النخبة الممتازة دون الكثرة المغمورة .

بل هى تلتقى بالمصلحين السياسيين من رجال الكنيسة الذين يقترحون الحكومة التعاونيــة Corporative State لحل مشكلة الطبقات ، فإن التعاون يقوم فى بدأ الأمر على نقابات .

ولا يرى أحد من المطلعين على مساعى الدعاة الاجتماعيين والسياسيين — ما ظهر منها وما بطن — أن الحركة النقابية تتقدم فى العالم وتؤذن بالامتداد والاتساع ، فربما كان أهم سبب للهتاف باسمها أن النقاد نسبوا نجاح الفاشية الإيطالية والنازية الألمانية إليها ، وزعموا أن موسولينى طبق نظام النقابات فى مجلسه النيابى تنفيذاً لآراء سوريل الذى أعلن غير مرة أنه من تلاميذه !

بيد أنه «نجاح معكوس» أن ينتهى إنكار الحكومة إلى تركيز السلطان كله فى أيدى الحكومة ، فربما كان القول بإفلاس النقابية لهذا السبب أصح من القول بنجاحها لأجله ، ولاسيما بعد انهيار الفاشية والنازية وبعد تجربتهما فى الدولتين على أوسع نطاق .

والظاهر أن « النقابية » مبتلاة بداء أصيل يتعذر شفاؤه ، إذ هى تصاب مما يبدو أنه موطن القوة فيها . فعلة فشلها لاصقة بعلة رواجها لا تنفصل عنها .

إن من شواهد القوة — فى الظاهر — أن تلتقى المذهب بعدة مذاهب تتناقض فيما بينها كما تتناقض الفوضية والشيوعية أو الفاشية والحكومة الدينية ، ولكن هذا بعينه هو مكمن الضعف فى المذهب حيث التقى وحيث افترق ، إذ هو يتشعب ويتوزع ولا يصب قوته كلها فى اتجاه واحد ، فله ممن يؤيدونه من جهة محاربون مستميتون فى حربه من جهة أخرى ، كلما وصل إلى الفعل الحاسم والتنفيذ الأخير .

وإذا جاز الأخذ بالأرقام المسجلة فى أسانيد المصانع وأسانيد الهيئات الثورية فهذه الأرقام تدل على تناقض النقابيين فى جميع البقاع التى ظهروا فيها ، وكأنما يطرد النقص فى عددهم ورواج دعوتهم فى كل قطر تقدمت فيه الصناعة والحكومة النيابية . فهم على حظ من الرواج فى أمم أمريكا اللاتينية وكانوا على حظ من الرواج فى أسبانيا الجمهورية ولكنهم يتأخرون ولا يتقدمون بين صناع الولايات المتحدة والجزر البريطانية .

ففى الولايات المتحدة نشأت طائفة من العمال على غرار النقابات الفرنسية وسميت هناك « باسم عمال الدنيا الصناعيين » وهى الطائفة التى يشار إليها بحروف (I. W. W.) اختصاراً لاسم Industrial Workers of the World ولكنها لم تلبث أن عكفت

على نفسها وانعزلت عن صفوف الحركة العمالية فى أنحاء الولايات من أقصاها إلى أقصاها ، فبقى فيها الطارئون المهاجرون وقيل على سبيل الفكاهة إن عمال أمريكا طبقتان : طبقة أرستقراطية وهى التى اشتملت على المحنكين الأصلاء وطبقة عامية وهى التى اشتملت على هؤلاء الطارئين الغرباء ، وقد أصاب الفرع الكندى والفرع الأسترالى ما أصاب زملاءهم فى الولايات .

أما الجزر البريطانية فالذين بقوا من عمالها خارج النقابات التى تدين بالجهود البرلمانية لا يزالون فى الوقت نفسه خارج النقابات الثورية التى تنكر البرلمان والحكومة ، وقد اتخذوا لهم عنوانا آخر باسم الاشتراكية النقابية Guild Socialism وخالفوا النقابيين الثوريين فى إنكار الحكومة معلنين أن بقاء الحكومات لا يضير «المصنع» إذا اشتغل بإدارته على الأصول الاقتصادية .

وسوريل نفسه قد ختم حياته وهو على يأس من النقابيين الثوريين فاعتزلهم واعتزلوه ، وشيعته الصحافة الشيوعية الرسمية بأوصاف لا ترضى تلاميذه من قبيل : « الرجعى والبرجوازى والفوضى والبرودونى — نسبة إلى برودون Proudhon —» ذاكرة له فقط أنه كان يعمل على إضرام الثورة ما استطاع .

ولم يكن الرجل ذا وجهين باختياره ، ولكنه كان على

الرغم منه ذا وجوه شتى يلاقي بها أقصى اليسار وأقصى اليمين ، فأدركه حظ من تعددت وجوهه ، فلم يكن وجيها عند هؤلاء ولا هؤلاء .

باريتو Pareto

١٨٤٨ – ١٩٢٣

ڤلفريدو فردريكو داماسو باريتو هو وريث أسرة إيطالية نبيلة ، كان أبوه من أنصار «ما تسينى » إمام الوطنية الإيطالية وأقام زمنا فى فرنسا فتجنس بالجنسية الفرنسية وقضى حياته منتصرا للمبادئ السياسية المتطرفة ، وولد له ابنه « باريتو» صاحب المذهب الذى نحن بصدده فى باريس حيث نشأ وتعلم وتخرج من مدارسها ومدارس تورين .

وقد خلف باريتو أباه فى هندسة السكة الحديد الإيطالية ، ثم اشتغل بهندسة المناجم وعكف فى أثناء ذلك على مذاهب الفلسفة الحديثة وأهمها فى إبان نشأته مذهب أوجست كونت إمام المدرسة الوضعية ، وقد خرج من دراساته وتجاربه مناقضا لرأى أبيه فى إيمانه بمبادئ الحرية المتطرفة ، فكان من أنصار حرية التجارة ولكنه كان يشعر بخيبة الأمل من جراء إخفاق الحكم الديمقراطى فى بلاده وفى بعض الأمم الأوربية الأخرى ، ولما أعياه تقرير مذهبه فى الاقتصاد

وفى السياسة بين أبناء وطنه تحفز للهجرة منه ولبى أول دعوة وصلت إليه من سويسرة لتعليم الاقتصاد السياسى بجامعة لوزان ، وهناك توفر على بحوث الاقتصاد ثم على التوسع فى دروس الحكم واستخلاص القواعد التى تقوم عليها النظم الحكومية ، وانتهى منها بالرأى المفصل الذى شرحه فى كتابه الضخم المترجم إلى اللغة الإنجليزية باسم العقل والمجتمع
Mind and Society

ويعتبر باريتو أعلم هذه الزمرة من فلاسفة الحكم فى العصر الحديث ، فهو على علمه بالرياضة صاحب نظريات وتعريفات فى علم الاقتصاد عن القيمة والدخل والطلب ورأس المال والسعر يعول عليها الاقتصاديون ويحلها الموافقون لها والمتشككون فيها محل الاعتبار ، وكتابه الذى تقدم ذكره أوفى الكتب مراجع من أمهات التواريخ والثقافات الغابرة والحاضرة ، وأحفلها بالأسانيد والأمثلة والقرائن التى عنى بتقسيمها وتبويبها على نهج المناطقة والعلماء التجريبيين ، فهو فى مجلداته الأربعة الضخام أوفى كتب الفلسفة السياسية التى وضعها الأقدمون أو المحدثون إلى اليوم .

ومع شغف الرجل بوضع القوانين وتسمية النظريات لم تغرر به الثقة إلى الجزم بعصمة القوانين التى تتعلق بأطوار

المجتمعات الإنسانية . ففى وسعك أن تقول إن التاريخ يكرر نفسه كما فى وسعك أن تقول إنه لم يكرر نفسه قط على حسب الوجهة التى أنت ناظر إليها ، فإذا نظرت إلى جوهر العوامل التاريخية فهناك تكرار لا شك فيه ، وإذا نظرت إلى العوارض الظاهرة فليست هناك عارضة تشبه غيرها كما تشبه النسخة من الكتاب نسخة أخرى ، ومن كلامه فى تقديم نظرياته :
« إن القوانين التى تسمى بقوانين العرض والطلب لا يمكن أن تستخلص من الإحصاءات وفاقا للمقادير والأثمان التى ترصد لبضاعة ما مجلوبة إلى السوق . فإذا قال الاقتصاديون إن زيادة العرض تؤدى إلى هبوط الثمن فهم يقررون قانونا عن حالة مثالية يندر أن تشاهد فى عالم الواقع ، ويجب أن نلاحظ فى تطبيق نظريات الاقتصاد أنه من الوهم أن نعتقد أننا أقرب إلى الواقع حين نبدأ بقانون العرض والطلب مما نكون حين البدء بقانون الاستعمال والمنفعة الذى ذهب إليه الاقتصاديون الأولون أو قانون هامش المنفعة أو الندرة أو المحدودية وغيرها من قوانين الاقتصاديين المتأخرين ، ومهما نصنع فنحن فى النهاية راجعون إلى التجريدات العامة ولا يسعنا أن نصنع غير ذلك » .

فلا محيص إذن من التفرقة بين القوانين التى يثبتها التطبيق

طردا وعكساً كقانون الجاذبية فى الفلك مثلا وبين القوانين التى تبنى على حشد الأمثلة والمقارنات وتلجئنا إلى الخوض فى كثير من المشابهات والمفارقات ، ثم تؤخذ الحقائق فيها بالتغليب فى غيبة ما هوأولى منها بالاعتماد عليه ، وأصدق منها فى تفسير العدد الأكبر من الوقائع والأطوار .

بذلك الاطلاع ، وبهذا التحفظ ، تقدم « باريتو » إلى شرح نظريته المستفيضة فى نظم الحكومة ، وهذه خلاصة منها كأوجز ما يمكن أن تلخص ألوف الصفحات فى بضع صفحات صغار .

* * *

أول ما يقرره باريتو أن أعمال الإنسان لاتقترن كلها بالتعقل ولا بمعرفة الأسباب ولا تكون الأسباب التى تعزى إليها هى الأسباب التى توحيها ، ولا سيما الأعمال التى تدور عليها سياسة المجتمعات .

فهناك أعمال تعقلية أو منطقية ، وهى الأعمال التى لها غايات معلومة ووسائل مرسومة ، كالمنضدة يصنعها النجار ، والكتاب يصنفه المؤلف ، والقصر يشيده البناء ، والصورة ينقشها الرسام .

وهناك أعمال لا تخضع للتعقل ولا يتابعها التعقل إلى نهاياتها ، ومنها السعى إلى الأمثلة العليا ، أو أحلام السعادة

الأبدية ، أو الأنظمة المثالية فى المجتمعات . أو ما شاكلها من المطالب التى لا تتضح غاياتها ولا تتفق العقول على وسائلها .

ونحن فى الاصطلاح نسمى الأعمال الأولى بالمنطقية ونسمى الأعمال الثانية باللدنية أو الغريزية ، ونفضل اللدنية لأن الغريزة قد تتصل كثيرا بالمعقولات .

ولهذه الأعمال جميعاً من النفس البشرية مصدران : مصدر الجذور ومصدر المشتقات .

فالجذور قلما تتغير من زمن إلى زمن ، والمشتقات هى التى تتغير بالأسماء والتعبيرات الكلامية والفنية ، ويكثر تغييرها عند ما يزول نظام من أنظمة الحكم ويخلفه نظام آخر ، فلا بد لكل نظام من مشتقاته ومصطلحاته ، مع بقاء الجذور فى الغالب على ما كانت عليه .

والجذور على الدوام هى المصدر الأكبر للأحداث السياسية ، فإنما المشتقات تفسيرات لا يهم كثيرا أن تتفق أو تختلف ، ما دامت الجذور هى الأساس المكين .

لهذا يتفق فى التاريخ أن تعترف الأمم بغاية واحدة ودين واحد ولكنها تتناحر فيما بينها كأنها متشعبة المقاصد متناقضة الآمال ، لأن مقاصدها وآمالها هى المشتقات العرضية ومن ورائها الجذور الكامنة على الدوام بغير تبديل .

وكذلك يتفق أن تتفرق الأمم شعارا ومقصدا وتجتمع في صف واحد أمام عدو واحد ، لأن حركاتها تصدر من جذورها ، وجذورها على وفاق عند انقسام الأصدقاء والأعداء .

وقد عرض باريتو ألوف الحوادث والصروف التاريخية والدوافع النفسية ثم ردها جميعا إلى ستة أنواع من الجذور .

النوع الأول سليقة التوفيق Combination وهي السليقة التي توحي إلى الإنسان أن يوفق بين كيانه وبين مؤثرات الكون الذي يعيش فيه ، ويصدر عنها السحر والاعتقاد في بعض النجوم أو الأرقام أو الطوالع والبخوت ، كما يصدر منها ربط الوقائع العلمية وربط المشروعات الكبرى وكل محاولة لتقرير مركز الإنسان بين ما يحيط به من المؤثرات والآثار .

والنوع الثاني سليقة المثابرة والصيانة Group Pe[illegible]istences وهي الكفيلة بحفظ تلك التوفيقات والغيرة عليها والدفاع عنها ، وإليها ترجع المحافظة على تقاليد الأسرة والأمة وضروب العقائد والعادات .

والنوع الثالث سليقة التعبير بالكلام والعمل ، وإليها ترجع الإعراب عن شكايات المجتمع ومقترحات الإصلاح

والنقمة من خروج بعض الناس على التوفيقات والتقاليد والاجتهاد في ردهم إلى ما يعتبره العرف سواء السبيل .

والنوع الرابع سليقة العلاقات الاجتماعية ، وإليها يرجع عرف الناس في صلات بعضهم ببعض آحادا وأسرا وطوائف وطبقات وهي سليقة وثيقة الارتباط بالنوعين الأولين .

والنوع الخامس سليقة السلامة وهي تتعلق بفرد فرد من آحاد المجتمع ، ثم هي سليقة يحكمها العرف والعادات ، ولأجلها يتشبث كل عضو من أعضاء المجتمع بسلامة حوزته ويعقد الصلة بينها وبين معالم الحياة الاجتماعية خشية ما يصيبه في سلامته من جراء المساس بتلك المعالم ، عدا ما يساوره من الغيرة على معالم الاجتماع بغير نظر إلى سلامته « الشخصية » .

والنوع السادس سليقة الجنس ، والمقصود بها عرف السليقة الجنسية لا مجرد الرغبة المتبادلة بين الجنسين ، وعن هذه السليقة تصدر الطواطم الاجتماعية والمحظورات وقضايا الأخلاق وما يصح أن يسمى بالعقد النفسية في الجماعات والآحاد وخرافات الحمل والولادة وخصائص الذكور والإناث والأبناء والبنات .

* * *

تتجمع هذه الجذور — متحدة أو منفصلة — فى أساس كل حركة سياسية تشمل المجتمع فى حالتى المحافظة أو التجديد ، وهى كما تقدم لا تتغير من جيل إلى جيل إلا فى صورها وتعبيراتها الظاهرة وهى المشتقات والفروع .

وقد أحصى باريتو هذه المشتقات فأدخلها فى أربعة أنواع : أولها هو مرجع الحكم الاجتماعية والقواعد السياسية التى يتخذها الناس قضايا مسلمة يرددونها أحيانا بغير بحث عميق فى معانيها ، وقد تكون صحيحة أو غير صحيحة ، وقد تكون صحيحة فى أوقات وغير صحيحة فى أوقات أخرى ، ولكن المهم هو سريانها فى العرف لا مقدار ما يتحراه القائلون بها من الصحة والتحقيق ، ومن أمثلتها قولهم : « فى التأنى السلامة وفى العجلة الندامة و « الظلم مرتعه وخيم » و « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به » و « الناس أكفاء أبوهم آدم وأمهم حواء » و « صوت الشعب من صوت الله » و « الإحسان منجاة من السوء » و « رأيان أفضل من واحد ورأى الثلاثة لا يخطئ » و « خير لك أن تصاب مظلوما من أن تصيب ظالما » ومانحا هذا النحو من حكم الأخلاق الاجتماعية التى يستشهد بها فى المواقف السياسية ، وأقواها وأنفذها ما كان موجزا يسهل

تكريره على صيغة واحدة .

والنوع الثانى من المشتقات هو الذى يوحى إلى النفس الاطمئنان إلى المصادر والأسانيد التى تستمد من أقوال المشهورين الموصوفين بالثقات . فما قيل قد يما يتلقاه الخلف بالتسليم ولو لم يكن هناك برهان فى الحاضر أو الماضى على صدقه ونجاح المعتمدين عليه .

والنوع الثالث هو المبادئ التى يحسن وقعها فى الشعور أو توافق المقررات الشائعة فى زمن من الأزمان ، وبهذا النوع من المشتقات يتمكن الدعاة من ترويج أقوالهم بما يسمونه « إرادة الشعب » أو « المصلحة العامة » أو « حرمة الوطن » أو « حقوق الإنسان » أو « التضامن الاجتماعى » وما إليها من العبارات التى يصحبها شعور مبهم بالموافقة والحماسة .

ورابع الأنواع هو المجازات والكنايات التى يختلط فيها الواقع بالتخيل والتقرير بالتشبية والتمثيل .

وهذه المشتقات جميعا يطرأ عليها التغيير بين نظام ونظام من سلسلة الأنظمة الحكومية المتعددة ، والداعون إلى النظم الجديدة يعنون باستبدال مشتقات جديدة بالمشتقات القديمة التى يخشون أن تصدمهم وتعرقل حركاتهم كلما هجموا على

تراث غابر طالت مدته وتسلل إلى الوعى الباطن فى نفوس الجماهير ، ويعينهم فى معظم الأحوال على تغيير المشتقات أن تقترن بالنظم الحكومية التى تتابع سخط الرعية عليها وما زالوا يتبرمون بها حتى فقدوا الثقة بأقوال دعاتها أو سئموها وكرهوا تردادها ولو لم يفهموا بطلانها . إلا أن المشتقات الجديدة لن تخرج عن كونها صورا وتعبيرات لتلك الجذور الخالدة التى كمنت فى الطبيعة البشرية ولازمتها على تعاقب الحكام والحكومات .

ويسأل السائلون : لماذا تحدث الثورات وتتجدد الحكومات إذا كانت تقوم دائما على الجذور الكامنة فى الطبيعة البشرية .

وجواب باريتو عن ذلك فى كلمات معدودات هو قانون « تناوب الصفوة الممتازة لمقاليد الحكم بين الأجيال المتوالية » .

فمن الخطأ أن نتخيل أن الجماعة البشرية تظل على حالة واحدة لأنها لا تخرج عن طبيعتها البشرية .

فالجماعة البشرية خليط من الأنساب والأجناس والأمزجة والمدارك والمنافع والصناعات ، وقد تكون شروط بقائها معروفة بالنسبة إلى الجماعات الأجنبية التى تزاحمها ، ولكن الشروط الداخلية لا تستقر على حال ولا تطرد على نسق واحد بين جميع الأجيال .

فشرط البقاء فى معترك الأمم تتلخص فى المناعة والقوة ، وبغير مناعة ولا قوة لا أمان على الدولة من الضياع أو الخضوع لمن ينازعونها .

أما شروط البقاء للمجتمع فى حياته الداخلية فهى متقلبة متجددة ، وفقا للتقلب والتجدد فى تركيب عناصره وزيادة بعضها ونقص بعضها ، ونشاط فئة منها وانقباض فئة غيرها .

وقد كان من السهل أن نتوهم مصلحة واحدة للمجتمع الصغير فى الأزمنة الغابرة ، وأن نتوهم أن كل مواطن فى ذلك المجتمع يعمل مع إخوانه فى اتجاه واحد هو الاتجاه القومى الشامل للمواطنين أجمعين .

أما المجتمعات الحديثة فربما كانت لبعض أبنائها مصلحة تناقض مصلحتها فى أشد الأزمات التى تهدد كيانها ، كما يحدث فى إبان الحروب من التناقض بين أنصار التضخم والغلاء وأنصار الحرب على العموم وبين سواد الرعية الذين يقع عليهم عبء الغلاء وعبء القتال .

ففى مجتمعات كهذه تتصارع القوى وتتدافع المطامع ولا ينقطع التنافس على مراكز الحكم بين ذوى الحول والحيلة وهم لايصعدون إليها جميعا فى كل آونة ، بل يحدث على الدوام أن يكون هناك أناس مقصون عن الحكم وهم قادرون عليه

ولا يقلون قدرة عليه عمن تولوه بالحول أو بالحيلة .

وفى كل مجتمع فئات من العسكريين ورجال الدين وكبار الأغنياء والمفكرين والمغامرين والمحتالين على قلة أو كثرة فى العدد، وعلى رجاحة أو نقص فى المزايا الخلقية والعقلية ومن صفوة هؤلاء كلهم تتألف الحكومة وتستأثر بسلطان الحكم حتى تفقد مزاياها الأولى وتضعف عن حماية سلطانها فتخلفها على المهل أو على العجل صفوة أخرى يصيبها مع الزمن ما أصاب سابقاتها .

والأمثلة التاريخية التى يرى باريتو أنها تعزز رأيه تستغرق المئات من الصفحات ، وقد تلخص فى مثل عام يغنى عن الإسهاب فى السرد والتفصيل .

فئة من الأقوياء يثبون إلى مراكز الحكم فى حقبة مؤاتية ، يستعينون بأعوان من الدهاة وأصحاب الحيلة على توطيده وحل مشكلاته ، ويضعف الأقوياء كلما استسلموا للطمأنينة والمعيشة الرتيبة ، ويتهاون الدهاة كلما جازت الحيلة واستقرت عليها العقائد والعادات فلا يكلفون أنفسهم عناء التدبير والتفكير ، ومع ضعف الأقوياء والدهاة يسوء الحكم وتضطرب الحال وتتشعب مصالح الأشياع والخصوم ويتطلع إلى الحكم طراز آخر من الأقوياء والدهاة طال بهم التربص وانتظار

الفرصة ، فما هى إلا أن تسنح لهم حتى يثبوا وثبتهم ويعيدوا تمثيل الدور السابق كرة أخرى .

وبين الجذور الستة التى لخصناها فيما تقدم نوعان يرشحهما باريتو لولاية الحكم فى جميع الأدوار ، وهما النوع الأول الذى يشتغل بالتوفيق من سحرة وكهان ومفكرين وذوى احتيال وتصرف ويسميهم كما سماهم مكيافلى بالثعالب ، والنوع الثانى الذى يشتغل بالمثابرة والصيانة ويركن إلى القوة والإقدام والطبع الغيور ويسميهم مثله بالأسود ، ولا خوف على الحكم ما دام له حماة من ذوى الحول والحيلة ، ولكنه شرط لا يتوافر على توالى الزمن ، فلا يسلم المقتدر بحوله أو بحيلته من جرائر التواكل والإهمال ، ومن دأب أصحاب الحيلة أن يفقدوا الصفات العسكرية ، ومن دأب أصحاب الحول أن يفقدوا صفات الدهاء والمداورة ، وبمرصد لهم أناس يزيدهم التطلع همة ويزيدهم الأمل بأسا وشدة ، لا يقلون عنهم قدرة وقد يزيدون عليهم ، فتسنح لهم الفرصة لا محالة بعد انتظار يطول أو يقصر ولكنه لا يدوم إلى غير انتهاء .

« وهب أمة من الأمم لها صفوة حاكمة من النوع الأول الذى يشتمل على أوفر العناصر فى الرعية قاطبة حظاً من الحنكة والذكاء . ففى هذه الحالة تتجرد الرعية على الأغلب

الأعم من هذه المزية ويضعف أملها في الانتصار على الصفوة الحاكمة ما دام المرجع إلى الذكاء والحصافة . . . غير أن المعهود على الأغلب الأعم أيضاً أن أصحاب الحيلة والذكاء يفقدون الميل شيئاً فشيئا إلى استخدام العنف والقوة والعكس بالعكس في أمر أصحاب العنف والقوة ، ومن ثم يؤدى تركيز الذكاء في الأولين إلى تركيز العنف والإقدام في الآخرين ، ويختل التوازن بين الفريقين مع الاستمرار ، لأن أحدهما زاد حظه من الحيلة ونقص حظه من الجرأة والإقدام والثاني زادحظه من الجرأة والإقدام ونقص حظه من الحيلة ، فإذا حصل مصادفة أن ذوى الإقدام وجدوالهم زعيما يحسن الاحتيال وتصريف الأمور — وقد ظهر من المصادفات المتكررة في التاريخ أنهم لا يعدمون هذا الزعيم من بين الطائفة المتذمرة في صفوف الدهاة أنفسهم — فيومئذ يتهيأ لهم كل ما يلزمهم لإقصاء الحاكمين عن الحكم ، وهي الدورة التي لا عداد لتكرارها منذ فجر التاريخ إلى أوقاتنا الحاضرة » .

* * *

تلك صورة تقريبية تتكرر على مدى الزمن ، بيد أنها لا تتكرر على هذا الشكل دون غيره ، بل تتبدل أشكالها ويثبت منها شيء واحد من وراء تلك الأشكال المتبدلة ـ

فلا تفتأ صفوة تعلو وصفوة تهبط بالحول وبالحيلة على أساليب شتى ، تتراوح بين أسلوب سبرطة العسكرية وأسلوب أثينا الفلسفية ، وفى كل منها مزيج من السطوة والحصافة .

ويستخدم باريتو بعض مشتقاته أو مصطلحاته لتطبيقه على علم السياسة كالحكمة التى يقابلها عندنا قول القائلين « إن الناس على دين ملوكهم » .

فإنه يقرر أن الآداب والأخلاق فى كل مجتمع هى آداب الصفوة وأخلاقها ، وأن الرعايا يتشبهون بحكامهم إن لم يماثلوهم طبعا وعادة واستعدادا للتخلق بالأخلاق الاجتماعية ، ولا يزال المجتمع فى أمان ما دام المحكومون يدينون بالآداب والعقائد التى يعلنها الحاكمون ويحافظون عليها ، وقد يؤمن الرعايا بوصايا المسيحية التى تحرم القتل والسرقة والكذب وتحث على الإيثار والرحمة ويقعون فى تلك الأوزار ويتعدد بينهم من يعصون أوامر الدين وينتهكون وصاياه ، فلا يكون العصيان خطرا على النظام القائم كخطر الشك فى وجوب تلك الأوامر والوصايا . إذ ليس العصيان هدما للأساس الذى يستقر عليه النظام ، وإنما الكفر به هو الذى يهدم النظام ويعرضه للتصدع والانهيار .

ولا خطر على المجتمع من الذين يتشاءمون بوقائع الأخلاق

فيسخرون ممن يشيد بالفضيلة وينكرون أن الصدق ينجى صاحبه والكذب يوقعه فى المهالك كما يقال على ألسنة الوعاظ والمرشدين ، فإن هذا التشاؤم يحمل أحيانا محمل الغيرة على الصدق والسخط على الكذب والرثاء لمن يصابون فى سبيل الحق والفضيلة ، ولعل فى ذلك متنفسا للساخطين وبابا من أبواب الحض على إصلاح العيوب والتحريض على الآثمين .

وإنما الخطر على المجتمع ممن يسقطون تلك الفضائل والواجبات إيمانا بسقوطها ودعوة إلى عقيدة غير العقيدة التى توجبها ، فهذه هى علامة الخطر والتصدع فى البنية الاجتماعية ولن تتماسك بنية تتزلزل فيها قواعد الأخلاق .

وقد ينجم فى الأمة مصلحون ومجددون يخيل إليهم أن جلاء الحقيقة عن بعض الخرافات كاف لإزالة الآفات الاجتماعية وتقويم النظم والحكومات ، ويجوز أن يصيبوا كما يجوز أن يخطئوا والمجتمع على صواب . غير أنهم مخطئون حتما إذا خيل إليهم أن الجهل وحده هو العامل الذى يحول بين الناس وبين التصرف المنطقى المعقول ، فهناك عوامل غير الجهل تبقى مسيطرة على أعمال الناس ولو زالت من عقولهم جميع الخرافات والأباطيل ، ولم يعهد قط فى مجتمع مضى أن

الناس خلوا من جهالة أو خرافة وصمدوا على التفكير المنطقى فى شئون السياسة ، ولا يظن قياسا على هذا أنهم يخلون يوما من الجهالات والخرافات مهما يتقدم بهم العلم وتنكشف أمامهم مجهولات الكون والطبيعة البشرية .

وذهابا مع هذا الظن — بل نكاد نقول مع هذا اليقين — ينحى پاريتو على من يخلقون الأديان المنطقية فى زعمهم ويحسبون أنهم يعوضون بها الناس عن أديانهم التى ألفوها ، فليس أشد من إنحائه على جماعة المتدينين الذين يسمون أنفسهم بالإنسانيين Humanitarians ويتوهمون أنهم يصلحون الضمائر بدين يخلقون قداسته بتدبيرهم ، فإنه — على تقدير پاريتو — دين لا يحسب للمجهول حسابه ، وهو الجانب العميق الذى لا يتجاهله دين من الأديان .

وبعد فما هو النظام الذى يزكيه پاريتو ويوطئ له بمذهبه المستفيض الذى اضطلع بجهود الجبابرة لشرحه وتدوينه ؟

إنه لا يتشيع لنظام على نظام ، ولا يلقى بالا إلى فروق الأسماء والقواعد الشائعة أو ما يسميه المشتقات ويرى أنها فروع تقتلع أحيانا ولا تقتلع معها الجذور .

إنما هو يبسط الوقائع التاريخية كما وعاها ، ومن تلك الوقائع تبدو له حالة أفضل من حالات ولا يجزم أنها ميسرة

الوقوع بالطلب والاختيار .

فالحالة الفضلى هى أن تتولى الحكم صفوة ممتازة من ذوى الحول والحيلة وتتفتح الأبواب لتـــداول الصفوة كلما أخفقت طائفة منهـــا واستعدت طائفة أخرى للصعود إلى مكانها ، وأن تكون آداب المجتمع معتقدة مرعية لا يتشكك فيها الرعاة ولا الرعايا ، وتتفتح الأبواب هنا أيضا لتجدد الآداب على التدريج بغير حسم بين القديم والجديد يستلزم الصدام بينها لتقويض دعام وإقامة دعام .

ولهذا يتطرف باريتو غاية التطرف فى التوصية بحرية المعاملة وحرية التجارة ، وينتقد الطبقات الحاكمة التى تحجر على المعاملات ويدخل فى روعها أنها تستديم بذلك مصالحها ومصالح وارثيها . « فما من وسيلة لتوطيد السلم والأمان أنجع من أن تطلق الحرية للتجارة ويمتنع إتلاف الثروة » . وهو على طريقته فى الحساب الاقتصادى يفرض أن سنتيما واحدا خصص للتثمير فى عهد ميلاد السيد المسيح وجعلت فائدته أربعة فى المائة قد تنقص مع دوام السلم ووفرة الرخاء ، ثم يقدر : كم يبلغ هذا السنتيم فى سنة ١٩٤٠ بعد الميلاد ؟ إنه يبلغ على حسابه .

(٥ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠)
ريال .

كذلك يقرر من الوجهة الاقتصادية العملية ، لا من الوجهة النفسية وحسب — «أن أوفر الأعمال نتاجا هو العمل الذى يقبل عليه صاحبه برغبته ، وأقلها نتاجا ما يعمله لخشيته من العقاب » .

ولو جرى الناس فى مطالب حياتهم على سنة التعقل لما حجروا على المعاملات ولا حكموا فى الأعمال أمرا غير الرغبة والحرية ، ولكنهم فى رعايتهم للحرية والطلاقة ما كانوا قط أحراراً مطلقين .

جايتانو موسكا

١٨٥٨ — ١٩٤١

ولد هذا الفيلسوف السياسى فى نحو منتصف القرن التاسع عشر ، وتوفى فى نحو منتصف القرن العشرين ، فلو أنه اكتفى بما حدث فى مدى حياته من وقائع السياسة وخطوبها لاستطاع أن يتزود من هذه المادة الزاخرة ما يدعم به مذهبا كاملا فى أطوار الدول والحكومات .

ولد فى صقلية وهى مهد الوحدة الإيطالية ومعرض التاريخ الحافل بآثار الدول وغرائب العادات الاجتماعية من أقدم العصور .

ونشأ وهو يستمع الى قصص القتال بين الدولة الدينية المقدسة والدولة المدنية المستقلة ، وتلقى فى صباه أقاصيص الرواة عن غريبالدى وفكتور عمانويل وهى من أعجب الأقاصيص عن العلاقة بين القائد « الدكتاتور » والملك المختار ، ثم شهد القارة الأوربية وهى تنتقل من نظام إلى نظام من أنظمة الحكم على اختلافها بين ملكية مطلقة وملكية مقيدة وبين جمهورية

وإمبراطورية ، وبين انتخابية تضيق فيها حقوق التصويت إلى انتخابية تتسع فيها هذه الحقوق غاية مداها من الاتساع .

وعاصر فرنسا وهى تتحول من جمهورية إلى إمبراطورية ثم من إمبراطورية إلى جمهورية كرة أخرى ، وشهد قيام الدولة الجرمانية الموحدة كما شهد قيام غيرها من الدول الصغيرة فى أوربة الشرقية ، ولم تمض فى حياته فترة دون أن يسمع بنبأ من أنباء الثورات أو الفتوح ، وامتد به العمر حتى حضر الحرب العالمية الأولى وأحاط بكل ما تلاها من أسباب القلاقل أو أسباب قيام الحكومات وتنازعها وانهيارها ، وتم فى أيام نضجه تطبيق ثلاثة من المذاهب السياسية فى نطاق واسع بين أمم مختلفة الأجناس والثقافات ، فطبق المذهب الشيوعى فى روسيا وطبق المذهب الفاشى فى إيطاليا وطبق المذهب النازى فى ألمانيا ، وطبقت مذاهب أخرى تمتزج فيها هذه المذاهب على درجات من الامتزاج فى غير بلاد السلافيين والتيوتون واللاتين ، وعاش إلى ما بعد نشوب الحرب العالمية الثانية فكانت تلخيصا شاملا لكل ما عالجه من المشكلات القومية والعالمية ، وأكدت له من آرائه ما كان محتاجا إلى تأكيد .

وقد جنحت به سليقته إلى دراسة العلوم السياسية من

جوانبها التاريخية أو الفكرية ، فاطلع على تواريخ الأمم والحضارات فى المشرق والمغرب ، وإن تاريخ الدولة الرومانية وحده لكاف لاستخلاص عبر السياسة فى كل صورة وكل زمن ، ولكنه أضاف إلى العلم الراسخ بتفصيلات هذا التاريخ علما يضارعه بتواريخ الدول الشرقية من الصين إلى الهند إلى فارس إلى بين النهرين إلى مصر إلى بلاد العرب إلى ما استحدث بعد هذه الدول العظام من الدويلات والولايات . ثم كان عمله أن يلقى الدروس فى هذه الموضوعات على طلاب الجامعات الإيطالية ، فتهيأت له المادة الكافية لتقرير مذهب فى السياسة مدعوم بالشواهد والأسانيد والتجارب والبحوث ، أيا كان رأى الملعين عليه من الموافقة أو الاعتراض .

ولم يبلغ موسكا الرابعة والعشرين حتى تمت عناصر مذهبه فى ذهنه وأوشكت أن تنعقد على صورتها الأخيرة لولا بعض التنقيح الذى ترادفت به الحوادث فى بقية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، فلما أصدر كتابه المسمى « عناصر العلم السياسى » (سنة ١٩٢٣) كان بمثابة رسالته الأخيرة فى هذا العلم غير محتاجة إلى إضافة جديدة فى لباب الموضوع .

ومن الواضح أن موسكا قد أتم تقرير مذهبه قبل قيام

الحكومة الفاشية فى بلاده على يد موسولينى وأصحابه ، فلم يكن مضطرا إلى صوغ المذهب على الأسلوب الذى يتقى به غضب الحاكم المستبد بعد السيطرة على حرية القلم واللسان ، بل جاءت الحكومة الفاشية مؤيدة لبعض فروضه وتقديراته ، ومنها أن الدولة الملكية قد يقوم فيها حاكم ذو سلطان إلى جانب الملك الذى يتولى الملك بالوراثة ، ويسمى تارة بأمين القصر (Major Domo) وتارة بالصدر الأعظم وتارة برئيس الوزارة ، وكان توزيع السلطان بين فكتور عمانويل الثالث وموسولينى مثلا من أمثلة الازدواج على هذه الصورة بين الملك والدوتشى كما سمى زعيم الفاشيين .

إلا أن موسكا لم يكن من أصحاب الحظوة الكبرى فى الحكومة الفاشية ، لأنه على نقده للتوسع فى حقوق الانتخاب لم يكن من أنصار الحكومة المطلقة ولم يكن من رأيه أن الحاكم المستبد أقدر على الإصلاح من الحكومات البرلمانية ، بل عنده أن تمثيل الشعب على صورة من الصور لازم لكف الحاكم عن الطغيان وتجديد العناصر التى تتولى الحكم من حين إلى حين ، وليس هذا الرأى مما يرضاه الحاكم بأمره فى الدول الفاشية وما جرى على نظامها ، ولهذا كان موسكا مرضيا عنه محذورا منه فى وقت واحد ، وقصارى

ما بلغه من مناصب الدولة أنه تولى وكالة المستعمرات زمناً ثم دخل مجلس الشيوخ عضوا معينا مدى الحياة .

وقبل أن نمضى فى تلخيص مذهب موسكا نحب أن نقرر بداءة ما قرره هو فى أسلوب جازم حازم لا مواربة فيه عن عاقبة المذاهب السياسية التى يحسن بالباحث أن يفكر فيها ، فمهما يكن من صلاح المذهب لتدبير شئون الأمم فلا محل فى هذه الدنيا للحكومة المثالية أو لـ « طوبى » الفلاسفة الأقدمين والمحدثين الذين يمنون الناس جنة النعيم إذا عملوا بآرائهم فى الحكم والسياسة . فهذه « الطوبى » خارجة عند موسكا من كل حساب ، وتوكيد هذه الحقيقة عنده لازم كل اللزوم لتبديد غشاوة الجهل والخداع عن أبصار العاملين فى ولاية الأمور . فلن يشهد الناس « طوبى » على هذه الأرض وإن طالت الأزمان والآزال ، ولن يأتى على أبناء آدم يوم يعمهم فيه العدل المطلق على يد والٍ من الولاة أو نظام من النظم كائنا ما كان ، وغاية ما فى الأمر أنه حكم أعدل من حكم ونظام أسلم من نظام .

قال فى كتابه الذى ترجم إلى اللغة الإنجليزية باسم « الطبقة الحاكمة » The Ruling Class : « إن الطوبيات خطرة شديدة الخطر إذا استطاعت أن تجذب إليها

طائفة جمة من ذوى الأذهان والفضائل الخلقية يصرفون جهود العقل والنفس إلى تحقيق غاية لن تتحقق آخر الزمان ، ولن يكون تحقيقها المزعوم عند ادعاء حصوله إلا تغليبا لشر العناصر وشقاء لأطيبها وأكرمها وخيبة رجاء . وقد أعلن ادموند بيرك قبل أكثر من مائة سنة أن أية دعوة سياسية تفرض إمكان البطولات والفضائل التى تعلو على طاقة البشر لن تسفر فى النهاية إلا عن رذيلة وفساد » .

وموسكا يأبى أن يرجع بأطوار الشعوب وصروف الحوادث إلى عامل واحد أو عوامل شتى مرسومة على نهج واحد . فهو لا يعتمد كل الاعتماد على فعل السلالة أو فعل الجو والإقليم أو فعل العوامل الاقتصادية وما يسمونه بنظام الإنتاج والاستغلال . فهذه جميعاً قد تفعل فعلها على اشتراك واختلاط فى كل بقعة وفى كل قبيل ، ولكنها لا تنفرد بالأثر الفعال فى جميع الأحوال .

* * *

فإذا قيل إن الفضل فى قيام الدولة أو الحضارة ينحصر فى مزايا السلالات فالتاريخ يثبت لنا قيام الدول والحضارات بين سلالات كثيرة كالطورانية والآرية والسامية وسلالة الأمريكيين الأصلاء فى أواسط الدنيا الجديدة ، وكثيرا

ما يحدث التغير من الركود إلى النشاط ومن النشاط إلى الركود في أقل من قرن واحد لا يتغير فيه تركيب السلالة أو تركيب بنية الآحاد الذين تتألف منهم الأمة . وقد يحدث أن تسيطر على الدولة طبقة من النبلاء بالنسب والوراثة ولكنها تسود بالصفات التي تكسبها من التربية والعادة ، لأن الخبرة بأساليب الحكم شيء لا ينتقل في الدم وليست خصائص الدم مما يتحول في مدى سنوات . وقد تثور الرعايا على حكامها ولم تتغير سلالة هؤلاء في آماد طوال من عصور التاريخ ، وإنما تغيرت التربية والعادة كما حدث بين نبلاء صقلية ورعاياهم أو كما حدث بين فرسان الأقطاع في القرون الوسطى وأتباعهم في مختلف البيئات . فالسيد القديم كان يستبد بسلطانه ولكنه مقبول محبوب لأن عقائده وأوهامه هي العقائد والأوهام التي يدين بها العامة من حوله ، ولكنه يتغير بالتربية في العصور الحديثة فيصبح « جنتلمانا » بين السوقة فلا يألفهم ولا يألفونه ولا يزال باب الشقاق مفتوحا بينه وبين عماله وفلاحيه

أما خصائص الجو والإقليم فلا خلاف على تأثيرها في نشأة الدولة أو نشأة الحضارة وإنما الخلاف على حصر التأثير فيها دون غيرها . وقد أولع بعض المؤرخين بتسجيل القوانين الإقليمية وهي في حقيقتها مصادفات لا تستحق أن تسمى

بالقوانين المرعية فى سنن الطبيعة . ومثال ذلك أنك تستطيع أن تضع على هذا المثال قانونا تقول فيه إن الأنهار تجرى دائما من الجنوب إلى الشمال لأنك تبنى حكمك على خريطة ألمانيا أو سيبيريا ، وما هى إلا مصادفة وافقت مواقع الجبال والبحار فى تلك الأقطار ، وقد تتكرر المصادفات من قبيلها فى تلك القوانين التى يقررون بها انتشار الحضارات من الشرق إلى الغرب أو من الجنوب إلى الشمال . وقد قيل إن حكومات الاستبداد تنشأ فى البلاد الحارة وإن الحكومات الحرة تنشأ فى البلاد الباردة أو القريبة إلى البرودة ، ولكن حكم الاستبداد طال واستطال فى روسيا التى يبلغ فيها البرد غاية اشتداده ، والحرية وجدت إلى الجنوب حيث لا تتساقط الثلوج ولا يشتد نفح الهواء ، وربما اختلف السكان فى المواقع مئات السنين ، وبينهم شىء من تقارب الشعور والتفكير لا نراه فى سكان الموقع الواحد . فالمسلم الفارسى آرى والمسلم العربى سامى والمسلم التركى طورانى ولكنك قد تراهم فى استعدادهم للتفاهم بينهم أقرب من أبناء الجنس الواحد فى البقعة الواحدة ، وقد ينعكس الأمر بعض الأحيان فيبطل القول بانحصار التأثير فى الثقافة أو انحصاره فى طبائع السلالة والإقليم .

والخطأ فى القول بانحصار العوامل السياسية فى الإنتاج ونظام الاقتصاد كالخطأ فى القول بانحصارها فى مزايا السلالة أو خصائص الإقليم . فاليونان الأقدمون قد تحولوا من حكم الفرد إلى الحكم النيابى دون أن يطرأ على نظام الإنتاج فى بلادهم أقل تغيير ، وكل ما حدث أن الفوز فى الحرب لم يبق محصورا فى اقتناء العربات بل أضيف إليه ركوب الخيل والقتال بسلاح المشاة ، وقد كانت العربة والمهارة فى توجيهها حكراً للأغنياء فزال هذا الحكر بعد تطور أساليب القتال ، ومثل هذا حدث فى عصر الأقطاع بعد اختراع المدفع وتهديده لمعاقل النبلاء والفرسان ، فتغير نظام الإنتاج تبعا لهذا ولم يكن نظام الإنتاج هو سبب التغيير .

وقد دالت الدولة الرومانية وانتشرت الديانة المسيحية وهما حادثان من أجل الحوادث فى تاريخ بنى الإنسان ، فإذا رجعت إلى نظام الإنتاج قبل حدوثهما وبعد أن حدثا فعلا لم تجد فيه تغييرا فى مجمل الأحوال ، وإذا كان قد حدث فيه بعض التغيير الطفيف فقد حدث مثله من قبل ولم ينته إلى تلك النتيجة من تداعى دولة عريقة وشيوع دين جديد .

والذين يعلقون الأمل كله على نظام الإنتاج ويحسبون أن تعديله كفيل بتعديل الطبيعة البشرية فى صميمها لا يأتون

بشيء جديد فى تعلقهم بهذا الخيال ، فقديما كان « لكتانتيوس » — Lactantius — يقول قبل اعتبار المسيحية دينا رسمياً للدولة فى عهد قسطنطين إن الناس « لو آمنوا بالإله الحق لا نقضى فى الأرض زمن المنازعات والحروب ، وتآلف الناس جميعاً بألفة المحبة لأنهم ينظرون بعضهم إلى بعض نظرة الأخ إلى أخيه ، فلا يسعى أحدهم للتخلص من جاره ولا يزال كل منهم قانعا بقليله ، فلا غش ولا اختلاس ولا سرقة . فما أسعد حال الإنسان يؤمئذ ! وأى عصر ذهبى يطلع على الدنيا بفجره السعيد فى ذلك الزمان » .

وهذه الوعود بعينها يجددها ببيل Bebel الاشتراكى الألمانى حيث يقول : « إننا لو غيرنا الأحوال الاجتماعية وفقا للغايات التى تتجه إليها الاشتراكية لانتهينا إلى تبديل حاسم فى الطبيعة البشرية » .

ومثله دى جورمونت الفرنسى De Gourmont حيث يقول فى بعض فصوله : « لو أتيح لنا إزالة القوانين بتة لأصبح ارتقاء المتفوقين الممتازين هو القانون الوحيد ، وأصبح حكمهم المطلق المشروع غير منازع فيه . فالحكم المطلق لازم لكبح البلهاء ، والإنسان الذى لا ذهن له عضاض » .

ويعقب موسكا على هذه الأمنية « الفوضية » فيقول إنه

يقبلها كل القبول مع وضع كلمة الأقوياء فى موضع المتفوقين الممتازين وكلمة الضعفاء فى موضع البلهاء . فالعيوب التى تعاب بها طبيعة البشر لا ينتزعها نظام الحكم البشرى كيف كان .

وقد عرض موسكا لتقسيم أنواع الحكومات من عصر الفلسفة اليونانية إلى العصر الحديث . فأرسطو يقسم الحكومات إلى ملكية وارستقراطية وديمقراطية ، وتنطوى القرون الوسطى بتقسيماتها الدينية أو التقليدية ، ثم يزعم العلماء المحدثون أنهم وصلوا إلى استقصاء التاريخ الإنسانى كله فجمعوا أطواره — كما فعل أوجست كونت — فى ثلاثة أدوار : دينية وفلسفية ووضعية ، تقابلها الدولة العسكرية فالدولة الإقطاعية فالدولة الصناعية ، ثم يختصر هربرت سبنسر هذا التقسيم إلى قسمين : أحدهما العسكرى والآخر الصناعى ، ويقرن الأول بالاستبداد والحجر على التجارة ، ويقرن الثانى بالحرية وإجراء المعاملات مجرى الصفقات التجارية بالتعاقد والاتفاق والتوكيل .

ولا يعترض موسكا على هذه التقسيمات ولا على التقسيمات التى من قبيلها كتقسيم الحكومات إلى جمهورية ودكتاتورية وملكية مقيدة أو ملكية مطلقة ، فهى صادقة فى الدلالة على

بعض الفروق وينبغى أن تقبل على هذا الاعتبار ، ولكنها لا تغنى عن التماس الوحدة المتكررة فى جميع هذه الأنواع ، ولا تحسم الفروق بينها كل الحسم فى جميع الأحوال .

فالشبه بين بعض الجمهوريات وبعض الملكيات أقرب من الشبه بين جمهورية وجمهورية أو ملكية وملكية ، وتقسيم الدول إلى عسكرية وصناعية لا يغنينا عن توجيه البحث الأصيل إلى الطبقة الحاكمة فى كل من هذين النظامين .

والعبرة كلها بالطبقة الحاكمة فى جميع الأحوال .

وهنا نصل إلى حجر الزاوية فى مذهب الفيلسوف الذى بوأه مكانه بين فلاسفة الحكم الأقدمين والمحدثين .

* * *

فمهما يكن نوع الحكومة ، وفى أى بلد تحكم ، وبأى عنوان تشتهر فالظاهرة المتكررة دائما فى جميع الدول هى أن الحكم مهمة تنحصر فى أيد قليلة جدا بالنسبة إلى الجمهور المحكوم .

هذه هى الظاهرة التى تكررت فى جميع الدول ، وستظل كما يعتقد موسكا متكررة إلى آخر الزمان ، لأنها ثبتت بالتجربة والاستقرار وبالاحتمال الممكن دون غيره عند تقليب المسألة على جميع الوجوه .

ولا فرق فى هذه الظاهرة بين حكومة الدكتاتور وحكومات

الأمم النيابية التى يعم فيها حق الانتخابات إلى أوسع حدود لتعميم .

فمن الوهم أن يفهم من « حكومة الفرد » أنها حكومة يديرها فرد واحد ، لأن الفرد الواحد لا يستطيع إدارة الآلة الحكومية ولا كسب النفوذ فى المجتمع ما لم تؤيده « طبقة حاكمة » تلتف به وتحقق إرادتها بتحقيق إرادته .

ومن الوهم أيضاً أن يفهم من كلمة الحكومة النيابية أن الكثرة الغالبة هى التى تدير دفة الحكومة بالأصالة أو بالنيابة ، فليس بالصحيح أن يقال إن الناخبين اتفقوا على اختيار نائب عنهم ، وإنما الصحيح أن قلة صغيرة جعلتهم ينتخبونه وتمكنت بوسائلها المنظمة من تحويل أصوات الناخبين إليه ، وهذه القلة الصغيرة هى « لجنة الإدارة » فى الحزب الظافر بأكثر الأصوات ، ولا حيلة لعشرات الألوف المتفرقين أمام مائه أو نحو المائة يتفقون فى الغرض والحركة ونشر الدعوة ، ويحكمون تدبيرهم بالمرانة الخاصة على أعمال الانتخاب

ويحدث كثيراً أن تكون الطبقة الحاكمة فى الحزب الدستورى أو النيابى أقل عددا من الطبقة الحاكمة التى تحيط بالدكتاتور أو الحاكم بأمره ، وأن يكون نفوذ النيابيين أقوى وأصعب مقاومة من نفوذ المستبدين .

ومن هذه الطبقة الحاكمة يتألف سلك الموظفين أو «البيروقراطية» وهى التى تطلع على دخائل الأمور وتستأثر بالخبرة فى الدواوين، فلا يسهل على الحكومة أن تستغنى عن خبرتها واقتدارها على معالجة الأعمال .

ولكل طبقة حاكمة صيغة أو جملة من الصيغ تقرر بها سلطانها وتجعلها شعاراً لها فى إقناع رعاياها، ولا يلزم أن تكون موافقة للمنطق والمعقول، كصيغة الحكم بالحق الإلهى أو سيادة الأمة أو «الحرية والإخاء والمساواة» أو الزعامة المقدسة أو رسالة الدولة أو الحرية الفردية أو التأميم وما شاكلها من الصيغ التى تتبدل مع الطبقة الحاكمة على حسب الأمم والأوقات .

وتبقى الطبقة الحاكمة ما دامت مالكة لصفات القيادة وكفايات الولاية العامة، وليس من الضرورى أن تكون هذه الصفات والكفايات مطابقة لفضائل الطيبة والصدق والإخلاص ولكنها لا يمكن أن تخلو من مزايا الحصافة والجد والحنكة وبعد النظر والبداهة الموفقة فى تصريف الأمور .

وخير الطبقات الحاكمة هى الطبقات التى تخدم المصلحة العامة ولا تجور فيها المطامع الشخصية على المصالح الكبرى .

ولكن هذا «الخير» لا يأتى من فرض القوانين وتدوين

النصوص وتنقيح الدساتير ، فإن الدستور قد يبقى بجوهره خلال عهدين متناقضين كما بقى دستور فيمار على عهد الجمهورية وعهد الدولة النازية ، وإنما يتحقق الخير فى الطبقة الحاكمة بفضل القوى الاجتماعية والحصانة الشرعية ، وهما — فى فلسفة موسكا — اصطلاحان يحتاجان إلى تفسير وجيز .

ففى كل أمة من الأمم قوى اجتماعية متعددة تدخل فى بنية المجتمع بمقادير متساوية أو متفاوتة ، ومنها قوة العقيدة وقوة الرأى وقوة العرف والقوة العسكرية والقوة الصناعية والقوة الزراعية والقوة التجارية وقوة العمل وغير ذلك من القوى التى تشتمل كل أمة على نصيب منها .

أما الحصانة الشرعية فهى الحصانة التى تستمد من قدرة هذه القوى على مقاومة المطامع الشخصية التى قد يعمل لها رجال الحكم ورؤساء الدولة .

فإذا كانت هذه القوى متوازنة متكافئة فالحصانة الشرعية وافية والطغيان متعذر ومصلحة الحاكم فى إجراء العدالة أكبر من مصلحته فى مطاوعة المآرب الشخصية .

وإذا طغى بعضها على سائر القوى فهناك يختل التوازن وتضطرب الأمور ويتربص فريق من الأمة بفريق .

ولا تقع الثورات العسكرية — فى رأى موسكا — لأن بعض القادة يتمردون وبعضهم لا يتمردون . فمهما يكن من نزوع بعض القادة إلى التمرد فهم لا يستطيعونه إذا كانت القوى الاجتماعية التى تتوطد عليها دعائم المجتمع ممثلة فى الجيش بقادته وضباطه وجنوده ، وإنما تقع الثورات أو الانقلابات العسكرية لاختلال التوازن بين القوى الاجتماعية واستطاعة قوة منها أن تسيطر على الجيش والحكومة مع السيطرة على المجتمع بغلبة النفوذ .

فالطبقة الحاكمة تحسن أو تسوء على حسب القوى الاجتماعية والحصانة الشرعية لا على حسب القوانين والنصوص ، ومن أفضل الأسباب لضمان التوازن بين القوى الاجتماعية أن تشتمل الأمة على طبقة وسطى تمنع الاصطدام بين الغنى الفاحش والفقر المدقع وتفتح الباب لتقدم الطبقة الفقيرة كما تفتح الباب لتجدد الطبقة الحاكمة وتناوب السلطان بين المقتدرين عليه ، كلما انتهت مهمة طائفة منهم خلفتها طائفة أخرى تناسب الأوضاع الاجتماعية التى تتعاقب مع الأيام .

ولهذا يفضل موسكا أن تتولى شئون الأمم حكومات نيابية ، لأن الحصانة الشرعية أوفر فى الحكومات التى تتسع للمعارضة ،

ولأن السيادة إذا احتكرتها فئة من الناس أو شكت أن تفسد وتستنيم ولا تحسب حساب المعارضة والانتقاد .

ويحاول موسكا أن يطبق قوانين الطبيعة على المجتمع فى هذه الظاهرة ، فيقول: إن الجو تتنازعه خاصتان : خاصة الميل إلى الركود بحكم القصور الذاتى وخاصة الميل إلى الحركة بحكم الاختلاف فى توزيع الحرارة ، وهكذا يحدث فى المجتمع حين تسعى فئة من الناس إلى احتكار السلطان فى « دائرة مقفلة » وحين تهب « الرياح الاجتماعية » مع اختلاف توزيع الثروة والنفوذ .

وسلك الوظائف فى الدولة يتجدد — كما يقول موسكا — على طريقتين : من أعلى إلى أسفل ومن أسفل إلى أعلى . ففى الحكومات المطلقة يستأثر الحاكمون بالوظائف ويؤثرون بها أنفسهم وذويهم ، وفى الحكومات النيابية يتسع المجال لصعود طائفة بعد طائفة إلى سلك الوظائف أو البيروقراطية ، وذلك أسلم وأجدى من الاستئثار والاحتكار .

* * *

ومن خلاصة مذهب موسكا يبدو أنه لا يفرط فى التفاؤل بمصير الحرية الديمقراطية ، وهو كذلك لا يحسن الظن بأحلام الحالمين الذين يتخيلون أن أبناء آدم متجولون غداً

إلى طهارة كطهارة الملائكة وعدالة كعدالة السماء الموعودة ، إلا أنه لا يفرط فى التشاؤم كما أنه لا يفرط فى التفاؤل ، وجملة أمره فى هذا الباب أنه يفرق بين الأخلاق الأدبية المثالية وبين الأخلاق السياسية الواقعية . فالإيثار وحب الخير وسلامة الجانب فضائل مأثورة محبوبة على ألسنة الناس وفى كتب الأخلاق ، ولكن الصفات التى ترشح أصحابها للبروز فى عالم السياسة لا تتفق على الدوام مع تلك الفضائل المأثورة . بل يغلب على صفات السياسة النافذة أن تنحرف عن النمط السوى عند دعاة الفضيلة والمحبة . فالرجل الذى يقيس آماله بحقوقه ويوازن بين وسائله وغاياته ويسالم الناس ويحب أن يسالموه قلما يقدم على عمل رائع فى ميدان الحياة العامة ، وإنما يتاح الرجحان فى هذا الميدان للذين تغلب فيهم طبيعة الوثوب والاندفاع على طبيعة الإنصاف والاتزان ، ومن هؤلاء ينبغ طلاب الإصلاح كما ينبغ طلاب السيطرة ، وكلهم فى عرف العقلاء المسالمين أناس « غير معقولين » وغير معتمدين على العقل فى كسب الثقة أو كسب المكانة ، بل جل اعتمادهم على التأثير واستجاشه الحس والخيال . ومن تضييع الآمال فى غير طائل أن ننتظر من الناس أن يعملوا ما يعقل ويوافق المنطق على الدوام . فإن ميدان السياسة مفتوح للدوافع

المعقولة وغير المعقولة ، وينبغى أن يعول الناس فى كبح القوة الطاغية على القوة الرادعة ، فلا يصد القوة إلا القوة ولا يفل الحديد إلا الحديد ، وهذا الذى يعنيه موسكا بإعداد القوى الاجتماعية فى الأمة لضمان الحصانة الشرعية ، فتعدل الطبقة الحاكمة عن الطغيان لأنها تعلم أن مصلحتها فى العدل أوفر من مصلحتها فى الجور على حقوق المحكومين .

روبرت ميشل
Robert Michels
١٨٧٦ – ١٩٣٦

يعتبر ميشل حجة بين كتاب الاجتماع والسياسة فى دراسة النازية والفاشية دراسة علمية ، فقد مكنته نشأته بألمانيا ومقامه بإيطاليا من التغلغل فى أعماق الحركتين والنفاذ إلى ما وراء الظواهر من كل حركة ، فتوفر على بحث الأحوال العامة التى سبقت قيام موسولينى وهتلر فى إيطاليا وألمانيا وراقب تنظيم الهيئات التى توسلت بالقوة وبالحيلة إلى القبض على زمام الحكم فى الأمتين ، وأمعن فى تقصى الدخائل والعوارض التى فعلت فعلها فى بواطن تلك الهيئات ومن حولها ، واستعان على ذلك بالصبر الطويل الذى أثر عن علماء الألمان فى دراساتهم المستفيضة ، فمن قبلوا أحكامه ونظرياته ومن رفضوها لا يختلفون على حقيقة واحدة : وهى أن مواثيقه وأسانيده كافية وفوق الكافية ، وإنما يعرض لها النقد من التفسير والاستنتاج .

وميشل وصاحباه پاريتو وسوريل متفقون على قواعد الرأى

فى حقيقة الحكومة الديمقراطية ، ولكن ميشل مختص بدراسة المنظمات والهيئات على أنواعها ولاسيما الأحزاب السياسية فى نشأتها وتكوينها وأعمالها خارج المجالس النيابية وداخلها ، وخلاصة رأية أن تكوين الفئات والطوائف فى المجتمع البشرى ضرورة عامة ، وأن الأمة والنادى الخاص يتشابهان فى قانون واحد يعمل عمله فى كل جماعة بشرية مع اختلاف العدد والطبقة والغاية .

يقول ميشل إن الأحزاب المحافظة وأحزاب الأحرار والعمال جميعاً تدعى فى العصر الحديث أنها تعمل بإرادة الأمة ، ومنها ما يعتقد أن جمهور الأمة لا يحسن الحكم على القضايا العامة ، إلا أنه — بطبيعة الحال — لن يتوجه إلى أصحاب الأصوات التى توصله إلى الحكم ليقول لهم إنه يستجهلهم ويستغفلهم ويعمل بإرادته لا بإرادتهم ، ولهذا شاعت فى العصر الحديث فكرة « الإرادة القومية » مقترنة بتفسير معنى الديمقراطية ، وليست هى نتيجة تفكير ولادليلا على الإيمان بها فى ضمائر الداعين إليها .

قال إن الدولة البونابرتية نفسها قامت على مبدأ الاستفتاء والاختيار الحر المنزه عن التخويف والإغراء ،وهى فى جوهرها كالدولة التى قامت على دعوى الحق الإلهى من قبلها

ولو أن أنصار الحق الإلهى طلبوا الاستفتاء على هذا النحو لما أعياهم أن يصلوا إلى الفتوى التى تعلقت بها الدولة البونابرتية .

ورأى ميشل أن الحكم الديمقراطى أحسن ما فى الإمكان بالقياس إلى أنواع الحكم القائم على الدعاوى الأخرى ، لأنه فى جملته أسلم عاقبة من غيره لا لأن دعوى الحكم بإرادة الأمة أصح فى الواقع من دعاوى الحكام السابقين .

فلا الأمة ولا الجماعات البشرية على إطلاقها قادرة على تصوير رأيها وإملاء إرادتها فى جلائل الأمور وصغائرها .

وقد يتوهم بعضهم أن الجماعات البشرية الأولى التى لا تعدو سكان المدينة الواحدة كانت أقدر على تطبيق الديمقراطية من الأمم الكبرى التى تبلغ الملايين ، غير أنه وهم عاجل لا يثبت على المراجعة ولا ينخدع به من يعرف طبائع الجماهير فى اجتماعها .

فالمعروف اليوم من دراسة الأطوار النفسية للجماعات والآحاد أن رأى الجمهور ساعة الاجتماع لا يمثل آراء الآحاد المشتركين فيه وهم متفرقون ينظر كل منهم فى الأمر على حدة ويقلب وجوهه على تبصر وروية ، وأن آراء الجمهور كثيرا ما تسفر عن الإجماع بالصياح والجلبة دون إصغاء إلى أصوات المخالفين إن كان بينه مخالفون . فإذا كثر المخالفون ــ لاختلاف

الزعماء – فالاجتماع صائر إلى الفوضى والشغب فلا يفهم منه رأى محدود .

ومعظم المسائل التى تباشرها الحكومات تدخل فى اختصاص الفنيين وتحتاج إلى التثبت من البيانات والأرقام ، فإذا عرضت على جمهور من العارفين أو غير العارفين فى ساعة الاجتماع فلا بد من إحالتها إلى فئة خاصة تبت فيها برأيها ، فيقبلها الجمهور على علاتها أو يقع الاختلاف عليها فيتغلب المتغلب بالمؤثرات « الجماعية » التى يرجح فيها الصخب على الحجة وترجح فيها الخطابة على الإقناع ، ويجدى فيها التمهيد بالمناورة والمداورة مالا يجديه الرأى الخالص من شوائب التمهيد والترويج .

هذا عن الجماعات التى تتلاقى فى مكان واحد كما كانت تتلاقى جماعات الناخبين فى المدن القديمة ، وهى على هذا لا تمثل المدينة كلها لاستثناء بعض سكانها من حقوق الانتخاب .

أما جماعات الأمم الكبيرة فالمسلم أنها لا تتلاقى فى مكان واحد ولو قصرت الاجتماع على وكلاء الانتخابات ، فلا مناص من التفويض والتوكيل .

ويطيل ميشل فى شرح الإجراءات المعقدة التى تسبق

ترشيح المرشح ولا حيلة للناخبين فى مراقبتها ولا فى تعديلها ، فيخلص منها إلى وصف الانتخابات بأنها اضطرار إلى الاختيار

ولا يؤمن ميشل بما يسمى السيادة بالتوكيل أو التفويض ، فإذا صح أن الأمم قد انتخبت وكلاءها بمحض اختيارها ، فليس بالصحيح أن السيادة تبقى بعد ذلك فى أيديها ، لأن وكلاءها يستطيعون أن يوجهوها من حين إلى حين ، وهى لا تستطيع توجيههم فى كل حين .

وقبل أن يصل التوجيه إلى الأمة ينبغى أن ننظر إلى أساليب التوجيه فى داخل الهيئة السياسية بين رؤسائها وأعضائها .

فالجماعة بطبيعتها كسلى لا تنتزع من نفسها القوة على الإنشاء والابتداء فى جميع الظروف .

ولهذا يحدث دائماً فى النادى الصغير — كما يحدث فى الجماعة الكبيرة — أن يبحث المجتمعون عن رئيس يكلون إليه تصريف الأعمال الضرورية لبقاء النادى والجماعة .

والذى جرت به العادة فى هذه الأحوال أن يظفر بالانتخاب من يفرغ للعمل ويحرص عليه ويدأب على طلبه ، وقد يقع عليه تفضيل أصحابه وزملائه للسبب ونقيضه ، فيفضلونه لاتقاء بأسه كما يفضلونه لأمنهم من جانبه واطمئنانهم إلى سلامته ، ويفضلونه لرجحانه كما يفضلونه لقلة منافسته وقلة

منافسيه ، ويندر أن تكون هذه الصفات أكرم الصفات التي تصلح عليها رئاسة الرؤساء .

وقد لوحظ أن الرئيس يبقى في رئاسته متى وصل إليها ، فيعيد الأعضاء انتخابه كسلا من عناء البحث والاختيار وفض المنازعات وإغضاب هذا لإرضاء ذاك ، أو يعاد انتخابه لما اتخذه هو من الحيطة وتذرع به من الذرائع التي تخيل إليهم أنه عامل مهم لا غنى عن عمله ، أو أن التجديد أسلم على الأقل من ابتداء التجربة من جديد .

يجرى هذا في الانتخاب لرئاسة الأندية والجماعات القليلة التي من قبيلها ، ويجرى مثله على التقريب في انتخاب الرئيس للهيئات السياسية والأحزاب الكبيرة التي تتناوب الحكم مع غيرها أو تنفرد به فترة طويلة بغير مزاحمة . فمتى ظفر الرئيس بالرئاسة جعل همه الأول أن يحيط نفسه ببطانة من أخصائه يبقون ببقائه ويذهبون بذهابه ، فيشرف معهم على خزانة الهيئة وجدول الانتساب إليها ومجلس تأديبها وأداة نشر الدعوة لها ولحكومتها ، وبهذا يأمن المزاحمة ويتيسر له أن يقضي عليها في مهدها ، لأنه يملك أسباب التخلص من المزاحم قبل أن ينجح هذا في تأليب القوى للتخلص من رئاسته ، ويلجأ الرؤساء عادة في بعض المواقف إلى إرهاب الجماعة بإعلان

العزم على الاستقالة تهديداً لها وقسراً لها على طاعتهم والتسليم بما يفرضونه عليها ، وهم لا يلجأون إلى هذا التهديد حين يعلمون أن الاستغناء عنهم ميسور وأن أنصارهم المتكفلين بتأييدهم قليلون ، ولكنهم يلجأون إليه كلما علموا أنه ضربة مربكة للجماعة محيرة لها بين من يتنازعونها ، ولا سيما حين ينجح الرئيس وبطانته فى تهوين خطب المنافسين الأقوياء وإضعاف كل من تحوم الشبهة حوله منهم ، قبل أن يستفحل خطبه .

ومتى توطد مكان الرئيس وبطانته على هذا النحو ففى وسعه أن يفرض مرشحيه للمجالس النيابية على الحزب كله قبل إعلان ترشيحهم للناخبين ، فإذا هم مرشحو رئيس واحد تؤيده بطانته ولا تأمن أن تشق عليه عصا الطاعة ، واسمهم أمام الناخبين « مرشحو الحزب ونواب الأمة » .

يقول ميشل إن جريان الانتخاب على هذا النمط بين المحافظين مفهوم لأنهم يشكون كل الشك فى كفاءة الجمهور لولاية الأحكام ، وإنه كذلك مفهوم بين الأحرار لأنهم يعتبرون الجمهور ضرورة لا محيد عنها ، ولكن العجيب فيه أنه يجرى على هذا النمط أو أشد منه بين طوائف العمال التى ارتهنت مصالحها كلها بحقوق النيابة وتوزيع هذه الحقوق بين صفوفها على سنة المساواة التى لا تسمح باحتكار الرئاسة .

فالواقع أن انتخابات النقابات العمالية تسفر عن احتكار للرئاسة لا يقل عن احتكارها فى لجان المحافظين والأحرار إن لم يكن أشد منه وأطول أمدا ، وأن الظافر بالرئاسة يندر أن يستحقها بإخلاصه للقضية وقدرته على الدفاع عنها ، فالغالب أن الظافرين بها يستحقونها بالتهجم والاقتحام والتهويل على المنافسين الأمناء ، ثم يحتفظون بها متى وصلوا إليها آمنين المزاحمة بل آمنين الانتقاد .

وإذا انهزم رئيس من كبار الرؤساء مرة فإنما ينهزم لأن المنتصر عليه قد هيأت له الظروف أن يغلبه بهذه الوسائل لا أنه انتصر عليه بوسائل خير منها ، فالقاعدة واحدة والمطبقون لها متعددون .

والأستاذ ميشل شديد الثقة بنظرياته هذه حتى ليرتقى بها إلى درجة القانون — بل القانون الحديدى — الذى لا فكاك من حلقاته المقفلة ، ويسميه القانون الحديدى لولاية الخاصة : The Iron Law of Oligarchy فلا يتأتى حكم فى البلاد الديمقراطية أو فى سواها لغير فئة خاصة توافق زمانها . فمن فئة الفرسان إلى فئة النبلاء إلى فئة أصحاب الأموال إلى فئة الخبراء والصناع ، إلى فئات من قبيلها يبرزها كل حكم على مقتضى الزمن بغير خلاف فى جوهر القانون ، وهو أن

الجماهير تسلم مقادها لآحاد معدودين .

هذه النظرية أو هذا القانون الحديدى قد شاع فى بيئات البحث الاجتماعى ودوائر الفلسفة السياسية ، فكان له أثران : أحدهما ارتداد بعض المفكرين عن الديمقراطية والآخر قبول الديمقراطية على علاتها لأنها أقرب إلى الإنصاف والإصلاح من النظم الأخرى .

والأستاذ ميشل — على فرط إيمانه بقانونه الحديدى — هو أحد هؤلاء الفلاسفة الذين رأوا هذا الرأى فى حقيقة الحكم الديمقراطى فلم يتحولوا عنه إلى غيره ، وحجتهم فى ذلك أن المهم هو نتيجة الديمقراطية لا أقوال الدعاة فى تفسيرها .

فقد يكون صحيحاً أن الناس لا يتساوون ، وقد يكون صحيحا أن الأمة لا تحكم نفسها بإجماع آرائها أو إجماع كثرتها ، ولكن لاشك مع هذا وذاك فى نتيجة الديمقراطية ما دامت مستمسكة بهذا الوصف وهذا العنوان ، وتلك النتيجة هى حسبان الحساب للعديد الأكبر من الرعايا فى سياسة الحكومة ، ومهما ينخدع الرعايا بالوعود والأكاذيب فلا بد على الأقل من إرضائهم بتوفير أقواتهم واجتناب شبهاتهم ، وهذه مزية للحكومة باسم الأمة كائنا ما كان عدد الرؤساء المستأثرين فيها بالرأى والسلطان .

غير أن تلاميذ ميشل – ممن كانوا يتشيعون لآراء كارل ماركس – قد أثرت فيهم نظريته أو قانونه الحديدى أبلغ الأثر فى وزنهم للمبادئ الماركسية ، ومنهم الكاتب البولونى الذى يكتب اليوم فى الولايات المتحدة باسم ماكس نوماد Max Nomad وينشر آراءه عن تناوب السيادة ومظهر هذا التناوب فى البلاد الروسية . فهو فى كلامه عن المتمردين والمرتدين يقرر أن النظام الشيوعى وضع السلطة الحكومية كلها فى أيدى الموظفين ورؤساء المصانع وأنشأ طبقة حاكمة تستغل الطبقة العاملة ولا تفكر فى النزول لها عن سلطتها ، ويكاد يردد المثل العربى القائل : ما أشبه الليلة بالبارحة ! فالمفكرون الشيوعيون وطائفة الأدباء والصحفيين هم كهنة هذا النظام الذين يقدسون طبقته الحاكمة كما كان كهان القرون الوسطى يقدسون الأمراء والملوك بحق السماء ، والسادة الموظفون هم المستغلون الجدد فى مكان المستغلين من أصحاب رءوس الأموال ، والأجراء هم الأجراء بغير تبديل إلا أن يكون تبديل الحجر بحرية العمل وحرية الإضراب .

قال : « إن التجربة السوفيتية قد أثبتت أن إمكان الاستغلال فى ظل الاشتراكية لا يقل عن إمكانه فى ظل أية حكومة سابقة . . . وإن المرء إذا استرسل فى النبوءة ففى الوسع أن

يخمن أن الصورة العالمية المقبلة لاستغلال الإنسان للإنسان كما تومئ إليها الأساليب الروسية فى امتلاك الدولة لجميع المرافق واختلاف دخول العاملين– سوف يكون قصاراها من التغيير أن تحمل عنوان الاشتراكية » .

فقد ظهر أن الاشتراكية تهتم بمسألة الاستيلاء على أداه الإنتاج ولا تهتم بمسألة التوزيع . مع أن التوزيع الذى يمنع الاستغلال هو المقصود من كل حركة اشتراكية ، ولكن هذا « المقصود » هو الذى لم يكن ولا يكون .

جيمس برنهام
James Burnham

تتسع المسافة بين النظرية السياسية وتطبيقاتها العملية فى بلاد العالم القديم ، ولكن هذه المسافة تضيق كثيراً أو قليلا فى البلاد الأمريكية ، فإن النظريات فيها شيء أكثر من مجرد الاقتراح أو الأمنية ، فهى إما برنامج يطبقه الداعون إليه فى نطاقهم المحدود ويحاولون تطبيقه على الأثر فى نطاق قومى واسع ، وإما وصف لحالة واقعة يلخصها الواصفون فى قالب المبادئ والنظريات .

وربما نشأ تقدير النظريات على هذا النحو فى البلاد الأمريكية من حداثة التجربة السياسية فى تلك البلاد وموافقة الزمن الذى تأسست فيه حكوماتها هناك للزمن الذى تداول فيه العلماء الأوربيون أحدث النظريات فى القرن الثامن عشر .

فقد كانت هذه النظريات فى حكم الحقائق المقررة عند تأسيس الجمهورية الأمريكية الأولى ، فضمنها آباء الجمهورية دستورهم وبياناتهم التى قدموا بها لذلك الدستور ، وعملوا

بمبادئ فصل السلطات والحق الطبيعي وحقوق الإنسان وسيادة الأمة وتحريم « الضريبة بغير نيابة رقيبة » كأنهم ينفذون أوامر الوحي الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأصبح من اليسير منذ قيام الحكم على هذا الأساس أن توضع النظريات موضع التنفيذ السريع أو أن يتلقاها الناس كأنها تلخيص للشئون الواقعة التى يجرى بها العمل فعلا فى دوائر السياسة والمال .

ومنذ تأسيس الدولة الأمريكية لم تخل بلادها من أصحاب دعوات دينية أو سياسية يطبقونها فى نطاقهم المحدود ، وفى هذا الزمن الذى نعيش فيه حاول القصاص الشيوعى ابتون سنكلير أن يطبق الشيوعية فى مستعمرة يسكنها من يدينون برأية ، وأصدر الفيلسوف الفاشى لورنس دنيس كتابه عن « دوافع الحرب والانقلاب » وهو يؤكد فيه أنه يتتبع الواقع الذى سيتم وقوعه بجميع تفصيلاته فى أعوام قليلة ، فهو لا يدعو إلى ثورة ولا انقلاب ولكنه يرى بوادر انقلاب يسميه « بانقلاب القصر » آخذ فى التمام منذ أعوام ، وقد اختار له اسم « انقلاب القصر » تشبيها له بالحركات التى كانت تقع فى قصور الملك حيث يذهب أمير ويجئ أمير دون أن يدعو الأمر إلى تحريض على الثورة أو سفك للدماء ، وهكذا يعتقد

لورنس دنيس أن الحكم فى الولايات المتحدة صائر إلى السيطرة الفاشية بغير حاجة إلى هدم بنيان أو زعزعة أركان ، إلا أن يسجل الواقع ما أبرمه الواقع ويعترف الناس بما قد عرفوه فعلا ولم ينكروه .

وأهم النظريات السياسية التى ظهرت فى الولايات المتحدة حديثاً نظر ية يعتقد صاحبها أنها من هذا القبيل ، أى أنها وصف للوقائع الحاصلة ونبوءة عن الوقائع التى تحصل تباعاً وتطّرد فى طريق الحصول ، وهذه هى نظرية الانقلاب الفنى Managerial Revolution التى يدعو إليهاجيمس برنهام فى كتبه ورسائله وأحاديثه ، ومنها كتاب بهذا الاسم وكتاب عن المكيافليين وكتاب عن الصراع على العالم وكتاب عن هزيمة الشيوعية المقبلة ، وهى من أسير الكتب السياسية التى يتداولها اليوم من يعنون بفلسفة السياسة من الأمريكيين والأوربيين .

جيمس برنهام صاحب هذه النظرية هو أصغر الفلاسفة السياسيين سنًّا وأحدثهم رأياً ، ولا يزال الساعة فى مقتبل العمر يوالى تثبيت رأيه أو تثبيت القول بأنه هو الواقع المقرر الغنى عن إطالة العناء فى التقرير والإثبات .

ولد فى شيكاغو سنة(١٩٠٥) وتعلم فى أمريكا وإنجلترا

وأعجبته الشيوعية الماركسية فى مبدأ الأمر فبشر بها واشترك فى مساعيها ، وجاء زمن من الأزمان كان معدوداً فيه من أقوى أنصار تروتسكى بين الشبان الأمريكيين المتعلمين ، ثم قادته دراسته العلمية والاجتماعية إلى الشك فى مبادئ الشيوعية ومبادئ الاشتراكية على إطلاقها والإيمان بأن نظام رأس المال ونظام الشيوعية كلاهما غير صالح للبقاء فى الأحوال الإنسانية التى تمخض عنها العصر الأخير .

وقد ظل عضواً عاملا فى القسم الفلسفى بجامعة نيويورك منذ سنة ١٩٣٣ ، واشتغل خلال هذه السنين بالحركة الشيوعية فى دوائر الصحافة ونقابات العمال ، وما زالت آراؤه تتطور مع الدراسة والخبرة حتى انتهى إلى الجزم برفض الشيوعية على سنة ماركس ولنين وعلى سنة ستالين وتروتسكى ، ثم الجزم بأن الشيوعية ورأس المال معاً صائران إلى الزوال ، وأن نظاماً جديداً سيخلفهما عما قريب ، ليستقر به سلطان الطبقة التى تقبض الآن على أزمة الإنتاج وهى طبقة المديرين الفنيين .

يقول برنهام إن العالم سيرى عهداً بغير « نظام رأس المال » كما رأى من قبل عهوداً لم يكن فيها لهذا النظام وجود .

ويستدل على اقتراب أجل هذا النظام بدلائل كثيرة ملموسة فى أحوال العالم الحاضرة : منها بطالة الملايين من

العمال والصناع مما يثبت أن نظام رأس المال قد فشل وأخفق فى تدبير الثروة الإنسانية أو تدبير القوى الإنسانية المعطلة بين يديه .

ومنها عجز رأس المال عن توظيف ماله فى الجهات التى تعود استغلالها على أسلوب المستعمرين فى القرن التاسع عشر .

ومنها تزعزع القواعد الفكرية والاقتصادية التى كانت لازمة أو كانت مصاحبة لدولة رأس المال . فقد كان إطلاق الأعمال لازما لأصحاب رءوس الأموال تمكيناً لهم من إرسال أموالهم فى التجارة والصناعة بغير رقابة من الحكومة ، وكان مذهب « دعه فى طريقه »Laissez Faire هو شعار الدولة كلها لأنه أنسب شعار للسياسة والاقتصاد فى إبان سلطان رأس المال .

ومنها نشوء طبقة أخرى تستولى على آلة الصناعة والاقتصاد غير الطبقة التى يتألف منها أصحاب رءوس الأموال .

ومنها عجز هذا النظام عن حل النقائض التى تواجهه كل يوم ولا تزال مواجهة له بطبيعة تكوينة وتكوين المجتمعات الحديثة ، وأقوى علامات هذا العجز أن تضطر الحكومات إلى تقييد الإنتاج والإشراف على تنظيم المرافق العامة والحد من الأرباح وإحلال نظام « الرسم والتقدير » Planning محل نظام الإباحة والإطلاق .

* * *

لكن زوال رأس المال لا يفيد فى رأى برنهام أن الشيوعية الماركسية أو الاشتراكية على العموم هى البديل الوحيد من ذلك النظام الزائل .

فسيزول رأس المال ولا تحل محله الشيوعية ولا الاشتراكية التى تتلخص جميعاً فى دعوة واحدة : وهى إقامة مجتمع بغير طبقات .

* * *

إن القول بانقضاء رأس المال شىء والقول بأن الشيوعية البديل الوحيد الذى يخلفه شىء آخر . فليس فى بوادر الأحوال ولا فى التجارب القومية أو العالمية ما يشير إلى اتجاه الحضارة الإنسانية فى هذه الوجهة ، وقد تشير التجارب على عكس ذلك إلى اتجاه مناقض لذلك الاتجاه .

فالأهداف التى ترمى إليها الشيوعية كما هو معلوم — هى إنشاء مجتمع عالمى بغير طبقات يسيطر عليه العمال .

والتجربة الكبرى التى حصلت فى روسيا قد أسفرت عن طبقة حاكمة جديدة تستأثر بالنصيب الأوفر من أرباح الأيدى العاملة ، ويتبين من الإحصاءات المعول عليها أن نحو أحد عشر فى المائة من السكان يستولون على خمسين فى

المائة من موارد الدولة ، وهى نسبة أعلى من نسبة الأرباح التى تستولى عليها الطبقة العليا فى الولايات المتحدة . إذ لا يستولى العشر الأعلى من السكان فى الولايات المتحدة على أكثر من خمسة وثلاثين فى المائة من مواردها

ولم يحدث قط حتى الساعة أن الطبقة العاملة سيطرت على مصنع واحد فى البلاد الروسية من أقصاها إلى أقصاها ، وهذه حالة يعترف بها الزعماء من عهد لنين ولا يرون لهم محيصاً عنها فى تطبيقاتهم العملية ، فهم يعترفون اليوم بأن سيطرة العمال على الصناعة وموارد الإنتاج إن هى إلا « صيحة حرب » تجمع الصفوف ليس إلا وتظل كذلك فترة من الزمن لا يدركون منتهاها ، بل يعترفون — وعلى رأسهم لنين — بأن الكلمة العليا فى المصنع ينبغى أن تترك للمدير الذى يحكم فيه بأمره ولا يتأتى أن تدار أداة الصناعة بغير هذه « الدكتاتورية » المطلقة .

وقد اختل حساب كارل ماركس فى مسألة من أهم المسائل التى بنى عليها تقديراته ونبوءاته وهى مسألة القضاء على أصحاب الأموال باستيلاء العمال على المصانع وإدارتها لحسابهم ، واستيلاء الجند على الأسلحة واستخدامها فى مقاومة القادة والرؤساء .

فقبل مائة سنة — فى أيام كارل ماركس — كانت الآلات الصناعية من البساطة بحيث يستطاع أن تدار بأيدى العمال ، وكانت الأسلحة على مثل هذه البساطة بالقياس إلى خبرة الجندى وذكائه . أما اليوم فقد أصبحت خبرة المهندس لازمة كل اللزوم لتناول الأدوات الدقيقة وتحصيل العلم الضرورى لتنظيمها فى جملة حركاتها ، وأصبحت الخبرة الفنية التى يتدرب عليها المهندس العسكرى أعظم وأدق من أن تسلم مقادها للجندى أو للثائر الذى لم يتدرب على استخدام الأسلحة المختلفة بالأساليب الفنية .

ومن هنا نشأت طبقة غير طبقة أصحاب الأموال وغير طبقة الصناع والعمال تشرف على أدوات الإنتاج ولا يتأتى الاستغناء عنها فى المجتمع القائم على الصناعات الكبرى .

وهذه هى طبقـــة المديرين الفنيين Managers الذين حذقوا أسرار الصناعة أو حذقوا أساليب تنظيمها وتصريفها وترويج مصنوعاتها ، وهم بين مهندس وعالم طبيعى وخبير بتسيير العمل فى المكاتب أو نشر الدعوة أو استطلاع حاجات الجماهير وأهوائها المهيمنة على أشكال السلع وأغراضها ، فلا غنى لمجتمع من المجتمعات عن هذه الطبقة فى العصر الحديث ، لأنها تسيطر تمام السيطرة على أدوات الإنتاج

ومحدثات الاختراع التى يتعذر استخدامها عاماً بعد عام على غير الخبير المختص بالهندسة أو بالصناعة أو بالتدبير والتنظيم .

ومن الواجب تصحيح الخطأ الذى يسبق إلى بعض الأوهام كلما قيل إن طبقة من الطبقات قد أجلت غيرها عن مراكز النفوذ فى مجتمع من المجتمعات .

فإذا قال المؤرخ إن طبقة أصحاب الأموال والمصانع قد أجلت فرسان الأقطاع عن مراكز نفوذهم واستولت عليها فهو لا يعنى بالبداهة أن هذه الطبقة قد جمعت صفوفها وزحفت على الفرسان فى معاقلهم فأخذت عليهم موثقاً بالطاعة والتسليم .

وإذا قيل اليوم إن طبقة المديرين تزحزح أصحاب الأموال عن مراكز نفوذهم فليس المقصود بذلك أنها تغلبهم فى مصارعة أو حومة قتال ولو من قبيل المجاز ، وإنما المقصود بهذه العبارات أن المجتمع قد أصبح ولا غنى له عن رأى هذه الطبقة فى تصريف المرافق العامة ، ولا حاجة بعد ذلك إلى تنازع النفوذ بسلاح غير سلاح الواقع الذى لا حيلة فيه للغالب ولا للمغلوب.

يقول برنهام إن العلامات النفسية أحق شىء أن يسمى علامات الساعة فى هذه الشئون .

فنحن إذا التفتنا إلى أية طائفة من علية القوم فى زماننا هذا وجدنا عوارض الحيرة والشك وفقدان الثقة بادية عليها

شائعة فى خطواتها ومساعيها ، وما من قطب من أقطاب المصارف والشركات وما إليها ترى عليه اليوم أمارات النظر إلى المستقبل فى صدق وهمة واطمئنان إلى مصائر الأمور كما يتمخض عنها الغد المجهول . إلا طبقة واحدة من هذه العلية المختارة ، وهى طبقة المديرين الفنيين وخبراء الصناعة وما إليها ، فإنهم مطمئنون إلى أعمالهم مؤمنون — من حيث يشعرون أولا يشعرون — بأنها هى الأعمال التى لا غنى عنها فى عاجل ولا آجل ، وأنها لا تتوقف على رضا أصحاب الأموال ولا على رضا الصناع والعمال .

ومن الإحصاءات التى يعول عليها برنهام يثبت لديه أن أصحاب الأموال قد أوشكوا أن ينفضوا أيديهم عن العمل المباشر فى المصانع والشركات ، وأنهم تركوها للمديرين والخبراء يعالجون مشكلاتها بما يعن لهم من مطالب الساعة ، وقنعوا بحضور الجلسات السنوية أو الدورية فى مجالس الإدارة التى تقصر مهمتها على المراجعة العامة ، وقد تكون مراجعة اسمية فى معظم الأحيان .

وسيمعن أصحاب الأموال فى التخلى ويمعن المديرون فى التمكن ، ويمعن المجتمع فى تنظيم مطالب المعيشة ومطالب التجارة إلى أن يصبح تثمير المال فى الأرباح الفردية صورة

لا حقيقة لها فى الحياة الاقتصادية ، وتدار المصانع والمتاجر على حساب المرافق العامة التى ترسمها الدولة ، فلا يملك أصحاب الأموال شيئاً من الحرية فى التثمير والاستغلال .

ويسأل برنهام : ما هو مصير الديمقواطية مع النظام الجديد ؟ فيسرع فى الجواب إلى التفرقة بين الحرية الشعبية والديمقراطية ، ويسلم أن النظام الذى يسميه نظام « الطبقة الفنية » يكتنفه بعض الغموض ، ولكنه يرى أنه يقترن بالحرية على وجه جديد ، لأن الديمقراطية فى رأيه مقترنة بنظام رأس المال ، وليست الديمقراطية مرادفة لمعنى « حق الحرية » حيثما استمتع به الإنسان فى الحال والاستقبال .

* * *

وفى تقدير برنهام أن نصيب الشعب من الحرية فى النظام الجديد لا يقل عن نصيبه منها فى ظل الديمقراطية ، فما كانت الديمقراطية قط حكماً شعبيا إذا أريد بالحكم الشعبى أن يختار كل فرد من أفراد الشعب حكامه ووكلاءه ، ورأى برنهام كرأى موسكا فى قيام جميع الحكومات على قاعدة واحدة وهى قاعدة « القلة تحكم الكثرة » على الدوام سواء جرى الحكم على أساس الانتخاب أو على غير أساس الانتخاب ، وغاية ما يحدث بعد مصير الحكم إلى الطبقة الفنية أن الصيغ

والعناوين التى يترنم بها الشعب ويتخذها شعاراً له فى السياسة تتغير وتتجدد على نحو آخر ، فتحل قداسة الدولة أو الأمة أو السلالة محل قداسة الحرية الفردية ، وتحل الجهود المشتركة محل الحوافز الشخصية ، وتحل كلمات النظام والرسم والترتيب محل كلمات العمل المطلق والرخص الحرة وما إليها ، ويستغنى الناس عن الحرية التى كانت لازمة فى ظل الديمقراطية فلا يطلبونها ، وفرق بين الاستغناء عن حرية من الحريات وبين فقدها أو تقيدها بسلطان القانون .

والظاهر من الطور الصناعى الذى انتهى إليه العالم فى العصر الحاضر أن مسألة الانتاج قد أصبحت مسألة عالمية لا يتسنى على الإطلاق تنظيمها وتعميم النفع منها مع كثرة الحدود بين الأمم وكثرة المكوس والعوائق التى تعترض الإنتاج العالمى من جراء تعدد الحكومات وتعدد الخطط الاقتصادية . فلا بد إذن من نظام عالمى أو من حكومة عالمية ، وهذه هى النتيجة المحتومة للتنظيم الفنى الذى يكفل المنفعة العظمى من تدبير الصناعة وتصريف المصنوعات والتوفيق بين مقادير الخامات ومطالب الأسواق .

فهل من الميسور تأسيس حكومة عالمية تتولى تدبير شئون الأمم جميعاً وتجمع أعنة السيادة كلها فى أقل عدد مستطاع

من الأيدى والرءوس

إن الحوائل دون هذا الغرض كثيرة ، ومنها اختلاف الأجناس والتقاليد الوطنية وصعوبة الاعتماد على جيش واحد لتوطيد سلطان الدولة العالمية ، ولكن برنهام يعتقد أن تدبير الأمر مستطاع بالاتفاق بين الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى ريثما تتهيأ الأحوال التى تسمح بتوحيد الحكم أو توحد القواعد الاقتصادية بين أمم العالم ، وما دام هذا هو المصير الذى لا محيد عنه فسوف تنجم الحيلة من هنا أو هناك لتوجيه الخطى إلى هذه الوجهة ما بقى للحضارة حظ من البقاء .

ويحرص برنهام على التمييز بين مذاهب الدعوة ومذاهب البحث والاستقراء فى مسائل السياسة .

فمذاهب الدعوة يراد بها الإقناع باختيار نظام معين ، ومذاهب البحث والاستقراء تلتزم أمانة العلم فيما تقرره وتأخذ نفسها بوصف ما هو واقع أو ما سيقع بالقياس إلى التجارب الماضية والحاضرة .

ومذهب برنهام — فى اعتقاده — من المذاهب العلمية التى يراد بها تقرير الواقع ولا يراد بها التبشير والتأثير على الجماهير وهو يسوق الأمثلة على صحة استقرائه من قيام النظام الشيوعى فى روسيا وقيام النظام النازى فى ألمانيا وقيام التوزيع الجديد

New Deal فى الولايات المتحدة وقيام خطط الرسم والتنظيم فى شئون الصناعة والتجارة فى العالم كله منذ نشوب الحرب العالمية إلى اللحظة الحاضرة .

فكل هذه التجارب — كما يراها برنهام — هى عوارض التحول إلى حكم الطبقة الفنية أو إلى الطور الجديد من أطوار الحكم والسياسة .

فليس مذهب كارل ماركس هو الذى يطبق فى روسيا بل هو نظام الطبقة الفنية ، وليست فلسفة النازية هى التى نفذت فى ألمانيا على عهد هتلر ولكنها هى المحاولة فى طريق الحكم الفنى مع القضاء على نظام رأس المال ، وليس التوزيع الجديد فى الولايات المتحدة برنامجاً مرتبطاً بشخص الرئيس روزفلت كما خيل إلى بعض نقاده ولكنه هو حكم الضرورة الذى أوجب عليه أن يلجأ إلى « توزيعه الجديد» ويوجب الاستمرار فيه على من خلفوه وسيخلفونه .

ومتى تداعى نظام رأس المال فتلك علامة على التطور الطبيعى الذى لا يرجع إلى الوراء ، وسينقضى عهد الشيوعية فى روسيا وفى غيرها فلا يلزم من زواله أن تعود الأمم إلى نظام رأس المال كما كانت قبل التجربة الشيوعية ، وإنما تبطل التجربة الشيوعية لتعقبها ولاية المديرين الفنيين حيثما

وجدت الصناعة الكبرى ، فإن لم توجد فالبلاد التى تخلو منها تظل معلقة بدولاب من دواليب الأمم الصناعية الكبرى إلى أن تتمالك قواها وتتمكن من الوقوف على قدميها .

هذه هى النتيجة العملية التى فصلها برنهام فى كتبه المتعددة وأهمها هو كتابه الذى ألفه فى أوائل أيام الحرب العالمية وسماه الانقلاب الفنى Managerial Revolntion ، فى هذا الكتاب خلاصة مذهبه كله بتفصيل كاف لبيان مواطن القوة والنقص فيه . إلا أنه أضاف إليه بعض الحواشى والتعليقات فى خلال كلامه عن فلاسفة الحكم الذين سماهم بالمكيافيليين لأنهم جميعا يجعلون للحكم صورتين تختلف الظاهرة منها عن الباطنة ، ولا تنطبق الدعوى فيهما على الحقيقة الواقعة .

فى ختام هذا الكتاب يوجه برنهام ثلاثة أسئلة وهى : هل يمكن الوصول إلى مقررات علمية فى شئون السياسة ؟ وهل يتيسر تعويد الجماهير أن تتصرف فى أعمالها السياسية وفاقاً للعلم أو لمقتضيات المعقول ؟ وهل يتيسر للحاكمين اتباع قواعد العلم فى حكم الرعايا ؟

وجوابه عن السؤال الأول « نعم » لأن استقصاء الوقائع والمقابلة بينها وردها إلى أهم أسبابها المتواترة واستخلاص النتائج منها هو كل ما يلزم لإنشاء « علم السياسة » والوصول إلى

المقررات العلمية فى مسائلها ولو على وجه التقريب ، وهذه المباحث كلها ميسورة لمن يعكف على دراستها وللذين يتابعون درسها لنقد عيوب الدراسات الأولى منها .

أما جوابه عن السؤال الثانى فهو نفى هذا الاحتمال لأن الدرس العلمى لا يتاح للألوف والملايين فى حالات الطلب والغضب والتشيع والتعصب وما شابه هذه الحالات التى لا تخلو منها جمهرة الرعايا فى وقت من الأوقات .

وقد أجاب عن السؤال الثالث بترجيح إمكانه ، لأن توزيع العمل بين العلماء والفنيين يتيح لهم أن يعتمدوا على طائفة منهم تتفرغ للبحث وتملك المعلومات الكافية للتقدير الصحيح ، ولا سيما التقدير الذى تدار على أساسه مصانع ومعامل توازن بين ما تطلبه وبين ما هو مطلوب منها فى مختلف المواسم والمناسبات .

ولعل الطبقة الفنية التى تشرف على أدوات الإنتاج ستتولى الحكم وهى أقدر على صد الأغنياء وكبح الجماهير من حكومات رأس المال. لأن الأغنياء هم الذين يسيطرون على تلك الحكومات وجمهرة العمال قادرة على تهديدهم فى مصالحهم بالإضراب والاعتصاب والهجوم على المصانع أملا فى إدارتها لحسابهم كما يمنيهم زعماء الشيوعيين ، وهذا خلاف ما يجرى عليه العمل فى

حكومات الفنيين ، لأنهم لا يملكون شيئاً غير الخبرة التى لا ينتزعها منهم المهددون من الفريقين .

على أن الذين يقرون برنهام على اعتقاده فى « علم السياسة » يخالفونه فى سهولة التطبيق الصحيح ، والمهم فى السياسة هو التطبيق

فردريك أوجست ڤون هاييك
Friedrish August Von Hayek
١٨٩٩

تعتبر مدرسة الحريين مدرسة إنجليزية فى نشأتها وتدعيمها وكثرة أتباعها ، ولا يستثنى بعضهم مذهب « هوبس » الفيلسوف من مذاهب هذه المدرسة وهو الداعى إلى تزويد الحكومة بالسيطرة القوية ، لأنه — مع ميله إلى تعزيز سيطرة الحكم — يقرر أن الحكم كله قائم على تراضى المحكومين واتفاقهم على تنصيب الحاكم ، منعاً لعدوان بعضهم على بعض وضماناً من الخوف الذى يساور ضعفاءهم من أقويائهم إذا ارتفعت عنهم سطوة الهيئة الحاكمة .

ويتفق فلاسفة الاقتصاد السياسى وفلاسفة الحكم على مذهب الحريين ، فالمدرسة الإنجليزيه — مدرسة آدم سميث — تلخص آراءها الاقتصادية فى إرسال المعاملات بغير قيد وتتخذ شعارها عبارة « دعه فى سبيله » على اعتقاد أن سنن الأخذ والعطاء والعرض والطلب خير كفيل بتنظيم المعاملات فى الأسواق الداخلية والأسواق الخارجية على السواء .

ويجاريها فلاسفة الحكم من جون ملتون إلى جون ستيوارت ميل إلى اللورد أكتون إلى هربرت سبنسر إلى برتراند رسل فى العصر الحاضر ، وخلاصة آرائهم جميعا أن « الحرية الفردية » غرض مطلوب لذاته وليست وسيلة نتوسل بها إلى غرض آخر ، وأن مهمة الحكومة مقصورة على كفالة هذه الحرية الفردية فلا حق لها فى استخدام شىء من السيطرة وراء هذه الغاية .

على أننا اخترنا الأستاذ هاييك لتمثيل هذه المدرسة لأن كلامه فيها أقرب إلى البحث المجرد الذى لا يصدر عن تقليد من التقاليد القومية ، فليس هو من صميم الإنجليز ولا من الذين تعلموا فى المدارس الإنجليزيه ، ولكنه ولد فى النمسا وتعلم فيها وفى الولايات المتحدة وانتقل بعد ذلك إلى إنجلترا حيث يقيم الآن ويشتغل بالتعليم فى جامعاتها . وقد أصبح له صوت مسموع فى ميدان الثقافة والسياسة وشاعت آراؤه على أثر نشرة لكتابه المسمى « بالطريق إلى الرق » ويعنى به هنا سيطرة الدولة على المرافق والمعاملات . ومزية هذا الكتاب أنه لا يكتفى بترديد المبادئ الأولى التى أيد بها الحريون مذهبهم لاختلاف الأحوال بين القرن الماضى والقرن الحاضر ، فإن مبادئ الحريين الأولى قد لوحظ فيها تفنيد حجج المحافظين الذين كانوا يميلون إلى تقييد الواردات وزيادة المكوس واحتكار

الأسواق ، أما مبادئ الحريين فى العصر الحاضر فالملحوظ فيها تفنيد القائلين باستيلاء الدولة على المرافق العامة وتعميم نظام التأميم على المنشآت القومية الكبرى ، وقد ساعد على إقحام هذه المبادئ فى البيئة الإنجليزية عوامل جديدة لم تكن معهودة فى القرن الثامن عشر ، ومنها مشكلة البطالة وتكاثر حزب العمال والاضطرار إلى تقييد التجارة وتنظيم الإنتاج فى الحرب العالمية الأولى وفى الحرب العالمية الثانية ، وتزاحم الدول على الأسواق واعتماد أصحاب المصانع والشركات على مساعى حكوماتهم عند الحكومات الأخرى .

فمذهب الحريين كما يعرض الآن مذهب جديد فى أسبابه ومناقشاته وإن كان قديماً فى أصوله وغاياته ، ويبدو من ذيوع كتاب الأستاذ هاييك أن أنصاره والمستعدين للاقتناع به غير قليل بين قراء الإنجليزية ، فقد طبع ست مرات بعد طبعته الأولى ونشرت منه طبعة شعبية غير الطبعة الخاصة ، واعتبره الحريون معبراً صادقاً عن آرائهم فى الرد على أنصار التأميم والتعميم .

يعمد الاستاذ هاييك إلى الحجة الأولى من حجج المقيدين والمنظمين — وهى ضرورة التأميم فى العصر الحاضر تبعاً لتقدم الصناعة — فينفيها كل النفى ويستند فى نفيها إلى بيانات لجنة

الاقتصاد القومى الأمريكية التى درست مسألة التركيز الاقتصادى وسجلت نتائج بحثها فى تقرير واف قدمته إلى الكونجرس منذ عشر سنين (١٩٤١) .

وفحوى حجة المقيدين والمنظمين أن تقدم الصناعة فى العصر الحاضر لا بد أن يفضى إلى نتيجة من اثنتين : إما احتكار الأسواق فى أيد قليلة ، أو سيطرة الحكومة على المصانع والأسواق ، لأن تقدم الصناعة يجعل فى مقدور المصانع الكبيرة أن تقضى على المنافسة بقلة التكاليف وجودة البضاعة ورخص الأسعار ، فإذا تركت الحكومة حبل المصانع الكبرى على غاربها فالنتيجة المحتومة هى الاحتكار والقضاء على صغار الصناع والتجار .

والأستاذ هاييك يقول إن شيئاً من ذلك لم يثبت من بحوث المختصين ، فلا جودة الصناعة ثابتة للمصانع الكبرى ولا سيطرة الحكومة ضرورية لتنظيم الصناعات .

ويختصر الطريق فيقول إن السيطرة الحكومية بدأت فى ألمانيا منذ ثلاثين سنة حيث لم تبلغ الصناعة غايتها من التقدم وتأخرت فى إنجلترا التى سبقت الأمم الأوربية فى هذا المضمار . والمعروف أن أصحاب المصانع هم الذين يسعون إلى تقرير نظام التقييد والتنظيم ويبذلون فى هذا السبيل غاية ما يستطيعون

من وساطة وتأثير . فلو أن الأمر كان حتماً مقضياً لا محيد عنه لأراحوا أنفسهم من المساعى الحثيثة فى هذا السبيل .

وليس قصارى الاعتراض على التقييد والتنظيم أنه عمل لا تقضى به الضرورة فى الظروف العامة ، وإنما يعترض عليه الحريون لأنه سياسة ضارة بالصناعة نفسها وضارة بالأخلاق والآداب وضارة بقضية السلام فى العالم .

فقد كان تقدم الصناعة والاختراع مقترناً بحرية المعاملة وفتح باب المنافسة لمن يشاء ، ولن يطرد هذا التقدم إذا بطلت المنافسة ووكل الأمر إلى رقابة الموظفين الذين يعملون لغيرهم ولا يعملون لأنفسهم .

ومتى استقر الرأى على تفويض الحكومات فى شئون الإنتاج والاقتصاد فمن لوازم هذا التفويض أن يسمح لها مقدماً باتخاذ كل « إجراء » يستدعيه التنفيذ فى حينه ولا يتأتى أن يحسب له حسابه قبل ذلك الحين ، ومؤدى ذلك ذهاب حكم القانون الذى يتعارف عليه الناس قبل تنفيذه ، وإيكال الأمور كلها إلى تقديرات المنفذين على حسب كل ظرف من الظروف .

يقول الأستاذ إن خير وسيلة لحسن العمل هى إقناع العاملين بصوابه وحسن جدواه ، وليس من الممكن إقناع

الناس قاطبة بخطة من الخطط السياسية أو الاقتصادية تطبق عليهم فى جميع الأحوال ، فينتهى الأمر بإحلال الدعوة والتبشير محل التعقل والإقناع ، ويتعارف الساسة والرعايا على الخداع والتضليل للتوفيق بين الدعوة وبين أمزجة الناس وآرائهم، وتنشطر الأمة إلى فريق مع النظام وفريق خارج عليه محتاج إلى الإكراه أو إلى التضليل لإدخاله فى سلك ذلك النظام ، ومن هذا الانقسام تنشأ رذيلة الاستبداد التى تقصر الحقوق القومية على من يشايعون السلطان القائم ، ومتى كانت الحكومة هى صاحبة العمل وصاحبة السلعة فالذى يخالفها يقاطع موارد الرزق ويتعرض للجوع والانتقام على يد القانون .

ويناقش الأستاذ أقوال القائلين إن الآفة فى الدولة المستبدة هى آفة الحاكمين بأمرهم لا آفة النظام نفسه ، وإن البلاد الألمانيــة والإيطالية لو أسندت إلى حكام غــير هتلر وموسولينى ومن معهما لما ساءت فيها الأمور كما ساءت ولا تعرض السلم فى العالم للخطر كما نعرض له من جراء خطل الرجلين ومن على شاكلتهما من الأشرار أو الإمعات ، ولا أفضى الخطر فعلا إلى وقوع الحرب واتصال القلاقل فى العالم بعد هزيمة المعتدين .

يناقش الأستاذ أقوال هؤلاء ويخرج منها على نقيض ما زعموه: وهو أن الآفة فى النظام حيث كان وليست الآفة فى آحاد معدودين يبرزون بالمصادفة والاتفاق فى بلد دون بلد وزمان دون زمان .

إن الدكتاتور — الحاكم بأمره — يصعد إلى عرش جبروته بتأييد جمهرة من الأمة يستمد منها القدرة المطلقة على قمع معارضيه وفرض الطاعة العمياء على جميع المحكومين ، وهى تخوله الأمر المطلق لأنها تتقبل « نظرية واحدة » فى شئون السياسة .

ومن القواعد المقررة أن الإنسان كلما ارتقى فى العلم والفهم بلغ مرتبة الاستقلال بالرأى والاستقلال بالخلق ، فلا يتسنى اجتماع كثرة غالبة من هؤلاء المستقلين فى الآراء والأخلاق تتقبل « النظرية الواحدة » بغير تصرف فيها وبغير تعقيب عليهـا .

فالجمهرة التى تؤيد الدكتاتور هى بطبيعتها جمهرة مسفة فى طبقة الفكر والخلق ، تهون عليها حريتها وتهون عليها حرية غيرها . ولا تشعر بفقدان الحرية ، لأن الذى يشعر بفقدانها هو الذى يقدر على استقلال الرأى فيشعر بالحجر عليه .

ولا يخفى أن الحاكم بأمره يتعلل على المجالس النيابية

لأنه يتهمها بتضييع الوقت في المناقشات ويرغب في سرعة الإنجاز ومضاء العزيمة عند البت في جلائل الأمور ، فإذا رسخت قدمه في مكانه فليس من المعقول أن يطيق المعارضة ممن حوله ولا أن يحتمل المشاركة وهو قادر على التفرد برأيه ، فلا يلبث أن يحيط عرشه بمن يذعنون له خوفاً واستسلاماً أو عجزاً عن مقابلة الرأى بالرأى والدليل بالدليل ، ولن تطول هذه الحالة حتى تقضى على عناصر التفكير والاستقلال فيمن يقبضون على أزمة الدولة ويديرون معه أداة الحكومة .

ولما كانت جمهرة المحكومين لاتساس بالرأى والروية فلا غنى للحاكم المستبد عن سياستها بإثارة العواطف وتحريض نوازع البغضاء والحماسة على « العدو المزعوم » الذى يخترعه لها إن لم يكن له وجود فى مخيلتها . وقد كان « اليهودى » هو العدو المختار لشعب ألمانيا ، وكان الكولاك أو مالك الأرض هو العدو المختار لشعب روسيا ، وكانت إنجلترا تارة وحكومات «رأس المال» تارة أخرى هى العدو المختار فى السياسة الخارجية ، وعلى الدكتاتور — متى استثار حفائظ البغض فى نفوس رعاياه — أن يسمح لها بافتراس ضحاياها وأن يخلى بينها وبين أعدائها ، ولها منه أيضاً أن تعينه على ضحاياه وأعدائه ... إذ أنهم هم العدو المشترك الذى يقف فى الطريق دون بلوغ

العظمة المنشودة والمجد المأمول .

فحكم القسوة والإجرام وضيق الحظيرة وقلة الصبر على الآراء المخالفة طبيعة ملازمة للحكومة المستبدة ، وقد قيل إن الطغيان يفسد صاحبه وإن الطغيان المطلق فساد مطلق فى جميع الأحوال ، فإذا اتفق مرة أن يتبوأ عرش الطغيان حاكم صالح فلا أمان عليه من عدوى الفساد والانحدار .

ومن تحصيل الحاصل أن يقال إن الحكومات انما تسيطر على المصانع والسلع لتتولى هى أعمال التجارة مع الأمم الأخرى على أساس القوة والغلبة ، فتصطدم القوة بالقوة ويقع الاحتكاك الذى يخشى منه على السلام العالمى ، ويلتفت العالم بعد الخراب الجائح الذى ابتلى به من جراء المنازعات والحروب فإذا هو قد أضاع من الزمن بتلك السرعة المزعومة أضعاف ما يضيع عليه فى المناقشات الحرة ، فضلا عن خسائر الأرواح والأموال .

ويعتقد الحريون أن تجارب التقييد والتنظيم محاولات مخفقة تؤول فى النهاية إلى الاعتراف بالمنافسة الحرة فى نطاقها الصالح الذى لا يجاريها فيه نظام آخر . فهى محاولات غير ممكنة كما أنها غير ضرورية . فليس فى الدنيا إنسان ولا جملة من الناس يملكون المعلومات والوسائل الكافية لإخراج كل سلعة بالقدر

اللازم فى الآونة اللازمة ، وإنما يتكفل التنظيم بناحية وتتكفل المنافسة الحرة بناحية أخرى ، وتتقلب الأحوال فى الأسواق أبداً على حسب الطلب والمحصول وكثرة هذه السلعة وقلة تلك وتغير الأذواق والحاجات بما لا يدخل يوماً فى حساب ولا تدبير.

ويطول شرح الآراء والأسباب التى يبنون عليها نظرياتهم فى حكمهم على عاقبة التقييد والتنظيم ، سواء منه ما يطبق فى ميدان الاقتصاد القومى أو فى ميدان المبادلات العالمية .

وقد جمع الأستاذ هاييك طائفة من بحوث علماء الاقتصاد فى الأمم الاوربية كالأستاذ بيرسون الهولاندى والأستاذ لدفج ڤون ميز النمسوى والأستاذ جورج هالم الألمانى والأستاذ بوريس برتزكاس الروسى وقدم لها فى مجموعة باللغة الإنجليزية نشرت باسم « تنظيم الاقتصاد الجماعى » Collectivist Economic Planning فاتفقت أقوالهم جميعاً على رأى واحد أسفرت عنه التجارب الجماعية فى كل أمة بغير استثناء روسيا الشيوعية ، وخلاصة هذا الرأى أن الإنتاج الجماعى مستحيل بغير تقدير « ثمن » للسلع يتوقف على نسبة الحاجات المعيشية بعضها إلى بعض ولا يتيسر التحكم فى تقديره بحال من الأحوال .

وما معنى تقدير«الثمن» الذى يرتفع و يهبط من حين إلى حين ؟ معناه الموجز أن ضبط مقادير السلع بالتحكم والإملاء

السابق غير مستطاع ، وأن الحرية الاقتصادية على نحو ما تتغلب على أوامر التحكم والإملاء .

والأستاذ پيرسون الهولندى يعرض فى بحثه عن مشكلة « القيمة » لتوزيع الدخل فى بلاد الصناعة المقيدة فيتساءل : هل يوزع الدخل بتقدير عمل العامل أو يوزع الدخل بغير نظر إلى عمله ؟ فإذا تغاضى ولاة الأمر عن عمل العامل فلا صناعة ، وإذا دخل تقدير العمل فى الحساب فهناك التفاوت بين الدخول المتعددة ، وإذا تكفلت الدولة بتشغيل كل عامل فلا بد من وقت يقل فيه الطلب أو تقل فيه الخامات أو تختلف فيه النسب والمقادير فيتعرض فريق من عمال بعض الصناعات لركود الحركة أو البطالة وتصل إليهم الأجور من قبيل الإعانة والإحسان ، وتتشابه الصناعات المؤممة والصناعات الحرة فى علاج البطالة على هذا الأسلوب .

ويتساءل أيضا : هل تتغير عادات الكسل والتواكل وإدمان السكر والطمع والإجحاف فى الرؤساء والمرءوسين اذا كان نظام التقييد والتأميم متوقفا على صلاح الأخلاق ؟ وإذا كانت هذه العادات تتغير فما الحاجة إلى قلب النظام الاجتماعى من حال إلى حال والناس يستريحون فى ظل كل نظام حيثما عدل الكسلان عن الكسل وعدل السكير عن السكر

وعدل المجحف عن الإجحاف ؟ وظاهر من هذه الآراء أن الأستاذ پيرسون وزملاءه من الحريين يرجعون بأسباب الفقر إلى عادات الإنسان وأخلاقه كيفما كان النظام وكيفما كانت أساليب الإنتاج .

* * *

والتنظيم العالمى مشكلة أعضل من مشكلة التنظيم القومى وتوزيع الدخل بين العاملين فى الأمة الواحدة . فمن الذى ينهض بعبء رأس المال فى الصفقات الدولية ؟

تريد هولندة أن ترسل إلى جاوة بضائع مصنوعة فى مقابلة صفقةمن الأرز والبن . فهناك ثلاث طرق لإجراء هذه المبادلة : إحداها أن يصل الأرز والبن إلى هولندة ويؤدى ثمنه بعد وصوله أو بعد وصوله واستنفاد بعضه ، والأخرى أن تصل البضائع المصنوعة إلى جاوة ويؤدى ثمنها بعد وصولها واستنفاد بعضها ، أو يرسل كل من الطرفين مبادلته وتلتقيان فى منتصف الطريق . فجاوة هى التى تنهض بعبء رأس المال فى الحالة الأولى ، وهولندة هى التى تنهض به فى الحالة الثانية ، وكلتاهما تنهضان بالعبء فى الحالة الثالثة .

ثم يتساءل الأستاذ پيرسون قائلا : ما العمل فى الأمم التى لا تملك رأس المال حاضراً وتتسلف عليه فى انتظار موسم من

المواسم ؟ فهنالك أمم لا يحضرها رأس المال كل ساعة وهناك أمم يحضرها الوفر منه دائما ولا يضيرها أن ترجئ الحصول على ثمنه فى مقابلة شيء من الربح المنتظر ، وهناك أمم تنقص نصيبها من مادة لتتم نصيبها من مادة أخرى ، وقد يعظم الطلب فى العالم على مادة زراعية على حسب المواسم التى تختلف من سنة إلى سنة ثم يقل الطلب على تلك المادة بعينها فى نهاية ذلك الموسم ، وتداول المواد والأثمان والصفقات العاجلة أو الآجلة يجرى الآن على السنن التجارية والاقتصادية فى أعمال المصارف والبيوت التجارية . فكيف يحل التنظيم العالمى محل هذه الطريقة ؟ وعلى أى سنة يجرى تقدير الأثمان وتقدير ما تؤديه كل أمة فى كل حالة ؟

وخلاصة ما يتوافق عليه الاقتصاديون الحريون فى مشكلة التنظيم العالمى أنها تحتاج إلى تدبير أصحاب الحيلة الناجحة وتدبير أصحاب الكفاءة الضرورية لتنفيذها وتدبير أصحاب الهمة والأمانة إذا توافرت الكفاءة. فمن الذى يضمن تدبير ذلك كله فى وقت واحد وعلى حساب المفاجآت التى لا تدخل فى حساب ؟

وكلهم يتساءلون : ما الحاجة إلى قلب نظام الدنيا إذا فرضنا أن الدنيا ستتحول فيما بين ليلة ونهار إلى فردوس كفردوس الملائكة الأبرار؟ ويتسألون أيضا قائلين : ربما وجدنا الرجال

الذين يصبرون على الشظف من أجل تمجيد صناعتهم الوطنية. ولكن أين هم الرجال الذين يصبرون على الشدة ويقاومون المحنة من أجل سكان مجهولين فى جزيرة مجهولة يسمعون بها كرقعة ملونة على خريطة الكرة الأرضية ؟ .

كذلك تستطيع الحكومة القومية أن تقنع بعض رعاياها بالتحول من زراعة إلى زراعة باسم الحمية الوطنية وعلى اعتقاد أن المنفعة تؤول إلى إخوانهم فى الوطن الواحد . ولكن كيف تقنع الناس فى كل موسم بخطة جديدة تصدر من الهيئة العالمية التى تشرف على تنظيم الموارد والمصادر؟ ومن أين تأتى القوة العسكرية التى تكره المخالفين والعصاة على الطاعة ؟ وكيف يرضى أبناء إقليم من الأقاليم بإهدار مصالحهم كلما وقر فى أخلادهم أنهم ضحية لمطامع الدول الغنية ؟

إنه على الجملة تنظيم غير ضرورى وغير ممكن ، ويزيد على ذلك أناس من الاقتصاديين المؤمنين بمحاسن المنافسة الحرة فيقولون إنه ضار بالأفراد وبالأمم وبالإنسانية على عمومها. ففى ظل المنافسة الحرة التى تكفل بها نظام رأس المال نشأت حرية الفكر وحرية الضمير وحرية المعاملة واتسعت حقوق العمال وارتفعت أجورهم وتهيأت لهم ولاية الحكم فى أمم كثيرة وتبين بالإحصاء أن دخل الفرد قد تضاعف من القرن

الثامن عشر إلى القرن العشرين بحسبان ما يقدر على شرائه لا بحسبان ما يقبضه من العملة ، وتبين بالإحصاء كذلك أن دخل العامل فى روسيا الشيوعية يزيد بقليل على ربع الدخل المتوسط بين عمال الولايات المتحدة ، وهذا مع الفارق البعيد بينهما فى الحرية وفرص التقدم ، ومع الفارق البعيد بين مخاطر الحياة قبل القرن الثامن عشر فى الدنيا عامة وضمانات الحياة المختلفة بعد قيام رأس المال . فقلت المجاعات والأوبئة وقلت ضحايا الجهل والخرافة ، وخطا بنو الإنسان فى قرن واحد خطوة أوسع وأجدى عليهم من خطواتهم فى عشرات القرون .

ومساوئ النظام حقيقة لا ينكرها أحد . ولكننا لا نقابل نظاماً معروف المساوئ بنظام خلا من جميع المساوئ . فما من نظام فى الحاضر والمستقبل يخلو من مساوئه التى تعاب عليه . وإنما المقارنة بين مساوئ نظام ومساوئ نظام يلغيه ويعفى على محاسنه ولا ينبغى أن ننسى أن من المساوئ ما هو لصيق بعيوب الإنسانية ولا أمل فى تبديله حتى تتبدل طبائع الإنسان .

إنما الوجه أن نحسب الحسنات مع السيئات ، فلماذا ينسون الحسنات حين يذكرون السيئات ؟ ولماذا يعالجون نظام المنافسة الحرة بهدمه ولا يعالجونه بإصلاح سيئاته ؟ فالسيارات مثلا لها مخاطرها وتكاليفها وأضرارها وضحاياها ،

وما من أحد يقول بإلغاء صناعة السيارات من أجل تلك الأضرار ، بل يقولون جميعا بتحسين معاملها وتوسيع طرقها ومد مسافاتها ، ويحتملون العيوب من أجل الحسنات ، ثم ينظرون فى إصلاح العيوب حيثما استطيع الإصلاح .

والنتيجة من مذهب الحريين الحديث والقديم معاً هى « أولا » أن التقييد غير لازم و « ثانيا » أنه غير مستطاع و « ثالثا » أنه غير مأمون العاقبة على المصالح والحريات و « رابعا » أن نظام المنافسة الحرة كفيل بإصلاح عيوبه مع الزمن على حسب مقتضيات الأحوال .

وقد يسبق الى الخاطر مما تقدم أن الحريين المحدثين يتابعون الحريين الأقدمين فى رفض التقييد بتة وإطلاق الحرية للمنافسة الصناعية والتجارية بغير استثناء ، وأنهم يعودون إلى شعار الحريين الأول الذى فحواه : « دعه لسبيله » أو دعه فى سبيله » Laissaize faire كما وضعه الساسة والاقتصاديون فى القرن التاسع عشر بغير تنقيح .

إلا أن الحريين المحدثين لا ينحون هذا النحو ولا يرفضون التقييد والتنظيم كل الرفض فى جميع الأحوال .

إنما يرفضون شيئاً واحداً وهو التقييد الذى يبنيه أصحابه على نظريات فلسفية قابلة للخلاف ويفرضونها على المجتمعات

كأنها وحى مبرم لا تبديل لكلماته ولا يطاق الخلاف عليه .

إنما يرفضون الحجر على المستقبل إلى آخر الزمان ذهاباً مع معلومات تتغير فى كل عصر وقد تنقلب من النقيض إلى النقيض ، أو هم يرفضون التقييد الذى هو حجر على مساعى الأرزاق وحجر فى الوقت نفسه على العقائد والأفكار وإكراه للعقول على أن تفهم كما يفهم فريق من الناس ، وللأيدى على أن تعمل كما يسوقونهم من الآن إلى غير انتهاء .

فهذا هو التقييد الذى يرفضه الحريون المحدثون ، ولكنهم لا يرفضون إشراف الدولة على المرافق التى لا يستقل بها فرد أو جملة أفراد ، ولا يرفضون التقييد الذى توحيه المصالح والظروف حسب الحاجة المتجددة ، وقد يبيح فى عام ما يحظره فى عام ويخضع فى الإباحة والحظر للرقابة العامة التى تصونه عن فساد الاحتكار وفساد الطغيان وفساد التعسف بالأهواء والنزوات .

واسم الحريين كاف لبيان لباب المذهب بحذافيره . . . فالحرية الفردية أو حرية الضمير الإنسانى هى الغاية القصوى التى تخدمها كل غاية ، وتحسين العيوب مع بقاء الحرية أمل مشروع يجارى سنة الحياة التى تقوم على الخطأ والتجربة والإصلاح ، ولكن ذهاب الحرية خسارة محققة بغير عوض

مضمون ، لأنه مقدمة لذهاب المصلحة الفردية والمصلحة القومية ، ومن وراء ذلك ذهاب المصلحة الإنسانية وخسارة المادة والروح .

جراهام والاس
Graham Wallas
١٨٥٨ — ١٩٣٢

كاتب اجتماعى اشتغل بالتدريس وساهم فى تأسيس الجمعية الفابية الاشتراكية وكان أحد الأعضاء فى لجنة التحقيق التى ندبتها الحكومة الإنجليزية لبحث مسألة الوظائف والموظفين ، وألف كتبا قيمة فى أصول السياسة والاجتماع : منها كتاب « الطبيعة البشرية فى السياسة » وكتاب « تراثنا الاجتماعى » وكتاب « الهيئة الاجتماعية العظمى » وكتاب « الرأى الاجتماعى » ورسائل منوعة تدور حول هذا الموضوع ، عدا بعض التراجم والتقارير

وهذا الكاتب الألمعى طراز آخر غير الكتاب الذين أجملنا الكلام عليهم فى هذه الرسالة ، فهو لايتشيع لشكل خاص من أشكال الحكومة ولا يستخلص من عبر التاريخ محورا خاصا تدور عليه النظم الحكومية ، ولكنه يحاول أن ينشئ علما للسياسة يضارع علم الاقتصاد أو علم الاجتماع إن لم يبلغ فى دقته مبلغ العلوم الطبيعية والرياضية ، ويهتدى فى

محاولته هذه بقول أرسطو إذ يقرر أن السياسة علم يدرس للعمل لا لمجرد الفهم والمعرفة ، فلا ينفعنا أن نرصد حركات الأمم فى الماضى ونقيس عليها حركات الأمم فى المستقبل ونضبط القياس حتى لا يختل قيد شعرة فى تقدير ما هو كائن وما سوف يكون . فإن علماء الفلك يتقنون الحساب الذى يترسمون به سير الكواكب فى مداراتها وملتقى الشموس والأقمار فى أوقاته ، ومواعيد الخسوف والكسوف بأيامها وساعاتها ودقائقها ، ولكنه علم لا يتيح لأحدهم أن يحول كوكبا عن مجراه أو يؤخر لحظة من موعد الخسوف والكسوف .

أما المقصود بعلم السياسة فهو الإحاطة بمجاريها والاقتدار على تعديلها وتحويرها والتأثير فيها ، ومثل هذا العلم لا يكمل فى سنوات ولكنه قد يبدأ فى ساعات وينتهى بعد حين إلى فائدة لا شك فيها ، ولو ظل ناقصا مختلطا عدة سنين .

ورأى جراهام أن تكوين علم السياسة لا يستلزم أن يكون الإنسان معقولا فى تصرفاته السياسية ، وهو على حق فى ذلك . إذ ليست المراقبة العلمية وقفا على أعمال المتعقلين والمناطقة بل هى قد تتناول حركات الجماد كما تتناول حركات الإنسان فى المجتمع السياسى معقولا وغير معقول . وصدق من قال إن المرء ليحتاج إلى كثير من التعقل ليعلم كم يخلو

الإنسان السياسى من التعقل ، ولا سبيل إلى فهم السياسة ولا إلى وضع علم للسياسة مالم تكن هذه الحقيقة ماثلة أمام من يدرسونها .

وقد مات جراهام والاس ولما يفرغ من محاولاته فى تقرير قواعد علمه ، فلا نريد فى هذا الفصل أن نلخص محاولاته تلك أو نلخص المقررات التى عساه كان منتهيا إليها لو امتدت به أوقات الاستقراء والتقرير ، فغاية ما فى الوسع ان نعرض هنا نماذج من الأغاليط التى طرحها على مشرحته وأن نلم بأمثلة من أساليبه فى مناقشتها أو تفنيدها ، وهى باتفاق الآراء أساليب علمية منزهة عن الهوى السياسى والدوافع الشخصية .

عرض مثلا لقول القائلين إن العامل الأول الذى يحسب حسابه فى تصرفات الإنسان السياسية هو حب المنفعة .

فبعد أن تساءل : هل يصدق الإنسان فى تقدير منفعته دائما ؟ عاد يضرب المثل لحالة إنسان عرف منفعته فى صفقة من الصفقات فإذا بمعرفة المنفعة وحدها لا تكفى لتحقيق غاية من الغايات .

اطلع ذلك الإنسان مثلا على نبأ فى صحيفة يدله على طريق منفعة من وراء المساهمة فى إحدى الشركات . . . فليس

هذا الاطلاع وحده كافيا لعمل ما . بل ينبغى أن يتبعه النشاط اللازم للعمل والخبرة الصالحة لاستخدام ذلك النشاط ، وإلا فالعلم بالمنفعة والجهل بها يستويان .

وعرض لرأى القائلين إن الإنسان خاضع لعاطفته فى حركاته السياسية ، فقال إن العاطفة الواحدة قد تكون خالصة أو تكون مشوبة فيختلف أثرها فى الحالتين .

فالرجل الذى يرى صديقاً مشوها يرحمه ويبكى لمصابه ، وهذه هى العاطفة الإنسانية الخالصة .

غير أنه يصرع الناس ويشوههم إذا التقى بهم فى ميدان القتال وقيل له إنهم أعداء الوطن أو أعداء الدين ، فينسى الرحمة أمام الصرعى والمشوهين وتخامره الغبطة حين يعمل الصراع والتشويه فى أولئك الأعداء ، وشوائب العاطفة مهمة فى هذه الحالة ، لا تقل فى وجوب الاهتمام بها عن العاطفة كما خلقت فى بنية الإنسان وهى خالصة من شوائبها .

وعرض لرأى القائلين إن نظام الحكومات الماضية والحاضرة قام على حق الملكية ، فقال إن أصحاب هذا الرأى يخيل إليهم أن الإنسان يعمل عملا معقولا حين يبسط يده على قطعة من الأرض ، وأن حرصه عليها معادل لانتفاعه منها . على حين أن غريزة « الاحتجاز » تغرى الطفل بحجز الأشياء التى

لا تنفعه ولا يعرف منفعتها ، وما من أحد إلا وهو ينفر من الشعور بالمشاع فى حياته ويحب أن ينفرد بحوزة خصوصية أو خلوة نفسية Privacy حيث كان فى عزلته واجتماعه ، وقد لحظت بعض الأندية هذا الشعور فجعلت من آدابها المرعية أن يقصر العضو خطابه على معارفه من الأعضاء ، ولا يستبيح لنفسه أن يفاتح بالحديث عضوا لم يتعرف إليه وإن كانت الأندية قد نشأت فى الحضارة الحديثة للتعارف والاجتماع .

وعرض لرأى القائلين إن الحكم النيابى الصالح يتحقق بالانتخاب النسبى الذى يفسح المجال لكل ناخب أن يعطى صوته وأن تكون لجملة الأصوات المتفرقة قوة برلمانية لا تخضع لتدبير الأحزاب والزعماء .

فكانت مناقشته لهذا الرأى أنه ترك المفاضلة بين قوانين الانتخاب ورجع إلى البحث فى قيمة التصويت : فهل المهم هو إعطاء الصوت فقط ، أو المهم هو تكوين الصوت وما أدى إلى تكوينه من استقامة التفكير أو عوج التفكير ؟

وبحث فى مزية المجلس الأعلى الذى يوازن المجلس الآخر ويصده عن الشطط أو الإخلال بسلامة الأداة الحكومية ، فكان من رأيه أن المجلسين معا يضمنان الموازنة النافعة حيث

يتولى وظائف الدولة « سلك » من الموظفين الدائمين لا ينقطع بانقطاع الصلة بين مجلس منتخب ومجلس منتخب يليه أو بانقطاع الصلة بين المجلس الأعلى والمجلس الأدنى فى مآزق النزاع . وأنكر أشد الإنكار أن ترجع الوزارة إلى النائب لاختيار الموظفين فى دائرته الانتخابية ، وهو رأى يقول به بعض المتوسعين فى حدود الهيئة التشريعية . فاستدل بتجاربه فى لجنة التحقيق على وجوب العزل بين الاختصاصين ، وروى عن بعض الثقات أنهم يتشاءمون لما يلحظونه من تسامح المجالس الحديثة فى الخلط بين عمل الوزارة وعمل التشريع ، فمن شأن هذا الخلط أن يجعل المشرعين عالة على المنفذين ، وأن يصدف ذوى الكفاءات عن التقدم للانتخاب .

ومن المسائل التى ألم بها مسألة الاجتماعات التى تعقد لإقناع المستمعين ، فقال إن الذين يحضرون هذه الاجتماعات هم فى الغالب مقتنعون بما سيقال فيها قبل حضورها ، وإنهم لم يحضروها إلا لأنهم من أنصار الخطيب وحزبه فى دعوتهم السياسية .

ونقل من خطب البرنس بولوف السياسى الألمانى المعروف فى أواخر أيام آل هوهنزلرن كلاما يقول فيه عن تعميم حق التصويت : « لا إخال أن أحداً من غير الاشتراكيين

المتعصبين للنظريات قد بقى على تقديسه لفكرة التصويت العام واعتبارها بمثابة الآيات المنزلة » ثم يقول البرنس عن نفسه : إنه من جانبه لا يعبد الأصنام ولا يصدق المنزلات السياسية . وإن السلامة والحرية فى أمة من الأمم لا تتوقفان — كلا ولا جزءا — على شكل الدستور وأحكام قانون الانتخاب وألمع البرنس إلى كلمة للزعيم الاشتراكى الألمانى « ببيل يقول فيها إنه يفضل النظم الإنجليزية على النظم الفرنسية . فعقب عليها قائلا : غير أن الانتخاب فى إنجلترا ليس بالحق العام على سنة المساواة وليس بالانتخاب المباشر ، ثم راح يسأل : هل فى وسع قائل أن يزعم أن مكلنبرج التى ليس فيها انتخاب عام على الإطلاق أسوأ فى حكومتها من جزر هايتى التى تسامع العالم أخيرا بغرائب أخبارها على الرغم من انتخاباتها العامة؟» .

وجواب الأستاذ جراهام على السياسى الألمانى أنه على حق إذا كان المقصود بالانتخاب العام أن الذين يتساوون فى الأصوات يتساوون فى جميع الاعتبارات ، ولكنه يجهل معنى كلامه أو يتجاهله إذا كان الانتخاب العام مبنيا على « أن توسيع نطاق القوة السياسية عنصر هام من عناصر الحكومة الصالحة ، وأن هناك عناصر أخرى للحكومة الصالحة كالاستعداد القومى والتبعة الوزارية وما إليها » .

ومن أسئلة الأستاذ جراهام سؤال عن رضا المحكومين هل هو شرط من شروط الحكومة الصالحة ؟ وقد رجح أن العالم النفسانى يجيب عن هذا السؤال بالنفى ، وأنه لو وجه فى الزمن القديم إلى أفلاطون لأجاب عنه بالنفى كذلك ، لأن العقل فى رأيه لا يتصور أن يقوم الحكم على أساس متقلب كأهواء جمهرة الناس ، و يقتدى بأفلاطون فى هذا الرأى مفكر حديث هو « ولز » صاحب كتاب « طوبى العصرية » الذى يتخيل فيه قيام ثورة من العلماء الممتازين تتسلم زمام الحكم وتمضى فيه على هدى العلم والأخلاق وإن سخط عليه الجهلاء ، فإنهم كثيرا ما يسخطون على ما ينفع ويفرحون بما يضر ويضير .

ولم يزعم جراهام أنه حل هذه المشكلة، ولكنه قال إنها عقدة جديرة بعقل كعقل بنتام يعود إلى الدنيا مستهديا فى هذه المرة بدراسات النفسانيين والاجتماعيين المحدثين ، ولا يقتبس هداه من فنيلون وهلفسيوس .

* * *

من هذه الأمثلة نعرف نهج الأستاذ جراهام والاس فى محاولاته، ونعرف المدى الذى وصل إليه من تقرير قواعد علمه... فهو كالمهندس الذى يجس أعواد الخشب وحجارة البناء

خشبة خشبة وحجرا حجرا ليدل على المادة التى تصلح لبناء البيت المقترح ، أو بناء « علم السياسة » كما بنيت علوم الطبيعة أو علوم الاجتماع والاقتصاد .

وفى اعتقاده أن مجرد الابتداء بتطبيق العلم على السياسة يرينا وجه الخطأ فى كلام الذين يتحدثون عن « الديمقراطى المثالى » كأنه لا يعمل لغرض قط غير المصلحة العامة ولا يخطئ أبداً فى فهم هذه المصلحة . . . فنحن لا نسمع بعالم « بيولوجى » يتكلم عن الحى المثالى الذى لا يجوع ولا يمرض ولا يشكو نقصا فى تركيب أعضائه ، فلماذا يبقى بيننا من يتحدثون بالمثالية فى تصرف المجتمعات والآحاد ؟ ولماذا نتمادى فى أخطاء المخطئين الذين يردون تصرف الإنسان السياسى إلى باعث نفسانى واحد أو يقيمونه على فرض عقلى واحد وهو مزيج من شتى البواعث والفروض ؟

إن علم السياسة مطلوب لضمان السلامة فى المجتمعات الإنسانية ، وليكن مثل العالم السياسى كمثل الصانع الخبير الذى يتحرى فى تركيب الآلة السليمة أن يكون الشطط فى استعمالها محسوبا له حسابه فى صميم جهازها ، فتتقى الانفجار إذا زاد الوقود أو زادت السرعة أو أدير فيها مفتاح غير المفتاح الذى ينبغى أن يدار .

فليس من الضرورى أن نتقن علم الآلات لتركيب آلة مثالية يمتنع عليها الخلل وتأبى المزيد من التحسين ، بل يكفى من العلم بها ما نحتاط به لعيوبها جهد ما تتيسر الحيطة ، ويكفى كذلك من العلم بالسياسة ما يؤدى بنا إلى مثل هذه النتيجة .

والمفهوم من مجمل أقوال الأستاذ جراهام أن استحالة التعقل فى جميع التصرفات الإنسانية لا يحول دون الترقى فى علاج الشئون السياسية ، فإذا كانت الغلبة للشعور فى تصرف الإنسان فالشعور نفسه قد يتهيأ لقبول الآراء الصالحة حسب معلومات « الشاعر » واتساع مجال إدراكه ، وقد يكون أثر الحقيقة من الحقائق أبعد مدى من نتائجها الحسية . كما أثر كشف أمريكا فى تصحيح أوهام الناس عن الكرة الأرضية وصورة الكون كله ومركز الإنسان فيه قبل أن تستفاد من ذلك الكشف نتائجه الحسية التى تتعلق بترقية الملاحة والتجارة ، وجمع الملاحظات الصادقة عن طبائع الجماعات وبواعث العمل السياسى فيها وهى مجتمعة و بواعث العمل فى آحادها وهم متفرقون — علم مطلوب كما تطلب العلوم ، ومحاولة طيبة لإلقاء النور على دوافع الساسة ودوافع المسوسين وحسب الناس من تقدم فى هذا السبيل أن يخرجوا بالسياسة من الظلام إلى النور .

تعقيب

أول ما يبادر إلى ذهن القارئ من مراجعة المذاهب المتقدمة دفعة واحدة أنها تتقسم بينها الصواب والخطأ على حصص متفاوتة فليس بينها مذهب ينفرد بالصواب كله ولا مذهب ينفرد بالخطأ كله . وهى على تناقضها من ناحية يتمم بعضها بعضا من ناحية أخرى ، بحيث يحتاج السياسى الحصيف إلى الأخذ بحصة من كل منها ليهتدى بها جميعا فى سياسته العامة .

وتكاد تتفق كلها على استحالة « الطوبى » الموعودة التى تتعلق بها أحلام طلاب السعادة ويحسبونها نهاية الشقاء وبداية النعيم المقيم فى هذه الدنيا . فمهما تتبدل النظم وتتغير الحكومات فلن تنقطع أسباب الشكوى من الحياة الإنسانية ، ولعل رتقاء الناس فى معارج هذه الحياة يبعث من نفوسهم أسبابا للشكوى لم يشعروا بها فى عهود الجهل والقلة ، فإن الشكوى تأتى من الشعور بالكمال كما تأتى من الشعور بالنقص ، وتأتى من حرية التعبير كما تأتى من فقدان الحرية ، بل لعل الارتقاء أدنى إلى الشكوى من الركود والجمود ، ولعل الحرية

أدعى إلى التذمر من القسر والخوف .

وعبثٌ أن يقال إن نظاما من نظم الحكم أو الإنتاج يختم التفاوت بين الناس ويبطل دواعى الأمر والطاعة بين جماهير الحكام والرعايا . فقد عهد الناس دائما أن القوة تجلب الثروة كما عهدوا أن الثروة تجلب القوة . وسيظل التفاوت بينهم فى البأس والذكاء والهمة والحيلة والجمال بابا من أبواب الاختلاف فى حظوظ الجاه والسيادة ، وما من حيلة قط تقضى على دواعى التفاوت بين بنى آدم وحواء ، فإننا نرى الخيل يباع واحد منها بجنيهات ولا يباع واحد منها بأقل من عشرات الألوف وأخلق ببنى الإنسان أن يمتنع التشابه بينهم إذا امتنع التشابه بين الدواب والحيوان الأدنى .

وفى الحياة ظلم وحرمان، ولكنهما لا يرجعان إلى طائفة دون طائفة ولا إلى خليقة دون خليقة ، وقد يكون الظلم من الأسفل كما يكون من الأعلى ، وصدق المعرى حيث قال :

ظلم الحمامة فى الدنيا وإن حسبت
فى الصالحات كظلم الصقر والبازى

فليس علية الناس عالة على سفلتهم ولا سفلة الناس عالة على عليتهم ، وليس هناك علية سرمديون ولا سفلة سرمديون ومن قال إن طائفة تعمل وطائفة تغصب فقد ظلم الواقع

وانحرف عن الحقيقة الوسطى ، ولا اعتدال قط فى أمر من الأمور مع انحراف .

فالعاملون بأيديهم يعيشون اليوم بمخترعات العاملين برءوسهم وقرائحهم ، ولولا هذه المخترعات لهلك العاملون بالأيدى جوعا لندرة الصناعات وقلة الأعمال .

والعاملون برءوسهم وقرائحهم ما كانوا ليخترعوا جديدا لو كانت المعيشة منذ القدم وقفا على حاجات الضرورة ، ولم تكن فيها تلك المعيشة الغالية التى تغرى بتشييد القصور وتسيير السفن والتنقيب عن الجوهر والعكوف على فنون الملاحة والسبك والحفر والنسج وفضول الزينة ومناعم الفراغ .

ومن هو العالة على الآخرين ؟ ملايين من الخلق تستفيد الأقوات ولا تعطى الإنسانية شيئاً من تراث الفكر وقيم الأخلاق؟ أو ألوف من الخلق يجدون فوق الكفاية فيرتفعون بالمعيشة من الضرورات إلى مطالب الكمال ؟

ومَنْ مِنَ الناس ظالم ومن منهم مظلوم ؟ مصلحون يفتحون آفاق المعرفة والفضيلة والجمال أو سواد لا يزالون ينصرون كل دجال على كل مصلح ويعينون كل طاغية على طلاب الحق والإنصاف ؟

كلهم إن رجعنا إلى الحقيقة عالة وكلهم عامل ، أو

كلهم ظالم وكلهم مظلوم ، وصدق المعرى مرة أخرى حيث قال :

الناس للناس من بدو ومن حضر
بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

وكلما تقسمت الحظوظ وتوزعت الأعمال تبينت حاجة فريق من الناس إلى فريق ،واستحال اكتفاء أحد منهم بما عنده . فليس انقسام الحظوظ وسيلة لاستقلال أحد عن أحد بل هو على الدوام سبب جديد لتعويل كل منهم على سواه .

فلن يستقيم عمار الكون على فئة واحدة ، ولن يرجع عماره يوما إلى علة واحدة ، وعلامة الخطأ الذى لا شك فيه أن نفسر هذا الكون الواسع بتفسير واحد أو ندعمه بدعامة منفردة . إذ لا نهاية لعوامل العمار ولا للمؤثرات التى تنجم عنها هذه الآثار .

فالذين يقولون إن الإنسان يعمل لطلب السرور واتقاء الألم يجهلون الإنسان ويجهلون بواعثه التى تحجب غاياته ، ومنها بواعث الطفل الذى يتحرك لينمو وبواعث الرجل الرشيد الذى يتحرك لينمو كذلك ،وإن لم يكن نموه نمو أعضاءوقامات.

والذين يقولون إن الإنسان يعمل لطلب المنفعة يجهلون أنه يقدم على الخسائر وهو عالم بها ويهون عليه الموت ولا

يهون عليه فوات أمل من الآمال .

والذين يقولون إن الإنسان يعمل ليعيش ينسون أن يسألوا أنفسهم : ترى لماذا يحرص على أن يعيش ؟

والذين يقولون إن الإنسان يعمل للمجد ينسون لماذا يعمل لمجد غيره ويترك مجد نفسه فى كثير من الأحيان ؟

والذين يقولون إن الإنسان يعمل للدنيا لا يذكرون من يعتزلون الدنيا وينزوون عنها .

فما استقامت الدنيا قط على فكرة واحدة ولا صلحت الحياة قط على علة واحدة ، ولا موجب للعناء فى نقد المطالب والآراء إذا بدا عليها أنها تنقبض هذا الانقباض وتنحرف هذا الانحراف . فكل مذهب باطل إذا غفل القائلون به عن سعة الآفاق التى نعلمها وسعة الآفاق التى نجهلها ، وهى هنالك قائمة عاملة لا تغفل عنا إذا غفلنا عنها ، ولا تتخلى عن مجالها إذا عن لنا أن نخلى منها ذلك المجال .

ومهما يكن من تعدد المذاهب وتشعبها فى رءوس الحكماء فرأس الحكمة كلها فى السياسة أن الأمة الفاسدة لن تتولاها حكومة صالحة وأن الأمة الصالحة لن تتولاها حكومة فاسدة .

وما هى الأمة الصالحة ؟

من الوهم أن يظن أن الأمة الصالحة لا تعدو أن تكون

مجموعة أفراد صالحين ، فقد يصلح المرءفردا ولا يصلح عضوا فى أمة ، ولا تعتبر الأمة صالحة إلا بفضائلها الاجتماعية التى يكسبها أبناؤها بالمرانة الطويلة على الحياة السياسية .

فالصلاح للمجتمع استعداد لا يكسبه الفرد بما تعلمه من المدارس والكتب ولكنه حاسة اجتماعية تتولد فى الأمة من مرانتها على مزاولة الشئون العامة أجيالا متعاقبة حتى تصبح رعاية المصلحة العامة عادة فى أبنائها يباشرونها عفو الخاطر كأنهم لا يقصدونها ولا يتكلفونها ، مثلهم فى ذلك مثل الأعضاء التى تشترك فى تغذية بنيتها وتوزيع غذائها بين أجزائها فى غير كلفة ولا روية .

نعم إن علوم المدرسة والكتاب قد تقرب المرء إلى فهم هذه الحاسة الاجتماعية . بيد أنها لا تخلقها لسبب بديهى : وهو أن العادة الاجتماعية تتربى بالاشتراك مع المجتمع ولا تتربى بالفهم والسماع . وشواهد ذلك بينة من المقابلة بين الأمم التى تساوت فى انتشار التعليم ولم تتساو فى التربية الاجتماعية أو التربية السياسية ، فظاهر جدا من المقابلة بين هذه الأمم أن المسألة مسألة تربية عامة مشتركة وليست مسألة فهم يستقل به كل متعلم من طريق المدرسة والكتاب .

فالأمة الألمانية أمة متعلمة كثيرة المدارس والجامعات

تروج فيها الكتب المبسطة والكتب المطولة ويندر فيها الأميون ولا يخلو فرع من فروع العلم من نابغة ألمانى يسهم فيه برأى جديد أو تفسير مبتكر ، ولأبنائها ولع بالإحاطة والاستقصاء وتبويب المباحث وترتيبها تضرب به الأمثال ولا تسبقها فيه أمة حديثة ، وقد كان ينبغى أن تكون قدوة بين الأمم فى التربية السياسية لو كان مدار الأمر على معارف المدرسة أو معارف المطالعة ، ولكنها مع هذا أقل فى هذه الحصلة من أمم أخرى دونها فى انتشار التعليم ووفرة الاطلاع ، إذ كانت أحوالها التاريخية حائلة بينها وبين المشاركة فى حكم نفسها معودة لها أن تدين بنوع واحد من الحكم هو حكم السيطرة والطاعة ، ومرجع ذلك إلى وجودها فى وسط القارة الأوربية هدفا للغزاة من الشرق والغرب والشمال والجنوب وعرضة للمنازعات بين أمرائها إذا هى استراحت من الغزوات الأجنبية ،

فتعاقبت العصور وهى أشتات من الولايات المتفرقة تخضع كل ولاية منها لأمير يحكمها على النظام العسكرى ويترقب منها طاعة المستسلم المعترف بضرورة هذه النظم العسكرية . فلم تتعود الوحدة القومية ولم تتدرب على مراقبة حكامها ولم تسر بينها عادات المشورة والمراجعة ولا الخبرة بترشيح من يسوسها فى حدود هذه العادات وبرعاية من هدايتها ، فلا جرم سهل

فيها وثوب المستبذين إلى مراكز السيطرة وتعذرفيها إسقاط مستبد من هؤلاء بغير كارثة تصدمه من خارج بلاده . ولولا طول العهد باستبداد الحاكم وخضوع الرعية لكانت أحرى بمن هم أفضل من هؤلاء الحكام .

ونكاد نقول إن نوع الحكومة لا يهم ما دام المحكومون على قسط وافر من الحاسة السياسية عارفين بحقوقهم مقتدرين على أخذ الولاة باحترامها ، غير أن المبدأ القائل « بأن الحكم من الأمة للأمة » هو أصلح المبادئ لمجاراة هذه الحاسة السياسية فى وجهتها . وهو المبدأ الذى يعطى المحكومين فرصة بعد فرصة لاختيار الأفضل من الساسة والأكفأ من القادة والولاة ورؤساء الدواوين .

وكما جاء فى الأثر : « كما تكونوا يول عليكم »

وكما قال الأفوه الأودى :

تمضى الأمور بأهل الرأى ما صلحت
فإن تــوالت فبالأشرار تنقـــاد

لا يصلح الناس فوضى لاسراة لهم
ولا سراة إذا جهـــالهم سادوا

بقلم الأستاذ الكبير

عباس محمود العقاد

	ص
الله	٤٠
أثر العرب فى الحضارة الأروبية	٢٠
فرنسيس باكون	٢٥
عبقرية الصديق	٢٠
عبقرية الإمام	٢٠
الصديقة بنت الصديق	٢٠
مجمع الأحياء	١٥
شاعر الغزل (اقرأ ٢)	٥
فى بيتى (اقرأ ٣٣)	٥
ابن سينا (اقرأ ٤٦)	٥
برنارد شو (اقرأ ٨٩)	٥

ملتزم الطبع والنشر

دار المعارف بمصر



دار المعارف

أسست بالقاهرة سنة ١٨٩٠

تقدم إلى القارئ فى مختلف مراحل حياته ومتباين درجات ثقافته كل ما يحتاج إليه فى تكوين مكتبة عربية فى منزله لتساعده على الاستزادة من الثقافة والطموح إلى حياة عقلية راقية .

●

المركز الرئيسى بالقاهرة : ٥ شارع مسبيرو تليفون ٤٩٨٦٨
فرع الفجالة بالقاهرة : ٧٠ شارع الفجالة تليفون ٤٩٨٦٦
فرع الإسكندرية : ٢ ميدان محمد على تليفون ٢٣٥٨٨

س. ت. ٥٢١٢١

اقرأ

- عنوان هذه السلسلة خير ما يوجه إلى الأفراد والجماعات، بل هو خير ما وجه إلى الإنسان منذ تحضر إلى الآن.
- السلسلة الشهرية الوحيدة التي تعمل منذ أكثر من سبع سنوات على جعل الثقافة في متناول الجميع.
- نواة صالحة لإنشاء مكتبة زهيدة الثمن كبيرة الفائدة في كل منزل يستفيد منها الشباب والشيوخ على السواء.
- تصدرها دار المعارف بمصر في طباعة أنيقة بمعاونة حضرات الدكتور طه حسين بك والأستاذ عباس محمود العقاد والأستاذ فؤاد صروف

ثمن النسخة ٥ قروش

٦٠ ملا في فلسطين وشرق الأردن — ٦٠ غرشاً في لبنان
٦٠ فلساً في العراق — ٦٠ غرشاً في سوريا

اقرأ

الدكتور احمد فؤاد الأهوانى

الخوف

دار المعارف بمصر

الخوف

الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

الخوف

اقرأ ٩٨
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ٩٨ — فبراير سنة ١٩٥١



أخى

جنّبك الله الخوفَ وأمّن جانبك، وأذهب عنك الروعَ وأنزل على قلبك السكينة ، وييسر لك سبل الخير ، وباعد بينك وبين المخاوف ، وأنعم عليك بما تطلبه نفسك ، واستجاب لدعائك .

وبعد : فقد ركب الله الخوف فى النفس لحفظ الحياة ، وتجنب الأخطار ، فكان الخوفُ مدعاة إلى الهرب ، ثم أفضى الشعور بالخطو إلى الحذر ، وأدى الحذرُ إلى بسط الحضارة ، وإقامة العمران ، ثم اهتدى الإنسان من الخوف إلى معرفته تعالى فكان رأس الحكمة مخافة الله .

فالخوف مما لا يخلو منه حيوان أو إنسان .

وكلما أمن الإنسان أخطاراً ظهرت له ألوان جديدة من المخاطر . فالطفل يخاف الوحدة والظلام ، والشاب يخشى نتيجة الامتحان آخر العام ، والموظف يقلق على « درجته » أو « علاوته » . ويرهب الفلاح الآفات التى تأكل الزرع ، ويخشى اللصوص الذين يسطون على ماشيته ، والمجرمين الذين يعتدون على حياته . وللمرأة مخاوفها فهى تخشى هجر

زوجها ، ومرض أبنائها ، وتخاف على جمالها أن يذبل ، وعلى فتنتها أن تولى مع ذهاب الشباب .

فإذا كان الخوف عاماً فى سائر البشر ، فذلك لأنه طبيعى لا بد منه كى نأمن الأخطار ، ونتجنب المهالك ، غير أن كثيراً من الناس يجسمه حتى ليخرج به عن الحد المألوف ، أو يهوله فيصبح ضرباً من المرض والشذوذ .

وللخوف الطبيعى مصادر ومظاهر ، وللشاذ أسباب وأعراض ونتائج ، فلا بد من رسم الحدود بين الطبيعى والشاذ ، حتى نصف الدواء إذا عرفنا حقيقة الداء .

وكما يكون الخوف فرديا ، ينتاب هذا الشخص أو ذاك ، ويختلف باختلاف الظروف والسن والتربية والتعليم ، يكون كذلك اجتماعياً يسود الشعوب والدول فتفزع من الحرب وتجنح للسلم وتطلب الأمن . وللشعوب إذا تأملتها مخاوف تشيع فى سائر أفرادها ، وتنتقل مع التقاليد من جيل إلى جيل ، على مر الزمان .

وهذا هو النسق الذى سوف تلقاه حين تطلع على هذا الكتاب ، وتنتقل فيه من باب إلى باب .

الخوف الطبيعي

حكى دارون في كتاب « التعبير عن الانفعالات في الحيوان والإنسان » قال : « يُبعد المرء جسمه ورأسه عند الخطر . وقد يمنع المرء حركة الجسم إذا لم يكن الخطر جسيما ، غير أن الغريزة لا تسمع صوت العقل إذا حدثتنا بانعدام الخطر . ذهبتُ يوماً إلى حديقة الحيوان ، ووضعت وجهي ملاصقاً لزجاج بيت الثعبان ، وعزمت ألا أتراجع إذا أقبل يضربني . وسرعان ما انهارت عزيمتي عندما ضربني الثعبان من وراء الزجاج ، فقفزت خطوات إلى الوراء . ولم يكن لإرادتي وعقلي حيلة إلى جانب تصور الخطر الذي لم أجربه من قبل » .

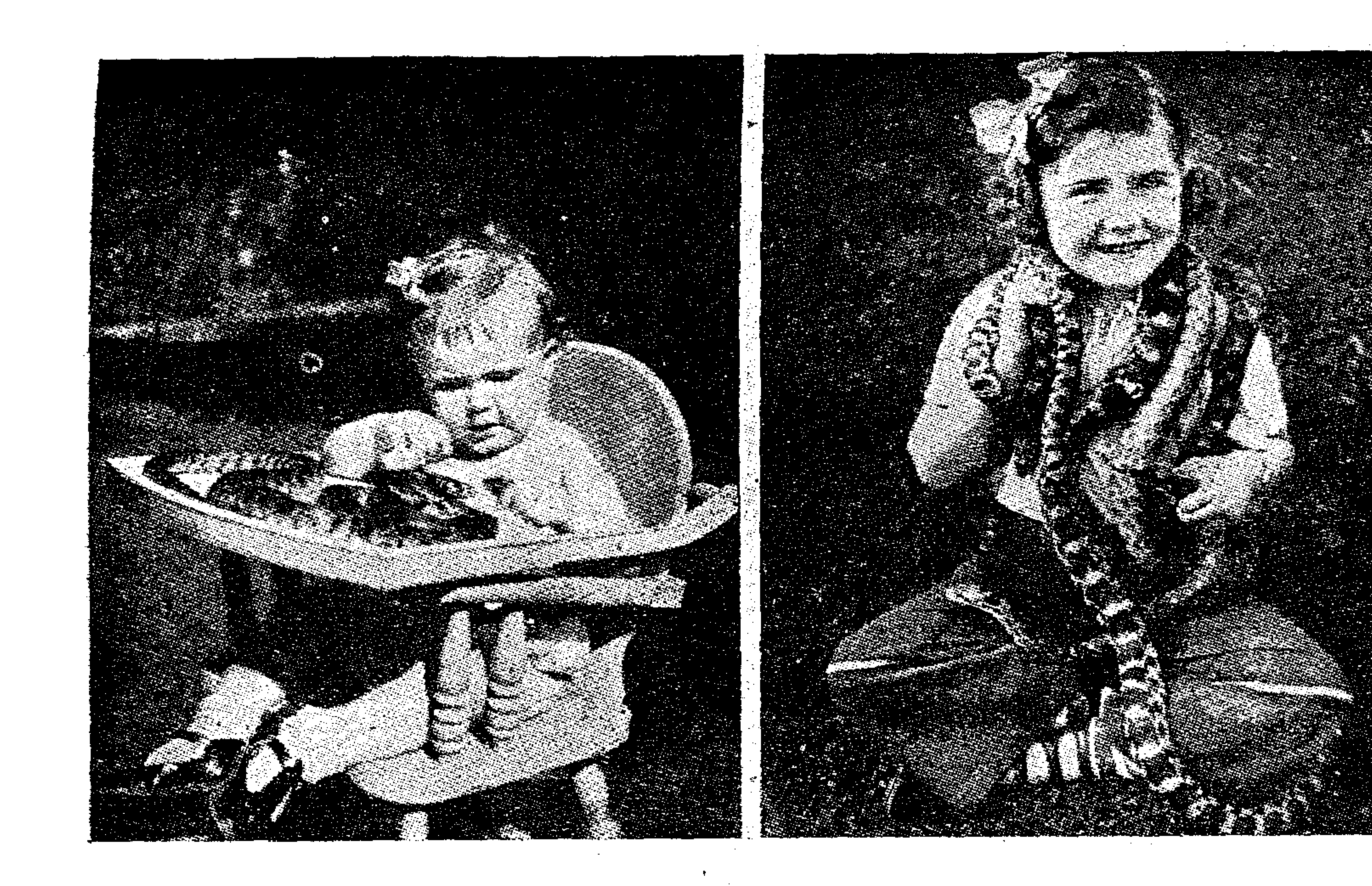
ويعتقد كثير من الناس أن الخوف من الثعبان غريزي في النفس ، لا يكتسب بالتعلم بل يولد مع الإنسان . وقد رأينا كيف عجز دارون في حكايته عن نفسه عن التوقف من الهرب مع علمه أن الزجاج يحميه . وقد أثبتت تجارب علماء النفس التي أجريت على الأطفال أنهم لا

يخشون الثعبان ، وأن الخوف منه مكتسب ، ينشأ من سماع القصص المخيفة عنه ، ومن رؤية الأطفال الأكبر سنًّا والكبار يتجنبونه ويهربون منه . وهذه صورة طفلة تسمى « أنيت أفرز » كانت تلعب بالثعبان وهى فى الشهر السادس من عمرها ، وتبلغ فى الصورة الأولى أربعة عشر شهراً وفى الثانية ست سنوات .

انفعالات الرضيع :

أجمع الباحثون على أن الرضيع ، نعنى الطفل الحديث الولادة ، لا يتميز إلا بثلاثة انفعالات : الخوف ، والهياج ، Excitement ، والحب .

وقد نفى المدققون من الباحثين ظهور الانفعالات فى الأيام الأولى ، وقالوا : إن المؤثر المفاجئ مثل سقوط الطفل ، أو سماع الصوت الشديد ، أو الألم من مغص ، أو هبوب الهواء على الوجه ، يؤدى إلى صياح الرضيع . وإذا ألقيتَ رضيعاً يبلغ من العمر أربعة أيام أو خمسة ثم تلقفته على مسافة متر ، فإنه لا يبدى أى استجابة ، اللهم إلا بعض حركات غامضة بيديه ورجليه . فكلما كان الطفل صغيراً كان المؤثر قوياً . ويصح هذا عن السرور كما يصح



أنيتا أفرز Annette Avers تلعب بالثعابين ولا تخشاها منذ طفولتها ،
عمرها فى الصورة الأولى ١٤ شهرا ، وفى الصورة الثانية ست سنوات

عن الخوف .

أما الذين نسبوا إلى الطفل الخوفَ والهياج والحب فإنهم فعلوا ذلك عند النظر إلى سلوكه وإلى مظاهره ، ثم أضافوا إليه ما يحسون هم به عند سلوك هذا المسلك ، ذلك أن باطن الطفل كالصندوق المغلق لا ندرى على وجه التحقيق حقيقة ما فيه من شعور . فهم يؤولون السلوك ، ويقولون : حيث إن فَقْدَ ما يعتمد عليه المرء يؤدى إلى الخوف ، فكذلك إذا فَقَدَ الطفل ما يعتمد عليه خاف .

لذلك كان من الخطأ الحكم على موقف الطفل بما نحسه نحن .

ونحن نخشى وقوع الطفل لما قد يصيبه من ضرر ، ونحس أن قلبنا قد سقط من الخوف مع سقوطه . ويرى فرويد أن قذف الطفل فى الهواء يفضى إلى لذة كبيرة تصحبه حتى شبابه وشيخوخته ، وأن ما يراه الإنسان فى الحلم من أنه يطير فى الفضاء إنما نشأ من تلك الذكرى البعيدة .

أجرى أحد العلماء تجربة طريفة إذ أخذ صورة طفل فى حالة سقوطه ، عرضها على اثنين وثلاثين طالباً ، ثم سألهم بيان الانفعال الذي يدل عليه تعبير الوجه فأجابوا كما يأتى :

الجوع (٦) – الغضب (١٤) – الخوف (١) الألم (٣)
الحزن (١) – الذعر (١) – التقزز (١) – الهياج (١) .

يتضح من ذلك اختلاف الناس فى تفسير الانفعال الباطن من النظر إلى التعبير الظاهر . غير أن معرفة المؤثر تقرب من الحكم ، وعندما عرض الطفل وهو يسقط على ٤١ طالباً ، قال ٢٧ منهم إن الانفعال هو الخوف .

بعض المذاهب :

ويذهب بعض العلماء إلى القول بمخاوف طبيعية توجد بالفطرة منذ أن يوجد المرء . ونحن نعرضها ولكننا لا نوافق عليها ، إذ بينت التجربة غير ما ذهبوا إليه .

يقول واطسن Watson صاحب المذهب السلوكى فى علم النفس إن الرضيع يخاف أمرين : الصوت العالى والوقوع . أما الخوف من السقوط فإنه يرجع إلى فقدان ما يعتمد عليه الطفل . ويشيع فى المستقبل بعد أن يكبر الطفل الخوف من الأماكن المرتفعة ، مثل أن يطل الإنسان من حافة جبل عال .

وذهب غيرهم من العلماء ، وهذه نظرة لا يؤخذ بها الآن ، إلى أن هذه المخاوف قد ورثها الإنسان عن حياته الأولى حين

كان يعيش كالحيوان فى الغابات قبل أن يرتقى . فالخوف من السقوط ذكرى حياة أجدادنا الذين كانوا يعيشون كالقردة فى الأشجار . وكذلك الخوف من الرعد والبرق . أما الخوف من الأماكن المغلقة (كلوسترو فوبيا) فيرجع إلى الوقت الذى كان يعيش فيه الإنسان فى المغاور والكهوف . والخوف من الأماكن المفتوحة (أجورا فوبيا) يرتد إلى معيشته فى السهول والخوف من الوحوش . وقالوا إن الخوف من الثعبان ومن الأشياء الباردة الناعمة الملمس هى ذكرى الحياة فى الغابات حين كان يضع الإنسان يده على فرع شجرة فإذا بها تقع على ثعبان .

وربطوا بين تلك الحياة وبين الخوف من الظلام وقالوا إنه غريزى كذلك . وقد أثبتت التجارب أن الطفل لا يخاف الظلام ، بل يكتسب هذا الخوف إذا ارتبط بوجود شىء يخيفه فعلا ، كأن يسمع صوتاً مفزعاً ، أو يرى حلما مزعجاً فى جوف الظلام ، أو يحكى له أهله عن العفاريت وما إلى ذلك ، فيرتبط هذا كله بالظلام ويخشاه .

وإذا صح أن الإنسان قد ورث فى جهازه العصبى منذ عشرات الآلاف من السنين مخاوف معينة ، فإنه يرث الميل أو الاستعداد ، ولكنه لا يرث الخوف من شىء بعينه كالرعد

أو الثعبان أو الوحش .

الاستعداد الفطرى هو الخوف من الأذى ، لأن عدم الهرب من الخطر قد يقضى على الحياة ، وحفظ الذات أول الغرائز فى الإنسان والحيوان . »

ظهور الخوف :

الثابت أن الأطفال الحديثى الولادة لا يبدون حين يتعرضون للمؤثرات الخارجية إلا اهتياجاً أو تأثراً لا يتحدد أو يتميز بميزة خاصة ، كما هو الحال فى الصبيان والشباب وكلما نما الطفل تحددت انفعالاته .

حاول أحد علماء النفس ترتيب الانفعالات بحسب ظهورها فى الطفل من سن الولادة إلى سنتين ، وذلك بعد ملاحظة عدد كبير من الأطفال ، وانتهى إلى هذه النتيجة .

من الولادة إلى ثلاثة أشهر لا نميز إلا التهيج العام . ثم نميز الحزن والسرور عن التهيج ، وفى خلال الأشهر الثلاثة التالية يتميز الحزن فيظهر الخوف والتقزز والغضب . وعند تمام العام يفترق السرور إلى الزهو والحب ، ويبدو على الطفل أربعة تعبيرات ظاهرة هى الصياح والبكاء والابتسام والضحك .

وتشيع هذه الانفعالات فى سائر الأطفال ، وتظهر

عند سن معينة ، ولا أثر للتعلم فى ظهورها ، فهى ولا نزاع ثمرة الغريزة والفطرة .

والصياح وحده لا يدل على الخوف ، فقد يدل على السرور أو التعجب أو الألم ، وكذلك البكاء يدل على الحزن كما يدل على الألم والغيظ والخوف .

والدليل على أن الصياح والبكاء والابتسام والضحك تحدث بدون تعلم عن طريق المحاكاة مع استمرار نضج الطفل ، ما رآه العلماء على طفلة ولدت عمياء صماء بكماء ، فهى لا ترى ولا تسمع ولا تتكلم ، ولا سبيل لها إلى أن تتعلم الضحك مثلا من سماع رنين الضحك ورؤية الوجوه الضاحكة ، ومع ذلك فإنها تنفعل ، ويبدو على وجهها آثار الانفعال كما ينفعل سائر الناس .

كان عمرها عشر سنوات ، لا تتكلم ، ولا تستطيع العناية بنفسها ، ولم تتعلم كيفية التعبير عن الانفعالات المختلفة .

كانت تلعب بدمية « عروسة » من الدمى فوقعت من يدها على ثوبها . وإليك وصف تعبيرات وجهها وسلوكها : اتسعت العينان الكفيفتان وارتفع الحاجبان . وشرعت تبحث بيدها اليسرى عن العروسة . كانت هيئة الوجه وتعبيره مما نفسره عادة بالانتباه مع الخوف . . .

٥

أثر التعلم :

يكتسب الإنسان معظم انفعالاته وطريقة التعبير عنها ، وبخاصة مؤثراتها . فقد رأينا كيف يستأنس الثعبان على عكس ما يعتقد أغلب الناس من أنه مخوف بالفطرة . ويقولون كذلك : إن الخوف من الظلام ، ومن الوحدة ، ومن الأصوات المفاجئة ، فطرى فى النفس . وليس الأمر كذلك ، بل ينشأ الطفل فيأخذ عن أهله الاعتقاد فى ضرر هذه الأشياء ، ويتعلم عن أبويه طريقة التعبير عن خوفه .

وقد نتعلم الخوف من شىء إذا ارتبط بشىء آخر نخافه .

وهذه قصة تروى فى كتب علم النفس توضح ما نذهب إليه :

« كان ألبير ، وهو طفل فى الشهر التاسع من عمره ، يبدى الخوف من الأصوات المفاجئة العالية ، ولكنه لا يخاف الفيران البيضاء . غير أنه تعلم الخوف منها فى هذه الظروف : حين قدم إليه الفأر أقبل عليه دون أن يبدو على وجهه أى أثر للخوف . وعندئذ أحدثنا صوتا مفاجئاً بالضرب على قضيب من الحديد ، ففزع ألبير ، وخر على وجهه . . . ثم قدمنا الفأر والصوت متعاقبين بحيث يكون الصوت بعد الفأر مباشرة . وظللنا نكرر هذه التجربة مرة كل أسبوع وبعد

خمس مرات أصبح ألبير يخاف من الفأر وحده . أكثر من من ذلك أصبح يخاف الأشياء التى تماثل الفأر فى مظهرها . . .»

وقد أصبح من القواعد المقررة فى علم النفس استبدال مؤثر بمؤثر آخر عن طريق الارتباط ، وذلك بعد تجربة « بافلوف » المشهورة على الكلب ، وخلاصتها أن يقدم له الطعام فيفرز الكلب اللعاب ، ثم يقدم له الطعام مصحوباً برنين جرس ، وبعد فترة من الزمن يكفى أن يدق الجرس وأن يسمع الكلب الرنين ليفرز اللعاب .

وهذا هو الحال فى الخوف ومؤثراته التى تبعثه .

والأصل فى الطفل الرضيع حين ينفعل أن يصيح وأن يضرب بيديه ورجليه ، فإذا كبر تميزت انفعالاته ، ويرجع بعضها إلى النمو الطبيعى ، وبعضها الآخر إلى التعلم من أهله وأترابه . حتى إذا تعلم الكلام عبّر عن مخاوفه باللغة ، وبعبارات تصحب الخوف ، كقوله . . . يا ساتر ، أعوذ بالله . . . الحقونى . . . وما إلى ذلك .

غريزة الأمن :

يذهب بعض العلماء إلى أن الإنسان ليس مركباً من الغرائز ولكن من حاجات Needs ، أساسها فسيولوجى كالحاجة

إلى الطعام والشراب وإخراج الفضلات والهرب من الأخطار .
وقد تؤدى الظروف إلى نقص هذه الحاجات فينشط الجسم لطلبها ، وتسمى عندئذ بالدوافع Drives .

أما الذين لا يزالون محتفظين باصطلاح الغريزة فقد جمعو بين عدة غرائز وسموها غريزة الأمن Security Instinct ويضعون تحت عنوان هذه الغريزة ، نعنى غريزة الأمن ، سائر الغرائز الضرورية لحفظ الفرد ، وهى شائعة فى كافة الحيوانات .
وهى التى تدعو الحيوانات إلى طلب الغذاء ، ووقاية أنفسها من أى ضرر أو أذى ، وحماية طعامها .

ولم يكن هذا الاصطلاح معروفاً متداولا حتى جاءت الحرب العظمى الأخيرة فبرزت أهمية الأمن ، ودعت الحاجة إلى صراع الفرد بين نفسه وبين الجماعة التى يعيش فيها وينتسب إليها ، فهو يريد بالفطرة أن يعيش ، وتريد الدولة أن يضحى بنفسه فى سبيلها .

ويذهب أحد العلماء إلى أن غرائز الأمن لا تلعب دوراً هاماً وقت السلم فى تحديد مهنة الأفراد ، وأن عدم الاهتمام بها يفضى إلى القلق الاجتماعى . والأمن عامل يحدد اتجاه السياسة الخارجية للدول ، كما هو الحال فى العصر الحاضر .

وأصبح الناس فى الزمن الحاضر يتحدثون عن الأمن كأنه

مرادف للمال الذى يدخرونه إلى وقت العوز والمرض والشيخوخة . وينظر المرء حين يطلب وظيفة أو مهنة إلى « الأمن » ولهذا السبب يفضل المصريون التوظف فى الحكومة مع قلة مرتباتها على الأعمال الحرة . ولكن يبدو أن المغامرين الذين لا يحفلون بالراحة والأمن، هم الذين يربحون فى آخر الأمر .

والشباب أكثر مغامرة من الكهول ، والرجال أكثر من النساء . ذلك أن عبء الأسرة يقع فى الأغلب على عاتق المرأة فهى لذلك تفضل أن يشغل زوجها منصباً مأموناً .

وقد فطن الناس فى العصر الحاضر إلى منزلة المال فى الحياة أكثر من ذى قبل ، فاهتدوا إلى طريقه يحصلون بها على المال فى حالة العجز والمرض والموت ، حتى يطمئن بالهم ، ويتبدد خوفهم من الكوارث الطارئة والنوازل التى تنزل بهم ، فتؤرق مضاجعهم وتبث فى أنفسهم القلق والفزع خشية على مستقبلهم ومستقبل أبنائهم ، تلك هى طريقة « التأمين على الحياة » فالخوف المركب فى طبيعة البشر هو الدافع إلى ابتكار هذه الطريقة وإلى شدة ذيوعها .

نرجع إلى الطفل الرضيع فنقول إن حاجته إلى الأمن أشد ، لأنه قليل الحيلة يعتمد فى حياته على أمه . وفى الحق إن حاجاته ضئيلة ، وعالمه صغير ، ومطالبه فى الأغلب فسيولوجية ،

ولكنها تفضى إلى الشعور باللذة . فهو يستمتع بالرضاعة وامتصاص ثدى أمه ، ويعينه هذا الامتصاص على تنظيم التنفس والهضم . وهو يشعر بالحاجة إلى أمه ، وإلى لمسها ، والوجود فى أحضانها ، فللطفل حاجتان أساسيتان: الرضاعة بانتظام والوجود مع أمه ، وإذا فقد إحداهما فقد الأمن وشعر بالخوف ، ولذلك يصيح .

ويذهب علماء التحليل النفسانى إلى أن أنواع المخاوف والقلق التى يشعر بها الكبار ترجع إلى عهد الرضاعة . فإذا شعر الطفل بعدم الأمن فى صغره صحبه هذا الشعور مدى الحياة ، وإذا اشتغل فى عمل ظل فى خوف دائم من الفشل .

ونحن نجد بعض الناس حين يخشون نقص الأطعمة يلجأون إلى اختزان كميات من الطعام ، ونجد بعضهم الآخر لا يحفلون بذلك . ويرجع الفرق بينهما إلى تجارب الأيام الأولى من الحياة ، وإلى عهد الطفولة . فالأطفال الذين كانوا يشعرون بالجوع ، ولم تكن حاجتهم من الرضاعة مشبعة ، والذين أهملتهم أمهاتهم أو منعت عنهم الرضاعة حتى لا يفسدوا ، هؤلاء جميعاً يشعرون بالقلق فيما يختص بالطعام أو فيما يختص بأنفسهم . وقد يختلف سلوكهم ، فبعضهم يشتد نهمه ويأكل أكثر من طاقته ، وبعضهم يتعلق بمن حوله ليشعر بالأمن .

إنهم يخشون قلة الطعام أو نقص المحبة . وقد دلت الأبحاث التى أجريت على بعض جنود الحرب الماضية لمعرفة أسباب قلقهم وعلة انهيارهم العصبى على أن منهم مَنْ فقد أقواته فى بلده فخاف على أهله ، ومنهم من اشمأز من طعام الجيش . ومنهم مَنْ وجد طريقة الطهى غير مألوفة ولا مستساغة .

مصادر الخوف :

صنف بعض العلماء مصادر الخوف فجعلها ثلاثة :

١ ــ الخوف من المجهول .

٢ ــ الخوف من المعلوم الذى تبين ضرره .

٣ ــ الخوف من شىء ارتبط بالضرر .

هذه المصادر تؤدى إلى الخوف عند الكبار ، فقد رأينا أن الطفل الرضيع لا يخاف حتى الشهر الثالث ، وإنما يشعر بتهيج عام إذا جاع أو فقد الأمن بابتعاد أمه عنه ، أو أحس بألم من حشرات تخزه أو مغص فى معدته .

والخوف من المجهول لا يتم إلا إذا توهم الشخص وجود خطر يؤذيه فى هذا المجهول . وهو ينشأ من تجربة الطفل الذى تدفعه محبة الاستطلاع إلى العبث بكل شىء وتجربة كل ما يراه . فيجد أن جذوة النار تحرق أصابعه ، وحد

السكين يقطع إصبعه ، والدخول إلى الجحور يعرضه إلى
لدغ العقرب والثعبان ، فيتعلم الحذر ، ويخشى المجهول .

وقد رأينا فزع أهل القاهرة عند أول غارة جوية حتى
لقد هاجر من المدينة بضعة آلاف واعتصموا بالريف واتخذوا
لأنفسهم مساكن بعيدة ، حتى إذا تبين أن الضرر غير
جسيم عادوا جميعاً .

وكثيراً ما يخاف الطفل الصغير أن يدخل حجرة لم يسبق
له أن دخلها ، ويخشى الحصانُ السيارةَ ، وقد يفزع الأسد
من رؤية دمية .

ومن الملاحظ شدة خوف الناس من سماع صوت القنابل
وزمارات الإنذار ، ثم لا يحفلون بعد ذلك مع الألفة ، إلا
من يصاب فعلا . ولوحظ كذلك أن الإسراع إلى المخابئ
للوقاية من الغارات الجوية يحط من الروح المعنوية ويزيد
من الخوف ويجسمه ، وأن التعرض للغارات أكثر فائدة
ولو أنه مخالف للمصلحة العامة .

والخوف من المعلوم ضرره شائع ومشروع وطبيعى .

فأنت تفر من الأجرب خشية العدوى وطلباً للسلامة ،
ولذلك ضرب المثل بضرورة الفرار منه فقيل : « كفرار السليم
من الأجرب » .

ويفر الكلب من العصا إذا رآها لأنه ذاق مرارة الضرب بها ولكن الناس عادة تجسم الخوف وتهوله فيصبح عند ذلك غير مشروع أو طبيعى ، مثل الخوف من الرعد والبرق ، ومن المياه العميقة ، ومن المرتفعات ، وما إلى ذلك .

قال بعض المملحين من الشعراء فى بعض النساء يصف تهويلها الخوف :

أرادت مرة بيتا لها فيه تماثيل
فلما أبصرت سترا لوجهيه تهاويل
وفيه الفيل منقوشاً وفى مشفره طول
فقالت إنزعوا الستر فلا يأكلنى الفيل

وقد حدثتك عن قصة الطفل الذى لم يكن يخشى الفيران وكان يفزع من الأصوات المفاجئة ، ثم أصبح يخاف الفيران لأن رؤيتها ارتبطت بسماع الأصوات ، أو الذى يخاف من الثعبان فيجرى من الحبل .

وليس الخوف من الأصوات العالية المفاجئة طبيعيًّا ، إذ ثبت أن الأطفال فى أثناء الحرب لم يفزعوا من سماع صوت القنابل أو المدافع المضادة للطائرات ، بشرط ألا يقلدوا آباءهم فى فزعهم منها .

ويحار كثير من الناس فى تعليل هرب أبنائهم من المدرسة ،

وعلة ذلك فى الأغلب هى الارتباط بين المدرسة وبين ما يؤذى التلميذ ، كأن يكون أحد المعلمين قد ضربه عقاباً على ذنب ، فيخاف من المعلم ومن المدرسة جملة ويهرب منها .

حكى الجاحظ فى الحيوان قال : « قال عبيد بن أيوب ، وقد كان جوالا فى مجهول الأرض ، لما اشتد خوفه وطال تردده وأبعد فى الهرب :

لقد خفت حتى لو تمر حمامة
لقلت عـــدو أو طليعة معشر
فإن قيل : أمن ، قلتُ : هذى خديعة
وإن قيل خوف قلت حقاً فشمر
وخفت خليلى ذا الصفاء ورابنى
وقيـــل فلان أو فـــلانة فاحذر
فلله در الغـــول أى رفيـــقـــة
لصـــاحب قفر خائف متقـــتر »

أعراض الخوف

يختلف أثر الخوف فى الجسم من شخص إلى آخر .

ولست تجد نموذجاً ثابتاً للمظاهر الجسمانية تستطيع أن تقول عنه : هذا هو مظهر الخوف .

ويصحب الخوفَ تغيرٌ فى ملامح الوجه ، وفى هيئة الجسم ، ويرتعش الجسم والأطراف ، ويتصبب العرق ، وتزيد ضربات القلب ، وتضطرب إفرازات الغدد ، ويجف اللعاب .

وقد نجد بعض هذه المظاهر تسود الجسم فى حالات أخرى من الانفعال كالحزن والغضب. فهناك تدخل بين الانفعالات.

سأل بعض علماء النفس ثلثمائة من الجند عن أعراض الخوف عندهم ، فكانت نسبة الإجابات كما يلى :

دق القلب وسرعة النبض	٦٩٪
شعور قوى بتقلص العضلات	٤٥٪
شعور بالهبوط فى المعدة	٤٤٪
جفاف الفم والحلق	٣٣٪
الرعشة	٢٥٪

عرق كفوف اليدين	٢٢٪
تصبب العرق البارد	١٨٪
فقدان الشهية	١٧٪
وخز فى فروة الرأس والظهر	١٧٪
شعوْر بالخور والضعف	١٤٪
شعور بوجع المعدة	١٤٪
طنين فى الأذنين	٦٪
تبول غير إرادى	٦٪

(يلاحظ أن الإجابات أكثر من ١٠٠ لأن المسئولين كانوا يتنحون عن الإجابة عن بعض الأعراض)

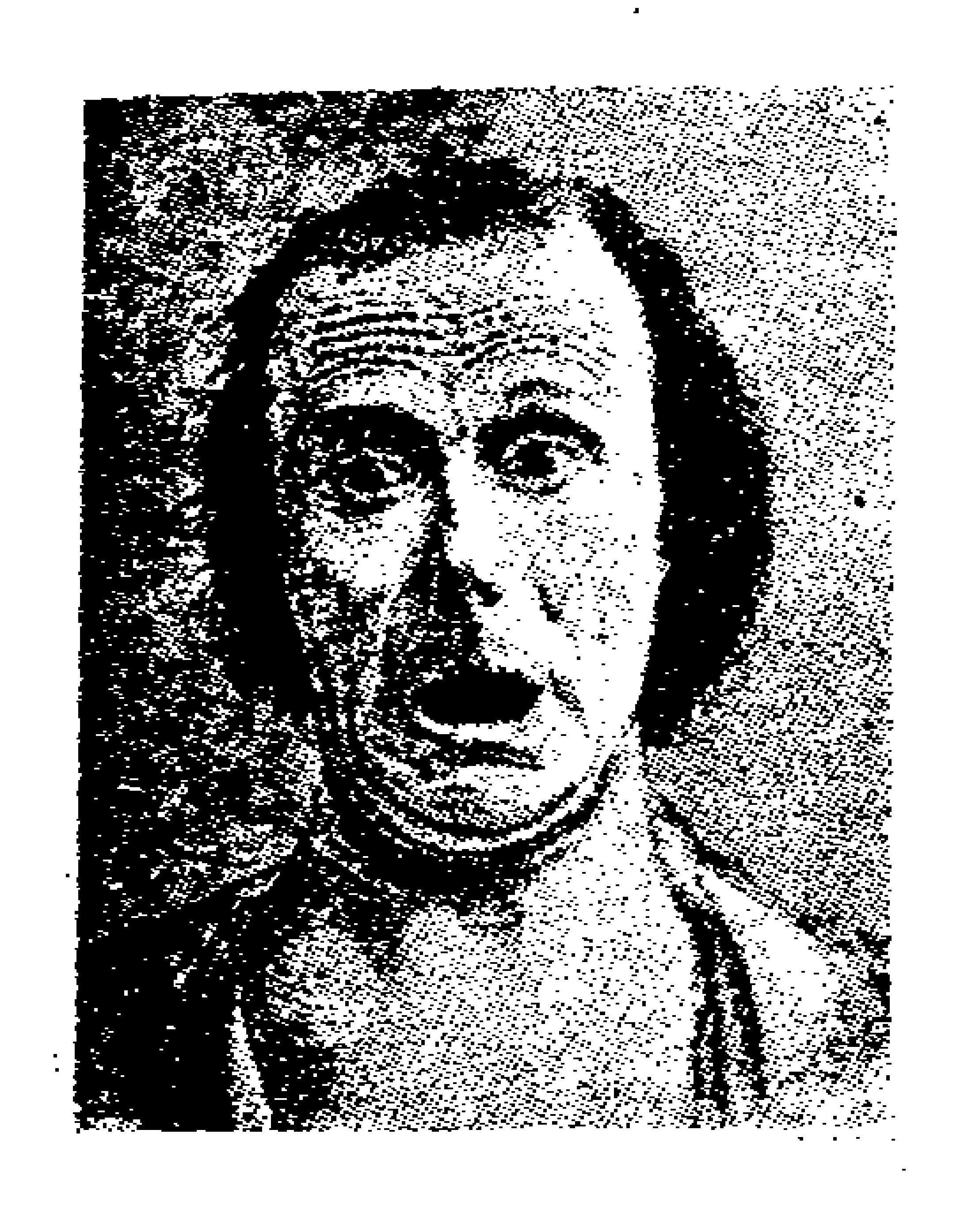
ملامح الوجه :

أهم أجزاء الوجه المعبرة عن الانفعالات : العينان ، والفم والعين أقوى تعبيراً ، وبخاصة فى حالة الخوف والقلق والفزع والرعب .

ويلاحظ اتساع العين ، وارتفاع الحاجبين ، وذلك ليتسنى للحيوان أو الإنسان معرفة مصدر الخطر . ويلاحظ كذلك انفراج الشفتين ، ولعل ذلك لتنفس كمية أكبر من الهواء .
ويقول « دارون » : « إن استعمال العينين المستمر جعلهما



امرأة فى خوف ودهشة .



الرعب ... حدق بعينيه وفتح فمه
[عن دارون]

قادرتين على التعبير عن حالات عقلية ، حتى لو لم يكن هناك شيء يُرى . وقد تجد رجلا يرفض اقتراحاً فيقفل عينيه أو يشيح بوجهه . أما إذا وافق على الاقتراح فإنه يهز رأسه ويفتح عينيه كأنه يرى المسألة . وقد نجد بعض الناس عندما يصمون منظراً مفزعاً يغمضون أعينهم أو يهزون رءوسهم كأنهم لا يرغبون فى النظر ، أو يبعدون عنهم شيئاً لا يرغبون فيه . وقد لاحظت نفسى مرة ، وأنا أفكر فى منظر مخيف فى الظلام ، فوجدت أنى أغمض عينى بشدة . وعندما ينظر أحدنا إلى شئ فجأة ، أو يبحث عن شيء حوله ، يرفع

حاجبيه حتى تتسع العينان . . . »

وهذه الملاحظة التى يذكرها دارون عن غمض العينين فى حالة الخوف أو تذكره صحيحة ، لأن الخوف يدعو إلى الهرب وإلى الاختفاء ، فكأننا نفعل كالنعامة التى تخفى رأسها فى الرمال هرباً من الصياد .

ويبدو أننا قد اكتسبنا هذه العادة من غمض الجفن إذا أحست العين بشيء ضار . وهذا فعل منعكس لا أثر للإرادة فيه .

وقد نفزع ، ويجفل الجسم ، عند سماع صوت مفاجئ . ومن المحتمل أن عادة الجفول قد اكتسبها الإنسان من القفز بسرعة ابتعاداً عن الخطر ، كلما نبهتنا الحواس إلى ذلك . ويصحب الجفول غمض الجفون لحماية العينين من الأذى ، لأن العين جوهر جسمانى ثمين .

الرعشة :

كثيراً ما يصحب الخوف ارتعاش اليدين والرجلين ، وليست الرعشة خاصة بالخوف فقط بل تحدث فى أحوال كثيرة : إذا أصيب المرء بالبرد ، أو بردت الأطراف ، وفى الحمى ، وفى الشيخوخة ، وكذلك عند الخوف وفى الغضب

والفرح الشديد .

والعلة فى الرعشة هو تأثر الجهاز العصبى تأثراً مفاجئاً شديداً .

وليست للرعشة فائدة للحيوان – على الأقل فيما نعلم – ولا يمكن أن تكون قد حدثت بالإرادة ، ثم أصبحت عادة مع الزمن .

ولما كان الخوف يؤدى إلى ارتعاش العضلات ، فإن الصوت يصبح مرتعشاً كذلك . أما خشونة الصوت فإنها ترجع إلى جفاف الحلق ، لأن الغدد اللعابية تتوقف عن الإفراز أو يقل إفرازها ويضطرب .

وقد يضطرب الكلام أيضاً من رعشة الشفتين .

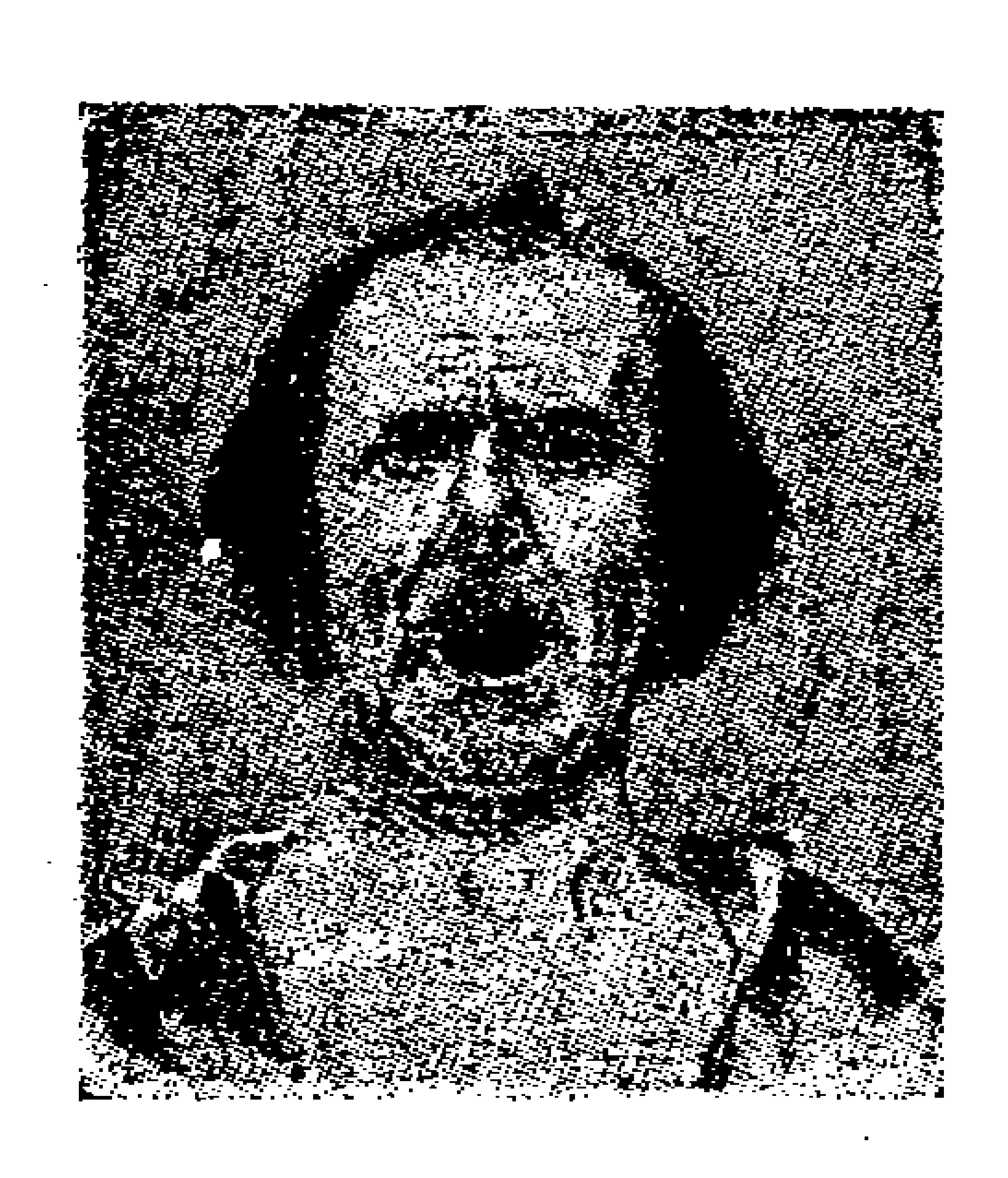
ولا تحدث الرعشة إلا عند الخوف الشديد الذى يسمى ذعراً أو رعباً . ويذهب بعض علماء اللغة إلى أن لفظة الرعب ، وأهم حروفها الراء ، وهى فى اللغة الأجنبية Terror ، مأخوذة من رعشة الفم عند الكلام .

وقد يصاب المرء برعشة لا يدرى لها سبباً ، فيتضح من التحليل النفسانى أنها ترجع إلى خوف كامن من موقف سابق .

حكى «مكدوجل» قصة جندى نجا من قذيفة مدفع ،



رعب



رعب وألم ...... [عن دارون]

ولكنه أصبح ضعيفاً عاجزاً عن المشى ، مرتعش الرجلين . وذهب إلى مكدوجل ليعالجه ، فوجده متحفظاً نافراً . وكان ينفق وقته جالساً فى مكان قصى ، وقد حدق بصره ، ولبس أثواب الحزن . ولم تفلح الجهود المبذولة فى علاجه ، ولم تؤد إلى أى تحسن ، إلى أن وثق المريض به فأفضى إليه بالاعتراف الآتى :

« فى خلال الهجوم وثبت فى خندق ووجدت فيه ثلاثة من جنود الأعداء جرحى ، فطعنتهم بحربتى وأجهزت عليهم . فلما أصابتنى القذيفة بعد ذلك بوقت قصير ، ثم أفقت من هولها ، خيم على ذاكرتى ما فعلته بالجنود الثلاثة ، وأخذ

ضميرى يؤنبنى . فإذا جلست وحيداً طاف المنظر بخاطرى ، فأرى وجوه الجنود وقد ظهر عليهم الفزع ، وأسمع صيحة أحدهم وأنا أطعنه . إنى أعد نفسى قاتلا أستحق العقاب . وكم أود أن أنسى فلا أستطيع . . . » وقد استعاد صحته بعد الاعتراف والعلاج ، وذهبت عنه أعراض الضعف والرعشة .

خفقان القلب :

ويشاهد فى حالة الخوف ، وفى انفعالات أخرى ، أن القلب يخفق أو يدق ، أو تزيد ضرباته ، ويترتب على ذلك احمرار الوجه من احتقان الدم ، أو شحوبته وصفرته .

وقد لاحظ العرب هذا الأثر فقالوا : حمرة الخجل ، وصفرة الوجل .

ويرجع ذلك إلى تأثير الجهاز العصبى .

فقد تبين من الأبحاث الفسيولوجية الحديثة أن الجهاز العصبى ينقسم قسمين ، الجهاز السمبتاوى ، والباراسمبتاوى ، أو المركزى والطرفى . وأغلب أعضاء الجسم لها صلة بالجهازين مع تعارضهما . وإذا تغلب الجهاز السمبتاوى توقف إفراز اللعاب ، وازدادت ضربات القلب ، وزاد إفراز الأدرينالين وانقبضت الأوعية الدموية .

وإذا سيطر الجهاز العصبي الباراسمبتاوى ، ازداد إفراز اللعاب ، ونقصت دقات القلب ، وقل إفراز الأدرينالين ، وتمددت الأوعية الدموية .

ويذهب « موسو » Mosso فى كتابه عن الخوف إلى أن سرعة القلب عند الخوف الشديد تهدف إلى إعداد الجسم للعمل .

وكثيراً ما ترتفع دقات القلب حتى ليسمعها صاحبها كأنه يسمع ساعة دقاقة .

وحكى « دارون » أنه رأى كلباً أفزعته فرقة موسيقية كانت تلعب خارج الدار ، فوجد كل عضلة من جسمه ترتعش ، وسمع دقات قلبه السريعة حتى ليعجز عن عدّها ، وكان يلهث فاتحاً فمه ، كما يفعل الإنسان فى حالة الرعب .

وترجع سرعة دقات القلب إلى إفراز الأدرينالين فى الدم ، وهو يؤدى إلى زيادة السكر فى الدم وفى البول ، وإلى سرعة حركة القلب ، وإلى ارتفاع ضغط الدم . ويعزو « كانون » Cannon صاحب الأبحاث الواسعة فى الانفعالات وأثرها إلى إفراز الأدرينالين هذه الحيوية الشديدة ، وهذا النشاط الخارق المصاحب للخوف الشديد ، مما يؤدى إلى القيام بأعمال ليست فى الحسبان ، أو إلى جرى سريع لا يقوى

عليه صاحبه فى الحالة الاعتيادية ، فيتسنى له الهرب من الخطر والابتعاد عنه .

القط والكلب :

وهذه تجربة طريفة تنسب كذلك إلى الأستاذ « كانون » صاحب الأبحاث عن الانفعالات . فقد اعتادت قطة أن تنام بعد الأكل خلف حاجز أشعة إكس ، بحيث يتسنى رؤية حركة الطعام فى معدتها ، وهى حركة منتظمة تنتهى بذهاب الطعام بعد هضمه إلى الأمعاء .

ثم أدخلوا على القطة كلباً أخذ ينبح على القطة ، فتبين فى الحال بواسطة أشعة إكس أن المعدة توقفت عن العمل ، وذلك بأن انقبضت العضلة القابضة الموجودة فى طرف المعدة ، كما توقفت العصارات التى تفرزها المعدة ، وبالجملة تعطلت عملية الهضم .

وتهيأت القطة لنشاط من نوع آخر . وهذا أثر من آثار الطبيعة لحماية الكائن الحى حين يواجه الخطر . ذلك أنه نتيجة للخوف أفرزت غدد القطة الصماء مادة الأدرينالين فى الأوعية الدموية ، وتقلصت الأوعية الخاصة بالجهاز الهضمى ، وذهب الدم الذى كان يعين من قبل الهضم إلى المخ وإلى

الجهاز العصبي وإلى العضلات والجلد . وبذلك يصبح هذا الحيوان قادراً على أن يقفز إلى الأمام بقوة تفوق قوته الطبيعية عدة مرات . فلا غرابة أن يكون هذا العمل لفائدة الكائن وحفظ الحياة . هذا فضلا عن احتفاظ الحيوان بنشاطه الطبيعي ، لأن مادة النشا الحيواني (جليكوجين) المخزونة فى الكبد تتحول إلى سكر ، وتفيض إلى الأوعية الدموية ، فتغذى العضلات بالطاقة اللازمة للاحتفاظ بالنشاط . وفى الوقت نفسه يتخلص الجسم من الفضلات عن طريق سطح الجلد والأعضاء المفرزة الأخرى . وهذه هى العلة فى إفراز العرق عند الخوف والقلق والخجل .

فأنت ترى أن الملاحظة العلمية قد أثبتت بما لا يدع سبيلا إلى الشك توقف المعدة عن الهضم عند ظهور الخوف . فإذا استمرت المخاوف وأصبحت ملحة ، مستبدة بصاحبها ، لا تفارقه فى الليل أو فى النهار ، كما هى الحال فى القلق ، أصيب مثل هذا الشخص بسوء الهضم ، وشكا من اضطراب معدته . وقد تبين أن كثيراً من أمراض المعدة لا ترجع إلى أسباب عضوية بمقدار ما ترجع إلى هذه الأسباب النفسانية ، فإذا عولجت زال المرض .



هلع

المواقف الثلاثة :

ماذا يحدث للإنسان أو الحيوان إزاء الخطر ؟
أحد مواقف ثلاثة : الهرب أو التوقف ، أو الإقدام .

ولسنا نقصد هذا الترتيب بعينه . إذ يختلف تصرف كل فرد بحسب ظروفه . ولكن الغالب فى حالة الخوف هو الهرب .

إذا فزع الحيوان يقف لحظة بدون حركة كأنه يجمع حواسه، ويتأكد من مصدر الخطر ، ثم يعقب ذلك حين يميز الخطر الفرار ، ويظل يجرى مبتعداً عن مصدر الخطر حتى يغيب عنه

وصف أحدهم وهو مستر مونبى Munbey امرأة اعتقدت أنه شبح أو عفريت قال : « وفى لحظة كانت تواجهنى . . . فانتصبت قائمة على أطراف أصابعها ، ثم ألقت ذراعيها إلى الأمام بحيث تكوّنان زاوية قائمة مع جسمها ، وتفرقت أصابع يديها . وتراجع رأسها إلى الوراء قليلا ، واتسعت عيناها واستدارتا ، وفتحت فمها . . . ثم انطلقت منها صيحة حادة وحشية . . . ولما انتبهت إلى نفسها استدارت وجرت وهى تصرخ . . . »

وقد فعلت هذه المرأة كما يفعل الحيوان : يتوقف لحظة ثم يفر ويهرب . يحكى أن أحد العلماء وضع سلحفاة فى قفص القردة ، فأبدت دهشة عظيمة عقبه خوف . وظلت القردة لا تتحرك ، وتحدق فى السلحفاة بشدة ، وترفع حواجبها إلى

أعلى وتنزلها إلى أسفل . وخيل إلى الناظر إليها أن وجوهها قد استطالت . ثم تراجعت إلى الوراء بضعة أقدام ، وكانت تطل من وراء أكتافها لترى السلحفاة . . .

ولعلك رأيت فى المنام منظراً مرعباً . أذكر أنى شاهدت حلما ، وأنا صبى ، لا زلت أذكر أثره حتى الآن ولو أنى نسيت بدايته . قد يكون وحشاً كالأسد قد انطلق يلتهمنى ، وأردت الفرار ، وإذا بى « أتسمر » فلا أستطيع الجرى ، وأريد الصياح فلا أستطيع ولا ينطلق صوتى ، فازداد فزعى ورعبى ، واستيقظت من النوم .

يذهب المفسرين إلى أن مثل هذه الرؤيا تدل على الخوف الكامن أو على العقدة النفسية المركبة من الخوف . وهى تصوير لحالة المرء حين يجد أمامه ما يخافه ، ولكنه لا يستطيع تجنبه . المهم فى ذلك حالة التوقف أو الشلل . الحق أن المرء يضطرب إزاء الخوف الشديد ولا يدرى ماذا يعمل ، أيهرب ؟ وكيف ذلك ؟ أم يقدم ويهجم ، فيزيد الخطر . هذه هى علة التوقف ؛ حتى إذا استعاد المرء نفسه ، واستطاع التفكير لحل المشكلة الموجودة أمامه ، سلك ما يوحى به عقله ، فإما الهرب والفرار ، وإما الهجوم والإقدام .

وهذه حادثة وقعت لى منذ عشرين عاماً ولا أزال أذكرها.

كنت جالسا بدارنا بحى الحنفى إلى المائدة فى الردهة أقرأ وقت الأصيل . وبين هذه الردهة والمطبخ ولواحقه دهليز طويل . وإذا بى أرى الخادمة تخرج من الدهليز وقد اشتعلت النار فى نصف ردائها ، وأوشكت أن تمتد إلى جميع الرداء . ذلك أنها جلست تشعل وابور الغاز فامتدت النار إلى طرف جلبابها ، فلما أحست بها خرجت صارخة تريد الذهاب إلى الشقة المواجهة لنا. عندئذ توقفتُ لحظة ، وطاف بذهنى ما قرأته عن إنقاذ المحروقين ، وهو أن تلقيه على الأرض بسرعة وتلفه فى أى شىء كبساط مثلا حتى ينطفئ . فقمت فى الحال ، وضربت الخادمة برجلى فى رجليها فوقعت على الأرض ، وكان هذا الوقوع المفاجئ سبباً فى انطفائها .

هل شهدت بيتا يحترق ؟ إنه منظر رائع حقاً ، بشرط ألا يكون هذا البيتُ بيتك . لقد شهدت عدة حرائق فى «رأس البر» لأن بيوتها من القش تلتهمها النار فى دقائق ، وقد رأيت أصحابها يفرون بملابس نومهم حفاةً ينجون بأنفسهم من هول الحريق . ورأيت فى العام الماضى حريق ذخائر القلعة ، وكنت فى ذلك الوقت فى حى السيدة زينب ، فرأيت قوماً يجرون فى الشارع آتين من القلعة . فانظر إلى أى حد بلغ بهم الخوف .

النظرية العامية :

لا بد للخوف من مؤثر ، ثم يفضى الخوف إلى الهرب . أعنى ثلاثة أمور ، مؤثر خارجى ، وشعور باطنى ، ثم سلوك يفعله المرء . هذه الأمور الثلاثة إذا عبرنا عنها بمثال قلنا : حريق وخوف وهرب . هذا الترتيب هو فى نظر العامة طبيعى ، لأن رؤية الحريق تفضى إلى الشعور بالخوف ، ويؤدى الشعور بالخوف إلى الهرب . ويبدو أن هذا الترتيب معقول كذلك ، ولا حاجة لذكره أو مناقشته . ولكن مباحث العلماء أدت إلى نظريتين جديدتين :

نظرية جيمس — لانج :

لعلك تعرف أن وليم جيمس هو صاحب أعظم الأثر فى علم النفس الحديث . وهو عالم أمريكى . ولم يعرف لانج ، وهو عالم دانمركى ، إلا بصلته بهذه النظرية التى نبسطها لك . وندع الحديث لوليم جيمس عن كتابه فى علم النفس . « نظريتى . . . أن التغييرات الجسمية تعقب مباشرة إدراك المؤثر ، وأن شعورنا بهذه التغييرات عندما تحدث هو الانفعال. يقول العامة : إذا فقدنا الثروة نحزن ونبكى ؛ نقابل دباً

فنخاف ونجرى ؛ يشتمنا منافس فنغضب ونضربه . والنظرية التى أدافع عنها ، تحدثنا أن هذا الترتيب غير صحيح ، وأن الحالة العقلية لا تستمد من حالة عقلية أخرى ، بل يجب أن تتخللهما أولا المظاهر الجسمية . فالأولى أننا نحزن لأننا نبكى ، ونغضب لأننا نضرب ، ونخاف لأننا نرتعش ، لا أننا نبكى ونضرب ونرتعش لأننا نحزن ونغضب ونخاف . ذلك أنه بدون هذه الأحوال الجسمية التى تعقب الإدراك ، يكون إدراك المؤثر من باب المعرفة البحتة ، لا لون له ، باهت ، يخلو من حرارة الانفعال . وعندئذ قد نرى الدب فنؤثر الجرى ، ونشتم ونرى الأصوب الضرب ، غير أننا لا نحس فعلا بالخوف أو الغضب » .

ويؤيد وليم جيمس نظريته بدليل آخر أخذه عن الممثلين على المسرح ، فقد سألهم فقالوا : إن اتخاذ هيئة الفزع تشعرهم فعلا بالخوف .

ووجهت إلى هذه النظرية عدة انتقادات ، منها أن أعصاب النخاع الشوكى إذا قطعت عند الرقبة بحيث تمنع العصب السمبتاوى من الوصول إلى المخ ، فإن الانفعال وما يصحبه من مظاهر وسلوك تبقى كما هى لا تتغير .

ومنها أن حقن الحيوان أو الإنسان بمادة الأدرينالين ،

ومن شأنها أن تزيد من نشاط الدورة الدموية وتوسع الأوعية ، فلا يؤدى ذلك بالضرورة إلى ظهور الانفعال .

النظرية التلموسية :

وقام عالمان آخران بمباحث جديدة ، هما كانون وبارد ، وانتهيا إلى أن علة الانفعالات موجودة فى الغدة التى تسمى « بالتلموس » Thalamus وتوجد فى وسط المخ .

وتختلف هذه النظرية عن السابقة فى أن هذه النظرية تجعل الانفعال مستقلا عن السلوك الانفعالى ، على حين أن نظرية وليم جيمس تفترض أن الانفعال هو الشعور بالتغييرات الجسمية . وتذهب النظرية التلموسية إلى أن الانفعال والسلوك الانفعالى ينشآن معاً من انطلاق الطاقة العصبية من الغدة التلموسية .

وتقوم على هذه النظرية اعتراضات كذلك ، منها أن إثارة الغدة تؤدى حقاً إلى ضرب من السلوك يشبه ما يحدث عند الانفعال ، ولكنه يختلف عن الانفعال الناشىء عن مؤثر طبيعى. وهذا مما جعل العلماء يعتقدون أن الانفعال يتوقف على التلموس وعلى بعض أجزاء الجهاز العصبى أيضاً . ولا يزال البحث مفتوح الأبواب ، لم يصل فيه الباحثون إلى نتيجة حاسمة .

عود إلى النظرية العامية :

وقد قرأت للأستاذ « هادفيلد » Hadfield في كتابه « علم النفس والصحة العقلية » الصادر في العام الماضي ، ما نصه :

« نحن لا نخاف لأننا نجري كما يقول جيمس ؛ بل إن الخطر ، وهو المؤثر ، ينتج حافزاً حيويا (بيولوجيا) للهرب ، وهذا الحافز يرتبط بتغييرات دموية شديدة تمهد للعمل .

وتنتج هذه التغييرات ضرباً من الشعور ، وتنتهي الطاقة الحادثة من ذلك إلى الهرب ، والهرب يميل إلى كسر حدة الخوف لا إلى إحداثه . فالشعور مرتبط بالتغييرات الدموية لا بالهرب . جملة القول إن الميزان في صالح النظرية العامية القائلة بأننا نجري لأننا نخاف » .

ولهذا العالم رأي نوافقه عليه ، هو أن الخوف عبارة عن تجمع الطاقة العصبية قبل انطلاقها .

فنحن نرى السيارة في الطريق فنتجنبها . ولا يحدث في هذا السلوك خوف أو هرب ، بل هو عادة ألفناها .

ولنفرض لسبب ما أننا لم نستطع تفادي السيارة ، وإذا بها أمامنا ، عندئذ تفيض الطاقة العصبية ، وتحدث اهتياجاً شديداً وتوتراً عظيما ، مما يجعل هذه الطاقة تنطلق فتدفعنا إلى

القفز نجاةً بأنفسنا من الخطر .
وهذا مما يجعل للخوف قيمة بيولوجية كبيرة ، إذ يهيئ الطاقة للعمل ، ويزيد الدوافع المحركة قوة .
ويبدو أن لحظه التوقف التى تسبق الهرب من الخطر تعين الطاقة على تجمعها ، حتى يكون انطلاقها أقوى وأعظم ثمرة .

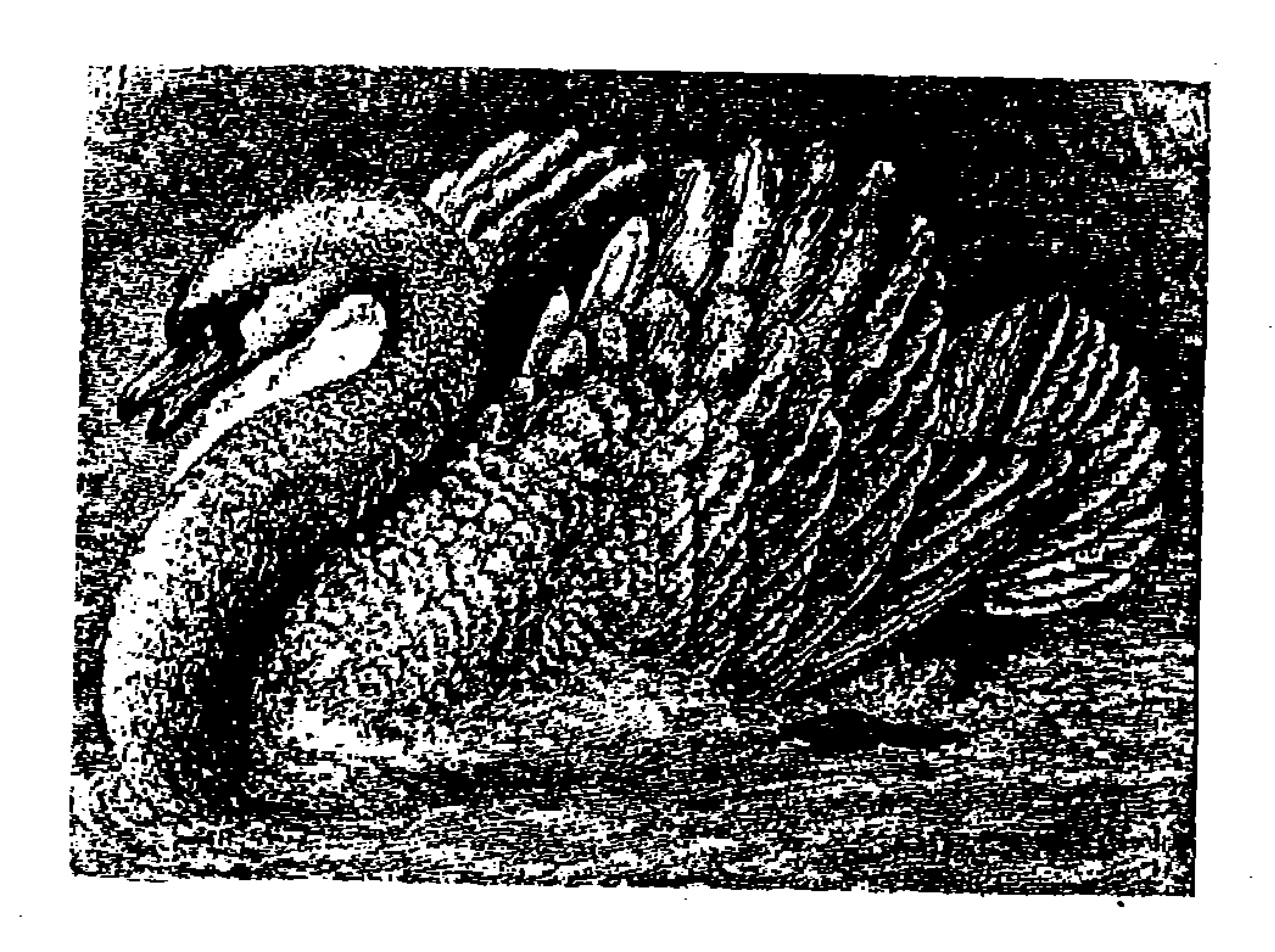
فائدة الخوف :

فالخوف طبيعى ، وهو عامل من عوامل الحياة .
وقد رأينا أنه من الوجهة البيولوجية أى الحيوية ، ينشط الإدراك ، فيحفزنا إلى معرفة الخطر ، وتبين مصدره . وهو الذى يطلق الطاقة العصبية اللازمة لمواجهة المواقف المؤذية ، فيحفز إلى العمل .
ولما كانت مواجهة الأخطار ، ومغالبة الصعاب ، هى التى تجعل المرء شجاعاً ، حازماً ، مالكاً زمام نفسه ، كان الخوف من لوازم الخلق وتكوين الشخصية .
والخوف هو الذى دفع الناس إلى الارتباط فى جماعات للمشاركة فى الدفاع عن أنفسهم من المخاطر ، فلا غرابة أن يكون الخوف أساس المجتمع . وقد رأينا من استقراء التاريخ كيف تآلفت الشعوب لدفع العدو المشترك .

والخوف هو الذى جعل الناس بعد اجتماعهم يقيمون العمران ، ويتقدمون فى سلم الحضارة . والعلة فى ذلك أن الإنسان من أشد الحيوانات ضعفاً ، لست تجد له المخالب الفواتك ، أو الأنياب القواطع ، مما تجده عند كل طير جارح أو وحش مرهوب الجانب . ولا تجد عنده حدة البصر أو قوة الشم أو شدة السمع حتى يحس بالخطر قبل اقترابه ، فيعمل على تجنبه فى فسحة من الوقت ، وهو إلى ذلك ليس سريع العدو ولا شديد الوثب كغيره من أنواع الحيوان .

فاضطر لحماية نفسه من المهالك فى معركة الحياة إلى أن يهتدى إلى النار يخيف بها الوحوش ، ويبدد بها الظلام ، وكانت النار ضياءاً أذهبت عنه وحشة الظلمة ، واتخذ من الحجر والنحاس والحديد أسلحة بعد شحذها ، فكانت هذه الآلات أقوى من المخالب والأنياب . وهذا هو الشأن فى سائر المخترعات الحضارية حتى العصر الحاضر ، تجد العلة فى الدافع إليها هو الخوف وطلب الأمن .

فلما أصبح الإنسان فرداً فى جماعة شاعرا بوجوده الاجتماعى ، كان عليه أن يرعى مطالبها ، وأن يحسن معاملة أفرادها ، وذلك لحاجته إلى الامن ، فكان الخوف من العدوان سبباً فى الاجتماع ، وطلب الاستمرار فى الأمن علةً فى التخلق



بطة خائفة وقد فتحت فاها ونفشت ريشها [عن دارون]

بالأخلاق الاجتماعية ، والفضائل الخلقية التى تقوم على احترام حقوق الغير .

ولولا الخوف ما عرف الإنسان ربه ، بل لاستغنى عنه ، « كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » ، لأن الخوف يدفع إلى طلب الأمن ، والاطمئنان إلى سلطان القاهر الجبار ، فإذا كان الله قد خلق الإنسان وجعل الخوف من فطرته ، فذلك لحكمة عليا هى معرفته وعبادته .

الخوف والأمراض العصبية

وإذا كان الخوف الطبيعي حافزاً للعمل وكفاح المخاطر ، ودافعاً إلى الحذر والابتعاد عن المضار ، فقد يكون سبباً في التوقف بل الشلل ، وذلك عند تجسيم الأخطار تجسيماً يبعدها عن حقيقتها ، وعندما يمتلىء الذهن بخوف أو مخاوف لا تستند إلى أساس ولا تقوم على الواقع ، ولا توجد إلا في مخيلة صاحبها .

عندئذ تنقلب الفائدة الطبيعية إلى ضرر وإلى مرض ، وتتحول القوة إلى عجز واضطراب .

فالخوف من الجوع يدفع المرء إلى مواصلة العمل ليلا ونهاراً ليسد المرء حاجته إلى الطعام . وقد يدفع الخوف الموظف الذي يخشى فقدان وظيفته إلى العجز عن العمل والتهاون فيه .

والخوف من العواقب هو الذي يجعل بعض الناس جبناء أو غشاشين .

والطفل الذي يخشى عقاب والده يلجأ إلى الكذب . والشاب الذي يخشى التقاليد والدين والمجتمع يرتكب ما يريده

سراً عن العيون والرقباء .

والخوف من الماضي يجعل المستقبل صفحة سوداء ، والخوف من المستقبل يملأ الحاضر بالمفزعات .

والخوف الطبيعي قد يجعل الإنسان مقداماً شجاعاً ، ولكنه قد يحوّل الشجاع إلى شخص يملأ الخوف قلبه حتى ليفزع من خياله . والأمر كذلك في الحرب فقد يكون الباعث إليها الرغبة في العدوان ، كما يكون الدافع إليها رد الاعتداء .

وكما يدفع الخوف إلى ربط أفراد الجماعة وتماسك الشعوب ، فقد ينقلب إلى رهبة من القوانين العتيقة والتقاليد الفاسدة ، وبذلك ينحل المجتمع ويفسد ويسير في طريق الانحلال .

جملة القول : إن الخوف قد يستبد بالمرء ، ويستولى على قلبه فلا يفارقه في الليل أو في النهار ، ويصبح عندئذ مرضاً ، يسميه العلماء قلقاً أو هماً أو وسواساً ، فيؤرق المضاجع ، ويؤدى إلى الاضطراب ، ويفسد على المرء عمله وصحته وحياته .

فلا غرابة أن ينظر بعض العلماء إلى الخوف كأنه العامل الأساسي في سائر الاضطرابات النفسية والعصبية .

فقد رأينا أن مطلب الإنسان منذ أن خرج إلى الدنيا طفلا رضيعاً الأمن والحب ، فإذا فقدهما اضطرب سلوكه .

والخوف كذلك هو العلة الأولى في « الكبت » ، والكبت

عماد الأمراض النفسانية ، وعلة الكبت أن الطفل يخفى بغضه وغيرته ورغبته الجنسية وسائر ما يتعارض مع العرف والتقاليد ، فتتحول هذه الرغبات المكبوتة إلى تصرفات مرضية .

ويتخذ الناس ضروباً من السلوك تختلف باختلاف أمزجتهم ، وهى على تباينها فى الشذوذ ترجع إلى شىء واحد هو الخوف .

وقد اختلفت مذاهب العلماء فى تعليلها وفى علاجها ، بل تعارضوا معارضة شديدة أدت إلى أن يسفه أحدهم رأى صاحبه . ولكن الاتجاه الحديث يأخذ بمذهب فرويد وأصحابه فى التحليل النفسانى ، وخاصة بعد أن تقدمت مباحث التحليل وتطورت وتعدلت .

ونحن إلى هذا المذهب أميل .

الأنا الثلاثية :

ليس غرضنا تفصيل مذهب فرويد فى هذه الصفحات ، ولكننا نعرض لبعض أصول مذهبه ، لابد من الإشارة إليها ، لنفهم كيفية ظهور المخاوف المرضية التى نحن بسبيل بيانها .

يقسم فرويد شخصية المرء ثلاثة أقسام ، إذا اندمجت وتعاونت لا يحس صاحبها بانحلال أو اضطراب

هذه الأقسام هى الأنا السفلى « Id » ، والأنا « Ego » ، والأنا العليا « Super-ego »

فالأنا السفلى تمثل الحيوانية ، هى الأنا البدائية التى تتطلب إشباع الغرائز الحيوية وأهمها الغريزة الجنسية .

والأنا فقط ، هى شخصيتك الحاضرة ، الواقعة ، الراهنة ، التى تواجه بها العالم والحقيقة .

والأنا العليا ، هى الأنا الأخلاقية ، التى تمثل حياة الواجب مما يفرضه المجتمع والدين والتقاليد ، وهذه الأنا كما تتجه إلى وضع الحدود الأخلاقية هى علة الحضارة والفنون المختلفة فى نظر فرويد . وتنشأ الأنا العليا حول سن الخامسة عند ظهور « الرقيب » الذى يمنع بعض الغرائز الدنيا من الظهور عن الأنا السفلى ، وذلك بطريق « الكبت » فى اصطلاح فرويد . وهذا هو السبب فى نسيان أحداث الطفولة قبل سن الخامسة نسياناً قد يكون تاماً ، ولكن هذه الأحداث موجودة مسطورة فى صفحة الذهن ، توجه صاحبها ، ويمكن أن يتذكرها صاحبها بالتحليل النفسانى .

يقول فرويد إن الخوف ينشأ فى جانب الأنا التى تستمده — نعنى الخوف — من أحد أمور ثلاثة : الأنا السفلى ، أو الأنا العليا ، أو من الأشياء الخارجية . ذلك أن الأنا ،

أو الشخصية الحاضرة فى نظر فرويد ، تخاف الأنا السفلى وما فيها من غرائز وبخاصة الغرائز الجنسية . وتخاف الأنا العليا ، وما تأمر به من فضائل ومثل عليا .

مخاوف الطفولة الأولى :

قلنا إن ظهور الخوف الطبيعى لا بد أن يصحبه الهرب من مصدر هذا الخوف حتى يتجنب المرء الخطر . غير أن الطفل الرضيع فى سنته الأولى يكون عاجزاً عن التصرف بنفسه لأنه لا يقوى على الحركة ، ولا يقوى على الهرب أو الجرى.
وقد تعود إلى المرء هذه الحالة عندما يواجه خطرا لا يستطيع الهرب منه أو التغلب عليه ، فيحس بخوف ينقلب إلى قلق .
والقلق خوف مستمر .

وكل قلق فهو غير طبيعى ، لأن الأصل فى الخوف أنه دافع إلى الهرب من الخطر من حيث إنه يبعث الطاقة اللازمة للعمل . ومع ذلك فهناك لحظات من الحياة لا بد فيها من القلق . مثال ذلك الطالب قبل أن يعرف نتيجة الامتحان ، والوالد قبل معرفة نتيجة العملية الجراحية التى تجرى على زوجته ، أو الزوجة قبل أن تلد أيكون المولود ذكرا أم أنثى ، أو الفتاة عند خطبتها ، وبعد خطبتها وقبل دخلتها . . . فهذه

الأحوال وأمثالها تبعث على القلق الذى نسميه « قلق الانتظار »
وترقب النتيجة والتطلع إلى العواقب . وهو إلى حد مّا طبيعى ،
ولو أنه شاذ . أما أنه شاذ فلأنه مضيعة للطاقة العصبية ،
وأما أنه طبيعى فلأنه يعم أغلب الناس ، ولأن الطاقة الفائضة
ليست فى الواقع عبثاً ، ولكنها دليل على الحيوية ، وآية
على التحفز قبل الانطلاق ، كالذى يُقدم على إلقاء خطبة
فى احتفال ، يبدو قلقاً ، حتى إذا تكلم انطلق ، واستفاد
من الطاقة المتجمعة .

غير أن هذا القلق قد يتجسم فيكون عائقاً بدلا من أن
يكون معيناً ، فيعجز الخطيب عن الكلام ، وينسى الطالب
ما حفظه عند الامتحان . أو تطيش بنا الطاقة المتجمعة
فتدفع إلى أعمال غريبة ، أبسطها اللعب بالأصابع أو هز
الرجل أو العبث بالشارب ، وما إلى ذلك من اللوازم المصاحبة
للناس حين تتأملهم .

ولذلك يحسن أن يعمل الإنسان أى شىء فى حالة القلق
حتى يصرف الطاقة ، وهذا أفضل من الانتظار بدون عمل ،
حتى لا يصبح القلق مزمناً يصعب علاجه فيما بعد .

ونرجع إلى مخاوف الطفولة الأولى فنقول إنها تزول مع
الزمن ، ومع التقدم فى السن ونمو الإدراك ، حتى لا يبقى لها

أثر ، اللهم إلا إذا ارتبطت بشيء ثابت تتعلق به ، فيصبح الخوف مزمناً ، ويسمى باسم هذا الشيء الذى تتعلق به ، كالخوف من حيوان معين ، أو الظلام ، أو الاختناق ، أو الموت ، مما سنعرض له بالتفصيل .

مثال ذلك أن طفلا صغيراً أحس باختناق فى غرفته ، ولكنه نسى هذه الحادثة ، ثم كان فى نفق وهو شاب وأوشك أن يختنق ، فعاد إليه الخوف الذى مر به فى الصغر ، وأبدى فزعاً يدل على مرض واضطراب .

وقد يكون الهم الذى يحس به الشباب ، ونظرة التشاؤم التى تسود تفكيرهم ، مما يرجع إلى عهد الطفولة ، حين يتعرض أحدهم للمرض المستمر ، أو العمليات الجراحية ، أو يعيش فى بيت مضطرب الأحوال تكثر فيه المنازعات بين أبيه وأمه ، وما إلى ذلك من الأمور التى تذهب بالأمن ، ولذلك يرى فى شبابه الأخطار فى كل مكان ، ويشعر بالخوف من كل مسألة ، ويفزع إذا أقدم على كل عمل جديد ، ويكون على الجملة كثير الهموم شديد المخاوف .

وعلاج هؤلاء القوم يكون بأمور ثلاثة : التربية والتوضيح والإيحاء .

ولا نقصد بالتربية معناها العام ، بل علاجاً خاصاً يعيد

الثقة إلى النفس ، كالذى يفزع من الظلام ، ينام أحد معه فى الغرفة حتى يشعر بالأمن . أو الذى يخاف من حشرة كالصرصار يهيأ لإمساكه وتشريحه شيئاً فشيئاً ، كما يحدث لطلبة الطب والعلوم .

ويجب أن يصحب ذلك شرح أو تعليل يتبين منه فساد فكرة الخوف . كالذى جند فى الجيش وكان يفزع من أصوات المدافع والقنابل ، وتبين من التحليل أن أباه كان يخاف أصوات القنابل ، وتعلم ابنه منه هذا الخوف ، وكانت أمه تفزع من صوت الرعد . فلما عرف السبب ذهب عنه الخوف .

وأغلب هذه المخاوف تعالج بالإيحاء ، ومن الأطباء مَنْ يجد الإيحاء ليس كافياً فيلجأ إلى التنويم المغناطيسى كى يعيد إلى المريض الثقة بالنفس ، ويدفع عنه هذا الخوف الموهوم .

جندى يخاف الخنادق :

حكى الأستاذ رفرز Rivers العالم النفسانى هذه القصة التى تروى عنه فى كتب علم النفس ، وخلاصتها أن رجلا يبلغ الثلاثين من العمر كان يشكو من الصغر الخوف من الوجود فى مكان ضيق . ولم يكن يحفل بذلك ، ولكنه كان يشكو

بعض الأحوال العصبية واللجلجة . وقد لجأ إلى محلل نفسانى من أتباع فرويد ليعالجه فلم يستفد أى فائدة . وفى أثناء الحرب الكبرى التحق بالجيش وكان يعمل فى الجبهة ويضطر إلى حبس نفسه فى الخندق . ورأى أن الإقامة فى الخندق لا تطيب له فكان يمضى الليل يقظاً هائماً على وجهه فى داخل الخندق . وعندئذ تحقق أن الأمر جد ، وأنه يخاف الأماكن المغلقة . ولما ساءت حاله أرسل إلى المستشفى ليعالج من الأرق واللجلجة والأحلام المزعجة والانقباض والصداع . وقام الأستاذ رفرز بعلاجه ، ونصحه بكتابة أحلامه قبل نسيانها ، كما نصحه أن يتذكر جميع الحوادث المتصلة بهذه الأحلام . وبعد فترة من الزمن تذكر وهو يتأمل حلما من هذه الأحلام حادثة وقعت له وهو فى الرابعة من العمر ، ولم يتذكرها قبل ذلك فى أثناء العلاج وهذه هى الحادثة : كان على مقربة من منزلهم دار تاجر يبيع الأشياء القديمة (روبابيكيا) وكان يعطى الطفل الذى يجلب له شيئاً ذا قيمة قرشاً . فوجد صاحبنا شيئاً ، وذهب إلى دار التاجر ليعطيه له ، فدق الباب ، ودخل فى ممر ضيق مظلم ، حتى بلغ الحجرة التى يوجد فيها التاجر ، فأعطاه الشىء ، وأخذ القرش ، وعاد فى ذلك الممر الضيق المظلم وحيداً ، فوجد الباب مغلقاً .

ولم يستطع لقصر قامته أن يفتح الباب ، وسمع فى نفس الوقت نباح كلب من داخل الدار ، فخاف خوفاً شديداً .
وكان من أثر تلك الحادثة أن هذا الشخص كان يخاف أن يمر أمام منزل التاجر ، وأصبح يخاف الأماكن المغلقة. وقد وجد الأستاذ رفرز أن هذه الحادثة هى العلة الصحيحة فى مرضه ، لأنه بعد استعادته ذكرى الحادثة شفى من الداء .

العلاج بالتنويم المغناطيسى :

وهذه قصة جندى إيرلندى رواها الأستاذ مكدوجل فى كتابه « علم النفس الشاذ » ليستدل منها على أن ذكريات الطفولة تستمر إلى زمن الرجولة ، وإليها تعزى المخاوف المرضية :
كان ذلك الجندى يبلغ من العمر الثانية والثلاثين ، قوى الجسم ، وأدخل المستشفى باسم الجنون بعد عشرة أيام ظل فيها غائباً عن الصواب على أثر انفجار قنابل .. كان فى هذه الأيام العشرة شديد الغباء ، والكسل ، مختلط العقل ، مضطرب الحديث . وكان يخيل إليه أنه يسمع أصوات القنابل ، وأن هذه الأصوات تتحدث إليه مهددة إياه . وكان يشعر أن كل إنسان ضده . ولما نوّمه الأستاذ مكدوجل حصل منه على هذه البيانات

كانت حياته كلها مغامرات فى مجاهل أمريكا وغيرها من أقطار العالم . ولم يكن يعرف للخوف أثراً منذ عهد الطفولة حتى أصيب بهذا الانهيار العصبى . وكان فى صباه يخشى أباه السكير . واشترك فى حرب البوير ، وفى حصار ليدى سميث ، ولكنه عندما طال أمد الحصار أصبح شديد الانقباض وأخلى سبيله من الجيش . ثم استعاد نفسه شيئاً فشيئا بعد ذلك الانقباض . غير أنه ينكر وجود أى عنصر للخوف فى ذلك الانقباض ، ويقرر أنه حين كان مع الجيش فى فرنسا لم يشعر بأى خوف . على العكس كان المعروف عنه أنه أكثر الجند استهتاراً فى فرقته . وقبل إصابته الأخيرة بعدة أسابيع فقدت فرقته كثيراً من رجالها ، وخر صديقه صريعاً بين يديه على أثر قذيفة أصابته فى صدره .

وفى الليلة السابقة على انهياره العصبى اشترك مع فرقته فى هجوم ليلى ، وزحف رفقاؤه إلى الأمام فى الظلام الدامس . ثم انفجرت قنبلة على مقربة منه ، فمد يده يتلمس رفيقه الموجود إلى جواره ليطمئن عليه ، وإذا بيده الممتدة تتحسس فى الظلام ، تقع على رقبة صاحبه ، وقد طاحت الرأس عنها ، وتفجرت منها الدماء . ويبدو أن هذه الحادثة كان أثرها فى نفسه عظيما . فهو يقول إنها ستبقى على الدوام فى ذاكرته ،

وأنه يحلم بها كثيراً ، وفى بعض الأحيان يشعر كان الجثة لا تزال إلى جانبه .

فلما أفضى بهذه الرواية ذهبت عنه ذكرى رفيقه الذى طارت رأسه . ولكنه لا يزال يحس كأن شيئاً رهيباً يوشك أن يحدث ، وهو يشعر بالخوف وينزع إلى الهرب . ليس ما يحس به من خوف محدوداً ، ولكنها كارثة ستقع له أو لسائر المكان . وهو لا يستطيع أن يصادق غيره من المرضى ، وإذا دخل حجرة الطعام خيل إليه أنه لا بد أن يصيح . ولم نفلح فى إقناعه أو إغرائه بالخروج من غرفته . فإذا خرج ظل ملتصقاً بالأبنية . إنه يشعر بالخجل من هذا الضعف والخوف .

قال مكدوجل : فلما رأيت عناده ، ووجدت أنه لا أثر لذكرى قديمة أو شيء من الكبت لجأت إلى الإيحاء المباشر فى التنويم المغناطيسى . وبعد نوم استمر نصف ساعة أوحيت إليه خلاله بالثقة والابتهاج ، تحسنت حالته لمدة ثلاثة أو أربعة أيام . حتى إذا ابتعد عنى عاد إلى حاله ، وعادت إليه مخاوفه الغامضة ، مع الأرق وفقدان الشهية . فعالجته بالتنويم خلال شهرين حتى استعاد ثقته بنفسه .

ويعلق مكدوجل على هذه الحالة بقوله : إن الإنسان

ليعتقد فى وجود حوادث ماضية وقعت فى أثناء الطفولة ، وأنها هى التى مهدت لهذا الانهيار العصبى . ومع ذلك فقد أمضى هذا المريض عدة سنوات فى مغامرات أبدى فيها كثيراً من أعمال الرجولة والشجاعة .

على أن مكدوجل لا يلجأ إلى التنويم إلا إذا عجز التحليل النفسانى العادى فى تبديد المرض عند معرفة العقدة القديمة .

وهذه حالة أخرى ذكرها ليستدل منها على صحة العلاج بالتحليل النفسانى : إنه رجل فى الخامسة والخمسين من عمره كان يشكو من صغره خوفاً غريباً هو أن شخصاً سيهجم عليه من الخلف . فإذا كان فى الشارع نظر إلى الوراء وتلفت خلف ظهره . وإذا كان فى داخل منزله فضّل أن يجلس وظهره إلى الحائط . وفى سن الخامسة والخمسين ذهب إلى البلدة التى ولد فيها ، وزار جاره الذى كان بقالا ، ولم يزل محتفظاً بمحل تجارته منذ أن كان طفلا . وكانت هذه الزيارة سبباً فى سوء حالته واضطرابه العصبى . وعند سؤال البقال قال لهذا الرجل « لقد كنت تذهب وتجئ لشراء حاجتك أمام الدكان ، وعند مرورك كنت تسرق قبضة من البندق الموضوع فى الخارج . وذات يوم رأيتك قادماً ، فاختبأت وراء برميل ، حتى إذا وضعت يدك على البندق ،

قفزت عليك وسحبتك من الخلف . وعندئذ صرخت ووقعت مغشيا عليك فى الطريق » . وقد تذكر صاحبنا هذه الحادثة ، وزال عنه هذا الخوف بعد مدة قصيرة .

العلاج بالإيحاء :

وقرأت للطبيب إدوارد كولز كتاباً بعنوان « لا تخف » نقله إلى اللغة العربية الدكتور أمير بقطر ، ذهب فيه إلى أن الخوف ينشأ من هبوط الطاقة العصبية ، وأن هذا الهبوط يرجع إلى التعب ، وأن العلاج يقوم على أمور ثلاثة :

١ ـ إعطاء الدواء اللازم لتغذية الخلايا العصبية وإعادة ما استنزف منها من الطاقة .

٢ ـ الالتجاء إلى الإيحاء للقضاء على الخواطر المتواترة واستبدال غيرها بها .

٣ ـ إعادة تربية المريض ، وتعليمه فن الحياة وكيف يعيش فى حدود طاقته ، مع الراحة الكافية ، واسترخاء أعضاء الجسم ، والقيام بعمله بعقله لا بوجدانه وانفعالاته .

أقول : يبدو أن جوهر العلاج عند هذا الطبيب هو الإيحاء . وقد رأينا كيف يذهب مكدوجل إلى حد استعمال التنويم المغناطيسى ليكون الإيحاء أقوى وأشد .

ولم يذكر لنا الدكتور كولز الدواء المقوى للطاقة العصبية ، وذكر فى كتابه أنه على استعداد أن يرسله لمن يطلبه . وهذه لعمرى ليست طريقة العلماء المخلصين للعلم ، بل هى طريقة « أمريكانية » من طرق الدعاية . على أن غيره من الأطباء ينصح بإعطاء بعض الأدوية المهدئة للأعصاب مثل « البروميد » أو الفيتامينات .

ومع ذلك فليس الأمر فى الحقيقة راجعاً إلى علة جسمانية ، هى السبب فى العلة النفسانية ، بل الأصح هو أن الخوف هو الذى يؤدى إلى الاضطرابات الجسمانية . فالعلاج نفسانى لا جسمانى .

ومن جهة أخرى كيف يزعم أن المخاوف الثابتة من شىء معين ترجع إلى التعب ؟ كالخوف من الأماكن المغلقة أو المفتوحة أو الظلام أو الكلاب وما إلى ذلك . نعنى أن المريض لا يشكو أى علة سوى خوفه من هذا الشىء بالذات . وقد ضربنا أمثلة فيما قبل لذلك ، وسوف نسوق أمثلة أخرى فى مناسباتها .

وأظن أن كلا منا يبدى خوفه من بعض الأشياء ، هذا يخاف الصرصار ، وهذا يخاف الثعبان ، وهذا يفزع من الفأر وآخر يرتعب من الكلب ، ونحن نشاهد هذه الأحوال

كل يوم ، وهى عامة فى معظم الناس ، ولا يستقيم تعليلها بانخفاض الطاقة العصبية ولكنها ترجع إلى حوادث الطفولة .

وإذا كان الدكتور كولز قد عدل عن مذهب فرويد ، فذلك لأنه لا يوافقه على رد الأمراض العصبية إلى الغريزة الجنسية ، وفى ذلك يقول : « إن أكثر الاعتراض على التحليل النفسانى أساسه المبالغة فى العناية بالمسائل الجنسية واعتبارها أهم أسباب الاضطرابات العقلية . . . »

ونحن كذلك لا نوافق على مذهب فرويد فى صورته الأولية ، وقد عدله تلامذته تعديلا كبيراً . والأصل فى المذهب أن القوة الجنسية (الليبدو Libido) كما يعبر عنها فرويد ، إذا لم تنصرف فى المصارف الطبيعية لها ، تنقلب إلى خوف ، وأن هذا الخوف الغامض يتعلق بشىء خارجى ويصبح مرضاً. وبعبارة أخرى أن الاضطرابات العصبية تنشأ من خوف الأنا من الأنا السفلى التى تطلب تحقيق رغباتها الجنسية . فالقلق يرجع إلى الخوف ، والخوف رد فعل للجوع الجنسى الذى لم يشبع .

ويرى شتيكل Steckel أحد أتباع فرويد« أن الخوف عقاب يوقعه الضمير على ذنب ارتكبه المرء فيما مضى » . وقد يكون فى هذا التعليل بعض الصواب .

ويذهب أدلر Adler إلى أن الخوف مستمد من « مركب النقص » . ويعلل الخوف من السقوط أنه رمز لسقوط المنزلة ، والنزول عن مركز الصدارة ، وطلب السيطرة هو الدافع الوحيد إلى جميع تصرفات الإنسان فى فلسفة أدلر .

وقد انتهى المحدثون إلى تعديل نظريات فرويد وتلاميذه ، وأخذوا بمبدأ أدنى إلى الحقيقة . ذلك أنهم اعتمدوا على قول فرويد بالرغبة الجنسية الدافعة للمرء منذ الصغر ، ولكنهم نقلوا الرغبة الجنسية إلى « الحب » ، وقالوا إن الدافع فى حياة الإنسان هو المحبة ، والعلة فى الاضطرابات العصبية هو فقدانها ثم التماسها . ويرجع الخوف إلى الخشية من انقطاع حبل المحبة .

وقد رأينا فى مطلع هذا الكتاب أن « حاجة » الطفل الأساسية هى الحماية والأمن ، ولك أن تسمى هذه الحاجة فطرة أو غريزة . فالطفل يعتمد على أمه بوجه خاص فى أمور ثلاثة هى عماد بقائه : الغذاء ، والتدفئة ، والوقاية من الأخطار . وهذه الحاجات الثلاث « بيولوجية » إذا فقد الطفل إحداها قضى عليه . وهى نفسانية كذلك لأنه « يشعر » بهذه الحاجات حين يطلبها .

فإذا فقد الطفل اعتماده على أمه وشعر بانحلال رابطة

الحب بينه وبينها ، وما يترتب على ذلك من حماية ووقاية امتلأ قلبه بالخوف وخشى الوحدة والعزلة وكان ذلك أساس الاضطرابات العصبية فى مستقبل حياته ، إذ يفقد الثقة بالنفس لمواجهة صروف الحياة ، ويسوده إحساس بالوحشة وانعدام الأمن ، فلا يستطيع التغلب على العقبات ، ويصبح عاجزاً عن تحمل المسئوليات .

العلة فى أنفسنا :

إذا كانت هناك مؤثرات خارجية نسميها مخاطر تؤدى إلى الشعور بالخوف حتى يتجنب المرء هذا الخطر ، فهناك مصادر للخوف تعيش معنا ، إنها مخاطر النوازع والرغبات التى نحس بها : فنحن كما نخشى القنابل والأمراض نخشى كذلك عواقب أعمالنا فقد تدل على الحماقة والطيش والغفلة ، ونخشى ما يحط بالكرامة ويخدش الشرف ، وعلى الجملة نخاف ما تدفع إليه النفس وتوسوس به ، وفى ذلك قال تعالى « وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء » .

هذه المخاوف الناشئة من باطن أنفسنا ، هى التى تفضى إلى القلق ، ونعنى به الخوف المستمر ، لأن الهرب من أنفسنا مستحيل ، إلا إذا قضينا على حياتنا بالانتحار . فهناك صراع

خفى داخلى بين الشخصية الحاضرة ، وبين دوافع الأنا السفلى ، وبين الضمير أو الأنا العليا .

وقد يعلم أحدنا السر فى مخاوفه الباطنة والعلة فى قلقه الدائم ، وعندئذ يكون العلاج سهلا يسيراً ، وذلك بالقضاء على مصدر الصراع .

وقد يكون السر دفيناً خفيا يبدو فى صورة رمزية ، بحيث يكون الخوف الظاهر قناعاً لشىء آخر أعمق .

مثال ذلك ما يقوله أصحاب التحليل النفسانى من أن الخوف من الكلاب رمز للخوف من الأب الغضوب القاسى الذى كان ينهر ابنه وينهاه . وقد يكون هذا الخوف راجعاً إلى الشعور بذنب ارتكبه الابن ويستحق عليه الغضب من والده .

فنحن نرى أن الخوف باطنى هو الخوف من الرغبات المكبوتة ، ثم ينعكس على شىء خارجى . كالذى يخشى القذارة فيغسل يديه مرات كثيرة ويسرف فى هذا الاغتسال إلى حد الوسوسة ، فإن الخوف فى الواقع ليس من القذارة بل شعور بذنب ارتكبه هذا الشخص ويرغب فى « تنظيف » نفسه .

وتمتاز هذه المخاوف المرضية بأمور ثلاثة : الكبت ، وتفكك الشخصية ، والتحريك اللاشعورى إلى العمل .

أما أنها مكبوتة فذلك لأن الخوف قديم حدث فى الطفولة

الأولى ، ثم نسيه صاحبه ، ومنعه من الظهور . ويؤدى هذا الكبت إلى تفكك الشخصية ، إذ تعمل هذه الدوافع بدون شعور أعمالا تتعارض مع ما يريده صاحبها فى شعوره .

والدافع الأساسى لهذه المخاوف هو خشية الأذى الذى يصيبنا ، كالخوف من الأماكن المفتوحة أو المغلقة أو الوحدة أو الظلام أو المرض أو الموت ، كل ذلك يرجع إلى خشية الضرر الذى يقع بنا فى هذه الأحوال .

الخوف الهستيرى :

فإن كان الخوف الحاضر راجعاً إلى خوف وقع فى الطفولة سمى ذلك هستيريا . ذلك أن الطفل يرغب أن يكون شيئاً ما ، فيلفت إليه الأنظار بحركات شتى وحيل مختلفة ، منها الزعم أنه خائف . فقد يذهب الطفل إلى فراشه ثم ينادى أمه أن تحضر إليه فلا تستمع لندائه ، فيقول لها إنه خائف فتحضر إليه ثم ينقلب الزعم بالخوف حقيقة ، ويلجأ إليه دون شعور ، ويؤمن بهذا الادعاء بغير وعى .

وهذه مريضة تحكى فى التحليل النفسانى قصة خوفها فى الطفولة قالت :

« لقد تملكنى هذا القلق لأنى لا أستطيع العناية بنفسى أو

اجتذاب نظر أهلى . فرأيت أن الطريقة الوحيدة التى ألفت بها الأنظار إلى نفسى هى إظهار القلق ، وبذلك أذكر أهلى بوجودى ، ولو أنى نسيت أنى خائفة ، لأهملونى وأغفلت فى زوايا النسيان . ولو بقيت فى حجرة الانتظار عندك (تريد حجرة الطبيب) مدة ربع ساعة لنسيتنى ، لولا أنى أظهر الخوف والهلع ، وبذلك ألفت الأنظار إلى وجودى . فإظهار القلق هو الشىء الوحيد الذى أعمله وإلا قضيت على نفسى . وإذا ذهب القلق من رأسى ما بقيت شيئاً من الأشياء ؛ حقاً أظل هادئه ساكنة ، وهذا شىء جميل ، ولكنى أفضل الموت على هذه الحياة » .

هذه حالة بسيطة تبين كيف تدعى المريضة الخوف لتثبت وجودها . وإليك قصة فتاة أخرى فى السادسة عشرة من عمرها كانت تخاف المرض . شعرت وهى طفلة بالإهمال لأن صحتها كانت حسنة وكان أخوها الأكبر مريضاً قعيد الفراش ، فتركزت عناية أهلها فى أخيها . وحاولت أن تجذب إليها الأنظار بالصياح والضوضاء فلم تفد هذه الوسائل . عندئذ حاولت تجربة المرض ، إذ كان ذلك هو الذى اجتذب العطف على أخيها ، فنجحت هذه المحاولة . حتى إذا ادعت المرض ذات يوم ، اكتشف أبوها حيلتها فأصر على تركها بمفردها ،

وأمر أمها بالانصراف عنها . وفكرت الطفلة وقالت فى نفسها : هب أنى مرضت حقاً ، فإن أمى سوف ترفض المكث إلى جانبى ؛ فعدلت عن ادعاء المرض ولم تقبل العطف من أحد ، واتخذت موقف الاستقلال والاعتماد على النفس . حتى إذا كانت فى سن البلوغ ، تلك السن التى تتجه فيها الطبيعة إلى طلب الاعتماد على الغير ، وعلى الجنس الآخر بوجه خاص ، وإلى الحاجة إلى الحب ، ظهر فى نفسها صراع بين رغبتها السابقة فى الاستقلال والاعتماد على النفس ، وبين هذه الرغبة الجديدة للحب ، مما أيقظ رغبتها المكبوتة إلى الحب فى عهد الطفولة الأولى . غير أنها لم تستطع طلب المحبة من والديها ، إذ سبق لها التضحية بها فى سبيل الاستقلال ، ولم تستطع المرض ، لأنها خافت من قبل المرض . ولكن الخوف من المرض هو الذى تغلب عليها ، وبخاصة عند رؤيتها الفتيات الأخريات فى المستشفى . وبذلك اتجهت رغبتها إلى المرض حتى تحظى بنفس العناية والعطف مما تصبو إليه نفسها .

ونحن نرى من هذه القصة عدة أمور : الأول ادعاء الخوف من المرض ، والثانى ظهور هذا الادعاء فى الطفولة ثم كبت الخوف ، والثالث التغلب على الخوف بالشجاعة والاعتماد على النفس والضرب بمحبة الغير عرض الحائط ، الرابع العودة إلى

ظهور الخوف القديم إذا تهيأت الظروف لذلك .

ويتبين من البحث أن الخوف الكامن يؤدى إلى كثير من الخلال : منها الثقة بالنفس والاعتماد عليها ، ومنها طلب المال والحرص عليه لأنه يؤمن المرء ، ومنها الجد فى العمل مع المثابرة والنشاط والكفاءة والطموح وهى خلال تؤدى إلى النجاح فى الحياة ؛ ولكن هؤلاء القوم يقومون بهذه الأعمال باذلين جهداً عظيما لا تحتمله أعصابهم مع كثير من القلق ، وذلك بسبب الخوف المستقر وراء هذه الدوافع . ويحاول مثل هذا الشخص تغطية خوفه بالإكثار من العمل ، والحرص على نجاحه ، فلا يسكن ولا يستريح حتى يصاب بالانهيار .

مثال ذلك موظف أصيب بالخوف من الأماكن المغلقة . وكان فى طفولته رقيقاً ، ضعيف البنية ، مريضا بالكساح ، لا يلقى من أمه عطفاً لأنها كانت باردة الطبع ، وكان أبوه يطمع أن يجعل منه لاعباً دولياً فى كرة القدم [١] . فلما يئس من الحصول على العون ، عوّل على الاعتماد على نفسه ، وكبت شعوره بالعجز ، واتخذ شعاره التقدم إلى الأمام . وأصبح لذلك متوتر الأعصاب ، مثقل الكاهل ، يقظ الضمير ، متطلعاً إلى الكمال ، غير أن والده كان كثير

---

(١) هذه قصة شاب إنجليزى من كتاب هادفيلد السابق ذكره .

النقد لأعماله والتقريع لخيبته .

وفى يوم من الأيام طلب منه رؤساؤه أن يعمل شيئاً مخلا بالشرف فلم يقبل ، وأخذ ضميره يغالبه حتى أحس أنه يرغب فى الهرب من هذا العمل والمكان . فلما انصرف عائداً إلى منزله ، وركب فى النفق تحت الأرض ، إذا به يشعر فجأة بخوف شديد من أن يغلق عليه المكان . وهذا عود إلى خوف فى الطفولة ، ورمز لانغلاق شخصيته وانهيارها وأصبح من ذلك الوقت فى عجلة شديدة ، سريع النبض ، يخشى ضعف القلب والموت فى أى لحظة ، ويخاف أن يغمى عليه فيصبح أضحوكة الناس . وهكذا تحطمت قيود القوة والاعتماد على النفس ، وحل محلها الخوف من الأماكن المغلقة. وعلة ذلك ظهور مخاوف الطفولة التى سبق كبتها ، كما أن هذا الخوف سبيل إلى الهرب من الموقف ، بل من الحياة .

وهكذا يكون ادعاء المرض ، أو الخوف من المرض ، طريقاً للهرب من المسئولية والحصول على العطف المفقود

المخاوف الملحة :

فى بعض الأحيان تتملك المرء فكرة أو عمل أو شعور يلح عليه ولا يستطيع عنه حولا ، ويمتاز بعدة صفات ،

هى الإرغام والقسر والطيش

فمن جهة الإرغام يشعر المريض بوجوب أداء هذه الأعمال .

ومن جهة القسر يضطر المريض إلى عملها على الرغم من إرادته .

ومن جهة الطيش تبدو منافية للعقل ، ويعرف المريض أنها غير معقولة ، ولا تحقق غرضاً أو تبعد خطراً كالخوف من المشى فى مكان مفتوح .

ونقص عليك قصة ضابط بريطانى كان يعمل فى الحرب العظمى فى مصر ، وكان يشكو من الخوف من الأماكن المفتوحة (أجورا فوبيا) حتى ليعجز عن عبور حديقة أو شارع أو جسر ، إلا إذا كان ملتصقاً بشخص ما ، فكان يمسك بيد ابنه البالغ التاسعة من العمر .

وقد أصيب بهذه النوبة وهو فى صحراء مصر حيث خرج ليلا من مركز القيادة إلى نادى الضباط . وكان يعبر ذلك الطريق فى كل ليلة ، إلا أنه شعر فى تلك الليلة مع الوحدة والظلام والفضاء بفزع شديد ظل يتملكه بضع سنوات . وعاد بذاكرته إلى الوراء فذكر أنه وهو فى السادسة من عمره جرى ذات ليلة بعيداً عن داره حتى بلغ حقلا واسعاً ، وذلك على أثر تأنيب والدته له بشدة . وتطلع حوله فى ذلك الفضاء فامتلأ رعباً ،

وأسرع بالعودة إلى البيت . ولقد تبين أن شعوره وهو فى الصحراء يماثل تلك التجربة التى وقعت له عندما كان صبيا . وتبين فى ذلك الشعور الصراعَ بين إرادته ، وبين خوفه من العواقب ، فأرغمه الخوف أن يكبح جماح نفسه ، ويلغى إرادته ، ويصبح ولداً طيباً مطيعاً .

وأفادته هذه الذكرى ، وبددت عنه الأعراض التى كان يشكو منها ، غير أنه لم يشف تمام الشفاء لأن الصراع النفسى كان أعمق وأوغل فى طفولته . ثم تتبع حوادث الطفولة الأولى ، فتذكر كيف كانت مربيته القاسية تهدده ، وبخاصة ذات يوم فى مكان مهجور على شاطئ البحر ، عندما ألح فى الخروج من عربته ، فأمسكته من رقبته ، وارتبط ذلك الفزع بفضاء البحر والسماء مع الوحدة والوحشة بدون أن يستطيع طلب المعونة من أحد ، إذ لم يكن معه إلا تلك المرأة البشعة الكريهة . ولما رأى أنه مضطر إلى الاعتماد على نفسه اهتاج ، وأخذ يضرب ويعتدى ، فلما قبضت على رقبته استسلم . وكانت أمه قد عهدت إليه أن يجر عربة فيها أخ له كسيح ، فأخذ صبية الشارع يتطلعون إلى أخيه يتفرجون عليه ، فطلب منهم الابتعاد عنه ، فأبوا ، وتعارك وإياهم دفاعاً عن أخيه . فلما عاد إلى البيت ، عنفته أمه لمشاجرته ، وبخاصة حين رأت

ملابسه ممزقة . وثار صاحبنا لهذا الاتهام الظالم ، وكان ذلك
هو السبب فى خروجه من البيت فى تلك الليلة التى فزع فيها
من الفضاء والظلام والوحشة . وعندئذ تجدد الصراع بين
إرادته الذاتية ، وبين خوفه من العواقب ، واضطر إلى الاستسلام
وأصبح منذ ذلك الوقت وديعاً طيباً . فإذا تأملنا حادثة الصحراء
وجدنا الموقف مماثلا من الناحية الداخلية والخارجية . فالموقف
الخارجى واحد فى جميع الحالات ، نعنى ساحل البحر الفسيح
فى الطفولة ، وفضاء الحقل الواسع فى الصبا ، والصحراء
الممتدة الأطراف . وهنا نتساءل لماذا لم يبد فى نفسه الخوف عند
عبوره فضاء الصحراء إلا تلك الليلة فقط ؟
لا بد من البحث عن علة أخرى ساعدت حوادث الطفولة والصبا
ويتخلص هذا الموقف الجديد فى أنه حين عُين قائد الفرقة
كان هناك ضابط تحت أمره يطمع فى هذا المنصب . فلما
تسلم القائد عمله أدرك ظروف مساعده ، ولم يرغب فى جرح
شعوره ، وبخاصة لطيبته التى تطبع عليها منذ الصغر كما ذكرنا ،
فسمح لمساعده بالقيام بالعمل الذى كان يقوم به قبل حضوره
وكان يعرفه ويحسنه . غير أن المساعد استغل طيبة القائد ،
وأخذ يسيطر عليه ، إلى أن قدم له خطاباً ليمهره بإمضائه ،
ولم يكن ما جاء فيه مما يوافق عليه . وقام فى باطن نفسه صراع

بين إرادته ، وبين خوفه من عواقب رفضه . وكان خوفه من المساعد يشبه خوفه من الممرضة ، ومن أمه حين كان طفلا . وفى الوقت الذى كان يعبر فيه فضاء الصحراء كانت تتنازعه هذه العوامل الباطنة ، أو هذا الصراع النفسانى ، وعندئذ تملكه الخوف من الفضاء وتسلط عليه .

ونحن نرى من النظر فى هذه الحالة الإرغام والإلحاح ، ثم معارضة إرادة المريض ، وأخيراً عدم وجود سبب معقول للخوف من الفضاء اللهم إلا هذا السبب القديم الباطنى .

وترجع العلة فى ظهور هذا الخوف المرضى إلى عدة أمور :

١ — الخوف القديم من البحر الفسيح فى الطفولة الأولى .

٢ — ميل إلى العدوان وإلى الاعتماد على الإرادة الذاتية ، تعويضاً عن الشعور بعدم الأمن بإزاء الممرضة والأم .

٣ — الخوف من عواقب هذا العدوان ، وقد ظهر ذلك فى تهديد الممرضة له ، وفى ظلمة الليل الحالكة حين جرى من البيت ، ومن المتاعب التى سوف يلقاها من مساعده إذا عارضه .

ويقال إن الخوف من الأماكن المفتوحة ، هو فى الحقيقة خوف من العزلة والوحدة ، أو من الانفصال عن الأهل والأحباء . ويلاحظ أن الحيوان الذى ينفصل عن القطيع يبدو عليه هذا

الخوف . ويخاف الإنسان إذا ضل فى الغابة أو الصحراء وحيداً . ويذهب بعض العلماء إلى أن الخوف من الأماكن المفتوحة يرجع إلى وقت الولادة وانفصال الوليد عن أمه . والأرجح هو ما ذكرنا ، نعنى الصراع النفسانى بين الإرادة الذاتية ، وبين الخوف من العواقب .

أما الخوف من الأماكن المغلقة ، وقد ضربنا من قبل عدة أمثلة لذلك ، فهو رمز فى الحقيقة لاختناق الشخصية التى تطلب الفسحة والانبساط . هذا بالطبع إلى جانب أحداث الطفولة التى نشأت مع حياة المريض .

يحكى أن أحد الأمريكان كان يصاب بالخوف من الأماكن المغلقة كلما سافر إلى الجزر البريطانية ، لأنها أصغر من أن تتسع لشخصيته .

وشعر أحد المرضى بهذا الضرب من الخوف ذات ليلة ، فنهض من فراشه ، وكسر زجاج النافذة ، وعاد إلى فراشه ، ونام مستريح البال . فلما أصبح الصباح وجد أنه كسر زجاج المكتبة ، بدلا من النافذة التى ظلت مغلقة .

وأساس الخوف من الأماكن المغلقة الخشية من الاختناق . لأننا نستطيع الاستمرار فى الحياة بدون شراب أو طعام عدة أيام ، ولكننا لا نستطيع الاستمرار فى الحياة بدون تنفس الهواء

إلا بضع دقائق . وقد تكون علة هذا الخوف التخدير فى الطفولة لإجراء عملية جراحية ، ولذلك يحسن أن تصحب الأم طفلها عند إجراء العملية . ويروى عن مريضة أنها كانت تخاف وضع أى شىء على وجهها ، وتبين أن السر فى ذلك يرجع إلى عهد الطفولة حين اضطربت وهى تعبث فوقعت « المخدة » على وجهها . ويروى عن أخرى أوشكت أن تختنق بسبب انغماس وجهها فى ماء الحمام . وأخرى كادت أمها أن تخنقها ليلا ، وهى نائمة إلى جانبها فى الفراش .

الخوف من إيذاء الغير :

رأينا فى المخاوف السابقة كيف يخشى المرء أن يوقع الضرر بنفسه ، وهنا نجد لوناً آخر من المخاوف تستولى على صاحبها وتتملكه ، وتستبد به ، وتلح عليه ، ولا يستطيع عنها حولا هى الخوف من الإضرار بالناس وإيذائهم . فقد يرى المريض دافعاً لا يقاوم للقتل أو التسميم أو الخنق . والعلة فى ذلك غالباً وجود دافع قديم منذ الطفولة للاعتداء، وينشأ عن الغيرة أو الكراهية ، ثم يكبت هذا الدافع إما رهبة من العقاب ، وإما خوفاً من فقدان العطف والمحبة ، وإما لرؤية أحلام مزعجة تجسم مخاوف الطفل .

ويقال إن الأم التى يشتد قلقها على طفلها خشية مرضه إنما ترغب رغبة لاشعورية فى مرضه ، أو موته ، لأنها فى صميم نفسها لا تحبه .

فهذه سيدة كانت تفخر بأنها أم مثالية ، ولكنها كانت تخشى أن تترك صنبور الغاز مفتوحاً فى غرفة ابنتها فيخنقها الغاز . وكان ظاهر هذا الخوف دليلا على شدة حبها لابنتها وقلقها عليها . وكانت تعود إلى الغرفة بدافع الوسوسة لتتأكد من أن صنبور الغاز مغلق . ودخلت ذات مرة فوجدت الصنبور مغلقاً ففتحته ، مع أنها أرادت إغلاقه ، فكان هذا دليلا لاشعورياً على رغبتها فى التخلص من ابنتها . وتبين من التحليل النفسانى أن وراء إخلاصها الظاهر رغبة فى التخلص من الطفلة لأنها تقف عقبة فى سبيل عملها .

وهذه سيدة أخرى كانت تخشى أن تسم طفلها مع أنها فى الظاهر الأم الكاملة المخلصة . وكانت الأم فى طفولتها مدللة ، ولكن والدها كان يثيرها ويحقر من شأنها . وكم رغبت فى قتله ولكن صغر سنها جعلها قليلة الحيلة ، فكبتت ثورتها واستسلمت وأصبحت طفلة هادئة وديعة . فلما تزوجت وأنجبت طفلا ، وأظهر زوجها ميلا إلى الطفل تجدد بغضها وغيرتها وخوفها ، ولكنها لم تستطيع إبراز ذلك لأنها كانت الأم

المخلصة المثالية . وعندئذ انتقلت مشاعرها إلى الخوف من إيذاء الطفل والزوج .

ويحكى أن رجلا تملكه الخوف من طعن زوجته بسكين ، واتضح من التحليل أنه أراد أن يطعن أمه فى طفولته لأنها أساءت معاملة أخيه الأكبر ، ولم يستطع بطبيعة الحال تنفيذ رغبته فكبتها ، فلما تزوج ورأى زوجته تسىء إلى أحد أبنائه، انتقل البغض المكبوت منذ الصغر إليها ، وتحول إلى خوف من طعنها .

وتوجه رجل إلى مستشفى الأمراض العقلية بمحض إرادته وطلب من أطبائها علاجه ، لأنه كلما اجتمع بالفتاة التى يحبها تملكته الرغبة فى خنقها بيديه، فخاف وجرى بعيداً عنها وسلم نفسه إلى المستشفى . وكانت العلة فى ذلك أنه وهو طفل صغير لم يكن يشبع من لبن أمه ، فكان يخنقها بيديه الصغيرتين ليحصل من ثديها على غذائه .

وكانت امرأة تخاف أن يقع حادث لزوجها يقضى عليه ، وكانت رغبتها الباطنة هى التخلص من زوجها ، إذ كانت تحب شخصاً آخر متزوجاً ، ثم ماتت زوجته فذهب المانع الذى كان يحول بينهما. ولكن كيف تتزوج منه وهى متزوجة ؟ لقد أوحى إليها عقلها الباطن أن تظهر خوفها على زوجها ،

وهى فى الحقيقة تود التخلص منه .

ويذهب فرويد إلى أن الخوف من قتل شخص ، أو طعنه بسكين ، أو إيذائه بأى شكل من الأشكال ، إنما يرجع إلى العلاقة الجنسية بين الطفل وأمه وأبيه فى السنوات الأولى . يريد أن يقول إن كراهية الطفل لأمه أو لأبيه أو لأخيه تدفعه إلى طلب التخلص منه ، وكثيراً ما يشاهد الرضيع يضرب أمه ، وبخاصة إذا حرم من لبن الرضاعة ، ثم يتحول البغض لاشعوريا فى المناسبات التى تدعو إلى ظهوره ، ويتخذ مظهر الخوف من قتل هذا الشخص .

وفى بعض الأحيان يكون الدافع من القوة بحيث يخرج إلى حيز التنفيذ ، فيقتل المريض ذلك الذى يخاف من قتله .

وفى أغلب الأحيان يتوقف عن التنفيذ ، ولا يتحقق هذا الخوف ، والسبب فى ذلك هو « الرقيب » أو الضمير

ذلك أننا نخاف شيئاً آخر من صميم أنفسنا هو الضمير

صوت الضمير

وهذا باب يجدر بنا أن نفرد له فصلاً على حدته .

فقد حدثتك عن الخوف من المؤثرات الخارجية التى يفزع لها الحيوان والإنسان ، فيهرب منها طلبا للأمن والتماساً للنجاة . وهذا شىء مما ركبه الله فى الفطرة حفظاً للحياة ، وهو أمر طبيعى . قال تعالى يصف خوف داود عليه السلام حين دخل عليه خصمان يطلبان الحكم بينهما بالحق : « وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف . . . » . وجاء فى وصف أصحاب الكهف : « لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً . »

ثم حدثتك عن مذهب فرويد الذى يجعل شخصية المرء ثلاثة أقسام : الأنا السفلى ، والأنا العليا ، والأنا التى تمثل واقع عمله ، وتبرز شخصيته . وتحدثنا عن الخوف الناشىء من الأنا السفلى ، وفصلنا الأمراض الناشئة عن ذلك .

وبقى أن نحدثك عن خوف الإنسان من الأنا العليا أو من الضمير . وفى تسميتنا الأنا الأعلى بالضمير بعض التجاوز

وقد نشأ الضمير لأن الإنسان يعيش فى جماعة تقيده بأوضاع خاصة ، وتطالبه بواجبات ، فى مقابل ما يحصل عليه من حماية وأمن . والناس بإزاء المجتمع أحد ثلاثة : إما ثائر يرفض أن يتقيد بالقيود أو يخضع للقوانين ويساير التقاليد ، وهؤلاء هم الخارجون على المجتمع ، ويسمون بالمجرمين . وإما عاقل يعرف أن خيره وسعادته فى مسايرة الجماعة والنزول على أوامرها والتأدب بآدابها ، وهؤلاء هم الفضلاء . وإما مرغم على التخلق بأخلاق المجتمع خوفاً من ألوان العقاب . وهؤلاء عندنا هم الأغلب ، أو قل إن سائر الناس يخضعون للآداب الاجتماعية رهبة وخوفاً .

ولا يغيب عن بالنا أن الضمير ينشأ فى سن مبكرة حتى لينسى أغلبنا ، أو جميعنا ، فترة تكوينه . وذلك حين يدرب الطفل على الطاعة وعلى الآداب الاجتماعية التى يفرضها عليه أبوه وأمه والذين يقومون على تهذيبه ، فيعلمونه السلوك الحسن ومبادئ الفضيلة التى يتواضعون عليها . هذه الفترة تمتد عادة حتى سن الخامسة ، ولذلك كانت العناية بتربية الأطفال فى هذه السن المبكرة ذات أثر عظيم فى تكوين الأجيال وطبع الشعوب على الصفات الصالحة ، كما تكون عظيمة الأثر فى اتزان الشخصية وسلامة الأفراد .

قالوا : ويعمل على تكوين الضمير عدة أمور ، أولها التجارب التى يتعرض لها الطفل ، وأقواها فى نفسه أثراً المخاطر والمخاوف ، وهى التى تعلمه الحرص والحذر والتوقى . وإنه ليزج بنفسه فى كل مأزق ، ويتعرض لكل خطر ، فهو يجرب النار ويلعب بالثقاب ، ويقفز ويشب ويتسلق فيقع على أم رأسه ويصاب بالجروح والعاهات . وإنك لترى الرجل يخشى السباحة والخوض فى ماء البحر ، لأنه أوشك على الغرق فى طفولته . وأعرف صديقاً يرفض عبور النيل فى قارب ، فلما ألححتُ عليه فى السؤال أخبرنى أنه كاد أن يغرق فى صباه .

والأمر الثانى فى تكوين الضمير ، أو الأنا الأعلى ، التهديد الذى يناله الطفل من أهله ، والعقاب الذى يوقع عليه ، فهو يُزجر ويضرب ويحرم من رغباته إذا عصى وخرج على الطاعة . فالخوف من العقوبة يُكسب الطفل مستوى معيناً من الأخلاق هو الذى نسميه فيما بعد الضمير .

والأمر الثالث التربية ، فنحن نعلم الطفل أن السرقة أو الشراهة أو القذارة شر ، وأن الرأفة أو الإحسان أو النظافة خير . ولا يثمر التعليم إلا إذا كان الطفل يحب معلمه .

والرابع محاكاة شخصية الأب أو الأم أو مَنْ يقوم على تربية الطفل ويتصل به ، فيكتسب منه شخصيته ،

ويسلك كما يسلك .

فإذا تكوّن الضمير أصبح الطفل قادراً على أمور ثلاثة : إدراك نفسه أو الشعور بالذات ، وضبط نفسه أو الوقوف فى وجه الغرائز الدنيا ، ونقد نفسه أو الحكم على النوازع والرغبات مما يؤدى إلى الشعور بالخجل أو اقتراف الذنب .

ويذهب برتراند رسل فى كتابه « الظفر بالسعادة » إلى أن الضمير شعور نفسانى يتركب من عدة أمور : الخوف من افتضاح السر ، والخوف من نبذ المجتمع ، وتعاليم الأم التى تبثها فى الطفل . وهو يرى أن الإنسان ليس كاملا ، وأنه ارتكب فى خلال حياته ما يقتضى العقاب أو على الأقل الخجل . ولولا افتضاح السر لأمعن المرء فى أداء أفعال يتجنب فعلها اتقاء هذا الخوف . ويخشى الإنسان إلى جانب افتضاح سره سخرية المجتمع منه والابتعاد عنه ، كالتاجر الذى يغش فى تجارته ، فإنه يخاف إذا عُرف أمره أن ينصرف الناس عنه .

ونحن نعلم أن شيئاً آخر يصرف الإنسان عن ارتكاب الشر وإيذاء الغير ، خلاف افتضاح السر ونبذ المجتمع له ، ذلك هو تأنيب الضمير . وعذاب الضمير أقسى من أى عذاب آخر لأنه لا يفارق صاحبه ليلا أو نهاراً ، ويبعث على الهم والقلق .

ومما يعمل على تكوين الضمير فى الشرق التعاليم الدينية والإيمان بوجود الله ، والاعتقاد مع وجود الله بحياة آخرة يُبعث فيها البشر ويحاسبون فيها على أعمالهم ، كما جاء فى محكم التنزيل : « فأما من طغى ، وآثر الحياة الدنيا ، فإن الجحيم هى المأوى . وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هى المأوى » .

فإن قلتَ : ألا يعمل الدين على تكوين الضمير عند أهل الغرب ، قلنا : لعلك تعلم أن الغربيين سرت بينهم فى القرن التاسع عشر وفى خلال هذا القرن موجة شديدة من الإلحاد ، ونرجو أن تعيد أحداث الحرب الأخيرة والكوارث التى تعرضت لها البشرية إليهم الإيمان والاعتقاد . ولهذا السبب أنكر علماؤهم حتى اليوم أن الضمير هو صوت الله ، ونصوا على ذلك فى كتبهم ، كما جاء فى كتاب برتراند رسل الذى ذكرت لك بعض رأيه .

ومع ذلك فقد قرأت لكاتب أمريكى هو ديل كارنيجى فى كتابه « دع الهم » يصف الوسائل التى يحسن اتباعها لتجنب القلق الذى يستبد بالمرء ، والهم الذى يتسلط عليه ، فكان من جملة وسائله اتباع « الإسلام » ــ فى نظره ــ الذى ينادى بالمقدور ، فلا داعى لخوف المرء من المستقبل ، ودوام القلق على المال

أو الصحة أو الولد ، ما دام كل شيء بأمر الله .

قصة شاب :

وهذه قصة شاب أذكرها لمناسبتها الشديدة للخوف من الضمير . جاءني هذا الشاب يشكو عدة أعراض منها عدم عدم القدرة على تركيز الذهن ، وعدم فهم ما يقرأ ، مع العلم أنه طالب بالبكالوريا ويرغب فى النجاح . وكانت سنه حول العشرين ، حسن البزة ، من أسرة ريفية متوسطة الحال تسخو فى الإنفاق عليه .

سألته عن أحواله الجنسية كيف يحل مشكلتها ، فأجاب أنه ينفق بعض الوقت مع بنات الهوى . ثم تبينت فى وجهه إشارة تدل على الاشمئزاز ، فعلمت أن هذا التقزز متصل بعلاقته الجنسية . واعترف أنه يقدم على هذا العمل بدافع الرغبة الحيوانية والشهوة البهيمية ، ولكنه يندم أشد الندم ، ويؤنبه ضميره أشد التأنيب ، ويعتقد أنه يرتكب إثما يعاقب عليه ، فضلا عن قذارة الفعلة .

وقد تعلم هذا الشاب تعليما دينيا منذ صغره ، فأصبح ضميره قائماً على تعاليم الإسلام التى تنهى عن الفحشاء والمنكر ، فظهر لذلك الصراع بين الرغبة الجنسية أو الأنا السفلى من

جهة ، وبين الضمير أو الأنا العليا من جهة أخرى ، فكان هذا الصراع علة اضطرابه .

فما علاج هذه الحالة ، وكيف الخروج من هذا الصراع النفسانى ؟

العلاج الذى نصحت به ، والذى أنصح به دائماً هو المبادرة بالزواج ، مهما تكن الظروف الاجتماعية أو الاقتصادية غير ملائمة .

وقد نادى برتراند رسل بعلاج آخر هو الصلة الحرة بين الفتيان والفتيات ، وهو الأمر الواقع غالباً فى أوربا اليوم ، غير أن هذا العلاج يحمل الشر بين طياته ، وهو سبيل فساد المجتمع ، وهدم كيان الأسرة ، ونذير انحلال الحضارة الغربية .

وإذا كنا لا نوافق « فرويد » على ما يذهب إليه من أن الأنا الأعلى يتكون من كبت الرغبات الجنسية فقط ، فمما لا نزاع فيه أن الصلة الجنسية تشغل تفكير جميع الناس ذكوراً وإناثاً ، وأن المجتمع والدين والتقاليد تفرض قيوداً على هذه الصلة ، وكثيراً ما يتحرج الآباء فى تفهيم أبنائهم حقيقة هذه العلاقة ، إلى درجة أن الرجل إذا تزوج شعر برهبة من زوجته حتى ليصاب بالضعف الجنسى ، وإلى درجة أن الزوجة تخشى زوجها فتتمنع أو تصاب بما يعرف بالبرود

الجنسي . وهذا شيء يتأصل بالتربية منذ الصغر فى الضمير ، ويعرف الخوف من هذا الجانب بالحياء . وقد درجت الأجيال المتعاقبة على تخويف البنت من العلاقة الجنسية .

وقد ظهرت منذ سنوات دعوة إلى تعليم التربية الجنسية حتى لا يفسد الضمير أو يختل ، وذلك بالتبسط فى تعليم علمى النبات والحيوان وما يشاهد فى الطبيعة من لقاح وتزاوج حتى تصبح المسألة الجنسية أمراً طبيعياً ، ويتبدد ما يحوطها من رهبة وخوف .

قصة العفريت :

وهذه قصة أخرى تبين الخوف من الضمير ، وكيف يسمع المرء أصواتاً تنهاه ، وهو المعروف عند العامة باسم « الوشوشة ».وهى قصة رواها «هادفيلد» فى كتاب الصحة النفسية قال « أصيب المريض بالخوف من الأماكن المفتوحة ، فى شارع ريجنت من أعمال لندن ، ذات يوم عند الغداء ، بدون سبب ظاهر . وتبين من التحليل النفسانى أن ضميره كان يؤنبه لأنه كان ينقطع عن عمله فى وظيفته الحكومية مدة ربع ساعة يقضيها فى مصالحه الخاصة . ولم يكن يصاب إلا حينما يرتكب شيئاً يخل بالكرامة أو الشرف ، وكان يسمع

فى الوقت نفسه صوتاً باطناً يقول له « احذر » . ولم يكن ذلك الصوت فى الواقع إلا صوت مربيته فى الطفولة التى كانت تعلمه أن الشيطان موجود فى ركن الغرفة ، وأن ذلك العفريت على استعداد لعقاب الأولاد الأشقياء . ولقد لمح العفريت فعلا ذات مرة ، فى شخص الطاهية التى لبست ثوباً مفزعاً ، واتخذت هيئة منكرة ، فصبغت وجهها بالفحم ، حتى تبث فى نفسه الرعب كى يقلع عن شقاوته . وامتثل بعد ذلك وأصبح جاداً فى سيرته ، واكتسب صلابة فى العزيمة وقوة فى الإرادة . ولم تكن هذه الإرادة إلا ستاراً رقيقاً يخفى وراءه مخاوف الطفولة التى كانت فى صراع دائم مع ضميره .

وسوف نحدثك حديث العفاريت والشياطين والخوف منها عند الكلام على مخاوف الشعوب .

الضمير فى الأحلام :

وأكثر ما ينكشف لنا الخوف من الضمير فى الأحلام ، ولو أن ذلك يكون على سبيل الرمز ، كما هى الحال عادة فى الرؤى .

حكى أدلر فى كتابه « ماذا تعنى الحياة » أنه كان فى

أثناء الحرب العظمى رئيس مستشفى الأمراض العصبية للجنود . وكان يعهد إلى الجنود الذين لا يرى فيهم حماسة الحرب أعمالا يسيرة فيرفع بذلك عن كاهلهم عبئاً عظيما . وجاء إليه ذات يوم جندى شديد البنية بادى الصحة ، وكانت تعلوه الكآبة والانقباض ، فلما فحصه لم يدر ماذا يعمل له ، وتحرج أن يأمر بسحبه من الميدان ، إذ كانت هذه الأوامر تعرض على ضابط أعلى منه . وأخيراً قال للجندى : « أنت عصبى ولكنك صحيح الجسم لا تشكو علة . وسوف أكل إليك عملا سهلا لا يحوجك إلى الذهاب إلى جبهة القتال . » فأجاب الجندى : « إننى طالب فقير ثم إنى أعول أبواى من أجر الدروس الخصوصية . وإذا لم أتكسب مات أبواى جوعاً » . وفكرت بعض الوقت وقلت فى بالى إذا أمرت بعودته إلى بلدته ليشغل وظيفة كتابية فقد يغضب رئيسى ويرسله إلى الجبهة . وأخيراً استقر عزمى على أن أكتب له شهادة أقرر فيها صلاحه للعمل . فلما عدت إلى دارى حلمت فى الليل حلما مزعجاً رأيت فيه أننى قاتل ، وكنت أجرى فى الظلام فى شوارع ضيقة أبحث عن ذلك الشخص الذى قتلته . ولم أستطع أن أتذكر ذلك الشخص ، ولكنى شعرت بأن حياتى قد انتهت ما دمت قد ارتكبت هذا القتل . وتسمرت فى

الحلم وتصببت عرقاً .

فلما استيقظت أخذت أفكر في ذلك الذى قتلته. وإذا بالفكرة تعاودنى عن ذلك الجندى ، وهى أننى إذا لم آمر بإرساله فى وظيفة كتابية فقد يرسلونه إلى الجبهة حيث يلقى حتفه .

فانظر إلى أى حد يخاف المرء ضميره حتى ليفزعه فى المنام .

ومن الطريف أن أدلر يكمل هذه القصة بخاتمة لم يكن يتوقعها ، إذ اتضح أن الشاب كان كاذباً فى دعواه التى ذكرها عن التكسب من الدروس الخصوصية للإنفاق على والديه ، وأنه كان على اتفاق مع الضابط الرئيس الذى أخذ منه رشوة ليحصل على تقرير الطبيب ، فلما كتب ينصح بعمل سهل ، أمر الضابط أن يعمل ستة شهور فى أحد المكاتب .

سوط القانون وسلطان القوة

تبين لنا من النظر إلى سلوك الفرد أن الخوف هو الدافع الأساسي فى سلوكه ، وهو الذى يدفعه إلى طلب الأمن ، وإلى تجنب الأخطار ، وذلك لحفظ الحياة . ورأينا أن ضروب الأمراض العصبية ترجع فى نهاية الأمر إلى الخوف المكبوت فى الصغر ، وأن الضمير الخلقى هو الرقيب الذى يخشاه كل إنسان صاحب ضمير يقظ حى ، فيحول بينه وبين ارتكاب الرذائل ، ولو لم يطلع على أعماله أحد ، خوفاً من الله ، أو رهبة من المجتمع ، أو خشية المساس بالمثل العليا التى ترفع المرء من مرتبة الحيوانية إلى الإنسانية .

فإذا انتقلنا من النظر إلى الفرد إلى النظر فى المجتمع ، رأينا أن الخوف كذلك هو الأساس الذى يقوم عليه المجتمع المنظم ، نعنى الدولة .

والقانون هو الدعامة التى تستند إليها الدولة وتقوم عليها . فهو الذى ينظم العلاقات بين الأفراد ، حتى تتبين الحدود بين الناس ، فلا يعتدى فرد على آخر ، ويمتنع الجور ،

وتستتب العدالة .

فإذا انعدمت القوانين من الدولة ، اختل النظام . وسادت الفوضى ، وعاد الناس إلى شريعة الغابة التي لا تدين إلا بالقوة والعدوان ، حتى ليرتد البشر . كما يقولون ، ذئاباً يفتك بعضهم ببعضهم الآخر ، وعندئذ يكون الخوف وحده هو الدافع إلى السلوك .

وقد ذهب أفلاطون مذهبين فى « المدينة الفاضلة » ، الأول حين كتب الجمهورية وجعل غايتها الخير ، ورأى أن السبيل إلى تحقيقه فى المدينة هو الحكمة أو المعرفة ، وذلك فى يد الحاكم الفيلسوف .

ولكنه عدل عن هذا المذهب فى آخر حياته ، بعد أن تبين أن العلم وحده ليس كافياً فى تحقيق العدل ، ونشر السعادة ، وبلوغ الخير لذلك ألف كتاب « النواميس » ، ذهب فيه إلى وجوب وضع القوانين المنظمة للعلاقات بين الأفراد ، بين الأب وأبنائه ، وبين الحاكم والمحكومين ، وبين أفراد الناس بعضهم وبعضهم الآخر . ورأى وجوب احترام هذه النواميس لصالح الدولة .

كيف ندفع الناس إلى احترام القانون ، والتعلق به ، والخضوع له ؟

هذه هي المشكلة التي واجهت أفلاطون ، ولا تزال تواجه المشرعين حتى اليوم .

أجاب أفلاطون : الثواب والعقاب .

أما العقاب ، كالإعدام والسجن والضرب ، فهي وسائل للإخافة أو الإرهاب وإرغام الخارجين على القانون على احترامه ، وضرب الأمثال لكل من تحدثه نفسه بالخروج على القانون للعظة والاعتبار .

وقد فرق أفلاطون بين نوعين من الخوف ، الأول الخوف من وقوع الألم ، والثاني الخوف من فقدان الكرامة ، وهذه الحالة إذا نزلت بالمرء سميت بالخجل .

قال أفلاطون على لسان أحد الأثينين في الكتاب الأول من النواميس ما فحواه : إن الحاكم وكل من يسعى إلى الخير يستفيد من هذا الحرف الثاني للتمسك بالشرف . والخوف من فقدان الكرامة هو الذي يحفظ أنفسنا من أمور كثيرة ، فهو الذي يدفع إلى النصر في الحروب ، لأن سبيل النصر على الأعداء إما الثقة بالنفس وإما الخوف من الفضيحة . لذلك يجب أن يخشى كل واحد منا ما يخدش الشرف ، فالخوف إذن محمود .

أما السبيل الآخر فهو الثواب أو المكافأة . والهدف من

المكافأة تحقيق اللذة ، والطريق إلى سوق الصبي أو الرجل إلى التعلق بالنظام هو الإقناع أو العلم .

الثواب والعقاب :

وكنت أتحدث مع أحد فقهاء القانون فى مصر عن السبيل إلى احترام القانون كيف نحث الناس عليه ، فقال : المكافأة . قلت له : ألا ترى أن الخوف هو الأساس الأول فى احترام القوانين ، فقال : المكافأة أوْلى ، وقد شرعت القوانين الخوف والرجاء ، والثواب والعقاب ، والوعد والوعيد ، وليست المكافأة كالعقوبة . .

قلت : مرجع الرجاء إلى الخوف ، ومرد الثواب إلى العقاب . لأن الخوف والأمن ، كاللذة والألم ، والجوع والشبع ، والرى والعطش ، والقوة والضعف ، من الأضداد التى لا يفهم أحدها بدون الآخر . وهنالك من يتبع القانون خوفاً من ألم العقاب ، ومَنْ يحترم القانون طلبا للذة المكافأة ، وهذا الذى يطلب اللذة وينشد الثواب إنما يفعل ذلك خشية فقدانها . فلا غرابة أن يكون المرجعُ فى الحالين هو الخوف ، غير أن أحدهما خوف من وقوع الألم ، والآخر خوف من فقدان اللذة .

وتختلف طبائع البشر ، فبعضها يتأدب بالوعد ، ويتأدب بعضها الآخر بالوعيد .

قالوا : العامة هى التى تساق بالعقاب ، والخاصة تحث بالثواب .

مهما يكن من شيء فلا بد عند وضع القوانين من النص على الجزاءات أو العقوبات التى تحث على اتباعها ، وتدفع إلى احترامها . وهذا هو الحادث فى المعاملات الجارية ، فإذا اتفقت مع شخص على شراء بيت بعشرة آلاف من الجنيهات ، ثم دفعتَ له جزءاً من ثمنها عند توقيع العقد الابتدائى ، فإنك تنص فى هذا العقد على أن كل من يَرْجع عن إتمام الصفقة ، فعليه أن يدفع غرامة ينص على مقدارها . فالخوف من دفع الغرامة هو الذى يدفع إلى احترام العقد ، وعدم الإخلال به .

فإن اعترض معترض وقال : إن الشعوب التى ارتقى أهلها بالعلم وانتشار الثقافة لا يقبل الناس فيها على احترام القانون رغبة أو رهبة ، بل لأنهم عرفوا قيمة النظام وفائدة القانون ، ويندر أن تطبق العقوبة . ثم إنك تحكم بالأقلية على الأكثرية ، وفى كل دولة قلة من الشواذ الخارجين على النظام والقانون ، وهؤلاء هم الذين تفرض عليهم العقوبات ، وتمتلىء بهم السجون .

ونقول فى الرد على هذا الاعتراض ما سبق أن قاله أفلاطون ، وهو أن العلم وحده ليس كافياً فى بلوغ الفضيلة، ولو أنه شرط فى حسن فهمها . أما أن العقوبة لا تطبق إلا على عدد قليل من الخارجين على القانون ، فهذا وحده يكفى فى إخافة سائر الناس ، لأن المقصود من العقاب ، إلى جانب أنه يردع المجرم ، أن يكون مثالا للعظة والاعتبار .

فالعبرة فى القانون أن يكون مُتَنفَّذاً ، قائماً كسيف ديموقليس المعلق ، مطبقاً فى الناس لتحقيق العدالة . ولعلك تعرف قصة ديموقليس الذى كان فى حاشية دنيس الحاكم المستبد ، وكان يحسده على استمتاعه بالحكم المطلق ، ويعتقد أنه فى غاية من السعادة . وأراد دنيس أن يبين لصاحبه حقيقة هذه السعادة المزعومة، فدعاه إلى أن يجلس مجلسه إلى مائدة الطعام ، وأمر الخدم أن يقوموا على خدمته . وامتلأ قلب ديموقليس بالفرح لهذه المعاملة ، حتى إذا رفع عينيه ، رأى فوق رأسه سيفاً حاداً معلقاً بشعرة دقيقة ، فنزل الخوف بقلبه ، وحل فى نفسه .

فالقانون هو السيف المعلق على الرقاب ، وهو على استعداد أن ينزل عقابه بكل من تحدثه نفسه بالخروج عليه .

رأى منتسكيو :

ولا ينكر أحد منزلة منتسكيو صاحب كتاب « روح الشرائع » ، فهو أفضل كتاب سياسى خرج فى القرن الثامن عشر ، ولا يزال العالم حتى اليوم يعيش على المبادئ الأساسية التى جاءت فيه ، وأهمها فصل السلطات .

ولقد أنفق منتسكيو نحو عشرين عاماً يجمع المادة اللازمة لتأليف كتابه ، فأخرجه عن تأمل عميق ونظر دقيق . وقال فى مقدمته : « لقد نظرت أول كل شىء إلى البشرية ، وخرجت من هذا النظر بأن الشرائع والتقاليد على اختلافها وتعددها ليست ثمرة النزوات والأوهام » .

القوانين ، كما يقول منتسكيو ، هى العلاقات الضرورية القائمة على طبيعة الأشياء ، فإذا أردت أن تعرف حقيقة المجتمع الإنسانى ، فعليك أن تبحث عن « روح الشرائع » وعن طبيعتها ، وعليك أن ترجع إلى أصولها ، وأن تتبع تطورها ، وتتلمس مبادئها التى تقوم عليها ، ووظائفها التى تؤديها .

وأول القوانين الطبيعية التى قامت عليها البشرية قبل

تحضرها ، طلب الأمن والسلام ، لأن نزعة الإنسان البدائى العظمى هى النجاة من الأخطار ، فالبدائى « يرتعد إذا تحرك الورق ، ويهرب من رؤية الشبح » . ولا يتخذ البدائى موقف العدوان إلا كما تفعل الذئاب ، إذا عضها الجوع بنابه ، أو عجزت عن الهرب من المآزق .

القانون الثانى هو صلة المرء بغيره لحاجته إلى المعونة . حقاً يدفع الخوف إلى الهرب من بنى جنسه ، ولكنه حين يرى غيره يتجنبه خوفاً منه كذلك ، يتبدد خوفه ، ثم يلجأ بعضهم إلى بعضهم الآخر ، ويجدون فى الاجتماع لذة . وتؤكد الصلة الجنسية الروابط بينهم ، وهذا هو القانون الثالث . وعندئذ تبدأ الرغبة العقلية فى الحياة الاجتماعية ، وهو القانون الرابع .

ويحدثنا منتسكيو بعد ذلك فيقول : « فى الوقت الذى يعيش فيه الإنسان معيشة اجتماعية ، يفقد شعوره بالضعف ، وتبطل المساواة ، وتبدأ حالة الحرب » . والحرب على ضربين : حرب بين الأفراد ، وحرب بين الشعوب . ذلك أن الفرد يتبدد خوفه ويطمئن إلى حياته الاجتماعية ، ويحاول أن يبسط شخصيته ، ويشعر بالقوة والرغبة فى التوسع ، فيعتدى على غيره ليملك كل شىء . والحال كذلك فى الشعوب التى تنسى

مخاوفها ، وتشعر بالأمن ، فتنقلب إلى العدوان ، وتنشأ الحروب . ولذلك ظهرت ثلاثة أنواع من القوانين ، قانون دولى ينظم العلاقة بين الشعوب ، وقانون سياسى يحدد العلاقة بين الحكومة والشعب ، وقانون مدنى يحكم بين الأفراد فى الشعب الواحد .

أهم أجزاء كتابه الكلام عن الحرية ، وعن فصل السلطات للاحتفاظ بالحريات السياسية واحترام القوانين . وتختص السلطة القضائية بعقاب المجرمين ، والفصل فى المنازعات بين الأفراد . وإذا اجتمعت السلطات فى يد واحدة اختفت الحرية ، وحل الاستبداد محلها ، وشاع الخوف فى الناس ، وانعدم العدل ، وولى الأمن .

نقول : لقد كان منتسكيو على حق عندما اكتشف أن الخوف هو القانون الطبيعى الذى يسود البشر قبل مدنيته . ونضيف إلى ذلك أن حضارة الإنسان غطاء رقيق لم يستطع أن يبدل من الفطرة التى ركبت فى البشر ، ولا تزال غرائزه هى هى ، والخوف هو أول هذه الغرائز الدافعة له فى سلوكه فهو الذى يدفعه إلى الهرب والحذر ، والاستعداد لدرء الخطر بصنع المنشآت المختلفة التى تهدف إلى تأمين الحياة .

بين الواقعية والمثالية :

وقد تمنى كثير من المفكرين والساسة والفلاسفة أن يحترم الناس القانون عن محبة لا عن خوف ، بل ذهب بعضهم إلى القول بعدم الحاجة إلى القوانين إذا ساد التعاطف بين الناس . وفى ذلك قال سعد زغلول فيما أحفظ عنه : «يعجبنى الصدق فى القول ، والإخلاص فى العمل ، وأن تقوم المحبة بين الناس مقام القانون» . وهذا مطمع طلبه المفكرون من قديم ، ولا يزال مطمحاً عزيز المنال ، أو أملا من قبيل المثال .

أما الواقع الذى نستقرئه من النظر فى تاريخ الشعوب ، ومشاهدة ما يجرى اليوم بيننا ، فهو أن الدولة لا تخلو من قوانين ، وأن القوانين ليست شيئاً بعيداً عن عادات القوم وتقاليدهم ، وأن قيمة القوانين فى تطبيقها على الأفراد ، ولا يمكن تطبيقها إلا إذا كانت نافذة ، ويعتمد نفاذها على القوة التى تطبق العقوبة دون تفضيل أحد على آخر مهما ترتفع منزلته أو تعظم ثروته ، مما يؤدى إلى إشاعة العدل وسيادة القانون .

وقد اختلف المؤرخون فى الحكم على عمر بن الخطاب أبالشدة والقسوة يصفونه أم بالعدل ، ونحن نرى أن عمر كان

مثال العدل فى تطبيق الشريعة الإسلامية ، والعمل على تثبيت قواعد هذا النظام الجديد . يروى أنه أقام الحد على شارب خمر فمات قبل تمام الثمانين جلدة ، فلم يمنعه الموت من الاستمرار فى الجلد . هذه السيرة العادلة فى تنفيذ قرانين الإسلام هى التى أفضت إلى ابتعاد المسلمين فى عهده عن ارتكاب الرذائل ، وإلى التزام الحدود المشروعة ، أو احترام القانون .

وقولنا احترام القانون يتضمن الخوف منه ، لأن الاحترام علاقة وجدانية تقوم على عواطف كثيرة منها الخوف والحب والإعجاب .

جملة القول إن الإنسان ما دام مركباً من طبائع مختلفة ، إلى جانب ما فيه من عقل ، ومن هذه الطبائع الأثرة والطمع والحسد والميل إلى السيطرة والتطلع إلى النفوذ والسلطان، فلا بد من وجود القوانين التى تحد من الأثرة ، وتقف فى سبيل المطامع ، وترد صاحب العدوان الذى يبغى بسط نفوذه وسلطانه بالقوة وحد السلاح . ولذلك كانت المثالية التى ينشدها بعض الفلاسفة فى مدنهم الفاضلة حيث ينعدم القانون ، أو يقوم على المحبة وحدها ، مطلباً عزيز المنال ، مادام البشر مركباً من هذه الطبائع التى ذكرناها .

الخوف بين الدول :

ولننقل الآن الحديث عن علاقة الأفراد فى ظل قانون الدولة ، إلى الخوف بين الدول .

والحق أن الخوف كما أنه أساس حفظ الحياة بالنسبة إلى الفرد ، فهو المحور الذى يدور عليه كيان الدول . وقد حدثنا منتسكيو عن الحروب الدولية وكيف تنشب عن الطمع والعدوان وبغى الدولة التى تعتز بقوتها . وتنبه دارون من مشاهداته الطبيعية إلى أن الصراع بين الأحياء هو سر الوجود فى عالم النبات وعالم الحيوان . ويخضع الإنسان كذلك لهذا المبدأ لأنه حيوان ، ولكنه عاقل . والعقل فى الإنسان ينظم علاقاته ، ولكنه لا يلغى الجوانب الحيوانية فى البشر . فلا غرابة أن يخضع الإنسان لهذا المبدأ الطبيعى ، ولذلك كانت حياة الدول دائمة الصراع ، متصلة النزاع ، ويشهد التاريخ بهذه الحقيقة ، كما يشهد الحاضر الذى نعاصره ونعيش فى أحداثه .

ولا صراع بدون عدوان ، وعندئذ ينزل الخوف فى النفوس ويحل الرعب فى القلوب . فلما ذاق الناس طعم الحروب ، وجربوا أهوالها ، أضحوا يخافون وقوعها ، ويعيشون فى همٍّ

دائم ، وقلق مستمر ، خشية وقوع الحرب . ويقولون إن حالة القلق السائدة فى الناس اليوم هى أثر « الحرب الباردة » أو « حرب الأعصاب » ، وهذا لون جديد من ألوان الحروب يعرف باسم الحرب السيكولوجية ، لأنه يستند إلى دراسة طبائع النفس البشرية ، وما ركبت عليه من الخوف والفزع والقلق ، وأثر ذلك فى انهيار العزيمة ، واضطراب التفكير ، وطيش السلوك ، والإسراع بالخضوع .

وقد أصبحت الحروب الحديثة شديدة الفتك ، مخيفة حقاً ، مع اختراع القنابل الذرية وغيرها من الأسلحة المبيدة للبشر . لذلك قام روزفلت يريد إنقاذ الإنسانية ، ونشر السلام ، وإقرار الأمن ، فأعلن حقوق الإنسان الأساسية ، أو الحريات الأربع ، وهى :

التحرر من الفقر أو العوز .

التحرر من الخوف .

حرية الفكر .

حرية العقيدة .

ونحن نرى لأول مرة فى التاريخ الحديث إعلان حق التحرر من الخوف .

والذى أذهب إليه ، هو أن هذه الحريات الأربع ترجع

جميعاً إلى حرية واحدة ، هى التحرر من الخوف . وإنما أراد الرئيس روزفلت تقسيمها على سبيل التنظيم ، لأن مراعاة الظروف السياسية فى وقت إعلان هذه الحقوق اقتضت هذا التحديد .

ولا ريب فى أن اعتداء دولة على دولة أخرى بقوة السلاح ، مما يجعل الشعوب تعيش فى خوف وقلق ، فيحس أهلها بعدم الاستقرار وفقدان الطمأنينة ، ولا يتيسر لهم مع هذا القلق التفرغ للعمل والإنتاج ، وإقامة العمران وبث الحضارة ، والتفكير السليم ، والشعور بالسعادة .

وفى هذا العدوان رجوع بالإنسانية إلى شريعة الغاب ، ووحشية الذئاب . وقد كانت الحروب إلى عهد قريب خاضعة لآداب تواضعت الإنسانية على احترامها ، فلا تنتهك حرمة الأمن ، أو يفتك بالضعيف ، أو يهاجم الأعزل من السلاح ، لأن الحرب كانت تقع بين الجيوش لا بين الأهالى الوادعين .

أما اليوم ، بعد الحرب العالمية الأخيرة ، فلم يعد يسلم من الاعتداء شيخ عجوز ، أو طفل رضيع ، لأن القنابل التى تلقى من الطائرات لا تفرق بين الرجال والنساء ، أو الأقوياء والضعفاء . بل لقد أصبحت الإنسانية بأسرها مهددة

بالفناء ، إذا استعملت الأسلحة الذرية المبيدة للأحياء .

فالخوف على مستقبل الإنسانية هو الذي دعا إلى إعلان هذا الحق الجديد ، حق التحرر من الخوف ، نعنى خوف الشعوب المحبة للسلام من الشعوب المؤثرة للعدوان .

وقد رأينا أن فائدة القوانين المشرعة فى داخل الدولة ، إقامة العدل بين الناس ، وحفظ الحدود بين الأفراد ، حتى لا يعتدى القوى على الضعيف . وشرعت الجزاءات إلى جانب القوانين لتأديب المعتدين وإرهابهم وجعلهم قدوة لغيرهم . فلا بد من تشريع قانون دولى ينظم العلاقات بين الدول ، ويمنع اعتداء بعضها على بعضها الآخر .

وقد أسلفنا القول أن المرء بإزاء الخطر يفعل أحد أمور ثلاثة إما الهرب ، وإما الخضوع والاستسلام ، وإما الهجوم على الخطر للقضاء عليه بالقوة . والحال كذلك فى الجماعات ، فهى إما أن تهرب عند الخوف فتهجر بلادها وأوطانها وتهاجر إلى مواطن أخرى أكثر أمناً . وإما أن ترضى بالذل فتستسلم : وإما أن تثور لرد الاعتداء ، وعندئذ ترخص الأرواح ، وتسيل الدماء . وقد لخص على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، هذا المعنى ، عندما غلب أصحاب معاوية أصحابه على شريعة الفرات بصفين ، ومنعوهم من الماء . وقال :

« قد استطعموكم القتال ، فأقروا على مذلة ، وتأخير محلة ، أو رووا السيوف من الدماء ، ترووا من الماء ، فالموت فى حياتكم مقهورين ، والحياة فى موتكم قاهرين » .

الخوف من الفقر :

الأصل فى الفقر لغة الاحتياج ، وفى اللغة الأجنبية Fear from want ، ونقلناها الفقر أو العوز . وأول حاجات الإنسان التى يفتقر إليها الطعام ، لأنه يقيم الأود ، ويحفظ الحياة . ولذلك أطلق الفقر على قلة الأقوات والملبس والمأوى ، وهى أهم الحاجات . ولا نزاع فى أن انعدام القوات أو نقصه مما يدعو إلى خوف المرء على حياته . ولذلك جمع الله بين الخوف والفقر ، وقرن الطعام بالأمن . قال تعالى : « أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » . وجاء فى سورة البقرة : « ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين » . ونجد هذا المعنى نفسه فى سورة النحل حيث يقول سبحانه : « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » .

فالخوف من ذهاب النعمة يدفع إلى الإيمان بالله ، وإلى

الدعاء والذكر ، وإلى الحمد والشكر . وقد يدفع الجوع إلى الكفر ، لا بنعمة الله فقط ، بل بالله الواحد القهار . ومن أقوال العامة : « الجوع كافر » .

وتروى كتب التاريخ أن القحط حين اشتد نابه فى حكم المستنصر ، أكل الناس الخيل والقطط والكلاب حتى نفدت جميع الحيوانات . ثم أكل الإنسان لحم أخيه ، على المعنى الواقعى لا المعنى المجازى ، فكانوا يخطفون الماشى فى الطريق بالكلابات من فوق أسطح البيوت ، ويأكلون لحمه كما تؤكل الأغنام . ولعلك تتصور مدى خوف الناس فى تلك الأيام .

ولنرجع إلى حديث التحرر من الفقر ، وبيان صلة هذه الحرية بالخوف .

فقد تبين لقادة العصر الحاضر أن الحريات التى أعلنتها الثورة الفرنسية فى أواخر القرن الثانى عشر ، وهى الحرية والإخاء والمساواة ، لا يمكن أن تتحقق إلا إذا تحددت تحديداً مادياً يتصل بالكسب والعمل والحصول على المال .

وقد دفع الخوف من الفقر الناس إلى قتل أبنائهم ، كما قال تعالى ينهى العرب فى الجاهلية عن وأد النبات : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق » . والحاجة هى التى دفعتهم إلى بيع الأولاد فى الأسواق ، فكان ذلك من أسباب ظهور

الرقيق . وقد ساد الرق فى قديم الزمان ، وكان الناس يباعون كما تباع الأغنام . وكان المماليك الذين حكموا مصر يشترون من أسواق التركستان وغيرها . وظلت أسواق العبيد السود قائمة إلى عهد قريب . حتى انتشرت فى القرن الماضى حركة إنسانية تهدف إلى تحريم الرق ، ونشبت حرب التحرير فى الولايات المتحدة ، وانتصر دعاة التحريم ، وأصبح ذلك جزءاً من شرائع العالم .

فهل حقاً ذهب الرق إلى غير رجعة ، وانتهى استغلال الإنسان للإنسان ، وأصبح آمناً على حياته ، لا يخشى أن يشترى ويباع .

الواقع لا يزال الرق موجوداً فى صورتين ، الأولى الاستعمار الدولى ، وهو اعتداء الدول القوية على الدول الضعيفة لاستغلال مواردها وأهلها ، ولذلك كان الاستغلال الاقتصادى من أهم أسباب الحروب .

والثانية احتكار الشركات وأصحاب الأعمال للعمل ، بحيث لا يستطيع المرء أن يعمل لكسب معاشه إلا إذا خضع لشروط هذه الشركات وأصحاب المال ، فيضطر إلى قبول الأجور المفروضة حتى لا يتعرض للموت جوعاً .

فالخوف هو الذى يدفع العمال والموظفين إلى قبول هذه الأجور.

ولما كانت هذه الأجور لا تكاد تفى بالقوت الضرورى الذى يقيم الأود من يوم ليوم ، تدخلت الحكومات ، فشرعت الحد الأدنى للأجور ، ونظام التأمين الاجتماعى فى أحوال العجز والمرض والشيخوخة ، وما إلى ذلك من التشريعات العمالية . والعلة فى تدخل الحكومات لتشريع هذه القوانين هو الصالح العام ، لأن المزارع أو العامل أو الموظف ، إذا كان دائم الخوف على مستقبله ، ومستقبل أولاده وأسرته ، ظل مشغول البال ، فلا يحسن القيام بالعمل المنوط به ، ويقل إنتاجه . فالخوف من أعظم العوامل فى ضعف الإنتاج ، وقد يؤدى إلى التوقف والشلل .

الخوف والفقر والفكر :

وهناك صلة أخرى بين الفقر ، نعنى الحاجة والعوز ، وبين حرية القول والحرية السياسية بوجه خاص ، مما يدل على تداخل الحريات ، ورجوعها طبقاً للمذهب الذى ندعو له إلى الخوف .

فلا وجود للحرية السياسية إذا فقد الأمن الاقتصادى . ومن المعروف أن الإنسان عبد الإحسان . قيل لما فتح المعز لدين الله الفاطمى مصر ، وحضر مع أهله وبيته إلى القاهرة ،

سأله الناس عن حقيقة نسبه من السيدة فاطمة رضى الله عنها ، فنثر عليهم الذهب بيمينه ، وأخرج سيفه من غمده بشماله وقال لهم : هذا حسبى ، وهذا نسبى . فكان للذهب سحر وتأثير وسلطان أقوى من سلطان الحراب والإرهاب .

ولا يزال سلطان المال مسلطاً اليوم على العقول والأقلام ، يسوقها بالرغبة والرهبة ، والخوف والرجاء .

ذلك أن منابر الرأى فى العصر الحاضر هى الصحف والمجلات والكتب والسينما والراديو ، وهذه كلها خاضعة لرقابة الحكومات الدكتاتورية تتحكم فيها كيف تشاء ، أو مسيرة بسلطان رجال المال فى الدول الديمقراطية يحركونها من وراء ستار . ولذلك يخشى الكاتب إبداء رأيه بما يخالف سياسة هؤلاء القوم ، حتى لا يحرم نفسه من مورد الرزق .

فلا غرابة أن تجد الأقلام مسخرة لخدمة الأغراض والأهواء ، إما رغبة فى الحصول على المال ، وإما خوفاً من فقدانه .

نخلص من ذلك كله إلى أن حرية الرأى لا يمكن أن تكفل حقاً إلا إذا أمن الناس على حياتهم الاقتصادية ، لأن الأمن الاقتصادى يؤدى إلى الأمن الاجتماعى ، وهو الذى يحرر من الخوف .

لهذا صح عندنا أن يكون مرد سائر الحقوق إلى حق واحد هو الحق فى الأمن ، وإلى حرية واحدة هى التحرر من الخوف .

إقرار السلام :

وقد ارتفعت هذه الحريات إلى مرتبة العموم ، فأصبحت تشمل العالم بأسره ، واعتنقتها سائر الدول بعد أن ذللت طرق المواصلات سبيل اتصال الشعوب بعضها ببعضها الآخر ، وأخذت الإنسانية تسير نحو « عالم واحد » . ومن ثم أصبح من الضرورى تنظيم الأمن الدولى ، وإعادة النظر فى القانون الدولى .

حدث ذلك فى عصبة الأمم التى أنشئت بعد الحرب الكبرى الماضية التى تبين مبلغ خطرها على أرواح الجند والمدنيين ، واستعملت الغازات السامة ، وألقيت القنابل من الطائرات ، وأصبح كل فرد مهدداً تهديداً مباشراً فى حياته .

ونصت العصبة على عقوبات ثلاث تنزلها فى حالة اعتداء دولة على دولة أخرى بقوة السلاح ، وهى الطرد من عصبة الأمم ، وتوقيع الجزاءات الاقتصادية ، وتوقيع الجزاء الحربى .

ولا ريب أن العزلة الدولية مخوفة ، لأن الأصل فى البشر

الاجتماع . انظر إلى الطفل إذا خاصمه أقرانه كيف يؤثر ذلك فى نفسه ، فتلين عريكته ، ويطلب الصلح بأى ثمن ، حتى يلعب مع أترابه ويتعامل وإياهم .

والعقوبة الاقتصادية تخويف بالفقر . وهذا ما لجأت إليه دول الجامعة العربية فى مقاطعة دولة إسرائيل اقتصادياً ، فكان لهذه العقوبة أعظم الأثر فى الدولة الناشئة .

وقد تبين أن الدول الراغبة فى العدوان لم تحفل بالطرد من العصبة ، ولم تأبه للعقوبات الاقتصادية ، كما حدث فى حرب إيطاليا والحبشة . فانهارت عصبة الأمم ، ولم تعد أداة صالحة لحفظ الأمن الدولى . وبقيت الدول فى خوف من الاعتداء عليها ، ورأت من واجبها الدفاع عن نفسها ، وتسابقت الدول فى التسليح ، ووقعت الحرب العالمية الأخيرة .

وقد استفادت هيئة الأمم المتحدة ، ومجلس الأمن ، وهو المنظمة التابعة لهذه الهيئة ، الخاص بإقرار السلام ، من الفشل الذى منيت به عصبة الأمم ، فخصص ميثاق الأمم المتحدة الفصل السابع لتدابير القمع ، « وفيما يتخذ من الأعمال فى حالات تهديد السلم ، والإخلال بها ، ووقوع العدوان » . وأهم ما فى هذه التدابير وقف الاعتداء بحد السلاح وسلطان القوة ، وهذا ما فعلته أمريكا والدول التى أيدتها فى رد اعتداء

كوريا الشمالية بالقوة المسلحة ، ولا تزال الحرب دائرة حتى الآن.

وهكذا تبين أن وقف العدوان لا يكون إلا بسلطان القوة ، وأن احترام القانون الدولى محتاج إلى « قوة بوليسية » تحميه وترهب من تحدثه نفسه بالاعتداء عليه ، كما هى الحال فى وجود بوليس يحفظ الأمن فى داخل كل دولة .

كأن تنظيم القوانين الدولية واحترامها ونفاذها لا يتم إلا بقانون عقوبات . وهذا شيء جديد فى الكيان الدولى ، إذ كان المعروف حتى عام ١٩١٩ أن تدخل دولة فى عمل دولة أخرى ليس مشروعاً . أما اليوم فيعدون الدول بأسرها داخلة فى نطاق دولة واحدة .

بعض مخاوف الشعوب

تسود الشعوب مخاوف تنتقل من جيل إلى جيل وتصبح على مر الزمان من جملة التقاليد . وإذا تتبعنا كثيراً من المخاوف الشعبية الحاضرة ، رأينا أنها ميراث الإنسان البدائى ، وفى ذلك يقول نيتشه : « إننا نعيش على آثار العواطف الأولى التى انفعل بها أجدادنا فى العصور البدائية » .

ولم يكن يعرف الإنسان البدائى إلا الظاهر المحسوس ، حتى إن مشاعره الباطنة ، والرؤى التى يراها فى أحلامه ، لا تفترق عما يشاهده فى الظاهر . فالكون بأسره ، سواء أكان ذلك الشمس التى تجرى من الشرق إلى الغرب ، أم السحاب الذى تسوقه الرياح ، أم المطر الذى ينزل من السحاب ، أم الشجر الذى ينمو شيئاً فشيئاً مع الأيام ، أم الحيوان الذى يدب على ظهر الأرض ، جميع هذه المظاهر تحركها قوى مادية خفية أشبه بذلك القرين الذى اكتشفه فى نفسه حين رأى خياله فى ماء النهر أو البحيرة فعرف نفسه ، وعرف أنه مصدر ما فعل . ووجد ظله يلازمه ولا يفترق عنه ، فهو قرينه

يبدو له كالشبح ، ولا يستطيع أن يلمسه كما يلمس الأشياء الخارجية . ثم ذهب إلى القول بوجود روح خفية هى التى تحركه ، وتدفعه إلى العمل . واعتقد أن كل شىء فى هذا الوجود تدفعه إلى الحركة قوة خفية كهذه الروح التى اكتشفها فى نفسه . ثم جسّم هذه القوى الخفية حتى جعلها فائقة على الطبيعة المألوفة . ثم توجه إلى هذه القوى التى رهبها وخشى منها بالرجاء ، والتمس منها العون بالدعاء ، ودفع شرها عنه بالقربان والابتهال والاحتفال .

الخوف من السحر :

ونشأ السحر عن الاعتقاد فى وجود هذه القوى القادرة على الخير والشر . ورتب البدائيون حياتهم وأعمالهم مخضعين إياها لهذه القوى ، وأوجبوا على أنفسهم دفع شرها بأعمال سحرية تضادها ، وتبطل أثرها السيئ .

ويحكى علماء الاجتماع كثيراً من المشاهدات التى تؤيد ذلك . عندما يطارد رجل من شعب « الجلياك » صيداً فى الغابة ، يمتنع أهله وأولاده وهم فى داخل الدار من الرسم على الخشب أو الرمل ، ذلك لأنهم يخشون أن تضطرب الطرق فى الغابة ، وتختلط المسالك تبعاً لاختلاط الخطوط فى

الرسوم ، حتى ليفقد الصائد طريقه ويضل ، ويعجز عن العودة إلى أهله .

ومما يروى عن نساء « الدياك » امتناعهن عن المساس بأى مادة شحمية لزجة ، إذا كان أزواجهن فى الصيد ، حتى لا تنزلق الفريسة من بين أصابع أزواجهن .

ويخشى نساء « الهوتنتوت » على أزواجهن إذا كانوا فى رحلة الصيد أن يمسهم الضر ، فيشعلن ناراً تظل موقدة لا تخبو ؛ أو يذهبن إلى شاطئ النهر يعبثن بالماء دون توقف ، فإذا توقفن عن إشعال النار أو العبث بالماء ، وقع الأزواج فى أعظم الخطر .

ويعتقد البدائيون أن هذه الأعمال تدفع عنهم الأذى وتبعد الشر . ثم استغل بعض المهرة منهم هذا الاعتقاد فى أعمال السحر التى تعرف باسم « السحر الأسود » . فكان أعظم ما يخشاه البدائيون ويرهبون جانبه هو الساحر الذى يستطيع بقوته السحرية أن يصنع من الطين على هيئة العدو ، ثم يطعنه فى موضع القلب ، فإذا بغريمه يقع صريعاً ، على بعد المسافة واختلاف المكان . ويروى مالينوفسكى العالم الاجتماعى أنه شاهد أحد هؤلاء السحرة يضرب بسيفه فى الهواء ، كأنه يثير خصمه ، ويبعث فى نفسه الرعب ، وليس الذى أمامه إلا تمثالا .

ولا يقف الخصم إذا عرف بهذه الأعمال السحرية مكتوف الأيدى ، إذ يلجأ إلى ساحر آخر يعمل على إبطال ذلك السحر ، فإذا لم يجد استسلم للقضاء والقدر ، وامتنع عن تناول الطعام حتى يموت .

ولا تزال هذه الأعمال السحرية شائعة فى مصر بين العامة من الناس ، وفى الريف بوجه خاص ، ويربح السحرة من هذه المهنة الكثير من المال يبتزونه من السذج وأصحاب العقليات البدائية .

ومما يتصل بهذا الباب أن كثيراً من الناس يخشون أن يتركوا شيئاً من خاصة أبدانهم كالشعر أو الأظافر ، لأنها إذا وقعت فى يد عدو لهم ، قرأ عليها العزائم السحرية فأضرت بهم . وهذا أثر من عقائد البدائيين لا يزال يسرى فى العامة حتى اليوم . وفى اصطلاح القوم أن كل ما يتعلق بالإنسان سواء أكان ذلك خصلة من شعره ، أو قلامة من ظفره ، أو رقعة من ثيابه ، أو شيئاً من هذه الأشياء التى يستعملها ، فهو « الأثر » ، وينطقه العامة محرفاً فيقولون : « الأطر » . وإذا ذهبت اليوم إلى شخص ممن يزعم الاطلاع على الغيب أو عمل السحر طلب « منديل » الشخص الذى تريد أن تسحر له

الخوف من الجن :

وكلما انتشر العلم والتعليم تبددت هذه المخاوف التى تشيع مع انتشار الجهل . وقد كانت أكثر انتشاراً فى القرن الماضى منها اليوم . وروى إدوارد لين فى كتابه عن مصر فى القرن التاسع عشر عدة فصول عن الخرافات والسحر ، وذكر حكايات كثيرة شاهدها بنفسه ، أو سمعها عن أصدقائه . حكى له الشيخ خليل المدابغى وهو من أشهر علماء مصر فى ذلك الحين الحكاية الآتية : « كان له قط أسود عزيز ينام عند سريره . وسمع فى منتصف إحدى الليالى طرقاً على باب داره فقام القط ، وفتح مصراع الشباك ، وهتف : من ؟ فأجابه صوت : أنا فلان الجنى ، افتح الباب . فقال القط : إن المزلاج قد قرئ عليه اسم الله. فقال الجنى : اعطنى رغيفين من الخبز . فأجاب القط ، إن سلة الخبز سمى عليها . ثم أشار عليه القط أن يذهب إلى البيت المجاور . . . » .

ومغزى هذه الحكاية الاعتقاد فى تشكل الجن بأشكال الحيوانات وبخاصة القطط والكلاب .

ويذهب الجاحظ فى كتاب الحيوان مذهباً معقولا فى تعليل الاعتقاد بالجن والغول والعفاريت . فهو يرجع ذلك

إلى الوحشة من الانفراد والعزلة ، وإلى ميل بعض الناس إلى الكذب والتهويل . قال : إن أصل الأمر فى تغول الغيلان أن القوم لما نزلوا بلاد الوحش عملت فيهم الوحشة . ومن انفرد وطال مقامه فى البلاد والخلاء والبعد من الإنس استوحش .

وإذا استوحش الإنسان تمثل له الشيء الصغير فى صورة الكبير ، وارتاب ، وتفرق ذهنه ، فرأى ما لا يرى ، وسمع ما لا يسمع ، وتوهم على الشيء اليسير الحقير أنه عظيم جليل .

ثم جعلوا ما تصور لهم من ذلك شعراً تناشدوه ، وأحاديث توارثوها ، فازدادوا بذلك إيماناً ، ونشأ عليه الناشيء ، وربى به الطفل ، فصار أحدهم حين يتوسط الفيافى ، وتشتمل عليه الغيطان فى الليالى الحنادس ، فعند أول وحشة وفزعة ، وعند صياح بوم ومجاوبة صدى ، وقد رأى كل باطل ، وتوهم كل زور ، وربما كان فى أصل الخلق والطبيعة كذاباً نفاجاً ، وصاحب تشنيع وتهويل ، فيقول فى ذلك من الشعر على هذه الصفة ، فعند ذلك يقول : رأيت الغيلان ، وكلمت السعلاة . ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول قتلتها ! ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول رافقتها ! ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول : تزوجتها .

قال عبيد بن أيوب :

فلله در الغـــول أى رفيقه لصاحب قفر خائف متقتر

ومما زادهم فى هذا الباب ، وأغراهم به ، ومد لهم فيه ، أنهم ليس يلقون بهذه الأشعار ، وبهذه الأخبار ، إلا أعرابياً مثلهم ، وإلا عامياً ، لم يأخذ نفسه قط بتمييز ما يستوجب التكذيب والتصديق ، أو الشك ، ولم يسلك سبيل التوقف والتثبت فى هذه الأجناس قط .

فانظر كيف نسب الجاحظ الاعتقاد فى الجن إلى الخوف . ثم إلى الكذب والتهويل ، ثم إلى الجهل . والجهل كما ذكرنا أول مصادر الخوف .

وقد أدى انتشار الجهل فى عصور التأخر والانحطاط إلى تصور أن الجن كائنات متوسطة بين الملائكة والإنس . وأنها تتشكل على هيئة الطير والبهائم والوحش والناس ، وتستطيع أن تختفى حين تريد . وزعموا أنها تسكن جبال قاف ، ثم قالوا : ومنهم الكفرة ومنهم المؤمنون ، أما الكفار فهم الشياطين والأبالسة .

ومن سوء تربية الآباء لأبنائهم أن يعملوا على تخويفهم بالعفاريت فينشأ الأطفال على الفزع والجبن . وكنت أسمع وأنا صبى صغير أقاصيص الجن والعفاريت من الخدم ، ومن امرأة عجوز كانت تزورنا ، وتبيت عندنا الليلة أو الليلتين ،

تقضيهما فى السمر إذا جاء المساء . فإذا دب أحد الأطفال على أرض الغرفة قالت له رفقاً بسكان المكان . وكانت لهذه الأقاصيص فتنة فى عقولنا الصغيرة ، فهى تبعث على الخوف ، وتدفع مع الخوف إلى التهويل ، وتؤدى مع التهويل إلى فسحة من الخيال الخصب الذى يزخر بالرؤى فى اليقظة ، والأحلام فى المنام .

ولا تحسبن أن هذه الخرافات العجيبة وقف على العرب والمسلمين ، فهى شائعة فى الجنس البشرى بأسره فى عصوره البدائية . ويمتلىء الأدب اليونانى القديم بأساطير الجن والشياطين . وزعم الجرمان أن الغابات فى ابتداء أمرها كانت عامرة بالشياطين والمردة والجن والعرائس ، حتى لقد انبثت هذه الجن والشياطين فى موسيقى المحدثين من الجرمان مثل فاجنر وموزارت . وهذا سر روعتها ، لأنها تثير فى النفس ما رسب فيها من مخاوف ومشاعر استقرت منذ أجيال وأجيال .

ومن الغريب أن يعتقد جيته هذا الاعتقاد ، مع أنه من جملة فلاسفة القرن التاسع عشر الذين كانوا يؤمنون بالعلم وسطوته ، والعقل وقوته . إلا أنه عجز عن تفسير العبقرية ، وذهب فى تعليلها مذهب العرب الذين كانوا يقولون بشيطان الشعراء .

كتب جيته فى هذا المعنى يقول :

كثيراً ما تجد سيرة المرء تتحول فى منتصف عمره . وبعد أن كان مؤيداً فى شبابه فيقبل من نجاح إلى نجاح آخر ، إذا به يتغير فجأة فتلاحقه البلايا ، ويقبل من نحس إلى نحس آخر . وأزيدك بفكرتى بياناً فأقول : إن المرء لا يكاد يصل حتى يتحطم ، ولكل عبقرى رسالة خاصة. لا تزال تلح عليه فى إبلاغها ، حتى إذا أتمها لم تعد به حاجة إلى أن يعيش فى هذه الصورة التى يعيشها على ظهر الأرض . ولما كان كل شىء على ظهر الأرض خاضعاً للقوى الطبيعية ، فإن الجن لا تزال تعلو بالعبقرى ثم تتركه فيهوى . كان ذلك هو الحال مع نابليون ، ومع روفائيل ، ومع موزارت فى سن السادسة والثلاثين .

فإذا سلمنا بهذا المذهب رأينا أن الذى يتملكه الشيطان ، إما أن يطمئن إليه ، فيركب على أجنحته ، ويحمله على الخلق والإبداع وإحداث المعجزات والخوارق ، وإما أن يفزع منه ويرهبه ، فيهوى ، وتسوء حاله ، وتضطرب حياته .

أقول : ليس الشيطان الذى اطمأن إليه جيته ، وفزع منه ، إلا الضمير أو الأنا العليا تارة ، والأنا السفلى أو النفس الأمارة

بالسوء تارة أخرى . هذا إذا أخذنا بمذهب أصحاب التحليل .
أو قل إن الإنسان يخاف نفسه ، حين يعتقد أنه مركب من
جسد وروح ، كما ذهب البدائيون إلى أن سائر الكائنات
تحركها أرواح كهذه الروح التى تحرك الإنسان .

وزعم حكماء الهند أن النوم ينشأ من انفصال النفس عن
عن الجسد ، وجاء فى أحد كتبهم المقدسة : « لا يوقظن أحد
نائماً إيقاظاً مفاجئاً عنيفاً ، حتى لا تضل الروح ، فلا تعرف
طريقها إلى جسدها » .

الخوف من الحسد والعين :

وكان قدماء المصريين يعتقدون فى وجود الأرواح الشريرة ،
وفى أنها مصدر الشر والضرر الذى ينزل بالناس ، فخشوا
بأسها ، ورهبوا جانبها ، واستعانوا على طردها ، وإبعاد شرها ،
بضروب من التعاويذ والرقى والتمائم . ذكر « بريستد » قصة
أم والهة ترقى ولدها ، وتريد أن تبعد عنه الشياطين ، قالت
ما ترجمته عن أوراق البردى :

اخرج يا من تأتى فى الظلام وتدخل خلسة .
هل أتيت لتقبل هذا الطفل .
لن أسمح لك بتقبيله .

هل أتيت لتأخذه ؟ .
لن أسمح لك بأخذه منى
لقد حصنته منك بعشب إفيت الذى يؤلمك .
وبالبصل الذى يؤذيك .
وبالشهد الحلو فى فم الأحياء المر فى فم الأموات .

وقد انحدرت عادة الرقية عن قدماء المصريين واحتفظ بها الشعب فى جملة تقاليده حتى اليوم ، وفى يوم عاشوراء المبارك يتجول بائع الرقية ، وهى مكونه من ملح وكزبرة وحبة سوداء ، منادياً : « يا بركة عاشوراء المبارك » . فإذا دعى للرقية أنزل صينية وباع منها مقداراً بحسب طلب الشارى ، وهو ينشد العبارات المألوفة : « أرقيك من عين الولد أحمى من الزرد ، ومن عين الراجل أحد من المناجل . . . » .

والمقصود بالعين فى هذه الرقية عين الحسود ، ولذلك قالت العامة : « عين الحسود فيها عود » . والأصل فى الحسد أن نظرة العين تصيب الإنسان أو الحيوان أو المتاع بالضرر ، ولا يكاد بصر الحاسد يقع على الطفل حتى يموت ، أو الدابة فإذا بها تنفق ، أو التجارة فتكسد وتبور . ويحكى الفلاحون فى الريف عن ناس اشتهروا بالحسد ، واختصت عيونهم بهذا الضرب من القوة الشريرة الخفية ، فلا تقع عين

الواحد منهم على بقرة جاره الحلوب حتى يجف لبنها، أو تصاب بالمرض ثم تموت . فلا غرو أن يخشى العامة عين الحسود . وهذه هى العلة فى تخفى الناس عن الأعين عند تناول الطعام ، نعنى خوف الحسد ، ويقولون فى ذلك إن الحاسد يتمنى أن ينزل الطعام فى جوف آكله سما زعافا .

وقد يدفع بعض الناس شر الحسد بقراءة المعوذتين ، التعوذ بالله رب الناس ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس . أو التعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب ومن شر النفاثات فى العقد ومن شر حاسد إذا حسد .

فى حديث عن الإمام أحمد قال : « سحر النبى صلى الله عليه وسلم رجل من اليهود ، فاشتكى لذلك أياماً ، قال فجاءه جبريل فقال : إن رجلا من اليهود سحرك ، وعقد لك عقداً فى بئر كذا وكذا ، فأرسل إليها من يجىء بها ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستخرجها ، فجاءه بها ، فحللها . قال : فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه نشط من عقال » .

وأنكر الزمخشرى فى تفسيره تأثير السحر إلا إذا آمن به الجهلة ، قال : « النفاثات النساء أو النفوس أو الجماعات السواحر اللاتى يعقدن عقداً فى خيوط ، وينفثن عليها ،

ويرقين . والنفث النفخ مع ريق . ولا تأثير لذلك اللهم إلا إذا كان ثمّ إطعام شيء ضار ، أو سقيه ، أو إشمامه ، أو مباشرة المسحور به على بعض الوجوه . ولكن الله عز وجل قد يفعل عند ذلك فعلا على سبيل الامتحان الذى يتميز به الثبت على الحق من الحشوية والجهلة من العوام ، فينسبه الحشو والرعاع إليهن وإلى نفثهن . والثابتون بالقول الثابت لا يلتفتون إلى ذلك ، ولا يعبأون به . »

وهذان مذهبان متناقضان فى السحر والحسد ، أحدهما يسلم بوجودهما وأثرهما ، ويؤدى الاعتقاد فى هذا التأثير إلى الرهبة من السحر ، وإلى الخوف من الحسد ، ويترتب على ذلك العمل على إبعاد أثرهما بأحد طريقين : التعوذ بالله ، أو بضروب التعاويذ الشعبية التى تختلف باختلاف الشعوب . والطريق الثانى إخفاء ما تخشى عليه أعين الحساد . ولذلك تلجأ العامة إلى ألوان من السلوك ثبتت مع الزمن فأصبحت من جملة التقاليد والعادات . فتجد المرأة إذا أنجبت طفلا حجبته عن الأنظار ، ويتخفى الرجل إذا أكل عن العيون ، وينكر التاجر ربحه ، دفعاً للعين وخوفاً من الحسد . ولست تجد ذلك فى الدول الراقية التى لا يعرف أهلها سراً ، ولا يضعون أموالهم فى الخزائن والقدور داخل الدور .

ويعلل فرويد الخوف من العين فيرجع ذلك إلى عهد الطفولة ، حين كانت الأم تنهر ابنها ، وتنظر إليه فى غضب ، وحين كان الأب يثور على طفله فيتطاير الشرر من عينيه . فالخوف من العين الشريرة ذكرى حياة الطفولة . وشيوع هذا الضرب من الخوف فى الأمة دليل على طفولتها .

الخوف من الأرواح :

ولا يزال الخوف من الأرواح شائعاً عند كثير من الناس ، لأن الأرواح خفية مجهولة ، وكل مجهول مخوف .

ولذلك عبد القدماء الأرواح ، وألهوها ، وألهوا كل ذى روح . وإنما عبدوا الأرواح لخوفهم منها ، وخافوها لجهلهم بها.

وكانت حياة الإنسان البدائية محفوفة بالمخاطر التى ملأت قلبه رعباً ، ثم أضاف إلى مخاوفه خوفاً أعظم هو رهبة الموت . ولقد فزع من الموت عندما أدرك نفسه ، وعرف امتيازها عن الجسد ، وتحقق وجودها مستقلة عن الأجرام المادية ، ورأى الأعزاء من أهله فى أحلامه بعد موتهم وقد أصبحت أجسادهم عظاماً ، وتحدث إليهم وتحدثوا إليه فى هذه الأحلام ، ففزع من الرؤيا ، وأخذ يتأمل ويفكر : إذا كان الأهل قد ماتوا حقاً ، فما بال هذه الصور تفد فى الرؤى ، وما شأنها ،

وما حقيقتها ، أهى ضرب من الأوهام ، أم هى حقيقة من الحقائق الثابتة ؟ وانتهى إلى الاعتقاد فى هذه الأوهام والأحلام، وآمن بها أشد من إيمانه بالمحسوسات التى يشهدها فى يقظته ، ونسبها إلى وجود الأرواح . وهى فى الأغلب أرواح شريرة ، لأنه دفن موتاه ، وواراهم التراب ، ليحول دون عودتهم . ثم دفن مع الموتى ألوان الطعام وسائر حاجاتهم ، حتى إذا عادت الروح إلى جسدها ، تمتعت بما كانت تتمتع به ، فلا تصب لعنتها على الأحياء ، أو تمسهم بشرها .

ولقد دفع الإنسان حبه لنفسه ، ورغبته فى الحياة ، والاستمرار فى التمتع بمباهجها ، إلى أن يرهب الموت ، ويطمع فى الخلود . ولكن الموت حق ، وكل نفس ذائقة الموت ، وطبيعة الحياة تقتضى الوجود والعدم ، غير أن البدائى لم يستطع مع جهله أن يعتقد فى أن الموت ظاهرة طبيعية ترجع إلى الشيخوخة ، ونسب ذلك إلى قوة خارقة للطبيعة فائقة عليها ، وأرجعها إلى غضب الآلهة . فكان الخوف من الموت أحد أسباب التأليه.

الخوف والاعتقاد فى الله :

ثم كان الخوف علة فى تعدد الآلهة عند القدماء . فزع الإنسان من الرعد والبرق ، ورهب الأحداث الطبيعية التى تؤذيه ، وخاف

بوجه خاص من الوحوش الكواسر ، والزواحف السامة التى تقضى على حياته ، بل تعجب كيف تتحرك الشمس ويجرى القمر ، وكيف يسير السحاب وينزل المطر ، بل كيف يعبث النسيم بأوراق الشجر ، فنسب ذلك كله إلى أرواح خفية تحركها ، وشخّص الجوامد ، وقدس سائر هذه المظاهر الطبيعية وعبدها . ويؤيد النظر فى تاريخ الشعوب القديمة أنهم اتخذوا الشمس والقمر والحيوانات آلهة عبدوها دون الواحد القهار . وإنما عبدوها رهبة منها ، فكان الخوف أول مصادر التأليه . وقد ركب الله الخوف فى نفوس العباد ليصلوا بذلك إلى معرفته . وإلى الإيمان به . وليس من الصواب أن نقول إن الإنسان اهتدى إلى الله عن قوة لا عن ضعف ، لأن استقراء التاريخ قديماً وحديثاً ، ينبئ عن الإيمان حين الضعف والخوف ، ويدل على الكفر عند القوة والبطش .

ونذكر رأى الفيلسوف « توماس هوبس » الذى أوجزه فى رسائله السبع ، التى أهداها إلى الملك شارل ، قال : « ليس الدين فلسفة بل تشريعاً » . ذلك أن هوبس يعتقد أن الدين هو « الخوف من القوة الخفية » . وعنده أن فساد الدين يرجع إلى استغلال الحكام خوف الناس من القوة الإلهية ، ثم جعل الحكام أنفسهم خلفاء الله فى الأرض ، فاحتفظوا بالقوة والسلطان ، وأخضعوا الرعية باسم الدين ، وساسوهم بالإيمان ،

وساقوهم بالرهبة . ولذلك كان الدين سبيلا إلى حفظ كيان الدولة . وليست لله إلا صفة واحدة هى القدرة والجبروت . ثم استمدت الكنيسة من قوة الله سلطانها . وتهدف عبادة الله إلى طلب الخير ، أو دفع الشر والبلاء ، أو الشكر على ما يناله الإنسان . وجوهر الدعاء فى الصلاة ، الاعتراف بالقدرة الإلهية.

ولم تعجب هذه المقالة رجال الكنيسة ، لأنهم يقيمون معرفة الله ، والاعتقاد فى وجوده ، والإيمان به ، على جوهر آخر ، هو « المحبة » . ثم حدث فى لندن عام ١٦٦٥ ـ ١٦٦٦ وباء وحريق مشهور استمر خمسين يوماً ، أفزع الناس ، ودفعهم إلى البحث فى العلة التى جعلت الله تعالى ينزل بهم هذه الكوارث ، فقالوا : هذه لعنة من الله حلت بسكان لندن ، نتيجة كفر هوبس وأتباعه ، ممن اعتنقوا آراءه الفلسفية . وشكلت لجنة للنظر فى كتبه ، وقدم إلى البرلمان مشروع للنظر فى أمر الزنادقة والحد من نشاطهم .

وخاف هوبس على حياته . وتحرك بعضهم بالفعل ، وطلبوا « أن يحرق هذا الجنتلمان العجوز حيا لزندقته » . وأسرع هوبس يحرق بعض أوراقه التى دون فيها آراءه الدينية ، قبل أن يقبض عليه ويحرق . ثم كتب رسالة يثبت فيها إيمانه ، ويدافع فيها عن نفسه ، ويحتج على عقوبة الحرق ، ولكن الرسالة لم تطبع .

فانظر إلى الخوف كيف دفع هوبس إلى الهرب من الميدان.

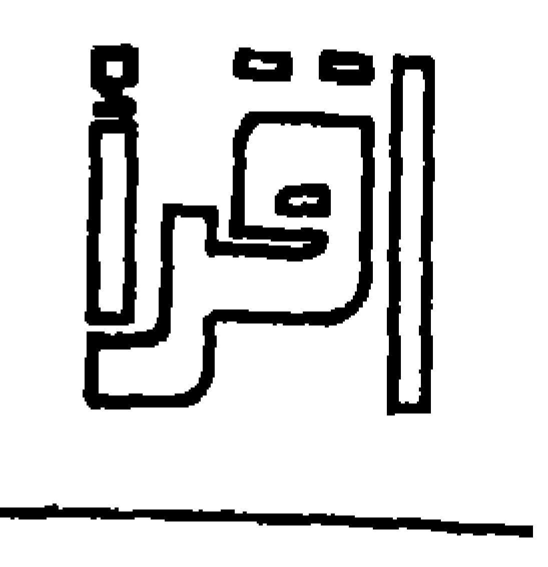
اقرأ

صوفى عبد الله

نساء محاربات



دار المعارف



[٩٩]

نساء محاربات

صوفى عبد الله

نساء محاربات

الطبعة الثانية



دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها، لم يفكروا إلا فى شيء واحد، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية. وأن ينتفعوا، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الإستزادة من الثقافة، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها.

طه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

إلى المختصمين

في حقوق المرأة ووظائفها

أهدى هذه الكتيبة الشاكية السلاح

ص. ع.

كلمة فى الموضوع

١ ـ الشامى والمغربى

قد يكون أول ما يتبادر إلى الذهن عند الاطلاع على عنوان هذا الكتاب « نساء محاربات » ، هو السؤال الذى يجرى مجرى المثل : « ماذا جمع الشامى مع المغربى ؟ » ، لأن المفروض أن المرأة والحرب مقولتان مختلفتان ، اختلاف الشامى والمغربى ، إن لم يكونا أشد من هذين اختلافاً .

فصنعة الحرب ينهض بها الرجال ، ولها فى الأمم المتحضرة طائفة معينة تحترفها من الضباط والقادة ؛ لهم شاراتهم وأزياؤهم . . . أما النساء فقوارير رقيقة ، أو دمى لطيفة ، هى بالزينة أشبه ، وبالنعومة والامتثال ألصق ، ونسبتهن إلى اللعب والدعة أولى .

ولكن لفتة إلى ذوق المرأة تغنينا عن البحث الطويل فى علة جمع الشامى مع المغربى فى هذا الكتاب .

فهى تحب الملون الزاهى المزركش من الثياب ، وتحب زينة المواكب ودق الطبول ، فإذا لم تجدها قد تمرض أعصابها ،

فيقال فى الغرب المتحضر إن بها عقدة من رغبة مكبوتة ، ويقال فى الشرق الباقى على قدمه إن بها عفريتاً من الجن يكلفها ثياباً مزركشة « وحضرة » ترقص فيها على دق الطبول المتواتر العنيف . . .

وما لنا نذهب إلى هذا الحد فى طلب التعليل ، فقد يقال إن هذه حالات مرضية غير سوية . فأمامنا الحالات المألوفة كل يوم ، فإن غالبية النساء — إن لم يكن كلهن — لهن بصحبة الضباط ولع ، يحببن الظهور معهم فى المحافل ، والنظر إلى مواكبهم جماعات ، أو إلى خطرتهم فى الطريق فرادى . لأن ما فى ثيابهم من بريق وزينة وشارات مختلف ألوانها ، وما فى مواكبهم من أصوات موسيقية عنيفة ، يوافق ما فى مزاج المرأة من ميل إلى هذه الأشياء . . .

والشبيه يدرك الشبيه ، وينجذب إليه . لهذا لم يكن « مظهر » الجندية بعيداً كل البعد عن روح المرأة وهوى طبعها ، بل هو قريب منها قرابة لا تنكر .

٢ — الثياب العسكرية

ولكن رب قائل إن الجندية لا تقوم بالثياب وحدها ، بل بما تلبس النفس من صفات . وهو قول معقول ، ولكنه

لا يصمد للتحقيق والتعليل . فإذا كان المعول على الشجاعة الأدبية والصلابة والنزاهة والأريحية والتعفف ، فما أظن التاريخ يثبت للمرأة نصيباً من هذه الخلائق أقل من نصيب أشهر القواد منها مجتمعة أو متفرقة . بل أن إيجابية الرجولة قد لا يكون نصيب الكثيرين منها أرجح من نصيب المرأة . وإن التاريخ السرى للأسكندر الأكبر ، ويوليوس قيصر ونابليون ليطلعنا من سلوكهم وطباعهم على ما يجافى المفروض فى سمت الرجال من مزايا وخلال . . .

فالطمع ، والخديعة ، ونكث العهود ليست من مزايا الشجاعة المثلى . فإذا عنى بالشجاعة مواجهة الخطر ، فتلك أولى أن تسمى « روح العدوان » وهى بالجبن أشبه من الشجاعة الحقة ، لأنها سليقة حيوانية وليست من مزايا الإنسان بما هو إنسان . . .

فمن التحامل والتجنى على المرأة أن يقال إنها محرومة من مقومات المحاربين — لا كما يصورها الخيال ، بل كما يصورها لنا الواقع التاريخى الثابت . فليس فيها بطبيعة تكوينها الخلقى ما يقصر بها عن شأو المشاهير من أهل حرفة الحرب .

وواضح أننى لا أقصد هنا ثلب الجندية من حيث هى وظيفة اجتماعية لها خطرها وشرفها الذاتى ، بل أقصد دفع

التجنى عن المرأة ، وعرض الحقيقة الملموسة التى طالما تجاهلها المتجاهلون، إذ يزعمون تنافى خلائق المرأة مع ما ينبغى لحرفة الحرب من صفات فعلية واقعية – لا صفات مثالية كان يجب أن تكون ، وينبغى أن تظل مثلا يطلب كما تطلب المثل . .

٣ – الاستعداد الخاص

فإذا كانت المرأة غير مكفوفة بطبعها عن إتقان صنعة الحرب ، أى ليس فى طبعها ما يحول بينها وبين هذا الإتقان ، فهل لديها الاستعداد الإيجابى لعمليات القتال ؟

جولة فى المواطن المتأخرة من المدن ، حيث يسود الجهل وتطلق للغرائز الفطرية العنان لا يكبحها كابح من التربية ، نجد الأفراد من الجنسين الرجال والنساء – يعمدون إلى التماسك والتضارب فى قسوة . ولكن مما لا شك فيه أن نسبة المشاجرات بين النساء أكبر مما يقع بين الرجال . فما أسرع ما تشتبك النساء فى المناوشات اللفظية ثم تبدأ عمليات شد الشعر ، والمصارعة الحرة على أوسع نطاق .

فإذا كانت روح العدوان مما يلزم للقتال ابتداء ، مع القدرة على احتمال الآلام تصيب النفس أو تصيب الغير على مرأى ومسمع ، فلا شك أن القول بخلو المرأة من ذلك

الاستعداد الإيجابى الخاص حديث خرافة . فهى إن لم تفق الرجل فى هذا الاستعداد ، فهى ند له على الأقل .

ومن السطحية الفارغة التافهة القيمة أن نزعم مع الزاعمين أن المرأة خلقت من رقة وصورت من رخاوة ولين . فإذا كان آدم قد خلق من طين لازب ، أى لين ، فحواء قد خلقت من عظم صلب عصىّ على الثنى ، هو ضلع آدم .

وإذا لم نكن ممن ينظرون هذه النظرة الدينية أو العرفية ، وكنا من أهل العلم الموضوعى الخالص ، فذلك العلم يقول إن خصائص الجنس ليست شيئاً متقابلا تمام التقابل فى الجنسين ، فالأعضاء الجسدية المميزة إنما هى أعضاء ظاهرية ثانوية ، وإن الذكورة والأنوثة تقوم على نشاط الغدد ، ومن صفات الأنوثة ما يتوفر فى الذكور ؛ الذكور بحكم أعضائهم الجسدية ، ومن خصائص الذكورة ما يتوفر فى الإناث ؛ الإناث بشهادة أعضائهن تلك . فالتأنث والاسترجال ظاهرتان طبيعيتان لا شذوذ فيهما علمياً ، وأن كانا من الشذوذ عرفاً ، لأن المجتمع يُحِبُّ أن يميز التمييز الواضح التام الذى تأباه الطبيعة أو تضن به فى بعض الأحيان .

فالمرأة — علمياً — غير مجردة تمام التجرد من خصائص الذكور فى دخائل التكوين العضوى وما يترتب على تلك

الخصائص من آثار فى الميول واتجاهات السلوك .

وإذا تركنا العلم والدين جميعاً ، واكتفينا بنظرة البصيرة السليمة أو البداهة السديدة ، وجدنا وظائف الأنوثة لا تتم إلا بزاد من القسوة السلبية ، فالحمل ومخاض الولادة لا يتيسر احتمالها إلا بقابلية لامتصاص الألم والراحة إليه فى أعماق السريرة .

ومن هنا تميزت المرأة بالقدرة على التمريض ، لأن احتمال مشاهد الألم الفظيع وتأوهاته لا يتسنى إلا مع وجود تلك القابلية لامتصاص الألم والراحة إليه .

فإذا خالطت تلك القابلية الأنثوية نسبة زائدة من خصائص الرجولة ، صارت تلك الخاصة إيجابية ، وتجلت فى روح العدوان والراحة إلى تسبيب الآلام ، وتتفاوت درجات هذه الآفة ، من تنغيص الزوج « لوجه الله » إلى مشاكسة الجارات ، أو احتراف « الفتوة » . . .

فمن أى وجة نظرنا إلى المرأة وخصائصها ، وجدنا لديها الاستعداد الخاص لممارسة الحرب ، كامناً لديها غالباً ، وظاهراً للعيان فى بعض الأحيان .

٤ ـ حكمة الحريم

فما هى الحكمة التى من أجلها أقصيت المرأة منذ القديم عن صنعة القتال ، واختص بها الرجال ، فكانت المرأة والطفل « حريماً » يحرم الهجوم عليه والاعتداء على حياته فى شرعة الحرب الشريفة ، وإن جاز عليه الأسر ؟

والجواب حاضر إذا نظرنا إلى المزايا الحيوية التى تترتب على هذا « الحريم » . فالمرأة هى « وعاء النسل » ، وبها يناط تجديد النوع جيلا بعد جيل ، فإذا عزت المرأة عز هذا التجديد ، أما الرجل فليس الأمر فيه كذلك . فالقلة من الرجال قد تغنى عن كثرة ، والكثرة فى النساء لا تغنى عنها قلة . فإذا كثر النساء تعددت الزوجات واستمر النوع . أما إذا كثر الرجال وتعدد أزواج المرأة الواحدة فلا فائدة من هذه الكثرة فى الرجال من جهة زيادة النسل .

والطفل هو مادة هذا التجديد الذى تلزم له المرأة أكثر من لزوم الرجال . . . لهذا جعل الطفل كما جعلت المرأة « حريماً » يحمى ويحرم على السيف ويقصى عن صنعة القتال .

فالضرورة الحيوية ومصلحة النوع هى السبب الأساسى

فى إقصاء المرأة عن صنعة ميسرة لها . ولكن طول الممارسة أقر فى نفوس الرجال الزهو بما اختصوا به من حمل السيف ، حتى قال قائلهم .

كتب القتل والقتال علينـــا وعلى الغانيات جر الذيول ...

وهو قول صحيح ، ولكن لسبب غير الذى يفخر به الشاعر ، فما كتب القتل والقتال على الرجال لمزية ظاهرة أو استعداد تفردوا به ، بلى لأنهم أداة يمكن أن يستغنى النوع عن العدد منها بغير خسارة كبيرة . . .

وأحسب الأغنام والبقر لو أعطيت سليقة الشعر ، لقالت الخراف والثيران مقالة هذا الشاعر ، ولأخذها الزهو بأنه « كتب الذبح والطعام عليها ، وعلى النعاج والأبقار رعى الحشيش » . . . فإن الناس تذبح الديكة والخراف والثيرة وتستبقى الدجاجات والنعاج والبقر ، لأن فى القلة من الذكران غناء عن كثرة ، وليست كذلك الإناث من ذات ضرع أو ذات منقار . . .

هى مصلحة النوع وتوفير الاستمرار له فرضت قانوناً واحداً فى المجزر وفى ميدان القتال ، فى الحظائر وفى الخدور . وإنما هى عزة الإناث وهوان الذكور . . . ولا فخر فى هذا التقدير لفخور . . .

٥ — النظام والمساواة

والحكمة فى قيام « الحريم » هى حكمة الطبيعة نفسها ، حين منعت أن يكون سبيل الوجود هو سبيل الفناء ، فما به الشيء لا يكون به انعدامه . وطوعاً لهذا القانون صرف النظر عن تساوى الأنثى والذكر فى الاستعداد لصنعة القتال ، لأن النظام مقدم فى الحياة على ما عداه ، ولو جار فى ذلك على سنة المساواة .

والواقع أن هذا عدل وإن اكتسى ثوب الجور . فإن أى مجتمع — سواء فى ذلك مجتمعات الحيوان أو مجتمعات الإنسان — يقسم الأفراد على حسب الوظيفة الاجتماعية ، فالجنود مقدمون حيث الحاجة إليهم ماسة ، والأطباء مقدمون حيث يتفشى الوباء ، فالحاجة هى التى تخلق الوظيفة . لهذا لا ترى فى الريف صانع قبعات ، ولو خطر لواحد من هؤلاء أن يقيم فى قرية لأفلس أو مات جوعاً ، ولكنه فى شارع قصر النيل يشكو التخمة من كثرة العمل وكثرة المال . . . فليس التساوى فى الاستعداد لمهنة القتال معناه وجوب الترخيص باحتراف تلك المهنة لكل من لديه هذا الاستعداد . فإن وجود النوع مقدم على كل اعتبار ،

كما أن حب البقاء مقدم على كل مطلب لدى الأفراد .

ومصلحة النوع ، ومصلحة الجماعة ، هما الأساس فى التنظيم وتوزيع الاختصاصات والوظائف على الجنسين . فحجة المساواة فى المواهب لا تنهض سنداً للمساواة فى الوظائف والأعمال ؛ لأن التخصص لازم لبقاء المجموع وبقاء النوع . وزوال التخصص هو زوال النظام ، ولا بقاء لمجموع أو نوع أو موجود أيا كان بغير نظام تخضع له أفراده أو أجزاؤه .

ويلحق بهذا النظام الضرورى كل ما هو تربوى فى معيشة الإنسان . فلا معنى للتربية وهى بلجام يحد من غرب الاندفاعات الغرزية . إلا أن يكون ذلك تنظيما لسلوك الناس لكف الضار منه بالنوع أو بالمجموع . ولولا هذه « المصلحة العليا » لما وجدت التربية ، لأنها فى حد ذاتها قيد ، والقيد ثقيل ، لولا أنه أهون ضررين . . .

ويلحق به كذلك تخصيص المرأة بما يتعلق بإيجاد النوع وحفظه ، أى بالأمومة . وترك الأعمال الخطرة للرجل . ومن هنا جعلت المرأة ربة البيت ، لأن هذا المكان أصلح لوظيفتها الطبيعية تلك . وتركت غرائز المقاتلة فيها تبحث لها عن متنفس غير مباشر ، فى تنغيص الزوج أو الكيد للجارات

والضرائر والحماة . فالاستعداد للحرب عضو لا حاجة إليه لدى المرأة فى التاريخ الاجتماعى الحديث ، كالزائدة الدودية لدى الإنسان سواء بسواء . وذلك الاستعداد كتلك الدودة إذا أصابة تضخم أو التهاب كان شيئاً خطيرا تتعرض له حياة صاحبته للهلاك . . .

فليس كف المرأة عن مهنة لديها الاستعداد التام لها عن تعسف من الرجال ، بل هو لمصلحة النوع التى يخضع لها الرجال كما تخضع لها النساء على السواء .

٦ ــ الجنس يفرض نفسه

وكما أن مصلحة النوع هى صاحبة الكلمة العليا فى أفراد النوع ؛ كذلك هى صاحبة التقسيم الثنائى إلى جنس الذكور وجنس الإناث ؛ مع ما فى ذلك التقسيم من تعسف من وجهة النظر العلمية .

فالأنوثة والذكورة شيئان نسبيان فى واقع الأمر ، وليس هناك ذكر ١٠٠٪ ولا أنثى ١٠٠٪ . وإنما هى مخلوقات تغلب عليها هذه الصفات أو تلك . وما أعضاء الجسم المميزة ، إلا الخواص الجنسية الثانوية لا الأولى ، فهى كالعنوان الذى قد يأتى تحته ما ليس منه فى كثير أو قليل ، لهذا يقع فى

البشر رجال مؤنثون ونساء مسترجلات . . كما يحدث أن تشرى من مصنع غير منظم تمام التنظيم زجاجة من شراب البرتقال ، أو هكذا تزعم البطاقة المثبتة فوقها ، فإذا هي فى الحقيقة تحوى شراب الورد أو الرمان . . .

ولكن الحاجة العملية إلى تقسيم غايته « حفظ النوع » تجعل الإخصاب من جانب وحمل الأجنة من جانب آخر هما أساس التمييز بين الجنسين وإضافة الوظائف الطبيعية والاجتماعية لكل منهما .

وبهذا تفرض الأمومة على مخلوق له طبائع الرجال لمجرد أنه يحمل « عنوان التأنيث » . . .والعكس صحيح . . . فالجنس يفرض نفسه ، ويفرضه النوع لمصلحته العليا ، ولو تساوت الاستعدادات للأعمال الواحدة فى أفراد من هذا الجنس وذاك . . .

٧ — العبقرية فوق الجنس

ولكن خصائص الجنس مهما فرضتها الطبيعة ، ومهما تشبث بلواحقها المجتمع لمصلحة النوع العليا ، لا يمكن بحال من الأحوال أن تتغلب على العبقرية ، لأنها مصلحة

للنوع أعلى من المصلحة التى ينشدها إذ يفرض وظائف الجنس .

فالعبقرية فى أى فرد من أفراد الجنسين قدرة خارقة للمعهود فى أفراد النوع على إتيان عمل من الأعمال . فهى تعبير من الطبيعة عن نموذج لهذا النوع أرقى من النمط الموجود فعلا . ولهذا يقال إن العبقرى شيء غير مفهوم كل الفهم من أبناء جيله ، وأنه يسبق زمانه .

والمصلحة التى يجنيها النوع من وجود العبقرى ، أثمن من مصلحة الاستمرار الآلى ، فذلك الاستمرار يضمنه أى فرد ، ولكن الترقى أو التكمل لا يمثلهما إلا العبقرى من أفراد النوع . فالعباقرة قوى دافعة فى النوع ، ولهذا يكون وجودها شيئاً مقدماً على خصائص الجنس التى يفرضها النوع لاستمراره ويفرضها المجتمع لحفظ كيانه .

ولهذا متى ظهرت العبقرية فى أحد الجنسين — ذكراً أو أنثى — كانت العبقرية فيه كافة لخصائص الجنس ، إذ ترتفع به فوق آدم وفوق حواء ، آدما كان فى جنسه أو حواء . . .

٨ ــ النساء المحاربات

فالمرأة إذ تحارب لا تخرج عن استعدادها الأصلى ، ولكنها ــ بفرض من مصلحة النوع العليا ــ لا تفعل ذلك غالباً إلا لأنها لم تعثر بآدم الذى يشعرها أنها حواء ويفرض عليها إرادة النوع ، فإذا وجدته أفاءت إليه وأخلدت . وإما لأن فحولة آدمها تستثير فيها الفتوة الزائدة بالطبيعة فى مزاج تكوينها ؛ وإما لأنها فوق آدم وفوق حواء جميعاً بعبقرية فيها...

وتلك هى دعوى هذا الكتاب

صوفى عبدالله

مصر الجديدة

مايو ١٩٥٠

١ ــ نحو آدم

الشقيقتان الباسلتان

تيريز الحسور

١ ـ الشقيقتان الباسلتان

« أين اسماهما بين الأسماء المنقوشة على الرخام فوق أقواس النصر ؟
« أين صورتاهما بين الصور المعلقة فوق جدران فرساى ؟
« أين تمثالاهما على حدودنا التى روتاها بدمائهما ؟ »

* * *

بهذه الكلمات الفخمة الرنين يستهل الشاعر لامرتين قصة هاتين الشقيقتين : « فيلستيه دى فيرنج » و « تيوفيل دى فيرنج » . . . مستلفتاً التاريخ إلى هاتين البطلتين المجهولتين ، على عظمة المثل الذى ضربتاه فى الأريحية والإقدام والبسالة .

إنها قصة البسالة النادرة لا فى الميدان فحسب . بل وأيضاً فى معترك الأريحية الفردية التى لا يصمد لأتاونها الباهظة كثير ممن يصمدون فى حومة الوغى ويظفرون فيها بالألوية والأكاليل .

فمن هما هاتان الشقيقتان ؟

لم تخرجهما مدارس الحرب التى تخرج المحترفين من أهل الجندية . . .

ولم تخرجهما مجالس البلاط التى تعقد فى القصور فلا يتخرج منها إلا ذوات الأناقة والسمت . . .

بل خرجتا على عهد الثورة الفرنسية ، كما انبثقت تلك الثورة نفسها ، من حيث لا يقدر خروج ولا انبثاق : فلا هما من أهل الصنعة ، ولا هما من أحلاس البطالة والجدة . وإنما هما فتاتان من الطبقة المستنيرة التى ورثت مزايا الأصل العريق دون نقائص الانحلال التى تلازم أعقاب السلالات ، ثم زادتها قراءة ڤولتير وروسو تطلعاً إلى المثل الكريمة وازورارا عن الفوضى والفساد اللذين كانا معهودين فى مرافق الأمة كلها لذلك العهد ، فكانت تلك الطبقة المثالية المستنيرة هى رائد الثورة ، ثم كانت هى وقودها فى آخر المطاف ، حين استولى على قيادالثورة شيطان الشهوات الذى يركب رؤوس الغوغاء متى أطلق لهم العنان . . .

أجل ؛ هما من تلك الطبقة ولا مراء ، التى كانت تعهد فى الريف الفرنسى السليم البنية ، أكثر مما تعهد فى تلك العاصمة التى نخز دعائم مجتمعها سوس الاستبداد والاستهتار : مدينة النور ، باريس . . .

فوالدهما « لوى جوزيف دى فيرنج » من أصل ألزاسى ، بعيد فى نشأته عن مجون باريس ، وهو بطبعه الهادئ وذوقه الأدبى ، يؤثر الإخلاد إلى القراءة على كل أمجاد السياسة والحرب . لهذا ترك الجندية بعد أن ساهم فى حروب هانوفر

(١٧٥٥ – ١٧٦٢) بنصيب مشرف ، وانصرف إلى الأدب والثقافة ، وعقد صلات مودة متينة مع جبار الأدب الفرنسى وبطل حرية الفكر فى أوربا بأسرها لذلك الوقت ، وهو « ڤولتير » ، حتى أن الأديب العظيم دعاه إلى زيارته فى قصره بفرنى ، فمكث فى صيافة ڤولتير عاماً كاملا .

وقد تزوج من فتاه من بنات الريف أيضاً ، أنجبت له بطلتينا فى عامى ١٧٧٣ ، ١٧٧٦ ، وثلاثة أولاد آخرين ثم انتقلت إلى العالم الآخر .

وبين العناية بالزراعة والعناية بأولاده هؤلاء ، كان يجد فراغاً من الوقت للاهتمام بالحركة الفكرية ومتابعتها عن كثب ، حتى إذا كانت الثورة الكبرى سنة ١٧٨٦ ، كان على رأس « الحرس الأهلى » فى « ڤالنسيين » موطنه ، وأقام النظام والأمن حتى حان الوقت الذى وجهت فيه قوات هذا الحرس لملاقاة الأعداء الزاحفين على أرض الوطن الفرنسى باسم حماية التاج وحفظ حياة الملك والملكة من عدوان الثوار .

وفى هذا الحين أحست الشقيقتان « ڤيلستيه » و « ثيوڤيل » بالشوق إلى الجندية يجرى حاراً فى عروقهما الفتية . وكانت كبراهما « ڤيلستيه » فى السادسة عشرة . أما اختها « ثيوفيل » فلم تكن تتجاوز الثالثة عشرة . . .

ولكن هل هو الشوق إلى الجندية فى ذاتها ذلك الذى أحستا به يفور فى جسديهما ؟

أغلب الظن أنها ليست « حرفة » الجندية ما تعشقتا ، وإنما هى « روح الثورة » التى كانت تتمخض بها فرنسا فى ذلك الحين ؛ لم يكن لفتاتين نشأتا فى ظل أب كأبيهما ، وفى جو من حب الحق والحرية والإيمان بهما ، إلا أن تحسا بتلك الروح تتقمص جسديهما الفتيين . ولو كانتا فى باريس لخرجتا فى المظاهرات التى شاركت فيها الباريسيات ، حين الهجوم على الباستيل ، وحين الهجوم على فرساى . . . ولكنهما فى الريف ، وليس من منفذ للحماسة الفائرة إلا ميدان القتال ، ولا سيما فى « ڤلانسيين » التى تتاخم الحدود المهددة بالغزاة الغاصبين . . .

ومهما يكن من شىء ، فقد خفت الفتاتان ذات ليلة — وقد رحل أبوهما وأخوهما فى صفوف الحرس الأهلى المحارب — فلبستا ملابس الرجال ، وحملتا السلاح ، وانخرطتا خلسة فى صفوف الكتيبة التى يقودها والدهما .

وقد ظل هذا الوالد فترة من الزمن جاهلا تمام الجهل أن بنتيه الصغيرتان فى عداد أولئك النفر من الجنود الذين يوجههم كل ليلة للقيام بأعمال الكشف والتربص .

ولكن هل جهل جنود الكتيبة حقيقة الفتاتين ؟ . . .

كلا . . .

فكيف كتموها إذن عن قائدهم ؟

والجواب عند « روح الثورة » التى دفعت فتاتين ضعيفتين إلى حمل السلاح ، فإنها أيضاً قد أشعرت الرجال من الجنود — وهم من أبناء القرية وما يجاورها — أن الغرض النبيل الذى دفع البنتين إلى هذا الموقف جدير بالتقدير بل التقديس ، لأنه هو هو الغرض الذى دفعهم جميعاً إلى استبدال المدفع بالرفش والمنجل حين دق ناقوس الخطر ودعا الداعى للذود عن الذمار . . .

وهكذا تواطأ الجنود على السكوت ، لما أثاره وجود البنتين من الحماسة فى صدورهم ، حتى إذا انصرم الليل ، عادت الفتاتان إلى الدار ، حيث يلفيهما أبوهما عند عودته ، وعليهما ثيابهما المعهودة ، تقومان بمهنة البيت . فلا يخطر له ببال أنهما كانتا بالأمس تحت إمرته تخوضان خطوط النار إلى مكامن الهلاك .

وظل أمرهما خافياً على والدهما حتى حضر إلى موضع الكتيبة قائد من قواد الفرق المجاورة ، هو الجنرال « دى برنونفيل » ، وخطر لذلك القائد أن يلقى فى الجنود كلمة

تحفزهم إلى مزيد من الثبات والإقدام ، فلمح شابين يافعين بين الجنود ، يتواريان عمدا خلف ظهور رفاقهم الكبار ، ويتحاشيان بشكل ظاهر أن تلتقى أنظاره بأنظارهما ، ويتنقلان من موضع إلى موضع ليهربا من نظراته الفاحصة . فأدهشه هذا الخجل ، لأن من يحمل السلاح ويعرض نفسه لوقع الرماح حرى ألا يضيق بوقع النظرات من ولى حميم لا من عدو محروب . فتقدم إلى « دى فيرنج » أن يدعو هذين الشابين من رجاله ، فأفسح الجنود لهما ممراً حتى وصلا إلى مكان القائد ولكن أباهما لم يعرفهما أيضاً ، لأنهما كانتا فى سمت تنكرى لا يبارى ، لا من حيث الزى العسكرى فحسب ، بل من قناع الدخان والطين والبارود الذى كان يكسو وجهيهما ، وحتى الشفاه القرمزية النضرة كانت قد سودتها الطلقات التى كانت فى ذلك الزمان لا بد أن تمزق رؤوسها بالأسنان قبل أن توضع فى البنادق . . .

فلا عجب أن ألفى دى فيرنج نفسه أمام شابين لا يعرفهما ، ولم يرهما من قبل ، ولم يكن يدرى أنهما فى عداد جنوده ، فسألهما بحدة ظاهرة .

— من أنتما ؟ . . .

فكأنما كان هذا السؤال إشارة البداية لموجة من التهامس ،

والتراشق بالنظرات والابتسامات ، سرت بين الجنود ، مما زاد فى دهشة القائد الأصيل والقائد الزائر ، وأيقنت الفتاتان أن سرهما قد انكشف لأبيهما ، ففارقتهما صلابة الجندية وارتدا فتاتين كالقوارير التى ينبغى ألا تمس إلا برفق شديد وتلطف ، فاحمر وجهاهما ثم اصفرا ، ولم تلبثا أن انفجرتا باكيتين وقد خرتا على أقدام أبيهما المأخوذ سائلتين إياه أن يغفر لهما ما كتمتا عنه من شأنهما ، وقد أخذتهما رعدة الخوف والخجل من غضبه أمام « رفقاء السلاح » ، فجرى دمع الرجل ، وأقبل على فتاتيه يعانقهما فخوراً ببسالتهما النادرة ، وقدمهما مزهوا إلى الجنرال دى برنونفيل الذى سجل إعجابه بهما فى رسالة رفعها إلى المؤتمر الوطنى متخذاً منهما دليلا لا يجارى على تغلغل روح الثورة الوطنية وتأصلها من نفوس المواطنين . . .

ومنذ هذه الساعة انخرطت الشقيقتان علانية فى سلك الجيش الوطنى ، ولحقتا بقيادة « ديموربيه » الذى ترك وزارة الحربية ليتولى بنفسه قيادة جيش الشمال الذى كان مركز قيادة أركان حربه فى فلانسيين .

وتعرض معسكر ديموربيه فى « مولد » لهجمة مفاجئة ، ردها الجنود والمتطوعون ، وأبلت الشقيقتان فى تلك المناوشة

بلاء حسنا، حتى أدهشتا الجميع بما أبدتاه من ضروب البسالة والبراعة فى استخدام السيف .

وقد أدرك مورييه بما خطر عليه من ذكائه إلى أى حد يمكنه أن يستخدم هاتين الفتاتين فى استنهاض الهمم وحفز الجنود على خدمة القضية الوطنية رغم قلة العدة ، ونقص الضباط المدربين ، لكثرة من هاجر منهم ، لأن جيش فرنسا الملكية كان معظمه ، من غلاة الأرستقراطيين ، أو من يحبون أن ينظر إليهم هذه النظرة . فقد اتسعت شهرة الفتاتين بعد هذه المعركة الدفاعية ، فاستدعاهما إليه وعينهما فى ياورانه ، كما ضم والدهما وشقيقهما إلى هيئة أركان حربه .

وانتقل ديمورييه بآل دى فيرنج الأربعة إلى قطاع الأرجون ، حيث دارت تلك المواقع الخالدة التى ثبتت أقدام الثورة الفتية ، واعتبرت معجزات فى باب الحرب ، لما سجلته من غلبة القلة الساذجة على العدو العديد الكامل الأهبة والتدريب : وتلك هى مواقع « فالمى » و « بجماب » و « فتح بلجيكا » . . .

* * *

بواعث وطنية ، وشجاعة عسكرية ، ما فى ذلك شك .

ولكن . . .

ولكن هل قامت هذه الصفات برأسها ، كما تقوم فى

نفوس المحاربين من الرجال ، أم هى لم تحجب خصائص الأنوثة فى قلب هاتين الفتاتين ؟ . . .

لا يلقى بنا هذا السؤال فى حيرة تطول ، فإن شهادة لامرتين لا تلبث أن تأتينا بالجواب الحاسم .

فالكبرى « فيليستيه » قد لزمت « الدوق دى شارتر » ، وهو من الشباب العريق المستنير الذين ناصروا المبادئ الجديدة ، فهى لا تفارقه لحظة مهما اشتد أوار المعركة . وأما الصغرى « تيوفيل » فقد جردت نفسها لتبليغ أوامر القائد العام « ديموريه » إلى القائد الشيخ الجنرال « فيران » ، وكانت تلزم جواره إذا حان وقت الهجوم على معاقل الأعداء ، فكانت تبدو بجانبه فى مقدمة الصفوف ، وسيفها فى يدها ، على صهوة جوادها ، وقد شرعته للجيش الذى استعرت فى قلبه الحماسة ، فيزيدون إقداما على إقدام .

وهكذا تكون جرأة النساء : تشتد مهما تشتد ، ويرتفع مهما ترتفع ، ولكنها لا تستغنى بالمبدأ العام والعقيدة المجردة عن نموذج فردى متشخص . فى صورة رجل بين الرجال ، تركز فيه قبلة جهودها وتوثبها .

ففى الحين الذى تبدت فيه الفتاتان للجيش كروحين من أرواح الملائكة التى يقال إن الله يعز بها جنده المنافحين

عن دينه ، حتى قيل إنهما ليستا من البشر ، بل هما معجزتان على الحقيقة لا على المجاز ، فالحرية والوطنية ليستا أقل كرامة على العزيز الحكيم من قواعد الدين ونواهيه . فى هذا الوقت الذى أصبحت فيه الفتاتان أسطورة تتناقلها الأفواه فى تهيب وإعجاب ودهشة ، كانتا تصدران — دون وعى منهما — عن طبيعة الأنثى التى لا تستغنى عن رجل يكون قطباً لبواعثها مهما حلقت فى أعنان السماء .

فالصغرى « تيوفيل » داعبت شيخوخة قائدها الواهنة غريزة الأمومة فيها فاستثارتها ، فهى تلزمه لترعاه وتشد أزره ، ولتخفف عنه وتحمى ظهره : فعندما أصابت جواده فى معركة « جماب » رصاصة صرعته من تحته ، كانت ذراع « تيوفيل » أقرب إليه من ارتداد طرفه ، فسندته وحمته من سقطة لا تؤمن عواقبها على عظامه العتيقة ، ثم لم تلبث أن هاجمت فى نفس الموقعة الفرقة المجرية ، على رأس حفنة من الفرسان ، فصرعت بيدها فارسين من الأعداء برصاص غدارتها ، ووضعت يدها على قائد الكتيبة فجردته من سلاحه وساقته أسيراً بين يدى قائدها المبغوت !

أما الكبرى « فيليستيه » فكانت دائماً تتقدم الدوق دى شارتر ، وعنان جوادها بين أسنانها ، وفى كلتا يديها غدارة

ينطلق منها الموت ، فتهجم فى المعمعة هجوم الكواسر .

وعرضت فى المعركة بادرة تدل على هزيمة « قلب » الجيش ، فأقدم الدوق دى شارتر ، والدوق دي مونيتسبيه وفيلستيه دى فيرنج على هجوم ثلاثى شقوا به فرجة بين صفوف الأعداء بطلقات مسدساتهم ، فكان صوت القائد الشاب ، ومنظر المحاربة الشابة كفيلين باستنهاض الهمم وتحويل الجنود من النكوص إلى الهجوم ، حتى أجبر النمسويون على الفرار ، وانقلبت الهزيمة إلى نصر أبلج كوضح النهار . . .

وليس من الصعوبة بمكان أن نعرف أى الأوتار فى قلب كبرى الشقيقتين « تيوفيل » قد داعبته أبهة الدوق الشابُ الذى كان على رأس فرقتها فهى لا تفارقه فى وقت الخطر ، وتشاركه المجازفة والنصر .

امرأتان باسلتان . . .

ولكنهما امرأتان . . .

وفى ذلك الذى حدث فى أعقاب تلك المعركة ما يضيف إلى هذا الرأى دليلا وأى دليل . فقد اصطحبهما ديموريبه فى زيارة ميدان الموقعة تقديراً لبطولتهما النادرة وتكريماً لهما . فما أبصرتا الجثث المشوهة عن يمين وعن يسار ، والأشلاء المتناثرة فى كل مكان ، وسمعتا أنين الجرحى والغرقى ، حتى

فارقتهما صلابة الجنود ، وانطلقتا تبكيان . . . تبكيان على من كان لها القدح المعلى فى قتلهم والتنكيل بهم

امرأتان باسلتان . . .

ولكنهما امرأتان . . .

* * *

ودخلت الجيوش الفرنسية « بروكسل » حاضرة البلجيك ، ولكن النمسويين لم يكفوا عن المناوشة والكر والفر . واقتضى الأمر أن يعهد « ديموريه » إلى « فيلستيه دى فرنج » بحمل أوامر له إلى بعض النقط الأمامية . فانطلقت ومعها كوكبة صغيرة من الخيالة . ويظهر أن الحماسة التى تلازم أحداث السن قد حملتها على غير ما تأمر به الحيطة فى مسالك الحرب . فإذا هى تقع ورجالها فى كمين نصبه النمسويون . فقاومت ورجالها مقاومة حامية ، وتمكنت من الإفلات بعد لأى فأطلقت لجوادها العنان . . . وفى جعبتها أوامر القائد إلى وجهتها المرسومة . ولكنها ما قطعت مائة ركضة حتى جذبت عنان جوادها . . . وقد أضحت وحيدة بعد أن تخلف فرسانها فى اشتباكهم مع الكمين النمسوى — لأنها رأت ضابطا شابا من ضباط جيش الثورة بين أيدى ثلة من الفرسان النمسوية تكيل له الضربات حتى كادوا يقضون عليه القضاء

الأخير . . . ولم تأبه للخطر الجديد ، بل هجمت على أولئك الجنود فقتلت منهم اثنين ، ولاذ سائرهم بالفرار ، واردفت الضابط الجريح على جوادها فحملته إلى مستشفى الميدان ثم انطلقت دون توقف إلى حيث أبلغت أوامر القائد التى كانت تحملها . . .

وكان الضابط الجريح بلجيكى الجنسية ، ولكنه ككثير من الأجانب المستنيرين ممن كانوا يرون فى الثورة الفرنسية رمزاً للحرية ، حرية جميع الأوطان المستعبدة بلا استثناء . . .

أما هذا الضابط البلجيكى الذى أنقذته فيلسيتيه من الموت ، فقد كتب له أن يشفى من جراحه ليشكو من جراح أبعد غوراً أصابت سويداء قلبه الشاب من سهام عينى منقذته الحسناء ؛ فما ترك خدمة الجيش حتى اندفع يبحث عنها أينما ظن لها وجود ؛ فإن هذه الفارسة التى تشرق وجنتاها بوضاءة الشباب والجرأة والحماسة قد استحوذت على جماع نفسه أيما استحواذ ؛ فانطبعت فى نفسه صورتها وهى تلوى بالفرسان أيما إلواء وتشتت شملهم لتخلصه من بين أيديهم . وإنها لصورة لا تنسى إذا مرت بحياة امرئ مرة . ولو لم يكن هو الغنيمة المستنقذة . . . فما بالك وهو الذى من أجله تحدت الهلاك وجابهت الفئة الكبيرة بسيفها الفرد ؟

وفى هذه الأثناء كانت الثورة قد بدأت تأكل أبناءها الواحد منهم تلو الآخر ، وكان دور « ديموريبيه » قد حل . فقدم عليه مندوبو الجمعية التشريعية يستدعونه للمثول بين يديها ، ليتخذ عن طريقها سمته إلى المقصلة . . . كما سلك تلك الطريق أساطين من قبل . . .

وخرج الرجل الى باب خيمته وصاح بصوته الجهير :

— إلى يا فرسان . . .

وأعانه الفرسان ، واعتقلوا رسل الجمعية ، واستعد القائد الكبير للفرار بجلده مع نخبة من صحبه . فقد أهدرت الجمعية دمه بتهمة التآمر على إعادة الملكية ، وتنصيب الدوق دى شارتر الشاب على عرش فرنسا . . . كما اتهمه البعض بالخيانة العظمى ، والتواطؤ مع أعداء الوطن من دول أوربا الوسطى . .

فهل تتخلى الفتاتان عن القائد الطريد ؟ . .

قد يفعل هذا رجل لا يعرف إلا المبدأ العام . . . أما المرأة ، فلا تزال المشخصات الجزئية عندها هى الواقع الملموس المحسوس ، الذى يطغى على كل اعتبار نظرى .

فكيف وهو متهم بصداقة دوق دى شارتر الشاب الوسيم ؟ وكيف والفئة الهاربة من خيرة عشراء الميدان وقواده الذين طالما كان لوائهم ظلا لسيوف الفتاتين وبلائهما المجيد ؟ . . .

امرأتان باسلتان . . .

ولكنهما امرأتان . . .

ولهذا اختارتا الرجال وآثرتاهم على المبادئ المجردة التى لم تكن بشراً سويا تربطهما به الألفة ، والمودة المتبادلة والمشاركة فى الشدة والبأس .

وكم كان لهما فى هذا الهرب من أثر جليل ، فقد تبع رجال الحكومة الهاربين واشتبكوا معهم ، ولولا شجاعة فيلستيه وأختها « تيوفيل » لوقع ديموربيه بين أيدى مطارديه ؛ فقد سقط تحته جواده أثناء الفرار ، والعدو فى أعقابهم ، فاستدارت تيوفيل وكرّت على اعقابها لتواجه المطاردين فتصدهم عنه ، فى حين ترجلت أختها فيلستيه فى أسرع من لمح البرق الخاطف عن جوادها وقدمته للجنرال فامتطاه ونجا بنفسه . ثم تمكنت الفتاتان من النجاة بعد ذلك حيث عبرتا الحدود إلى هولندة ، لأن الجمعية الفرنسية اعتبرتهما خائنتين . وفى هولندة عادتا إلى زى النساء ومشاغلهن ، إلا أن الحكومة الهولندية آثرت أن تجامل فرنسا بإعلانهما بالرحيل . فلاذتا بولايات ألمانيا ، ولكن ما من ولاية منهما قبلتهما فى أراضيها ، فعادتا إلى هولندا حيث لقيتا عنتا شديداً فى البقاء هناك .

ولكن ما تغيرت الحكومة ، وتحولت إلى « قنصلية » ،

حتى أذن لهما فى العودة إلى فرنسا . . . فعادتا إليها فى زى النساء التى لم تغيراه بعد ذلك قط . ولم يعرف عنهما بعد ذلك إلا أنهما تزوجتا فكانتا من خير الزوجات والأمهات . . .

ولم يكن زوج فيلستيه إلا ذلك الضابط البلجيكى الذى استحيته وأسرت قلبه بلحاظها وبسالتها جميعاً .

امرأتان باسلتان . . .

ولكنهما امرأتان

فى البيت وفى الميدان ، سيان . . .

فبواعث بطولتهما وأهدافها هى هى بواعث حواء وأهدافها منذ أول الزمان :

لا غنية لها عن المثل المحسوس الذى يخاطب فطرتها أنثى أو أما ، ومن هذا الطريق تكون تابعة لا متبوعة ، ميالة إلى البذل والفداء والتصدى للآلام الجسام . . .

٢ — تيريز الجسور

وفى نفس هذه الفترة التى ظهرت فيها الشقيقتان ، حين اتجهت عواطفهما نحو ميدان القتال قبل أن تجدا «آدما» الذى تخلدان إليه إخلاد الأبد ، ظهرت فتاة أخرى اتجهت نفس الاتجاه قبل أن تجد «آدمها» . ولكن على اختلاف

يسير ، فصاحبتنا هذه المرة فتاة قليلة الحظ من الجمال ؛ قليلة الحظ من عطف الأسرة . أفسدت تربيتها فشبت مع صبيان الشارع كما ينشأ الصبي الشرس من صبيان الأزقة ؛ فكانت على أنوثتها الكامنة ذات « قشرة » صلبة من الذكورة إذا استقام المجاز ، لهذا تأخر بها عن صاحبتيها وقت التقائها بآدمها ، ولكنها مثلهن ، لم تفلته إذ وجدته ، بل ألقت من يدها سيفها ورمحها لتخلص له بقلبها ووجدانها جميعاً .

والحق أن حياة تيريز الجسور من أحفل حيوات النساء الغريبات الأطوار بالمتعة والطرافة ؛ ولكنها كما سترى لا تصلح قدوة للنساء لمجرد هذه الطرافة والغرابة ؛ فهي شيء ينظر إليه ولكن لا يقتدى به .

ولدت تيريز عام ١٧٧٤ في ريف فرنسا عن أب طحان وأم ودعت الحياة إذ منحتها الحياة . ولم يلبث الأب أن تزوج إمرأة قوية البنية سليطة اللسان طويلة اليد ؛ وكانت لها عند الكأس ترة ، حتى إذا نقعت غلتها وشغشعت الخمر في دماغها جعلت زوجها — أبا تيريز — أمثولة للناس بما تكيله له من الضربات والشتائم حتى يجتمع عليهما الخلق .

وأي الناس كانت تيريز في هذا الوقت ؟

كانت فتاة شيطانة دون التاسعة من عمرها ، يضج أهل

الحى قاطبة من فصولها الجريئة ، فهى لا تهاب شيئاً ، ولا تبالى بأحد . همها معاكسة الناس واستثارة غضبهم وسخطهم، تجد فى ذلك لذة .

وإنها لتذكر — فى مذكراتها — أنها كانت تغرم بركوب الخيل ، وهى فى تلك السن الصغيرة ، وأن هدفها بالحصى لا يخطئ ، وأن ضربتها به قاضية ! وأن جندياً من سلاح الفرسان كان يتردد على بيتهم فى ذلك الزمن بملابسه الجميلة التى تستهوى ذوى الأسنان الصغيرة ، فكانت تميل إليه وتدعوه زوجها ، وكان هو يدعوها عروسه الصغيرة . وكان يطيب لها أن تضع خوذته اللامعة على رأسها وتنظر إلى طلعتها فى المرآة وهى على هذه الحال .

فهى منذ هذه السن تهيأ — دون أن تدرى — لاتجاهها الغريب فى الحياة : فأبوها مستضعف أمام امرأته ، وذلك حرى أن تختمر فى سريرتها أمنية ضمنية أن تكون رجلا قوياً لتعوض هذا الضعف فى الأب الذى تلتمس فيه كل فتاة القوة والحماية ، وتحب أن ترى فيه الكمال مشخصاً ، فكل فتاة بأبيها معجبة . ثم هذه الثياب الجميلة التى لا تخطئ أن تداعب خيال كل فتاة ، بل كل طفل ، أعنى ثياب الفرسان المزركشة ، التى لا تفترق عن معنى القوة

والبأس فى أخلاد الصغار . وأخيراً النزعة إلى المبادأة بالعدوان والتحرش والميل إلى التشفى بآلام الناس ، كل تلك تجتمع فى مهنة الحرب فالبذرة قد وجدت منذ هذه السن تربة صالحة فى غفلة من وعى الفتاة ومن حولها من الأهل أو العشراء . حتى إذا مات أبوها وهى فى التاسعة من عمرها — مات غما من سوء ما لقيه من زوجته العاتية فيما يلوح — انكسرت آخر حلقة فى السلسلة التى كانت تحد من اتجاهاتها وتقييد حريتها فى الاختيار أو الانطلاق على سجيتها . ولكن سن التاسعة كانت أصغر من أن تتيح للبذرة أن تنمو وتؤتى أكلها الحلو أو المر ، وأن تتعرف الفتاة أى سبيل تسلك فى الحياة . ولكنها بدأت تنحو النحو الذى يوائم تكوينها النفسى فى غير احتجاز .

فبعد وفاة أبيها أخذها عم لها لتعمل فى مغسل ، وفى هذه الفترة تعرفت بفتى يكبرها بسنة واحدة — عمره أحد عشرة سنة — هو « كليمان ستر » — وأصبح صاحب لهوها وشغبها المفضل .

ومن « ستر » هذا ؟

إنه غير غريب عن جو الجندية وثيابها وموسيقاها ، بل إنه حامل الطبلة فى الفرقة السويسرية بالبلدة ! وفى صحبة هذا

الفتى حلا لها أن تقيم الدنيا وتقعدها بالشغب والاعتداءات على ممتلكات الناس وحيواناتهم حتى أخذها عمها مرة أخرى إلى « آفينيون » وحاول أن يلحقها بمحل نساج لتتعلم عنده النسيج والرفو ، ولكن هذا العمل الذى يسمرها إلى المقعد ساعات طويلة لم يصادف هوى فى نفسها ، فهى لا ترضى بديلا عن حياة القفز والنط والتحرر التى ألفتها كما يألفها أى غلام أفاق . . . وكانت سنها فى هذا الوقت قد بلغت الخامسة عشرة ، وهى سن تعتبر فاصلة عند الفتيات فى إبراز خصائص الجنس الثانوية . ولكن ما تلك إذا قيست العوامل التى تكونت فى نفسها دون وعى منها لكى تتجه إلى التشبه بالرجال ، بل إلى الجندية بالذات ؟

ولكن ينبغى ألا نخطئ فى تأويل هذا المسلك : فهو ليس مسلك كراهية « آدم » والنفرة منه ؛ بل إنه على العكس فرط انجذاب إليه يصل إلى حد الاقتداء ، بل يصل إلى حد التعويض عن « رجولة » أبيها المهدرة برجولة من جانبها قوية عاتية عارمة المظهر ، ولا يكون ذلك عن كراهية له مضمرة فى نفسها ، بل عن محبة شديدة تجعلها تضحى بوجودها الخاص كى تقيم وجوداً بدل وجوده المنهار .

وليس معنى هذا أنها وعت ذلك أو خطر برأسها شىء

منه ، وإنما هو ما نسميه اليوم بالوجدانيات المضمرة أو تدبيرات العقل الباطن .

ففى هذه السن كانت الثورة الفرنسية الكبرى قد اندلعت ألسنتها فى كل فرنسا . وكان المقصود منها أول الأمر ليس ما انتهت إليه فعلا من تقويض الملكية والاندفاع فى الإرهاب وتقويض كل نظام قائم فى المجتمع الفرنسى ، فتلك غلطة شائعة لعل المسئول عنها تلك المعلومات المشوهة التى ينشرها أنصاف الأميين فى الصحف على الطراز الحديث ، فيتلقفها العوام ممن كل مصادر علمهم هذه الصحف بالتصديق والتسليم ، ولا سيما إذا صادفت هوى فى نفوسهم ، كالميل إلى التخريب والانقلاب . — أقول ، بعد هذا الاستطراد الذى لا لزوم له لا لأنه خطأ بل لأنه لن يغير من الحاصل شيئاً — إن الثورة فى مبدئها كانت حركة إصلاح دستورية مع بقاء النظام الاجتماعى والحكم الملكى . ولكن الغوغاء دأبها دائماً إذا استولت على الزمام أن تترك الميول المكبوتة — وهى غالباً عنيفة — تحتل مكان القلب والعقل جميعاً ، فتنتهى الحركات الحركات الشعبية لهذا السبب إلى عكس ما قامت من أجل تحقيقة ، أعنى أنها تنتهى بالفوضى والتخريب لا بالإصلاح والتقويم . وإذا كانت الثورة قد اندفعت فى الطريق التى

رسمها غوغاء باريس فعزلت الملك ثم قتلته ، فما كان ذلك ليرضى الكثيرين من أهل الريف المخلصين للملكية ؛ مما أدى إلى قيام حركات معادية لحكومة باريس . ولكن الحكومة المركزية فى موقف يسمح لها فى الغالب بالقضاء على هذه الحركات لوجود المال ومراكز الإدارة تحت يدها منتظمة قائمة ، فى حين تعوز المتمردين عليها مزايا التنظيم والأداة الإدارية المستقرة ، والمال على وجه الخصوص .

ومقاطعة « آفنيون » مقاطعة متمسكة بالدين ، وبالتقاليد ، فكان طبيعياً أن تثور لإعدام الملك والملكة ، وأن تجرد جيشاً من أهلها المتطوعين للانتقاض على حكومة فى الثورة . وكان عم « تيريز » جندياً فى أيام شبابه ، فاختير لقيادة جماعة من الجيش الجديد المرتجل . وحار ماذا يصنع بابنة أخيه ، ولكن حماستها للجندية أخرجته من حيرته ، لأنه كان يتوقع أن تنتصر الحكومة الثورية ، وأقلقه الخوف على عرضها أن يصيبه ما يصيب أعراض الفتيات المسالمات فى أمثال هذه الفتنة الجامحة ، ولا سيما من جنود ثوار يسيء بهم أهل الدين والتقاليد المظنة ولا يتصورونهم إلا شياطين خلت نفوسهم من كل وازع . فكان هذا دافعه أن يسمح لتيريز بارتداء ملابس جنود الجيش الجديد والانضمام إلى فرقته الصغيرة

المكونة من أخلاط من أرباب المهن يعوزهم التدريب والنظام وألفة القتال .

فلا غرابة إذن أن ينتصر الجمهوريون عليهم انتصاراً سهلا ؛ فما هجموا على أصحاب « تيريز » حتى دب فيهم الذعر ، وصاح صائح القوم « قد هلك سعد ، فانج سعيد » ؛ فإذا هي وحدها مع عمها القائد ، وقد أخذتهم سيوف القوم ونيرانهم من كل صوب ، فما أجدت محاولات الرجل في تشديد عزيمة رجاله ، فكان إذا جذب الواحد منهم من ساعده ليبقيه أفلت منه بعنف ، أو ترك له سترته التي يتشبث بكمها ونجا بجلده ! وندع تيريز تصف ما حدث في ذلك الموقف العصيب :

« وأقبل العدو سراعاً ، وما بقي غيرى وعمى في الميدان ، وكأنما شل تفكيرنا فهو عاجز عن تدبير مخرج لنا مما وقعنا فيه . وفي هذه اللحظة برق بخاطرى شيء ، لست أسميه فكره ، وإنما هو بالإلهام أشبه . فقد كانت قادوحة المدفع تحت قدمى ، فانحنيت وقلبي يدق دقاً عنيفاً ويدى تهتز كورقة في مهب الريح فتناولت القادوحة وجذبت الحبل ، فانطلق المدفع ، وأبصرت خلال التراب الثائر اضطراباً في صفوف الأعداء عقب دوى الانفجار . وقد تم الأمر كله في أقل

من لحظة واحدة ، كأنه ومضة حلم ، حتى إذا انتبهت وجدت نفسى ملقاة على الأرض إلى جانب عمى ، فنهضنا مسرعين وانتهزنا فرصة ارتباك العدو فأسرعنا هاربين ، واعتصمنا بزراعة كرم مما يكثر فى تلك الجهة »

ولكن العدو لم يلبث أن اكتشف مقرهما ، وحاصره برباط من الفرسان ، ولم يخطر لأحد منهم أن تحت هذا الزى العسكرى فتاة لافتى ؛ بل إنهم كانوا ينظرون فى شفقة ودهشة إلى هذا « الغلام » الذى كان باسطاً ذراعيه ليمنع عمه من امتشاق سيفه ، لأن المقاومة لم يكن لها معنى إلا أنها انتحار ؛ حتى أن واحداً منهم قال لتيريز وهو يصوب بندقيته إلى صدر عمها :

— ابتعد أيها الشاب الصغير حتى نصفى حسابنا مع هذا الوغد .

وأقبل جنود آخرون فى هذه اللحظة ، وصاح واحد منهم .

— إن الفتى هو الذى أطلق المدفع . لقد رأيته بعينى رأسى . اقتلوهما جميعاً .

ولولا أن هبط عليهم فى تلك الآونة ضابط أنقذ حياة الأسيرين واقتادهما إلى المعسكر لكانت هذه نهاية تيريز وعمها على السواء . وفى الطريق إلى المعسكر عرفت تيريز

أن قذيفتها قتلت ثمانية رجال أو تركتهم لا يصلحون بعدها لحرب أو سلم !

وظلت حقيقة جنسها مجهولة ، فقذف بها فى معسكر للأسرى من تلك المعسكرات التى ارتجلت إرتجالا ، وقد فرق بينها وبين عمها ؛ فذاقت فى تلك الحياة ألواناً من الهوان والنكال ، وأصابها من تكاشف الناس فى ضروراتهم ومباذلهم تقزز فزعت منه ، فاحتالت على حارسها – وكان طيب القلب – فرشته بساعة كانت تخفيها بين طيات ثوبها لكى يبلغ القائد أنها فتاة ، وأنها لهذا مضطرة إلى لزوم عمها . وأبلغ الحارس الرسالة ؛ وفى الغداة دعيت وعمها لمقابلة القائد وزوجته ؛ وقد تملكهما العجب بجرأتها مع أنها فتاة ، ورق لها الرجل فعرض عليها أن يطلق سراحها ويعفو عنها إذا انضمت بجيوش الجمهورية تحت إمرته .

وكادت الفتاة المتهورة أن ترفض نهائياً ، بل إنها رفضت فعلا فى مبدأ الأمر :

– هذا مستحيل يا جنرال !

– لماذا ؟

– لأن الجمهوريين قطيع من القتلة ، ولأن « مؤتمرك » الوطنى قد أعدم « ملكى » !

وعبثاً حاولت إمرأة الجنرال أن تخرج هذه الأفكار من رأسها ، رغم ما يحيق بها من خطر ، وما ذاقته من عنت : لولا أن تدخل الجنرال بلهجة حاسمة صارمة قائلا لامرأته :

– دعيها وشأنها !

ثم التفت إلى الفتاة وقال بنفس اللهجة :

– اذهبي إلى سجنك كما كنت ، أو ادخلي في عدادنا فأعطيك خير جواد في الفرقة . . . وهذه نهاية المسألة . . .»

ودار الموضوع في رأسها ، فهي ليست من أهل السياسة ، وليست الملكية والجمهورية عندها إلا معارف على السماع ، ثم هي ولا شك تفضل شرف الجندية والحرية وصهوة حصان قوي على هذا السجن الكريه الذي كانت فيه ، أو ربما موسى الثورة المعروفة بالجيوتين ؛ فقالت للجنرال :

– لي شرط واحد . . .

– ما هو ؟

– إطلاق سراح عمي .

– ما أسعد طالعه أن تكوني بنت أخيه . . . قبلت !

– وأحب أيضاً ، قبل أن أحزم رأيي نهائياً ، أن ألقي نظرة على هذا الحصان الذي تعدني به !

فانفجر الجنرال ضاحكاً من جرأتها في وقت الشدة ،

حتى ما يفارقها المرح وحضور الذهن . . . وذهب معها إلى الإصطبل فانتقت الجواد الذى راقها ، ثم أعلن على الجنود أن الفتاة وعمها انضما إلى الجيش .

وسأل الجنرال جنوده :

ـ ماذا ندعوها ؟ . . .

فصاح أحد الجنود الذين أسروها :

ـ نسميها « تيريز الجسور » ، فإنها جعلت تسبنا وتصمنا بالجبن لأننا كنا نأتمر بقتل عدوين أعزلين بعد إذ كفا عن كل مقاومة .

ليكن « الجسور » اسمها منذ اليوم .

وكان هذا فى يوليه سنة ١٧٩٣ .

* * *

ومن هذا التاريخ لم تخل حياة « الجسور » من طرائف يسببها الانخداع فى جنسها . ففى حصار طولون ظنها قائد المدفعية غلاماً ممن يعملون فى خدمة الجيش فأمرها بتبليغ أوامر له كتابية إلى جهة نائية ، وكانت مجهدة على أثر عمل شاق ، فعرجت عند عودتها على جماعة من الجنود منهم الجاويش « مسينا » كانوا يطهون عصيدة حلوة ذات رائحة زكية ، فأكلت منها واستراحت قليلا ثم عادت إلى قائد

المدفعية بإيصال استسلام الأوامر ، فنظر فى ساعته وقال بجفاء :

— كان ينبغى أن تكون هنا منذ عشرين دقيقة . اذهب إلى الحجز .

وذهبت الجسور إلى الحبس وهى تكاد تنشق غيظاً . فهى مدللة من الجميع ، من القائد إلى أصغر جندى ، ولكن هذا الضابط الجديد لا يعرفها .

وافتقدها الجنرال عند الغذاء ، وكان لا يتغدى إلا بحضورها ، وأسرع ولده يدعوها من الحجز ، فدخلت على الضباط وهم على مائدة قائدهم حانقة ، وسألها القائد ماذا فعلت ؛ فصاحت بغير تحرج :

— هو هذا العتل ! انظروا إليه جميعاً ، أما ترونه يحمل أقبح وجه فى الوجوه . . .

وضحك الجميع ، وفيهم الضابط المقصود الذى كان قد عرف حقيقتها ، ولم يكن هذا الضابط المشئوم إلا نابليون بونابرت ، برتبة البكباشى .

ولكنها لم تلبث أن أسدت إلى هذا الضابط نفسه يدا بيضاء يقدرها قدرها ، إذ أن بطارية من بطارياته نفدت ذخيرتها أثناء هجوم الإنجليز فتطوعت وخاطرت بنفسها تحت نيران

الأعداء حاملة مددا من قذائف البنادق ، كان لها الفضل فى رد الهجوم عن ذلك الموقع . . .

* * *

وعندما انتقلت فرقتها إلى كاستر ، وهى قرية معروفة بملاحة فتيانها ، لم تحجم عن مغازلة البنات كدأب الجنود ، وكانت لها سوق نافقة ، ثم اصطفت فتاة علقتها ، ولكنها - بطبيعة الحال - كانت تكتفى بالصحبة والرقص والقبلات الخاطفة أحياناً ، ولا زيادة . وفى ذات ليلة كانت على موعد مع صاحبتها وكلفت بأمر هام ، فأرسلت من يمضى سهرة الرقص مع الفتاة عوضاً عنها . ويظهر أن ذلك البديل كان غير متأثم فى سلوكه معها ، فإذا أبو الفتاة يحضر بعد شهور إلى المعسكر ويجبه الجسور بقارص الكلم ، ويطلب إليها (أو إليه) أن يتزوج ابنته التى عبث بشرفها ، فسبته الجسور ولم تفصح له عن خطئه ، فذهب مع ابنته وزوجته إلى بيت الحاكم . ودعيت الجسور .فذهبت ، وإذا القائد وزوجته على أتم ما يكون من الجد الجاد ، كأنهما قاضيان على وشك الحكم بالإعدام .

وقال القائد للأب :

تعال معى ، ولتبق ابنتك وزوجتك مع زوجتى هنا ،

فلا شك أن لدى الجاويش الجسور ما يقدمه برهاناً للسيدات على نقاء صفحته مما ينسب إليه . . .

وخرج الرجلان ، وأقامت الجسور البرهان ، فأغمى على أم الفتاة من وقع المفاجأة العجيبة ، كأنها ترى أمامها خارقة من فعل الجن؛ حينئذ أطلقت زوجة القائد العنان لما طال بها كتمانه من الضحك . . .

* * *

وعلقها بعد ذلك ضابطها ، وطلب يدها وألح ، فاشترطت أن يسمح لها بارتداء الزى العسكرى بلا تغيير ، فوافق .

وتذكر هى ليلة الزفاف وكيف جعلت تراوح بين الإقدام والإحجام ، ذاكرة ستر رفيق صباها الذى كانت تحبه وتلعب معه وهى فى العاشرة ، وعهد الحرية الذى تمتعت به وكيف يهدده سلطان الزوج الذى لا يضمن استمراره على إرخاء العنان وإطلاق الحرية . ولكن بريق المكانة الاجتماعية التى تحتلها زوجة « قائمقام » حسمت الأمر

وحانت ساعة العقد ، وهو على عهد الثورة وما تلاها لا يعقد فى بيعة، وإنما أمام مسجل العقود أو « موثقها » الرسمى ورأى الرجل أمامه حاشية شرف من الضباط ، ورأى العروسين متماثلين تماماً فى السمت والشارة ، من الخوذة ، إلى الحلة ،

إلى السيف الموشى ، إلى الحذاء الصارم . وحك الرجل أرنبة أنفه وصاح فى حيرة :

ــ أريد أولا أن أعرف أى هذين السيدين هى العروس ؟

وانطلق الحضور يضحكون . . . حتى العريس الذى كتم الضحك أول الأمر لم يلبث أن اندفع يضحك معهم ويربى عليهم فى علو الصوت . . .

وأحنق هذا تيريز ، فسبت العريس وأعلنت أنها لن تكون له زوجاً بعد اليوم ، وانصرفت محنقة .

* * *

وفى فيينا أعجب بها الماريشال برنادوت ، الذى أصبح ملك السويد فيما بعد إذ انسلخ عن ولى نعمته نابليون ، ومن نسله الكونت برنادوت المعروف للعرب والذى قتله اليهود فى فلسطين غيلة . وطلب الماريشال إلى قائد فرقتها أن يسمح بنقلها إلى هيئة حاشيته .

ولم تلبث أن دعيت ذات صباح إلى حضرة الماريشال .

ــ أتدرين يا عزيزتى الجسور أننى لم يغمض لى جفن هذه الليلة ؟

ــ إنك مرهق يا ماريشال . فهذه الحملة قد وقع عبؤها عليك .

ـ ليس هذا هو السبب ، فقد تعودت العمل الشاق . أنت هو السبب فى هذا الأرق ! . . .

ـ سيدى الماريشال يمزح ولا شك !

ـ البتة ! فقد انجذبت إليك منذ وقع بصرى عليك ، وأحسبك قد لاحظت ذلك دون أن أبوح به .

فرفعت رأسها إلى فوق وجمدت نظرتها ولم تجب .

ـ اسمعى ! حين أكون فى الميدان لا بد لى من عشرة امرأة . وزوجتى لا تساعدها صحتها على صحبتى فهى دائماً فى باريس . فليس الأمر نزوة عارضة ، وإنما ما أعرضه عليك هو الصحبة المستقرة وسأحسن جزاءك !

وجذبها إليه ليقبلها ، فتخلصت منه بلا عنف ولا غضب ، ولكن بأسف ومرارة ؛ « فهذا الرجل الوسيم ، العالى القدر ، القوى ، المذهب الصدر والأكمام ، المرصع زيه بأسنى الأوسمة ، ينزل بنفسه إلى هذا الحد ، فينظر إلى أنا هذه النظرة الرخيصة ، وأنا صنوه فى الشرف العسكرى ، فقد قاتلت كما قاتل فى الميدان وسيفى مصلت فى يدى ، أنوش الأعداء وينوشوننى ! لقد نضح فى تلك اللحظة جبينى بعرق الخزى ، الخزى له ، لأن عاره يصيبنى أنا أيضاً لما بيننا من شرف عسكرى مشترك ؛ ثم غمغمت كلمات غير

مفهومة فى ذاتها ولكن دلالتها واضحة ، مثل « رجل متزوج له أولاد . . . لم ترغب فى تقريبى إذن لأننى جندى شجاع ، بل لأن . . . ووقف الكلام فى حلقى . . . فأسرع الرجل يعتذر ولج فى الاعتذار . . . »

حدث هذا سنة ١٨٠٦ ، ومن هذا اليوم رحلت تيريز من فينا وعادت إلى فرنسا كاسفة البال .

* * *

وعندما بدأت حرب العصابات فى إسبانيا ، اشتركت فى الحملة ، وتعرضت لمحن كثيرة ، وأنقذت جندياً من الموت ولكنها وقعت فى الأسر آخر الأمر ، ونقلت مع من نقل إلى بريطانيا على يد ولنجتون .

وكانت السفن التى نقلوا عليها عتيقة بالية ، وكان النوء شديداً فخاف الأسرى وجعلوا يبتهلون ويتصايحون وتيريز جامدة ، صامتة ، وإذا رجل إلى جوارها يصيح وقد ذهب الخطر برشده :

ــ أين حذائى يا تيريز . . . هاته لى ، فما أستطيع أن أقف بدونه . . .

فقالت له بهدوء قاتل :

ــ أولى لك أن تبحث عن طاقية نومك ، لأنك وشيك

أن تنام النومة الأبدية !

* * *

وفى إنجلترا أحسن معاملتها كما أحسنت معاملة جميع الأسرى ، واشتغلت بفلاحة حديقة بيتها الذى تسكنه ، وإن أجبرت على خلع زى الرجال . ولكنها ظلت على حالها من الجسارة والخشونة والمبادرة إلى المدية للتفاهم عند أول بادرة خلاف . . .

وقد نال المهاجرات النبيلات من لسانها الشيء الكثير إذا جرحوا أمامها الشعب الفرنسى . حتى إذا هزم نابليون أول مرة أعيدت إلى فرنسا ، لكى تجد نابليون فى أعقابها عائدا من إلبا ، فانخرطت فى سلك الجيش من جديد .

ولكن نابليون لم يلبث أن انتهى فى واترلو ، فانتهت معه أطماعها العسكرية ، وخلعت الزى العسكرى وافتتحت مطعماً متواضعاً للجنود قبالة الثكنات ، لتعيش أقرب ما يكون إلى جوها الذى ألفته . . .

وفى هذه الحال لقيت رفيق صباها « كليمان ستر » وكان قد صار من رجال الحرس الملكى ، فخطبها له قائد باريس العسكرى تكريماً لماضيها فى الميدان ، فقبلت . . .

قبلت لأنه « آدمها » الذى لا ترفضه ، ولا تجنح للاسترجال

إلا لأنها لم تلقه بعد .

وندعها تصفه بنفسها إذ تقول :

« ما وقعت عقد الزواج حتى طرحت من رأسى كل خاطر يتعلق بالاستقلال والتحرر ، وأصبح كل تفكيرى منحصراً فى إسعاد زوجى ، ولم يبق من روحى العسكرية القديمة إلا الإيمان بأن الطاعة العمياء واجبة على للقائد الذى ارتضيته . ولم تكن أوامره قاسية ، فقد كان زوجى ألطف الرجال وأحبهم إلى . فهو شجاع مخلص رزين رقيق الحاشية . وكان فوق هذا كله نموذجاً جميلا للرجولة الحقة ، فهو أوسم رجال فرقته جميعاً . طوله أكثر من خمسة أقدام ، له صدر عريض يزينه وسام الشرف . أما سمانة ساقه فمن الضخامة بحيث لا تفيض عنها منطقتى التى أحيط بها خصرى . »

* * *

أرأيت كيف تنتهى العرامة والجسارة ؟ . . .

تنتهى عند آدم ، وإن بدت لأول وهلة كأنها آية الغنى عنه والزهد فيه ومنافسته فى ظاهر أمره وخافيه . . . لأنها فى واقع الأمر مما حكة الراغب لا مناوشة الصادف . . .

إنه التعوض عن آدم قبل حضوره ، وقد يطول غيابه وقد يقصر ، ولكنه لا يرد إذا حضر .

٢ ـ مع آدم

من الصحراء

من الغرب

من الريف

من الصين

١ — من الصحراء

من المعروف عن العرب حمايتهم الحريم ، يجعلون ذلك عندهم أغلى ما يحرص عليه . ولهذا كانوا يصحبون نساءهم معهم إذا خرجوا لغزوة ، حتى يوقن الرجل منهم أن معنى الهزيمة الذى لا معنى سواه سبي حريمه من نسائه وبناته ، وتلك غاية القهر وسبة الدهر .

وكان النساء يشاركن فى المواقع مشاركة تتفق وجنسهن ، فيحملن الماء إلى الظماء ، ويعن الجريح ، ويحرسن مؤخرة الجيش ، ويعيرن من يفكر فى الفرار حتى يخجل ويثبت فى الميدان .

ومن أغانيهن فى هذا المقام تلك الأرجوزة المشهورة :

فأن تقبلـــوا نعانق ونفرش النمـــارق
أو تدبروا نفـــارق فـــراق غير وامق

* * *

إلا أن الحماسة فى هذا المجال ليست حماسة فردية ، وإنما هى روح الجماعة ، جماعة النساء بالعدوى أو بالتبعية لجماعة الرجال . فالنساء فى هذا يتبعن عزفاً ، ولا تتميز واحدة منهن

بالمبادأة فى العمل ، وإن كانت للجرأة مكنتها فى هذه المواقف ؛ ولكنها جرأة المجاوبة لشعور الجماعة مجاوبة أحر من سواها ولا زيادة .

فمن ذلك ما حدث على ما يقال — فى غزوة « أحد » إذ خرجت « عمرة بنت علقمة الحارثية » مع زوجها وكان من بنى عبد الدار ، فأصيب لواء القوم ولم يدن منهم أحد لرفعه ، فانبرت عمرة إلى اللواء فرفعته لقريش فالتفوا حولها ولاذوا بها ؛ وفى ذلك قال حسان بن ثابت :

ولولا لواء الحارثية أصبحوا يباعون فى الأسواق بالثمن البخس

* * *

ولكن أبرز مثل فى تاريخ العرب للمرأة المحاربة ، المقاتلة فعلا كما يقاتل الرجال بسلاحهم وعرامتهم وتجديهم للأقران والأبطال ، فهى ولا شك « غزالة » الخارجية » زوج شبيب ابن يزيد ، أمير الخوارج المشهور بمواقعه مع جيوش الحجاج ابن يوسف على عهد عبد الملك بن مروان . حتى قيل إنه قتل للحجاج خمسة قواد وهزم له عشرين جيشاً ، وهو على رأس فئة قليلة قيل إنها لا تتجاوز فى أغلب الأحيان تسعين رجلا .

وقد اشتهرت زوجه غزالة باشتراكها معه فى الحروب ،

وفى التبصير بمعتقدهم فى الدين ، فهى تخطب على المنابر ، وتخوض المعارك ، وتتحدى الكماة للمبارزة كما يتبارز الأقران ، حتى قيل إنها دعت الحجاج فى بعض المواقع أن يبرز إليها بعد أن جندلت من فرسانه العدد العديد، فأبى وخاف ، فعيره عمران بن قطحان بتلك الأبياتَ اللاذعة التى تقطر تهكماً وزراية :

أسد على ،وفى الحروب نعامة   فتخاء تنفر من صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة فى الوغى؟   بل كان قلبك فى جناحى طائر !

* * *

والظاهر أن غرابة هذه الفعال من امرأة حجبت شيئاً ما فعالا لا تقل عنها غرابة أتاها زوجها شبيب ، فما خرجت غزالة إلا بخروجه ، وما حاربت إلا شدا لأزره ، وقصارى الأمر أن «شناً قد وافق طبقة» . فنظرة إلى صورة ذلك الرجل تطلعنا على عملاق جبار يعز ضريبه بين أهل الفتوة والعرامة . فهو قوى فى كل شىء ، حتى قيل إنه كان لا يحارب بسيف ، بل بقضيب من الحديد قيل إنه كان يزن ثمانين رطلا ، وأنه كان يعد به القتلى بعد انتهاء المعارك التى يكسبها ! أما صوته فكان شيئاً مهولا : إذا صاح فى جنبات الجيش لم يلو فيه أحد على أحد ! حتى قال فيه الشاعر

إن صاح يوماً حسبت الصخر منحدراً

والريح عاصفة والموج يلتطم

فهو رجل من جبابرة الخلق وعتاتهم ، له امرأة على غراره فيل إنها كانت فقيهة أيضاً وخطيبة ، فهى معتزة بجبروتها مزهوة بجبروت رجلها ، حتى إنها قالت له يوماً :

— يا شبيب ! لقد نذرت لله نذراً سألتك أن تعيننى على الوفاء به ؟

— وما ذاك يا غزالة يرحمك الله ؟

— أن أصلى فى مسجد الكوفة الجامع ركعتين ، أقرأ فى الأولى سورة البقرة ، وفى الثانية سورة آل عمران . . .

وما أدراك ما الكوفة يومذاك ! إنها حاضرة الجبار العنيد ابن يوسف الثقفى الذى قتل له شبيب القواد، وأفنى له آلاف الأجناد، وجعله مضغة فى أفواه العباد . وإن للحجاج فى الكوفة لستين ألفاً جمعهم لحرب شبيب وغزالة !

ولكنه الجبروت والعزة بالفتوة !

وناهيك بالبقرة وآل عمران : أنهما أطول سور القرآن قاطبة . فآيات البقرة مائتان وست وثمانون آية ؛ وآيات آل عمران مائتان . . . وناهيك بصلاة تتلى فيها هاتان السورتان وسط عدو عدته ستين ألفاً . . . إنها ليست صلاة الواجف

العجلان ، بل هى فعلة المستأنى أناة الاستهانة بعدوه الجرار .

ولكنه الجبروت والعزة بالفتوة !

وآلى شبيب على نفسه أن ينيل غزالة وفاء نذرها ، فقصد الكوفة برجاله فمر بعتاب بن ورقاء على رأس جيش للحجاج فقتل عتاب وفرق جيشه ، وانقض على عبد الرحمن بن محمد وجيشه فهرب عبد الرحمن بجلده وتشتت جيشه ثم دخل الكوفة وفيها الحجاج فى ستين ألفاً فدخلها عند أوان الصبح واخترق شوارعها لا يعترضه أحد ، ووقف بثمانية من أصحابه عند باب المسجد ، حتى صلت غزالة كما نذرت وأطالت كما شاءت ثم خرج كما دخل لا يتعرض له أحد ؛ وقيل إنه أصعدها المنبر فى بعض « كبساته » للكوفة فخطبت الناس! ويقول صاحب الفرق بين الفرق إنها كانت فى تلك « الكبسة » على رأس كتيبة من النساء يعتقلن الرماح ، وإن كان يذكر غزالة بوصفها أم شبيب لا زوجه ، وذلك عندى مستبعد ، لأنها لو كانت أمه لظهرت فتوتها قبل ولدها ، وإذا هى ادخرتها لحين ظهوره فما تكون إلا عجوزاً وهى عصبها ، فقد كان شبيب يومئذ فى الأربعين .

وفى غزالة يقول خزيمة بن فاتك الأسدى ذاكراً كبساتها لمدن العراق مع زوجها :

أقامت غزالة سوق الضرار لأهل العراقين حولا قميطا
سمت للعراقين فى جيشها فلاقى العراقان منها أطيطا

والأطيط — يرحم الله القراء — هو الصوت يخرج عند اشتداد الكرب ، أو هو حنين الابل إلى معاطنها ، والمعنى أن أهل العراق لقوا منها الويل والحرب . . .

ذكروا ويل العراق من غزالة ، وما خرجت غزالة وحدها ، ولكنها غرابة فعالها من امرأة ؛ فلم يذكر زوجها إذ ذكرت ، وما كانت — فى ظنى لتقوم بالعبء لولاه — فهو اعتزازها برجلها القوى الجبار يستنفر اعتزازها بقوتها الخاصة ، حتى إذا غرق شبيب فى دجيل إذ نفر به جواده ، لم يطل بعده قيامها ، بل هزمت وقتلت عند أول لقاء . . .

ذهب العود ، فاختفى الظل
وكان ظلا هائلا لعود هائل . . .
لقد كانت غزالة شيئاً مروعاً . . .

ولكنها فى الواقع كانت أهول ما تكون من حيث هى أنثى شبيب بن يزيد التى تلتئم معه فى الصفات ، فتنفر معه إذا نفر ، وتموت إذا مات .

كانت غزالة « فارساً » مغواراً . . .

ولكنها كانت حواء من ضلع آدم ، ولم تكن خليقة مستقلة

على ضخامتها وعتوها الفريد . . .

٢ – من الغرب

وقد زخرت صحائف الغرب بنظائر لتلك الفتوة الأنثوية التى تختلط بحياة الرجل المحارب مخالطة مآزرة أو استمرار وأكثر تلك الأمثلة قد ظهر فى عهد نابليون الأول ، لأن حكمه كان مسرحاً متسعاً للجندية ، ولأنه سلك فى عداد جنوده معظم شباب فرنسا ، فأتيحت الفرصة للاناث المتجاوبات مع فحولة رجالهن وفتوتهم أن يظهرن فى تلك الحقبة بالذات أوضح ظهور ؛ إما محاربات مع الزوج لكى لا يفترقن عنه ، أو خالفات الزوج فى الطريق الذى عاش له ومات فى سبيله ، كأنما هن استمرار للرجل بعد موته . . .

وأولى تلك المثل مثال المرأة التى تلزم زوجها وتشاركه الشدة والبأس : « ديكو بونسيه » .

ويروى الرواة أنها عرفت نابليون ، وكان ذلك عام ١٨٠٦ أثناء عرض للخيالة فى ساحة مارس ؛ إذ لمح نابليون فارساً يتبع الصفوف ولا يندمج فيها على خلاف المعهود فى طوابير الجيوش ، وكان – كأى قائد عليم بصناعة الحرب – يتشدد فى أمر النظام والتدريب ، فاشتاط غضبه وصاح بقائد

الفرقة فى لهجته الخاطفة الصارمة :

– ما هذا الذى أرى ؟ لماذا لا يلزم هذا الفارس مكانه فى الصف ؟ كيف يتأتى أن يختل النظام إلى هذا الحد فى فرقة راق لى أن استعرضها بنفسى ؟ احبسوه أسبوعاً فى الثكنة

فأجابه القائد مراجعاً :

– مولاى ؛ اسمح لى أن التمس من جلالتكم تخفيف شدة هذا الحكم وأن ألتمس للمذنب الصفح . فإن جلالتكم لن تتمسكوا بتنفيذ هذا العقاب إذا عرفتم قصته . . .

– حسن ؛ احضره إلى هنا .

وحضر الفارس مركضاً جواده ، ودار بينه وبين الإمبراطور الحوار التالى :

– اسمك ؟

– ديكو بونسيه يا مولاى .

– لماذا تركت الصف ؟

– لم أكن فيه حتى أتركه ؛ فقد كنت دائماً أتبع هذه الفرقة على وجه التطوع ، لأننى لم أشأ أن اندمج فيها حتى يقرر مولاى أننى أهل لذلك .

– كم مضى عليك منذ تطوعت ؟

– ثمانى سنوات .

ــ وما دفعك إلى التطوع ؟

ــ حبي وطني وزوجي الذى لم أحبب فراقه ؛

ــ ماذا ؟ أأنت امرأة ؟

ــ أجل يا مولاى ؛ ولست واحداً فى الفرقة كلها ساعداً هو أصدق مضاء فى خدمتك من ساعدى ؛

ــ وما اسم زوجك ؟

ــ « بونسيه » . ضابط الإمدادات والخدمة .

ــ ما مسقط رأسك ؟

ــ أنجوليم .

ــ ما عمرك ؟

ــ ثلاثة وثلاثون عاماً

ــ ألك أولاد ؟

ــ أجل يا مولاى ؛ ولد واحد

ــ ماذا يعمل ؟

ــ إنه حامل الطبلة فى الفرقة الثانية .

ــ حسن ؟ أتعرفين التمرينات العسكرية ؟

ــ أجل يا مولاى ؛ وتمرينات السيف أيضاً .

ــ أود أن أرى هذا بنفسى ؛ أدعوا ثلة من الجنود ولتأخذ بينهم مكانها ولتبدأ التمرينات . . .

وشهد الإمبراطور التمرينات بنظره الثاقب حقيقة ومجازا ، وبعد برهة صاح فجأة — على عادته :

— كفى ؛ لا بأس ؛ « ديكو بونسيه » أعينتك فى الجيش بنفس رتبة زوجك ؛ انصراف :

وفى موقعة « إيلو » على الخصوص أظهرت شجاعة باهرة فقد كانت تندفع بين صفوف الأعداء وسيفها مشهر فى يدها ، فقتلت قائد الكتيبة المعادية وعادت إلى مركز القيادة بوشاح الضابط الذى قتلته ؛

وفى موقعة فريدلاند أصيبت بضربة سيف غائرة فى فخذها الأيمن ولكنها لم تأبه لإصابتها واستأنفت القتال حتى أصابتها قذيفة تحت إبطها الأيمن ، ولكنها ثبتت على صهوة جوادها ، ونقلت السيف إلى يدها اليسرى واندفعت تحارب مرة أخرى . . .

وفى هذا اليوم أسرت ستة من البروسيين استاقتهم إلى نابليون ، فنزع — فيما يقال — وسام الشرف (اللجيون دونير) من صدره وثبته على صدرها ، اعترافاً ببسالتها وحسن بلائها .

وفى موقعة واترلو ذهبت شظية قنبلة بأحدى ساقيها ، كما سقط زوجها إلى جوارها قتيلا ؛ وكان قد بلغ رتبة اليوزباشي ، وأخذت أسيرة ، ولكنها عوملت بكل احترام

من آسريها البريطان .

وفى سنة ١٨٢١ ، أى بعد ست سنوات ، عادت من الأسر إلى وطنها فرنسا ، بعد أن ظن الجميع أنها ماتت . ولكن المملكة العائدة إلى العرش لم تأبه لها ، فظلت مهملة الشأن حتى ماتت سنة ١٨٣٤ فى حالة من العوز شديدة ؛ ولكنها تحملتها بشجاعة وأنفة ، حتى أثر عنها أنها كانت تقول دائماً :

— إن يكن نجمى فى الحضيض ، فرأسى لا يزال فى السماء . . . ؛

امرأة شجاعة ، ولكنها حواء التى تلتصق بآدم وتقتدى به ، تستجيب له وتحيا فيه . . .

* * *

والمثل الآخر فى هذا المقام هو « أنجليك بريلون » أو « الصول أنجليك » كما كانت تدعى فى الخدمة وفى المعاش . ولدت فى سنة ١٧٧١ ، وكان أبوها جنديا طيلة ثمانية وثلاثين عاماً بغير انقطاع ، وسقط أخواها كلاهما فى ساحة القتال ، ومات زوجها عنها سنة ١٧٩١ بعد خدمة عسكرية دامت سبع سنين ؛ فانضمت على أثر وفاته ، وهى فى الحادية والعشرين من عمرها ، إلى الفرقة التى كان ينتسب إليها

زوجها إلى أن استشهد .

وإذا كان التاريخ لم يحفظ ذكر زوجها هذا الذى خلفته ، لأنه واحد من ملايين من أمثاله ، وإنما حفظ ذكرها لندرة مثالها فى الجندية ، فأكبر الظن أنها لم تضرب ذلك المثل إلا حفظاً لذكر الزوج الغمر بين الرجال ، حتى تكون حياتها استمرارا لحياته التى غوضرت فى معية الشباب .

وقد خدمت مثله سبع سنين ، كانت فيها نمطا طيباً للاقدام وحسن السلوك فى الميدان وفى حياتها الخاصة على السواء ، حتى ترقت من نفر إلى باشجاويش ، فقد أبدت شجاعة ملحوظة فى الدفاع عن حصن چسكو فى كورسيكا أمام الإنجليز ، وفى حصار كالڤى بإيطاليا ، حتى بلغت ببسالتها درجة البطولة .

فالوثائق الرسمية تشهد أنها فى حصن چسكو قادت الجنود فى التحام مباشر – يدا ليد – مع الأعداء ، ولم يفت من عضدها جرح فى ذراعها الأيمن من ضربة سيف ، وجرح آخر فى ذراعها الأيسر من خنجر ، بل رحلت تحت ستار الليل إلى كالڤى رغم هذه الجراح البالغة لتعود قبل الفجر بمدد من الذخائر تحمله ستون امرأة بقيادتها وبحراسة أربعة فتسنى للحامية بهذا المدد أن ترد الأعداء وتحتفظ بالموقع

الحصين بفضل قيادتها الحكيمة وإقدامها العزيز النظير .

وفى حصار كالتى أصابت ساقها شظية أعجزتها عن مواصلة الخدمة ، فاستقرت فى ملجأ الأنفاليد لمقعدى الحرب ، وظلت فيه حتى ماتت بعد أربعة وخمسين عاماً ظلت فيها موضع التقدير والتكريم من جميع رفقائها ، فى سنة ١٨٢٢ رقيت إلى رتبة الصول ، وفى سنة ١٨٥١ منحت وسام الشرف ، الذى ظلت تحمله فوق بزتها العسكرية إلى أن قضت سنة ١٨٨٩ .

امرأة باسلة ما فى ذلك شك .

ولكنها امرأة ، تبعت آدم وتقمصت ثيابه وفعاله لتكون « امتداد » له بعد وفاته . . . ولولا أن آدم كان جنديا لما نضت حواؤه سيفاً ولا انبرت لقتال . . .

٣ — من ريف مصر

ومصرنا العزيزة لا تخلو من هذه النماذج الطريفة من النساء اللواتى يسترجلن مسايرة لبعولتهن واندماجاً فى أشخاصهم . وقد شهدت بنفسى فى بعض بلاد الوجه البحرى نمطاً من هذا الطراز : امرأة ضخمة أدماء طولها متران ، وملامحها ضخمة ، ناطقة بالطيبة وصوتها خفيض ، وطبعها هادئ ، فهى أطول خلق الله

بالا وأوسعهم صبراً ، ولهلالية — فهذا اسمها — زوج فى
فى مثل ضخامتها البائنة ولكنه جهير الصوت سريع الغضب
حاد اللسان . . . إلا مع هلالية ، فهى عنده أثيرة ، على
كثرة زوجاته غيرها ، فهو يتطا سن لها عن مودة وتقدير
كذلك الذى يقوم بين الأكفاء . . . وهى كذلك تخفض
له جناح الذل ، وتحرص على راحته ، وتنظم الأمور بين
سائر الزوجات كأنهن بناتها ، بعد أن اعتزلت هى مخدع
رجلها منذ حجت معه عقيب وفاة ولدها الوحيد .

وقد تساءل بعض من عرفوا هؤلاء القوم لماذا يمسكها
ولا يسرحها . . . فتطوعت إحدى ضرائرها بالشرح قالت
إن هلالية كانت أول أزواج صاحبنا ، وهاجرت معه إلى
هذا الموطن من الشرقية ، فنزلا وحيدين بين أقوام هم عصبة
قوية ، فأرادوا أن يبغضوا إليهما المقام فجعلوا يتصدون للزرع
بالتحريق والقلع ، ونشبت معركة احتشدوا لها ، فانبرت
« هلالية » مع زوجها ، فسندت ظهرها العريض إلى ظهره
العريض ، وشهرت عوداً من قوائم الخيام كما شهر عوداً
مثله وجعلا يدوران معاً ، وجهين لا ظهر لهما ، حتى فر
القوم أمامهما وتحاشوا التعرض لهما بعد ذلك .

وأقامت هلالية تتناوب مع زوجها الحراسة خوف الغيلة ،

وهى التى ألحت عليه أن يتزوج عليها أكثر من واحدة لتكون له عصبة قوية من الصهر والولد . . . ففعل وهى بذلك قريرة ، وهو يحسبها جزءاً من شخصه لا امرأة تغار عليه وتحرص على الاستئثار به ، أو هى أخت أو أم تدبر أمره وتريد له العزة والمنعة ولا تنظر إلى غير ذلك .

وكانت لها مواقع بعد ذلك ، فقد شهدت يوماً عامل وزارة الزراعة يغلظ لرجلها فى الكلام ، ووراءه خفير النظام ببندقيته المعهوده ، فما شعر الرجل إلا وهلالية قد خرجت من الدار وأقسمت له « برأس أمها » أن تطين له وجهه الكريم ، ثم أطبقت عليه كما يطبق الباشق على العصفور ففعلت به كما قالت . . . ثم التفتت تريد الخفير ، فإذا هو فى العدوة الأخرى من المصرف وقد خاضه بحذائه الأميرى ، فهو هناك بائن الذعر كأنه لا يصدق بالنجاة ؛

وما عرف عنها فى غير ذلك أنها تحرشت بأحد ولو تجنى عليها بالمقال . فكل ما دون المساس برجلها هين وإن علا واستطال . . .

حواء عاتية . . .

ولكنها حواء ، استظلت بآدم واندمجت فيه اندماج القدوة والولاء الذى يبلغ مرتبة الفناء . . . وهى بغير آدم قوىّ ضعيفة

في عداد الضعفاء . . .

٤ ــ من الصين

نحن الآن في الصين المجاهدة ، إبان صراعها الدموي الرائع من التنين الأسود الذي نزل بأرضها تحت راية من الشمس المشرقة ، فإذا هذا الشعب الوادع ، شعب الأرض الطيبة والفطرة السليمة المسالمة ، ينقلب ــ ذياداً عن حياته ــ أخطبوطاً له ألف ذراع ، كل منها حية متينة الأصلاب لا ينقطع لها رأس حتى تنمو لها رأسان ، ولا يبتر لها ذنب حتى يكون لها في الغداة ثلاثة أذناب .

ألوف من الشراذم وألوف من القواد الذين ما تلقنوا أصول الحرب إلا عن الغريزة الموروثة في الخلايا والأعصاب منذ عهد الكهف والغاب .

حمل السلاح كل أمين ، كما حمله كل أفاق خارج على القانون ، فامتزج في الغاية المشتركة أنها شبع التمرد وهدف الحمية على العرض والوطن وتراث الآباء . فأصبح قطاع الطريق في هذا النضال أبطالا إذ توجهت دوافعهم الدموية تلك الوجهة المقدسة في شرعة الحياة وشرعة الوطنية على السواء .

* * *

والوجه الذى ترتسم ملامحه فى هذه الصفحات التى تصور روح الصين الباسلة كما جلتها للعالم « بيرل باك » هو وجه امرأة على قسمات وجهها خشونة البداوة والفطرة الساذجة فى شدة وعنفوان ، فإذا جد الجد فهى أتون تضطرم نيرانه ، أو ظل يخيم على الأفق فى صمت فكل ما يستظل به مضطرب جازع لهذه الوحشة التى ترين على النفوس حين تقف بين جفنى الردى وهو يقظان . . . ثم هى إذا وجب الاختيار فى مفرق الطرق تعرف أيان ينبغى أن تسلك لا بما هى امرأة بين النساء ، بل كجندى يحمل السلاح ، وقائد ينطوى لسلطانه الرجال فى إيمان ملهم كأنهم نوم من أثر ما تبعث فيهم شخصيتها القوية الصارمة من حماسة وجسارة وذكاء خارق ، وشدة تأخذ بها نفسها كما تأخذ جنودها وجنود الأعداء على السواء .

وإنا لنراها فى مطلع هذه القصة وقد جلست القرفصاء من سجنها فى ركن مظلم ، تحدق فى الحائط القائم أمامها ، ولا تنظر جنبتيها . فقد كانت تعلم أن رجالها من خلفها فى هذه القاعة المعتمة الرحيبة التى لا ينفذ إليها ضوء النهار .

كيف انتهت إلى هذا السجن ؟

إنها لتسأل نفسها هذا السؤال ولا تجد عليه لديها جواباً...

وظلت صامته « تجتر » الأحداث السابقة على هذا الموقف النكد . وظل الرجال من خلفها صامتين ، لا تنبس ولا ينبسون .

أكان صمت ملامة تحبسها بقية من تجلة وإكبار ؟

لعله أن يكون .

ولكن هذا الخذلان يجب أن ينقلب إلى ظفر ولا بد لها أن تخرج هذا الظفر من هاوية الهزيمة بين أنياب التنين ، وإلا فقدت إيمان رجالها بها إلى الأبد .

لعلهم الآن يقولون :

ــ إنما نحن الآن هنا لأن من تقودنا امرأة ذات سوار . . .

وامتدت أناملها فى غير تفكير فتحسست يديها ، فإذا هما كيدى رجل جلف حلف بؤس وعمل : فلا نعومة ولا سوار ولا طراوة تنبي عن أنوثة أو ضعف .

لقد خلعت هذا كله يوم مات رجلها قائد هؤلاء الرجال ، فحملت من بعده الراية ، ودان لها الجنود بالطاعة ، لأنهم كانوا يعلمون أنها كانت الرأس المدبر لزعيمهم المقتول

ولقد تقدم إليها من بين رجالها الألفين شبان هم أمل كل خود وحلم كل كاعب ، ولكنها أبت على نفسها أن تكون إلا رجلا يخضع له الرجال ولا يخضع لمشيئة أحد فى « حال من الأحوال » .

ولقد ساقتهم إلى النصر تلو النصر ، بل إنها لم تعرف هذه الهزيمة اليوم إلا لأنها تبعث شرذمة من اليابانيين وقد ولو فراراً ، ولكن أكثر رجالها لم ينتبهوا لهذه المطاردة فلم يتبعها فيها إلا هؤلاء الخمسون فوقعت معهم فى كمين ، وها هم أولاء معها الساعة ، وقد ران عليهم صمت كصمت القبور .

وما بلغت من حساب نفسها هذا المبلغ حتى ثارت كبرياؤها فى أطواء قلبها فانتفضت انتفاضة الحيوان الجريح ووقفت فواجهت رجالها الذين بدوا لها فى ظلمة السجن أشباحاً ، فقالت تخاطبهم فى تؤدة :

ــ أيها الرجال ! حذار أن تنسوا أننى طالما قدتكم إلى النصر فأحسنت القيادة . وقد أظلكم علمى خمس سنين لم تحرموا فيها من طعام أو مأوى ، ولم يهرأ البرد أجسامكم لأننى كنت ساهرة على الدوام لأوفر لكم كل ما تحتاجون إليه . فلا موضع للشكوى أو الندم .

وسكت الرجال لحظة ثم « تنحنح » واحد منهم وقال لها فى صوت أجش :

ــ وهل شكونا أيتها الزهرة الذهبية ؟

فاستطردت « الزهرة الذهبية » تقول :

ــ وبالأمس فقط أيها الرجال استعدنا البلد الذى فقدناه

منذ شهر وقتلنا ذلكم الخائن الذى أقامه اليابانيون حاكماً عليه، وذبحنا معه زوجته . . . . فلتعلموا إذن أننى لن يقر لى قرار حتى أنتزع عاصمة الإقليم نفسها من مخالب التنين ، وإنى لأقسم بكل مقدس فى معتقدات آبائى وآبائكم أننى سأعيد عاصمة الشعب إلى الشعب ، وأننى سأعيدها سالمة من الدمار والخراب الذى تحدثه الحرب . . .

وهالها قسمها ، وهى التى طالما أقسمت فبرت بأقسامها . ولكن هذه اليمين بدت لها شيئاً رهيباً حقاً ، وحدقت فى رجالها فلم تتبين لشدة العتمة أكانوا ينظرون إليها مكذبين أو مصدقين ، ولكنها تابعت حديثها فى قوة وثبات :

ــ ولا تنسوا أيها الرجال أننا هنا خمسون فقط بين هذه الجدران ، وأن ألفين من الرجال إلا قليلا مطلقو السراح وسيخفون لنجدتنا فى القريب . فليس علينا الآن إلا أن ننتظر فى يقظة وحزم تلك اليد التى ستمتد إلينا فى الظلام لنكون على تمام الأهبة للتعلق بها كى تخرجنا من الظلمات إلى النور .

وأحست بغريزة القيادة أن الرجال ينظرون إليها وقد عاد إليهم إيمانهم بها كاملا غير منقوص ، فأخذتها الحماسة وزادت ثقتهم بها فى ثقتها بنفسها ، وصاحت بهم .

ـ ثقوا أيها الرجال . . ثقوا بكل ما تقوله لكم « زهرتكم الذهبية » التى عرفتموها . واعلموا أنكم خارجون من سجنكم هذا عن قريب إلى فضاء الحرية والنضال من أجل أمنا الصين . وإنه لوعد حق ، لأننى أنا الذى وعدت .

ووقف الرجال وطأطأوا رؤوسهم صاغرين ؛ حتى سحرها السحر الذى ألقت على رجالها ، فصدقت هى ما قالت لهم . . . والتصديق كالمرض عدوى تسرى فى الجماعات .

وفى هذه اللحظة فتح باب السجن على مصراعيه ودخل الحراس بالسياط فاستاقوا أمامهم قطيع الأسرى إلى ضوء الشمس فى رحبة السجن ؛ فخرجوا متدافعين كما تتدافع الشياة تطاردها الذئاب ؛ وهم لا يدرون من فرط البغتة ماذا ينتظرهم هناك : أهو الموت العاجل ، أم هو العذاب ؛ أم هو مجرد السؤال والتحقيق ..

وخرجت « الزهرة الذهبية » معهم فى زيها الذى لا يختلف عن زيهم شيئاً ؛ وقد أسدلت قبعتها العريضة الأطراف الممزقة السقف فوق جبينها فلا تبدو عيناها للناظر المدقق إلا كخرزتين لامعتين فى أغوار من الظل والغموض . وكانت قد علمت رجالها ألا ينموا عليها ولا يلتفوا بها التفافاً خاصاً إذا اختلط المعسكران فى معمعان القتال . . .

ووقفت فى مؤخرة الصفوف ، وتلفتت كما تلفت كل واحد من أصحابها ، فإذا منصة فى صدر المكان فوقها قائد عظيم الرتبة كبير الجثة ، ودونه على الأرض ضباط شبان وبينهم محفة عليها جثة امرأة .

وتكلم الضابط ، ثم ترجم عنه ضابط يابانى شاب فإذا جلية الأمر أن القائد أعلن عن مكافأة كبيرة القدر لمن يأتيه بالزهرة الذهبية حية أو ميتة . وما البلج الصبح حتى أتاه ثلاثون من الصينيين بهذه المرأة المسجاة على المحفة ، يقولون إنها قائدتهم « والزهرة الذهبية » وإنهم قتلوها طمعاً فى الجعل المرصود . . . ؛

وأشار المترجم إلى صفين من رجال العصابات الصينية وقفوا خلف منصة القائد العظيم . وسأل المترجم الأسرى :

ـــ أهؤلاء من أصحابكم ؟

وعرفوا فيهم بعض رفاقهم القدامى . . .

وعاد يسألهم وهو يشير إلى الجثة :

ـــ وهذه المرأة . . . أهى زعيمتكم ؟

وأزيح الغطاء ، فإذا هى زوجة الحاكم الخائن الذى قتلوه بالأمس حين أخذوا البلدة المجاورة عنوة وهى عين المرأة التى ذبحتها « الزهرة الذهبية » بيدها !

وران على الأسرى صمت عميق ، لا يدرون بماذا يجيبون .

وقال واحد منهم أخيراً فى بلاهة وغفلة :

ــ إن للزهرة الذهبية جبيناً تعلوه آثار جرح قديم غائر فأين هو !

فلم تجد « الزهرة الذهبية » بدا من أن تثبت قبعتها على رأسها بحيث تخفى آثار جرحها القديم ، ثم تقدمت فشقت الصفوف ، ونظرت فى المرأة المسجاة على المحفة ونظرت فى عينى الضابط الشاب ــ وكان وسيما ــ وقالت له فى ثبات :

ــ إنها هى « الزهرة الذهبية » بعينها ، فقد عملت تحت قيادتها طويلا ، وأرى الطعنات الكثيرة قد غطت على آثار الندبة القديمة .

وانتهت المسألة عند هذا : فتسلم الرجال المكافأة ، وأمر القائد بحرق الجثة بعد أن أخذت لها عدة صور وأعيد الأسرى إلى سجنهم المعتم .

ولكن الزهرة ظلت تفكر فى الشبه الغريب الذى لحظته بينها وبين تلك المرأة القتيل . . .

* * *

ودخل الضابط الشاب مكتبه وشرع فى « تحميض » الصور التى أخذت لجثة المرأة القتيل . وما أن فرغ منها ونظر فيها

حتى لحظ ذلك الشبه الشديد بينها وبين ذلك « الجندى » الذى تقدم إليه وقرر أن القتيل هى « الزهرة الذهبية » بلحمها وعظامها . ولكنه استبعد بادئ الأمر ذلك الخاطر ، وجلس يفكر فى الأسابيع الأخيرة التى قضاها الجميع ، من القائد إلى أدنى « نفر » فى الجنود . وهم فى خوف مقيم من « الزهرة الذهبية » . فقد كانت تغير على غير انتظار ، وفى سرعة صاعقة حتى لكأنها جنى الخرافة يظهر فى أكثر من مكان واحد فى آن واحد .

لقد كانت هذه الأسابيع الأخيرة خير أيام قضاها فى الحرب : فقد كان فيها شىء من الإثارة لنفسه التى ركدت من كثرة ما تعودت الطاعة فى غير تفكير أو نقاش ، لأن الجندى مطالب بالعمل لا بالفهم ، فهو يسعى إلى غاية لا يدركها ، ويجرى وراء أمل لا يجنه قلبه ولا تخطر له فى نفسه صورة واضحة الخطوط والمعالم .

أما هذه « الزهرة » التى شهد اليوم جثتها فقد جعلت للحرب طعماً آخر : طعم المفاجأة والجرأة والذكاء والحنكة فى حرب العصابات . فهى قد انتصرت فى كل معركة خاضت غمارها . وحتى مماتها لم يكن لأعدائها فيه فضل . . . وكانت وديعة هادئة فى رقدتها الأخيرة . . . فلا بد أنهم فاجئوها وهى

نائمة ، وإلا لغلبتهم بنظرتها التى طالما أخضعتهم طيلة هذه السنين .

أجل إنها عدو ، ولكنها كانت عدوًّا كفئاً غير تافه ولا هزيل . وكانت لهذا جديرة – فى نظره – بميتة خير من هذه الميتة الخسيسة التى لا تليق بماض عريق .

وهز الشاب رأسه أسفاً وهو يسترجع صورة الأسرى من رجالها عند ما تبينوا أنها القتيل . فهم لم يحزنوا ولم يأسفوا بل سلموا بالأمر فى هدوء وسكون . . . فما أخس هؤلاء الصينيين : إنهم لا يقدرون مزايا الأبطال ولا يحفظون عهدا ، وإن جل العهد حتى تدق فى جانبه جلائل الوعود والأموال . . .

ولكنه شعب بليد . . .

وتذكر عندئذ أنه يجب أن يعرض الصور على قائده . ولكنه تحير : أيذكر للقائد ذلك الشبه الذى لاحظه بين القتيل و « الجندى » الأمرد الذى تعرف عليها . أم يلوذ بالصمت ؟

لا ينبغى أن يفضى بهذا للقائد إلا إذا استوثق منه بنفسه ، فأخذ الصور فى يده ودخل بنفسه إلى السجن المظلم وأخرج مصباحاً كهربائياً صغيرا فجعل يحرك بؤرة ضوئه متنقلا بين الوجوه الواجمة المتلاصقة . ولكن أين ذلك « الفتى » ؟

ها هو ذا أخيراً . . .

واقترب منه ونظر فى وجهه ثم رفع ذقنه بيده وأغمض الفتى عينيه حتى لا يرى الضابط فيهما الحقيقة مرتسمة بأجلى بيان . وكان هذا كل ما يعوز الضابط الشاب كى تتم المضاهاة بين الجندى والصورة المغمضة العينين إغماض الأبد .

وابتسم الضابط فى هدوء ، ومر بأصابعه على وجنة الفتى ، فإذا هى ناعمة لا أثر فيها للشعر . فابتسم مرة أخرى وخرج كما دخل فى هدوء .

وسأله الحارس وهو يغلق الباب :

ــ أهذا كل شىء يا سيدى ؟

ــ أجل . . . ومتى يعدم هؤلاء الأسرى ؟

ــ غداً يا سيدى .

* * *

وعاد الضابط الشاب إلى غرفته ، وجلس يحدق فى الأفق المشمس فى صمت ، فقد كان لا يدرى : أيقول للقائد كل شىء أم يسكت ؟ وماذا وراء الكلام ؟ إنهم سيعدمون جميعاً غداً ، وفيهم هذا الفتى ، ولن يترتب على رفع تقريره إلى القائد إلا إدانة ذلك القائد لأنه صرف مكافأة كبيرة لجماعة من المزورين وأخلى سبيلهم دون أن يتثبت بوجه

قاطع من صحة دعواهم .

وإذا أدين القائد الكبير ، فهل سيرضى بقية القواد الكبار عن عمله وهو ضابط صغير ؟ . . .

إنه لن يفيد شيئاً من إبلاغ الحقيقة إلى الرياسة ولن تخسر الدولة شيئاً إذا كتمها ، لأن الجميع سوف يعدمون غداً .

وغربت الشمس وهو لا يزال فى حيرة من أمره فعزم على الخروج إلى مرعى قريب تعود أن يخلو فيه إلى نفسه ، لعل النزهة تجلو له ما اضطرب من فكره فيهتدى إلى قرار سديد .

ولكنه ما بلغ ذلك الموضع وجلس على شاطئ الجدول حتى امتدت من الظلام أيد خفية فحملته كأنه طفل ، فإذا به ملقى على الأرض فجرد من ثيابه كلها فوثق إلى شجرة ضخمة وثاقاً محكما متيناً .

وأنجز هذا العمل كله دون أن تبدو من القائمين به كلمة أو همسة ، وكان واحد منهم واقفاً عند رأسه وفى يده خنجر لامع النصل .

وكانت الدنيا تدور فى رأس الضابط الشاب : أيصرخ ؟ ولكن قبل أن يسمع صوته سيكون هذا الخنجر مغيباً فى صدره .

وهذه الثياب ، ثيابه الرسمية ، لماذا يريدونها ؟

لا بد أنهم يريدونها « للزهرة الذهبية » كى تلبسها وتفر فى حمايتها من سجنها العصبى .

أدرك هذا فسأل صاحب الخنجر :

ــ أمن أتباع « الزهرة الذهبية » أنتم ؟

فأجابه الرجل فى خشونة .

ــ لقد ماتت « الزهرة الذهبية » .

ــ إذن لماذا تريدون ثيابى ، إن لم يكن لها ؟ وإنه لشرف كبير لى أن تضع ملابسى فوق جسدها ، لأنها عدو عظيم ، والعظمة أولى بالإعجاب والتقدير ولو فى عدو . والروح الكبيرة الوثابة جديرة بالإكبار وإن سكنت هيكل امرأة . . . ومهما يكن ما تريدون ، فأسرعوا به ، فإن الأسرى سيعدموه صباح غد .

وعندئذ غض صاحب الخنجر من بصره فى طيبة ظاهرة ، واسترخت يده المرفوعة بالخنجر ، ثم انطلقوا وتركوا الضابط الموثق فى العراء . . .

وظل يرتجف من البرد والإعياء حتى سطع الفجر ، فإذا جواد يقترب من الموضع الذى شد فيه وثاقه ، وإذا شبح يقترب منه تتبعه أشباح .

أهذيان الحمى أم رؤيا حلم ؟

إن ما يراه أمامه إن هو إلا ثوبه العسكرى ، تطل من فوقه عينان دقيقتان . وحدقت العينان فيه ثم امتدت يد فغرست فى لحم صدره شيئاً معدنياً ، وابتسمت ابتسامة غامضة سريعة وقالت بصوت هادئ .

ـ إنه يرتجف . فكوا وثاقه .

وقطعت الحبال فى سرعة فسقط فى مكانه لا يريم ، وانصرفت الأشباح فى سرعة وسكون .

ومد يده فانتزع من لحم صدره ذلك الشىء ، فإذا به قطعة من المعدن المذهب على شكل زهرة صغيرة . فأخفاها فى راحته ، ثم راح فى غيبوبة ، وهو يحسب أنه لن يفيق منها أبدا . . . ولكنه ثاب إلى نفسه بعد فترة من الوقت ، فإذا به فى سريره ، ومن حوله زملاء يعنون به ، وإذا فى كفه تلك القطعة من المعدن تنفى من نفسه الشك فى حقيقة ما حدث له .

ـ لا تتحرك أيها الزميل . لقد وجدك جنديان ذهبا يستقيان للمعسكر ، فحملاك إلى هنا عند إشراق الشمس

وشرعوا يقصون عليه خبر ثلاثمائة رجل من أتباع « الزهرة الذهبية » جاؤوا فى ضوء القمر يلقون السلاح مسلمين ، طالبين أن يوقف إعدام زملائهم على أن يستسلم سائر الجيش بعد تأمينهم على أرواحهم والعفو عن زملائهم جميعاً .

وقبل القائد هذا العرض حتى يتخلص من هذه الحرب المزعجة التى لا يخمد لها أوار . واودع الجميع رحبة المعسكر ، لأن السجن أصبح يضيق بهم وهم زهاء أربعمائة . وهم الآن فى انتظار مقابلة القائد الذى سيتلقى منهم — بعد الإفطار طبعاً — يمين الولاء نيابة عن الإمبراطور .

واستجمع الشاب الخائر القوة أنفاسه وقال لهم :

— أبلغوا القائد أننى أريد أن أراه .

فربت أصحابه على كتفه وضحكوا قائلين :

— إنه الساعة فى شغل عنك . . .

ولم تسعفه قواه الخائرة بمدد يكفى للجدل أو الإلحاح فى الطلب .

إن « الزهرة » قد فرت فى ثوبه العسكرى ، لا شك فى هذا ، وقد خرجت عند الفجر كما يخرج الكثيرون من الضباط للرياضة أو تمرينات الصباح الباكر ، ولا شك أن المستسلمين ليسوا إلا كميناً مبيتا فى المعسكر ، كى يقع اليابانيون بين نارين من الخارج ومن الداخل . . .

— قولوا له إننى أريده . . . لأمر حيوى . . .

ولكن صوته ضاع ، لا لأنه كان خافتاً فحسب ، بل لأن جلبة قوية قد ارتفعت فى المعسكر الكبير .

* * *

وفى فجر ذلك اليوم ، قبل هذه الأحداث بساعات ، وقفت « الزهرة الذهبية » فى ثوبها العسكرى الجديد تخطب أصحابها :

ـ لقد أقسمت أن آخذ معسكرهم عنوة ، ثم آخذ بعد ذلك عاصمة الإقليم .

وسكت الجنود بين مكذب ومصدق ، ثم تشجع واحد منهم وقال بصوت واضح على تردده :

والذخيرة أيتها الزهرة الذهبية ؟

فابتسمت الزهرة الذهبية ابتسامتها الغامضة الماكرة وقالت له :

ـ ذخيرتنا أيها الأحمق الحبيب فى المعسكر ، عند اليابانيين. لماذا إذن تحسبنى تركت أربعمائة من رجالى بين أيديهم ؟ إنهم سيهجمون من الداخل عند ما نهجم نحن من الخارج ، وبهذا نضمن ذخيرة كاملة وافية القدر وسلاحاً مكدساً قوياً يكفل لنا هجوماً موفقاً على العاصمة أيها الرفيق الذكى !

وضحك الرجال ، وأقبلوا على قصاع الأرز يلتهمونها فى نهم ، قبل أن يشرعوا فى هجومهم على المعسكر الكبير .

* * *

امرأة تبز الرجال فى قيادة الرجال .

ولكنها امرأة فى كل حال :

كانت امرأة رجل قوى باطش ، فلما اختفى من الأرض ظله ، آلت على نفسها أن تكون امتداداً له ، فيوجد فى وجودها ، ولو كلفها هذا أن تلغى وجود المرأة فيها .

فهى حواء حين تغلو فى انتحال آدم . لأنها إنما آلت إلى هذا المآل بدافع الأنوثة التى تلوذ بالرجال ، حتى تنسى فى هذا اللياذ وجودها الأصيل . . .

٣ ـ فوق آدم

جان دارك

فلورنس نايتنجيل

بوديث

١ – چان دارك

كل شيء حولها كان يدعو إلى ظهور دعوتها ، أو دعواها. فوالداها من التقاة المصلين ، وأمها ممن حججن إلى روما . حتى كانت تكنى « الرومية » ، والحياة حولها – فى أوائل القرن الخامس عشر – مأنوسة بجو غريب ، يخالف ما نعهده من صور الحياة اليوم وبخاصة فى الحواضر ، فالناس فى ذلك العهد كانوا يؤمنون بالأرواح عاليها وسفليها ، ويؤمنون بالخوارق يرونها فى مناسبتها وغير مناسبتها ، فلا حجاز بين الأرض والسماء ، ولا بين الناس والأبالسة ، فالحياة مشاع مظاهرها بين الملائكة والإنس والشياطين ، فليس يتسنى الجزم لعقل الفلاح البسيط فى ذلك العهد أن هذه الظاهرة طبيعية أو أعجوبية ، وأن تلك الظاهرة أحدثتها عناية السماء أو نصبتها غواية للناس رقية ساحر أو نفثة شيطان . . .

والناس قد ابتلوا فى فرنسا لذلك الحين بتلك الحرب التى تهدد كيان « بنت الكنيسة البكر » ، حتى جعلت القرى والدساكر حصاداً مباحاً للدمار ، والسلب وانتهاك الحرمات بيد هذا الفريق أو ذاك ، من فرنسيين برجنديين ، أو فرنسيين

ملكيين ، أو إنجليز غازين .

ولكن هذا الجو وحده لا يكفى ، بل هو لا يؤدى لزاماً إلى ظهور چان دارك أوشخصية من طرازها الفريد . . . فالفلاحات ربيبات البيوت التقية فى بيئتها كثر ، بل إن النخوة والنجدة من فتى كانت أولى . فما كان أحراها أن تعد نفسها للحياة التى أهلها الله لها فيما يلوح ، وهى الزواج من مزارع مستقيم ميسور الحال ، فتدبر أمر المزرعة وتنجب البنين . . .

بل إن هذا هو الطريق الذى اعتقد أبوها وغير أبيها من الأهل والعشيرة أن الله قد اختاره لها كما اختاره لأمها وبنات سنخها من قبل . . .

ولكن طرق الله غريبة ، فى عين العباد على الأقل ، فى بعض الأحيان . . . فهو طالما اختار لجسيمات الأمور من يبدون أبعد الناس عن الاضطلاع بها ، فما مهن رسول كان من أهل السلطان ، أو التفقه فى علوم الزمان ، ويناط بهم مع هذا تغيير موازين السلطان وأركان التفكير . . .

وكان الطريق الذى شعرت الفتاة الفلاحة الأمية أن الله رسمه لها هو طرد الإنجليز من فرنسا ، وصيانة وحدتها ، وتتويج ولى عهدها ملكاً شرعياً عليها . . .

وفى الليلة الظلماء يفتقـــد البدر ، وفى ساعات اليأس

يتطلع الناس إلى فرجة أمل فيتشبثون بها ، ولهذا كان ظهور جان بدعوى تكليفها من قبل الله بإنقاذ فرنسا من الهزيمة مناسباً فى أوانه وعنوانه ، لأن السماء وحدها هى السلطة القادرة على ما عجز عنه الملوك والقواد والجحافل ، ولأن المناداة فى الناس أن السماء معنية بأمرهم مشغولة بتفريج كربهم شيء يلاقى فى نفوسهم هوى بقدر ما يفتح أمامهم من أبواب الآمال ، ولأن اضطلاع فتاة ساذجة مغمورة من العامة بهذا الأمر يعطيه الصبغة الأعجوبية ويحيطه بجو من الأسرار ، فلو كان الأمر من عند الناس لاختاروا له ذا سلطان . . . ولكن إذا كان من عند الله نهض به أضعف الخلق ، لأن الفاعل الحقيقى هو العناية الصمدانية .

هذا تحليل وتعليل بلسان المعقول . .

ولكن هل قدرت جان هذا التقدير ، ودبرت هذا التدبير وهى العذراء الأمية التى لم تتجاوز السادسة عشرة ؟ وهل هى مؤامرة عقلية أم هى دفعة إلهامية من دفعات العبقرية تعلل بعد أن تقطع فى الأمر برأى ، فإذا التعليل المعقول وفاق البديهة المرسلة على طويتها ؟

الأرجح أنه الإلهام أو أنها العبقرية ، لأن التدبير لا تتوفر أسبابه لمثلها ، ومن أسبابه معرفة روح الاجتماع معرفة واسعة

عميقة معاً ، ثم إن التدبير لا يعطى فى ذاته شجاعة كافية على تنفيذ مثل هذا المطلب المبعد فى الغرابة لفتاة ساذجة من الطبقة العامة . بل إنها لو فكرت وكان الأمر بيدها لكانت حرية أن تحجم كل الإحجام عن المجاهرة بأنها هى التى ستقود الجيوش إلى النصر حيث انهزم دهاقين القواد ، وأنها هى التى ستتوج الملك . . . ومن هى ؟

لو فكرت لما فعلت . ولو دبرت لما أقدمت ، ولكنها أقدمت ومضت لأنها كانت مغلوبة على أمرها ، مسخرة لقوة لا تملك مقاومتها ، تدعوها قوة الإلهام ، أو تدعوها قوة الإيمان أو تدعوها قوة العبقرية ، أنت وما تشاء ، ولكنها قوة فوق قوى العقل القياسى ، وفوق ما أتيح « لبنى آدم » المائتين من مصادر الحياة وملكاتها ومظاهرها . .

* * *

وحتى بلغت الثالثة عشرة من عمرها ، كانت فتاة ككل فتاة فى سنها ، تجيد مهنة البيت وخدمة الضيعة ورعاية الماشية وأشغال التطريز ، وهى الثقافة النسوية المطلوبة فى الفتاة فى ذلك العصر . وكان بيت آلها فى ظل كنيسة القديس « ريمى » الذى باسمه قامت كنيسة « د ومر يمى » كما قامت باسمه كاتدرائية « ريمس » التى كتب لها أن تتوج فيها ملك فرنسا

بعد ذلك . . . فكانت چان تتعبد فيها كل يوم ، أو تتعبد في حديقة بيتها فكأنها في الكنيسة ، لأن برجها وهيكلها ماثلان لها حيث تكون .

وفي سن الثالثة عشرة بدأت تسمع « الأصوات » تناديها ، داعية إياها إلى التزام طريق البر ، فنذرت للتدين قلبها منذ ذلك اليوم . وكانت تعتقد أن في جملة تلك الأصوات ، صوت القديسة كترين والقديسة « مرجريت » .

وسواء كانت هذه الأصوات نتيجة لتعلق قلبها بالدين وجوه الصوفي ، وهو جو لا تستغرب سبحاته وشطحاته ممن يجتازون مرحلة المراهقة بعد نشأة دينية — أو كانت الأصوات كما تقدر هي سبباً في انهماكها في الصلاة والتدين ، فالأصوات نفسها ليست ظاهرة مستحيلة الوقوع على غرابتها . فكل تلك الألوان من الرؤى التي تحدث في حالات اليقظة من أصوات ومناظر غيبية — بمعنى أنها غير حادثة عن مؤثر محسوس مباشر — ليست في الواقع أكثر غرابة من الأحلام التي تعرض للنائم في كل يوم . . . ولو رجعنا إلى التاريخ لوجدنا رؤى المنام كانت تعتبر ورؤى اليقظة من فعل فاعل غير طبيعي ، كأن تكون غواية شيطان أو نذيراً من الله . ولكن ما يحدث في المنام أصبح الآن أمراً طبيعياً لا سر فيه ، ولم يبق في عالم

الأسرار إلا ما يرى أو يسمع فى حلم اليقظة . ولعل ندرة هذه الظاهرة من أهم عوامل بقائها متعلقة بعالم الغيبيات . إلا أن هذا حرى أن يبطل إذا علمنا أن النفس تنطوى على سراديب وطبقات لا تنكشف للوعى الظاهر فى كل حين . وإن من عمليات التخيل والتذكر ما يخاطب السمع والبصر كأن موضوعاتهما حاضرة وما هى بحاضرة . فكذلك قد يمثل الاستغراق فى حالة نفسية معينة كأن صوتاً أو رسماً يخاطب الأذن أو العين، وليس من ذلك كله شىء محسوس .

ولكن ليس معنى هذا أن ما يتمثل فى رؤيا اليقظة وهم من أوهام الإيحاء الذاتى . . . فالعقيدة بما هى حالة نفسية حقيقة لا وهم فيها ، وموضوع العقيدة الروحية خارج بطبيعته عن متناول الحس ، فالاتصال به لا يكون إلا بالوجدان — أو عن طريق القلب لا العقل كما يقول أهل التصوف — وأحوال الوجدان قد تستعير تجسيمات الحس لخطاب صاحبها . . .

وما الحس نفسه فى آخر المطاف ؟

إنه حالة ذاتية غير أصيلة فى المحسوس ، بل هى كلها من انفعال الذات التى تحس . . . فلا غرابة أن تنفعل الذات الحاسة بموضوع يقع تحت الحواس كلها أو يقع تحت بعض منها دون البعض الآخر ، ما دام الأثر الحسى قد وقع .

فالقول باستحالة « الأصوات » أصلا لا يمكن القطع به دون مجافاة لقواعد العقل المنطق الصريح . والخرافة الكبرى ولا مراء هى الجزم بأن ما لا يقع لكل إنسان فى كل آن فهو خرافة . . .

* * *

وظلت الأصوات تتراءى لسمعها حتى إذا بلغت السادسة عشرة ، انتقلت الأصوات من الحث عل الصلاة إلى ميدان لا يؤلف أن تخاطب فى خوضه فتاة ولا سيما فى سنها ونشأتها : قيل لها إنها مكلفة بإنقاذ فرنسا ، وطرد الإنجليز منها ، وصيانة وحدتها بتنصيب ولى العهد ملكاً عليها . فلما فاتحت والدها فى الانضمام إلى الجيش نهرها — وحق له أن يفعل — فما كانت النسوة اللواتى يتبعن الجيش إلا الساقطات من أحلاس مجالس الشراب . ، وزاد الرجل التقى الغيور على عرضه فتوعدها بالإغراق فى النهر إذا أقدمت على شىء من هذا أو همت به . ولكن « الأصوات » لم تترك لها فرصة للراحة حتى كاد عقلها يذهب . فعمدت إلى الهرب فى عربة قريب لأمها إلى «فوكلير» التى كان يقود حاميتها القائد « بودريكور » وطلبت إليه فى بساطة أن يبعث بها مع ثلة من الجنود إلى « شينون » لتقابل ولى العهد لأنها بسبيل تتويجه ! فأيقن الرجل أن بها لوثة فردها

إلى أهلها . ولكنها لم تترك لهم راحة فى ليل أو نهار ، وإنما هى الأصوات تلاحقها ، وتلاحقهم هى بحديثها ، حتى كان أكتوبر سنة ١٤٢٩ وحاصر الإنجليز أورليان ليكسروا خط دفاع « اللوار » وينفذوا إلى أملاك ولى العهد الباقية له جنوب ذلك النهر ، واستعدوا لذلك المطلب استعداداً ضخماً عنيفاً ، فقد كانت أورليان على جانب من التحصين عظيم ، وفى جملة أسلحتها الدفاعية ٢٥٠ مدفعاً من (عيارات) مختلفة ، وهى فى ذلك العصر قوة هائلة . فأعد الإنجليز فيها أعدوا اثنى عشر منجنيقاً كبيراً تقذفها بالحجارة الضخمة وشعلات اللهب . وأثار حصار أورليان قلقاً كبيراً فى فرنسا كلها ، حتى إذا بلغ النبأ « دومريمى » قامت له قائمة الفتاة البتول ، وأصرت أن تعاود الكرة لنصرة الملك وتتويجه . فتوجهت مرة أخرى إلى « بودريكور » ولكنه رفض أن يأخذ دعواها مأخذ الجد ، رغم إلحاحها عليه ثلاثة أسابيع سوياً إلحاحاً شديداً تؤيدها فيه بعض عناصر العامة وأهل المهن المدنية بوجه عام .

وإنه لحق . . .

فهو جندى محترف ، وأى قيمة تبقى لحرفة الجندية ، إذا سلم أصحابها بفشل أسباب حرفتهم حيث يناط النجاح بفتاة غريرة وإن آزرتها ملائكة من عليين ؟ . . دون تصديقها

وتمكين الأسباب لها إذن إلغاء وجوده ووجود الحرفة التي يتقوم بها . . .

ولكن رجلا آخر ، لم يكن فيما يظهر جندياً صرفاً فى طبيعة عقليته ووجدانه ، هو « چان دى متز » صدقها وآمن بما قالت له من أن فرنسا مسئولة أن تنقذ نفسها بنفسها فلا تعول فى أمر حياتها وموتها على معونة أهل اسكتلندة التى وعدوا بها ولى العهد وأعطاها چان ملابس رجل ، واكتتب لها أهل البلدة (فوكوليرِ) فاشتروا لها جواداً . . .

وقبل أن ترحل وردت الأنباء بكارثة « فوفراى» ، فاستولى الحزن على الضباط ، وتحرك قلب « بودريكور » نفسه ، إذ تزعزع إيمانه الأصلى بجاه الفن العسكرى ، وغلبت عليه مشاعر المواطن المتأثر بما يتأثر به أهل عصره عامة ، وهزته الحماسة التى أثارتها « چان دارك » ولمست نفسه جذوة الأمل التى تفردت بإشعالها فى ظلام اليأس المطبق ، فانتزع فى ساعة رحيلها إلى مقر الملك فى شينون سيفه وقلدها إياه . . .

وودعت عذراء دومريمى وداعاً مؤثراً ، حتى بكى الناس ، فقد جعلتهم يشعرون أن أمل فرنسا فى الخلاص معقود بها ... وخرجت على رأس كوكبة من الرجال يحرسونها ، وهى فى مثل بزتهم ، فاخترقوا مواطن البرجنديين أحلاف الإنجليز بسلام

حتى وصلت « شينون » .

* * *

وماذا تراها وجدت فى شينون ؟

لم تجد الملك الذى يتصوره الإنسان إذا قيل « ملك » . ولم تجد المحارب الذى يتصوره الإنسان إذا ذكر تنازع على العرش بين وارث وغاصب . ولم تجد المهتم المتدبر الذى يتصوره الإنسان إذا قيل محنة محدقة وأمر حازب .

بل وجدت رجلا لا يحسن تقدير الظروف المحيطة به ، وحوله قوم ليسوا أرقى منه إدراكاً ، تنقصهم الحنكة ، وينقصهم على وجه الخصوص الإخلاص والإيمان والأريحية . فهو شاب قليل الثقة بنفسه ، ضعيف الإرادة والإدراك ، حوله بطانة خادعة عابثة ، تترك للمقادير أن تفعل ما تشاء . فهو لهذا يميل إلى المهادنة على حساب حقه ، وإلى المراوغة دون المواجهة ، شأن الضعاف دائماً . . .

هذه البطانة العابثة كانت أبعد الأشياء عن صفات « چان دارك » فى إيمانها وقوتها وإقدامها وأريحيتها . لهذا كان أول ما أشير به على ولى العهد المتردد كأنه قصبة تحركها كل ريح ، أن يسخروا من الفتاة الوافدة ومن دعواها السماوية ، بأن يختبئ الملك بين صفوف الحاشية ، ويتقلد أحد المجان من بطانته

لباسه ، ويقف فوق منصة الشرف ويخاطبها كأنه هو ولى العهد فيهزأ بها .

وشهد البلاط يومئذ مشهداً عجباً : الفتاة فى زى الجنود تتقدم فتحدق فى المدعى الماجن ولا ترد عليه خطابه ، ويرتسم على وجهها الشعور بالضيق ، ثم تشيح عنه ، وتجوس بين الحضور بنظرات شاردة ، حتى تقع على ولى العهد المنزوى فى ثياب بسيطة فتركع أمامه وتقبل ركبتيه ، علامة على الخضوع والولاء . . . فيبهت الحضور ، وترتسم على وجوههم جميعاً علامات التعجب والاستفهام . ويسألها ولى العهد مزيداً من البرهان على سماوية رسالتها ، فتطلب أن تختلى به لتنبئه بما لا يعرفه أحد على الإطلاق من شأنه الخاص . . .

ولا يعرف أحد ماذا قالت له فى تلك المقابلة ، ولكن الثابت أن ولى العهد خرج من ذلك اللقاء متغير الوجه ساكن النفس ميالا إلى تصديقها ، ولكنه تحفظ فى إعلان ذلك حتى يختبرها نفر من رجال الكنيسة ، ليثبت أولا أن قواها الخارقة مصدرها من أعلى لا من أسفل ، من الله لا من إبليس . . .

وعقد المجلس الدينى جلساته ، ثم أفتى بصحة معتقدها وسلامة إيمانها الدينى وصدقها فى دعواها . فألبست درعاً أبيض ، عليه صليب ، وجعلت لها حاشية من كاهن ووصيفين ،

واتخذت لنفسها علماً كالذى يتخذه القواد العسكريون لأنفسهم ، وجردت جيشاً من أربعة آلاف لتخليص أورليان من حصار الإنجليز . وكانت غالبية ذلك الجيش من الفلاحين الذين آمنوا بها فأقبلوا بركائبهم الريفية وفئوسهم لينضووا تحت لوائها الأبيض الذى يعلوه اسم المسيح .

وكان دخولها أورليان بذلك الجيش المتحمس إلى درجة الهوس عاملا كبيراً فى تغيير الحالة المعنوية بين المحصورين ، فقوى الأمل ، حتى بات يقيناً ، فمن أقوى من الله سنداً وأعلى مدداً ؟ ولو فى مكان « چان » فارس تمرس بالحرب ما صدقوا أنه مبعوث من الله لنصرتهم ، ولكن مرأى تلك الفتاة القانتة الطاهرة ابتعث كوامن الإيمان والتعلق بالأسرار فى تلك النفوس السليمة الطوية . . .

وكانت عدة الإنجليز الذين يهاجمون أورليان أكثر من عشرة آلاف ، فما دخلت أورليان فى ٢٨ من أبريل ، حتى أعلنت الإنجليز فى الثلاثين من ذلك الشهر نفسه أى بعد يومين اثنين — بوجوب الرحيل الناجز ، وكررت النذير فى اليوم التالى ، فلما كان يوم ٥ من مايو ولم يرحلوا ، خرجت إليهم من الحصن وهاجمت مواضع المنجنيقات الحصينة فاستولت عليها ثم استولت على رأس القنطرة التى منها يعبرون إلى ضفة

اللوار المشرفة عليها أورليان ، وكان رأس القنطرة قلعة « توريل » وهى قلعة حصينة استمات الإنجليز فى الدفاع عنها لأنها نقطة ارتكازهم فى حصار المدينة والنفاذ إلى أملاك ولى العهد .

وتجلت شجاعة چان الفائقة فى ذلك الهجوم على القلعة ، فإنها كانت أول من وضع سلماً على حائط الحصن ، وتسلقته وفى يدها علمها الأبيض ، وسيفها فى يمناها تلوح به وتصيح بأعلى صوتها محمسة الجنود ، وشعرها الأشقر يتطاير فى الهواء . . .

واستهدفها رام فأصابها سهم فى كتفها ، فنقلوها مغمى عليها إلى ظل شجرة ، ورآها رجالها تسقط فحسبوها ماتت فشاع فيهم الاضطراب ونادى مناديهم فى النفير أن تقهقروا...

وأفاقت چان على صوت النفير فاستشاطت غضباً ، وأمرت بصيحة الهجوم أن تنفخ كرة أخرى ، ونزعوا السهم وهى متجلدة ، ثم استلت سيفها وتابعت الهجوم ، حتى استولت على القلعة فى تلك الليلة وانتحر قائدها السكسونى غيظاً وخجلا أن تهزمه امرأة ! .

وهكذا رفع حصار أورليان .

وتوالت بعدها هزائم الإنجليز ، وقد رسخ فى أذهان الجنود من الجانبين أن چان قديسة ، ومن ذا يحارب جند السماء بقلب سليم ؟

وذهبت چان إلى الملك وطلبت إليه أن يزحف إلى « ريمس » فدخلها معها فى ١٤ من يوليه ، وتوج فى كنيستها الكبرى بعد يومين من ذلك التاريخ ، وكانت چان تحمل علمها الظافر وتقف فى مكان الشرف ، والشعب والجنود يحيونها بالهتاف القاصف . . .

فبماذا أنتصرت چان ؟

انتصرت بقلب قوى وفكر عسكرى مرتب يرتقى إلى مرتبة الإلهام ، لأنه ليس من صنع التعليم ، بل هو من فيض العبقرية التى لا تناقش ، وهى تصدر عن الرأى الصواب دون تدبر ، حتى إذا امتحنه العقل وجده وفق منطقه وإن لم يصدر عنه .

وانتصرت بما بثت فى الجند من روح جديدة ، فقد دعت جندها إلى التطهر لأنهم جند الله ، وينبغى أن يجعلوا قلوبهم وسلوكهم أهلا لحلوله بينهم ، فطردت النسوة الساقطات اللواتى يتبعن الجيش ، وحرمت على الجنود العربدة والميسر ونابى اللفظ ، ففعلوا . ومنحهم هذا التوقر والتصون روحاً جديدة ، هى الشعور بالسمو . . .

سداد الرأى وشجاعة الإيمان .

ذانهما سلاحا كل حرب ظافرة مهما اختلفت الظروف والميادين

* * *

وطلبت إلى الملك غداة التتويج أن تزحف على باريس ، ولكنه جعل يماطل . بحجة انشغاله بمفاوضات للصلح مع دوق برغنديا .

ففيم هذا المطل ؟

إنها وسوسة نفس الملك ووسوسة حاشيته التى يأكلها الحسد فى وقت واحد .

إنه حسد الضعفاء للأقوياء ، وحسد الأغمار لأهل النباهة والعبقرية . وليس أغير من ذوى السلطان على سلطانهم من كل ما من شأنه أن يكسف أبهته ، ولو كان قيام هذا المجد المحسود لصالح سلطانهم ودفع الخطر عنه .

وفى تاريخ جميع القواد نظير لهذا الحسد العجيب ، فالقائد العبقرى « بليزاريوس » تاريخه كله سلسلة متصلة من الغبن والحسد بسبب تفوقه وذكائه . . . حسداً لاحقه به « جستنيان » الذى خدمه ذلك القائد بكل إخلاص ، وكانت انتصاراته هى سند عرشه وحامى أطراف ملكه من أفدح الأخطار . . .

ولكن الغيرة من چان من طراز آخر ، فهى تثير حسد القواد المحترفين لأنها نجحت حيث فشلوا وليست لها رتبة عسكرية مما يعتزون به . وأثارت حسد أهل السياسة لأنها نجحت حيث

قدروا أن هذا ميدانهم الفريد . وحسد الملك لأنها أسدت إليه يداً أمام الملأ ، فنصرته بعد هزيمة وأعزته بعد ذلة . . . فما أخوفه من سلطانها الذى تصله بسلطان الله . . . وتعززه بقوةالسلاح .

فليكن هدفه إذن أن يقف نفوذها عند هذا ، فلا تقضى على أعدائه فتنفرد بالمكانة العسكرية ، ويضحى تحت رحمتها . وخير له أن تكون هناك قوتان لا قوة واحدة تنفرد بالميدان ، ففى ذلك التفرد : سواء فى جانب الإنجليز أو جانب چان ، خطر عليه ، الإنجليز خطر عليه مباشرة ، وچان خطر عليه غير مباشر ، ولكنه خطر ليس أهون من خطر الإنجليز ، لأن نجاحها فى القضاء عليهم نهائياً تتويج لسلطانها الروحى بحيث يضحى الى جانبها مجرد ظل ضئيل لا حياة له إلا برضاها ولا نفوذ إلا من فضلة ما تتصدق عليه به من نفوذها .

وتلك دواماً آفة المخلصين من خدام الدول الأقوياء ، ابتلى بها « بليزاريوس » ويبتلى بها فى كل يوم أهل السياسة فى كل دولة يسودها الختل والضعف : يخشى الضعاف من صولة القوى ، ولا يصدقون أنه مخلص لا مأرب له ، لأنهم ليسوا من معدن الأبطال المخلصين ذوى القلوب السليمة . . . فيحاربون من يسدون إليهم الخير ، لأنهم يقدرون أن من يملك الإحسان فهو يملك الإساءة . . .

ومن هذا الجانب دون غيره نجمت مأساة «چان» . فهى قد حكم عليها بالموت يوم التتويج لا يوم أدانوها فى ساحة « روان ».

وقيل للملك الذى أجلسته على عرشه إنها طموح ، ولهذا وقفت بعلمها المشهور فى جواره ساعة التتويج ، وعليها زردها ودرعها . . . كأنها تزهو عليه وتمن . وتلكأ الرجل ، ولكنها زحفت على كومبينى وسنليس وبوڤيه ، وتلقت عن الملك طاعتها جميعاً لسلطانه ، وطردت من بوڤيه أسقفها « كوشون » الضالع مع البرجنديين والإنجليز ، وكوشون هذا هو الذى سيدينها فى محاكمتها وسيؤلب عليها الأعداء .

وأسرع الملك فعقد الهدنة مع البرجنديين ، فاضطرت إلى العودة ، وقبعت فى البلاط ، حيث موهوا على حسب العادة الاستغناء عن نشاطها برفعها إلى مرتبة الأشراف وإعفاء قريتها دومريمى من الضرائب .

ولكن الهدنة لم تلبث أن انتهت بعد أشهر معدودة ، وكان دوق برجنديا الأعور قد اتفق مع الإنجليز سراً أن يعطوه « شامپانى » لقاء سماحه لهم بالاستعانة برعاياه وتحصين باريس وما حولها ، وأهم تلك الأرباض عسكرياً هى قرية « كومبينى » التى كانت « چان » قد ضمتها إلى أملاك التاج تمهيداً للزحف على باريس .

وكانت « چان » يقظة لهذه الحركات ، مدركة خطرها فما انقض الإنجليز والبرجنديون على « كومبينى » حتى كانت فى أعقابهم لنجدة « أصدقائها » أهل كومبينى — كما كانت تدعوهم — على رأس فئة قليلة فدخلت المدينة بغير مقاومة فى شهر مايو سنة ١٤٣٠ . وكان معسكر البرجنديين على الضفة المقابلة ؛ فعبرت إليهم بعد الظهر فى خمسمائة مقاتل ، ولكن الجماعة المرتجلة التى قامت بالحملة لم تلبث أن ارتدت أمام البرجنديين . وأسرعت إلى المدينة ، ورفع قائدهم الجسر المتحرك لكى يغطى حركة انسحابهم ؛ وكانت « چان » لا تزال فى العدوة الأخرى تناوش المطاردين حتى تعوقهم عن اللحاق بأصحابها ، فوجدت الجسر قد رفع ، ووقعت أسيرة فى يد البرجنديين فى تلك الليلة . وأخذت إلى المعسكر حيث تلقاها الدوق بالاعتبار اللائق .

وكان فداء الأسر من حق هذا الدوق ، فجعل فديتها مبلغاً طائلا ، هو فدية ملك ، وتوقعت چان أن يبادر الملك الذى توجته ونصرته بدفع الفدية المطلوبة . ولكن انتظارها طال ونعلم فيما بعد أن أحداً فى ذلك البلاط الذى يموج بالأشراف لم يفكر فى إنقاذ تلك التى صنعت الخوارق وأقالت دولتهم من عثرتها .

وفى نفس هذا الوقت كان « بدفورد » القائد الإنجليزى يدرك بعقليته السياسية مبلغ ما للقضاء على نفوذها الدينى من الأهمية لأن بقاء صفة القداسة لاصقة بها يجعلها خطراً فى المستقبل عليهم ، ولو أعدموها . فإنها تكون شهيدة فى نظر الناس ، ويتألبون للانتقام لها . فكان لزاماً — فى نظره — أن يستخدم نفوذ الكنيسة فى محاكمتها دينياً لا عسكرياً ، وتجريحها من ناحية العقيدة والقداسة ، ليقضى على تأثيرها بعد موتها فى نفوس الناس .

بل إن القضاء على منزلتها الدينية يفضى بالتالى إلى تجريح شرعية الملك الذى توجته وقادته إلى النصر . ويقضى على ما تولد فى نفسه من الثقة بنصر الله له واهتمام السماء بعرشه . لهذا لم يعدموها فوراً ، وكان ذلك فى يدهم ، بل دفعوا فديتها الجنيهات العشرة آلاف ، على يد الأسقف كوشون الذى طردته جان من مركز سلطته بوفيه عند ما فتحتها ، وألفت محكمة دينية بحتة فى « روان » لمحاكمتها بتهمة الإلحاد والسحر والشعوذة والاتصال بالأرواح الشريرة .

وقصة محاكمتها أشهر من أن تعرف ، وقد أظهرت فيها ثباتاً عجيباً ، وكانت ردودها البسيطة القوية مفحمة لجميع من اجتمعوا على استجوابها من الفقهاء فى الدين والقانون الكنسى .

ولما أصر القضاة على التحامل عليها تحاملا ظاهراً ، وقرروا إدانتها ، استأنفت الحكم إلى البابا فى روما ، كما هو حق كل من يحكم عليه بالكفر والفصل من الكنيسة . ولكن طلبها هذا رفض وأحرقت حية .

والملك لا يحرك ساكناً ، والقواد لا يتحركون ، وأهل السياسة لا يساومون على سلامتها .

وكانت خطة الملك فيما يلوح أن التخلص منها يقضى على خطرها من جهته ، ويقوى مركزها بعد موتها شهيدة فى نظر المؤمنين بها ، فتقوى عزيمتهم فى الانتقام لها ومؤازرة قضيتها ، التى هى فى الواقع قضيته هو دون غيره . فيستفيد من شهادتها ما لا يفيده من حياتها ، فائدة لا يتوجس معها من خطر على سلطانه .

ومهما يكن من أمر ، فقد صح تقديره ، ودانت له باريس ، وطرد الإنجليز من فرنسا كلها . ولكن الوصمة ، وصمة النذالة ، ظلت عالقة بطيلسانه ، فاجتهد بعد استشهادها بعشرين سنة أن يحرك القضية أمام البابا ، وإن يستصدر منه حكماً ببراءة ساحتها مما عزى إليها ، وبتكفير كوشون وسائر قضاتها ، وإلغاء حكمهم الظالم .

وبعد خمسة قرون أعلنت الكنيسة أن جان دارك عذراء

أورليان التى استشهدت محترقة وهى دون العشرين قد أصبحت فى عداد القديسين . . .

وإنها لقديسة حقاً ، بمعنى دينى ، وبمعنى إنسانى فى آن ، لأنها عبقرية نادرة ، من العبقريات القليلة التى ترتفع بأصحابها وصاحباتها فوق ذرية آدم ، فتكون على الدوام نوراً يهدى لا ناراً تحرق ، وإن اكتوت هى بنيران الخسة ممن تضىء لهم وتهديهم سواء السبيل .

٢ — فلورنس نايتنجيل

لئن كانت چان دارك أعظم من آدم بمدد من قوة الروح وإلهام الإيمان الذى لا ينفصل عن فيوض السماء العلوية وأنوارها القدسية ، فمن النساء من هى أعظم من آدم بمدد لا يرتفع إلى السماء حتى تنبت صلته بالأرض ، وإنما هى عظمة إنسانية فى لحمتها وسداها ، بشرية خالصة فى أعمق أغوارها وأبعد مداها .

ومن هذا القبيل الأخير عظمة « فلورنس نايتنجيل » التى تنفرد بين المحاربات بأنها برزت بعد انتهاء أزمان المعجزات وانقشاع ظلمات الجهل عن أذهان العامة ، حتى كاد الإنكار يضحى خرافة العصر ، كما كان الإيمان الأعمى خرافة ما

غبر من العصور .

فهى لا تستفيد من الجهل والغفلة بين سواء الناس ، وإنما هى تمتاز بمحاربتها للجهل والغفلة والتنطع بين الرؤساء الكبار فى جيش بريطانيا العظمى ومصالحها الطبية . . .

هى أول من « أقحم » أقانيم « النظافة » و « الرحمة » على محراب أساطين الفن الطبى الذين يشرفون على المستشفيات العسكرية ، وهى أقانيم طالما رأوها لا تتناسب مع ما تقتضيه الجندية من الصرامة والغلظة التى يدعونها تقشفاً ونظاماً . . . وما كانوا يرون النقد أو التنبيه مما يتفق وما لهم من خنزوانية وغطرسة يدعونها هيبة وسلطاناً ، ولكن فلورنس انتصرت على الغلظة والصرامة والغطرسة التى كانت تتحصن بمراكز أصحابها الكبيرة ورتبهم العسكرية العالية ، فقلبت نظم الجيوش فى العالم كله وفق ما وضعته من القواعد لصيانة أرواح الجنود والترفيه عنهم .

* * *

ويخطىء من يحسب أنها كانت فتاة شاعرية النزعة ، حالمة النظرات ، رقيقة الحاشية ، حيية الحديث ، ناعمة الصوت ... ترف الابتسامة على شفتيها ، وتسارع الدموع إلى وجنتيها ، ما دامت صورتها مقترنة بالرحمة والمواساة . . .

كلا !

بل إنها أعظم من آدم ، لأنها آدم على غراره فى القوة والصلابة ، ولكنها تبزه عزيمة ولدداً . . . فهي صارمة ، قاسية على نفسها ، وعلى أعدائها ، وعلى من يعملون معها ، ليس فى جانبها لين ، ولا فى حاشيتها رقة ، وإنما هى بالجنود المحترفين والقواد العسكريين أشبه : تعمل فى جد ، وتشتط فى طلب النظام والدقة ، وتعاقب من يتهاونون فى نصرتها بما يعاقب به الجبناء والهاربون من الجنود فى الميدان . . .

وما كانت مؤهلة لهذه الصفات الغريبة عن مألوف طبائع الإناث بشىء من عناصر الوراثة أو البيئة . فهى غنية غنى واسعاً ، من أسرة مترفة من أسر العلية فى العهد الفكتورى ، الذى كانت للأنساب فيه قيمة وأى قيمة ، فهى على صلة بحكم أسرتها بأكبر الأسر ذات السلطان فى عالمى المال والسياسة. وأخواتها وقريباتها تزوجن وأنجبن، وكان المفروض أن تنهج نهجهن هذا ، ولكن شيئاً أعظم من ضغط العرف والأهل والميول الفطرية الشائعة بين أفراد الجنس كان يدفعها إلى العزوف عن هذا السبيل ، لأن رسالة أخرى كانت تنتظرها ، لا يقدر على الاضطلاع بها غيرها ، فهى تحتاج فضلا عن الصلابة إلى مدد من المال والاستعانة بأهل النفوذ . . .

لقد فطرها الله للتمريض لا للأمومة ، فهى منذ طفولتها

تعنى بإصلاح العرائس التى تمزقها أختها ، وتضمد قدم كلبها وتضع لها الجبائر كأنه من البشر . ثم إذا أيفعت كان حلمها الأكبر أن ينقلب بيتها الريفى مستشفى تديره هى وتشرف عليه دون كلال بالليل والنهار ؛ بل أنها كانت تتصور الجنة فى خلدها حافلة بالمرضى الذين يحتاجون إلى مواساتها وعنايتها !

وأسلمتها هذه الأحلام فى سن الشباب الباكر إلى ضرب من القلق اختلط أمره على أمها إذ حسبته الشوق إلى الزوج الذى تطمئن إلى كنفه . ولكن ما كان أشد عجب هذه الأم الطيبة القلب حين وجدت ابنتها لا تهتم أدنى اهتمام بالجنس الآخر وما يتيحه للمرأة من مناعم ذاتية واجتماعية .

وأبدت فلورنس رغبتها فى الالتحاق بمستشفى للتمرن فيه على التمريض ، فكأنها رغبت فى احتراف خدمة البيوت أو ما أشبه ، لأن الاستنكار كان شديداً ، والدهشة والجزع كانا بالغين . فما كانت مهنة التمريض يومذاك من مهن بنات الأوساط ومن دونهم شيئاً ما ، فضلا عن بنات الأسر النابهة ، بل هى مهنة العجائز من أحط الطبقات أو الشواب من أشباه الغواهر ، فإذا كانت النظرة إلى التمريض قد اختلفت اليوم عن هذه النظرية الشائنة ، فما ذلك إلا من فضل هذه الفتاة الباسلة القوية العزمات . . .

ولم يفت من عضدها هذا الصد . بل ظلت السنوات الثمان التاليات تهتم بجمع المعلومات الفنية عن التمريض ، كأنما هى على يقين فى داخل سريرتها أن العالم سيحتاج يوماً إلى هذا الزاد الكثير من الدراية الفنية الدقيقة بهذه المهنة المهملة المزدراة . بل أنها استطاعت أثناء رحلات أسرتها المألوفة فى باريس وروما وكارلسباد أن ترتاد مؤسسات الراهبات وأن تتمرن على يدهن ، بل إن إحدى هذه المرات زادت على ثلاثة شهور فى مستشفى « كايزرڤرث » فى ألمانيا . وكان لهذه الفترة أكبر الأثر فى معرفتها بالتمريض عملياً ، ودراسة ما ينقص أنظمته من عوامل الإحكام .

ثم عرضت لها تجربتها الكبرى ، إذ برزت غواية الدنيا تساومها على رسالتها التى تحسها مفروضة عليها بقوة غالبة باثقة من أعماق نفسها ، وذلك فى صورة رجل أنست نفسها تميل إليه كأقوى ما تميل امرأة إلى رجل ، وطالبتها الطبيعة بحقها المحتوم . . .

ولكنها صمدت وقاومت مقاومة عنيفة ، وتمكنت فى النهاية من اطراح هذه الغواية لتتخلص لغايتها المبهمة ، التى تشعر بها باعثاً ولا تشعر بها هدفاً ملموساً .

ومرت أعوام ثلاثة أخرى ، تبين خلالها لأسرتها أنها بلغت

من السن مبلغاً لا يتسنى معه أن يلوى عنانها عن غايتها التى اختارتها ، فتركت وشأنها ، وأتيح لها أن تشرف على دار للتمريض فى حى الأطباء فى مدينة لندن . . .

ولكنها لم تسلخ فى هذه الدار عاماً واحداً حتى دق القدر بابها وصاح بها :

ــ إن الذى تنتظرينه قد حدث ، وهذا وقتك قد حان لتقومى بما طال له استعدادك .

إنها حرب القرم ، والمستشفى العسكرى فى « اسكوتارى » مكتظ بالجرحى ، والأحوال فيه ليست مما تسر له القلوب سواء بدافع الإنسانية أو بدافع المصلحة الوطنية . و « سيدنى هربرت » صديق فلورنس يومئذ وزير ، لهذا أهيب بها أن تخف إلى الأناضول على رأس فريق من الممرضات « لتساعد الهيئات الطبية العسكرية » . . .

وكانت فلورنس فى ذلك الحين فى الرابعة والثلاثين ، قد تم نضجها ، واستوى عودها ، فلا هى شابة خرعة ، ولا هى كهلة متداعية .

ولم تكن الحالة كما صورها مراسل التيمس فى اسكتارى سوءاً وفوضى ، كلا ! بل كانت أسوأ مما صورها بكثير . فلم تكن هناك استعدادات طبية مرتبة من أى نوع . فما كان

يخطر لذوى الشأن فى ذلك الحين أن الحرب تحتاج إلى أسرة وأدوية وملابس داخلية وضمادات وآنية للتطهير والطعام والغسيل حاجتها إلى البارود والقذائف والبنادق . لهذا ذهبت الجيوش الإنجليزية إلى القرم وكل عدتها من التطبيب طبيب ضابط كبير الرتبة ، وبضعة أطباء ، وبضع أدوات للجراحة وكفى... فلا أفرشة للسرائر ، ولا ملاءات ، وأما فرش الاسنان فهى عنقاء الخرافة فى ظن هؤلاء السادة . . . وكذلك الملابس الداخلية التى لا غنى عنها لطريح فراش جريح يجب أن يكون جسمه نظيفاً لكى لا يتطرق إلى جرحه الفساد . . .

وما ظنك بمستشفى إسكتارى ، وهو المستشفى العسكرى الرئيسى فى تلك الحملة !

إنه فى ضاحية من ضواحى إسطنبول ، ينقل إليه الجنود عبر البحر الأسود بعد أن يسعفوا بعلاج مبتسر فى مستشفيات الميدان المتنقلة . وكانت تلك الرحلة وحدها عذاباً أقسى من عذاب الجراح البالغة والحرب الضروس . فهى رحلة كانت لا تستغرق فى الأوقات العادية أكثر من أربعة أيام ، ولكنها كانت تستمر أسبوعين أو ثلاثة ، والجرحى أكداس على ظهر السفينة وفى داخلها ، يتبادلون العدوى ، ويعانون من القذارة والإهمال أكثر مما يعانونه من إصاباتهم الأصلية . ينامون على

الأرض ، بلا غطاء ولا وطاء ، وأحياناً بلا ثياب ، إذا كانت ثيابهم الأولى قد بليت أو ذهبت بها عوارض القتال ، فليس عجيباً أن تصل نسبة الوفيات بين هؤلاء المساكين إلى ٧٤ فى الألف ، يلقى بهم فى عرض البحر قبل أن يصل الركب إلى شاطئ إسطنبول .

ولكن إذا عرفت الحالة على الشاطئ ، لم تأس على من هلكوا قبل بلوغه ، وربما غبطوا على هلاكهم السريع . . .

فالنقلة من الميناء إلى المستشفى لا تتم على نقالات ، اللهم إلا لذوى الجراح الخطرة . أما الباقون فيحملهم الجنود الناقهون أو يجرونهم على سفح التل الذى يجثم فوقه المستشفى . . .

ولا تحسبن أن عذاب المساكين ينتهى عند أبوابه . . . كلا . بل كأن أبوابه تلك هى أبواب الجحيم التى يروى « دانت » أنه قرأ فوقها هذه العبارة :

« أيها الداخلون ! ودعوا آمالكم ! »

فالداخل مفقود . والخارج مولود . . .

فالبناء عتيق لا يصلح لسكنى الأصحاء فضلا عن المرضى : حيطانه متداعية قذرة ، وأرضه نخرة ، وأبهاؤه معتمة ، وغرفه مهجورة مظلمة ، والقذارة ملكة متوجة على جميع أرجائه المترامية الأطراف . أجل المترامية الأطراف فى ظاهر الأمر ، ولكنها

ضيقة إذا قيست بالعدد الضخم من اللائذين به . فطول الأسرة فيه أربعة أميال ، وقد صفت متلاصقة لا يكاد المرء يستطيع المرور من بينها .

وأما الأدوات فيكفى فى الكلام عنها أن يقال إن المناشف والصابون والطسوت كانت أشياء لا وجود لها فى ذلك المستشفى العتيد . وكذلك الأطباق وأدوات الأكل والمكانس والمقصات . أما أدوات المطبخ والوقود فكانت قليلة جداً . . . فلم يكن هناك شىء وفير إلا القذارة ، والفوضى ، ومئات المرضى . . المرضى الذين لا يستطيعون تغيير ملابسهم ولا غسلها ، لأنه لا مغاسل . ولا يستطيعون تغيير ضماداتهم ، لأن الضمادات قليلة .

وكان دون القضاء على هذه المخازى تراث ضخم من تقاليد العمل الحكومى الذى يتميز بالتراخى والجمود وضيق الأفق والتعنت.

هذا هو الجو القاتم القابض الذى وجدت فلورنس نفسها مكلفة بالكفاح فيه . وكانت قد سألت المختصين قبل أن تبرح لندن ، فكان الجواب أن فى المستشفى كل ما يلزم من الأدوات والأدوية ، وأنه لا ينقص المرضى شىء تحتاج إلى أخذه معها. ولكن إحساسها هداها أن تخالف هذه المعلومات ، فاشترت من مارسيليا كمية هائلة من المئونة والعقاقير كانت ذات أثر

كبير فى تدارك الحالة عند وصولها .

ويخطىء من يظن الرؤساء الأشاوس قد رحبوا بما جلبته معها من معونة ! كلا ! إذ كيف يقبلون أن يقال إن إدارتهم السنية كانت بحاجة إلى مساعدات « أهلية » ؟ دون هذا وتهدر كرامة « الميرى » . . . وللميرى أسود تغضب له ، لأنها تعيش على سمعته الجوفاء !

لهذا تصدى لها رئيس القسم الطبى ومعاونوه ، وأبدوا لها جفوة منفرة . وأعانهم على هذا سفير إنجلترا فى أسطنبول ، حتى أنه أريد الحيلولة بين مندوب « التيمس » وإنفاق ما جمع بالاكتتاب العام للترفيه عن الجنود ، واقترح عليه أن يشيد به كنيسة إنجيلية فى « بيريه » من بلاد اليونان !

وهنا ظهرت مواهب فلورنس .

فلو كانت رقيقة خرعة لفشلت ، ولكنها كانت من معدن أعدائها رجال الحرب ، ففل حديدها حديدهم ، لأنه حديد أصيل يقوم على قوة الحق وقوة الشخصية وقوة الخلق ، لا على جاه المنصب والعزة بالسلطان وكفى !

فبالصبر وعدم الاكتراث للعقبات فرضت وجودها على المستشفى فرضاً ، فإذا الجنود يتمتعون بأدوات صحية ضرورية لم يكونوا يعهدونها من قبل فى ذلك البناء الكريه ، وبدأت النظافة

تطل برأسها فى الطعام ، والأرض ، وأغطية الفراش والملابس .
فقد خرجت فلورنس عن ٧٠٠٠ جنيه من حر مالها ، وهى
يومئذ ثروة ضخمة – عدا أموال أخرى أرسلت إليها من الشعب
المتحمس لرسالتها ، لشراء صحاف ، وأدوات للغسيل ، وملابس
داخلية ، وملاءات ، وأربطة ، وصابون ، واستأجرت منازل
بأسرها يعمل فيها زوجات الجرحى فى غسل الملابس ورتقها ،
وبلغ ما اشترته فى دفعة واحدة ٢٧ ألف قميصاً .

كان عليها أن تكسو الجيش البريطانى – على حد تعبيرها –
وأن تدبر وحدها وسائل العناية الصحية لأكثر من ألف مريض
فى وجه مقاومة يحسب حسابها من المسئولين وأهل السلطان .

كانت لا تنام الليل ، بل تنفقه فى كتابة التقارير والرسائل
ومراجعة الحساب ، وتنفق النهار فى تدبير الوسائل وتنفيذها ...
أما المواساة نفسها – وهى أكبر ما حسبه الناس من أعمالها –
فلم تكن إلا قلامة صغيرة بين أعمالها المضنية وجهودها العنيفة .

ولم يكن المطبخ أهون من عنبر التمريض وحجرة العمليات
شأناً ، ففيه اصطدمت « بالروتين » الحكومى الجامد كما
اصطدمت به فى الطوابق العليا ، فلائحة الجيش تمنع تخليص
اللحم من العظام ، وتنص على تقسيم اللحم على حسب الحجم ،
فقطعة منه تكون لحما خالصاً ، وأخرى تكون عظما بغير لحم ...

ولا ضير – ما دامت اللائحة لم تخرق – أن يموت المريض أو الناقه لنقص تغذيته عما ينبغى له !

هذا فضلا عن سوء الطبخ ، كأنما الطعم المقبول مما لا يتفق وما للسمت العسكرى من مهابة وخشونة !

أجل كان المغسل والمطبخ هما أشق ميادين كفاحها ، وقد أدركت هذا بعبقريتها العملية ، على خلاف تابعاتها وصواحبها من « زهرات المجتمع » اللواتى كن يذبن رقة ويتحرقن شوقاً إلى وضع أيديهن على جباه المرضى وهن يذرفن الدمع . . .

أما فلورنس الصارمة فكانت تقول لهن قبل أن يصلن إلى إسطنبول :

– إن الطست هو معركتنا الأولى التى سنخوضها : وفى ساحته سيطلب أكبر قسط من العمل والمجهود . . .

ولكنها على صرامتها كانت أفعل أثراً فى المرضى من الرقيقات الباسمات . إنهم كانوا يلمسون فيها حرارة الإخلاص والمحبة الخشنة خشونة الصدق والمضاء . فكانوا يطيعونها ويتشجعون بمرآها ويتعلقون بخيالها ووقع خطاها كأنها قديسة من قديسات الأساطير . وإذا احترامهم لها يدفعهم إلى التأدب فى الخطاب مع تفشى البذاء فى طبقات الجنود لذلك العهد ، فما تذكر أنه وقع على سمعها لفظ ناب طول تلك الفترة .

فما أنقضت على وصولها ستة أشهر حتى كان كل شيء قد أصبح على ما يرام . فأولت الميدان العسكرى عنايتها ، وفكرت فى زيارة مستشفياته المتنقلة بنفسها . وهى مهمة شاقة إلى أبعد حد : بسبب وعورة المسالك ، وصعوبة المواصلات ، وحدة الطقس ، وانعدام وسائل الراحة فى الحل والترحال . فالثلج لا يكف فى تلك الفترة عن الهبوط ، وقد يكلفها الانتقال من مركز إلى مركز أن تمشى تحته طول النهار على قدميها بغير انقطاع .

ولكن هذا لم يفت فى عزيمتها ؛ فزادها من الاحتمال والمقاومة عظيم . . . إلا أن لكل شيء آخراً يقف عنده ولا يعدوه ، فأصابتها الحمى ونال منها الكلال . حتى ظن فى بعض الأحيان أنها على شفا الموت . ومع هذا لم تكف عن العمل ، وعن الكتابة ، حتى عجزت يدها عن حمل القلم . ولما أبلت من مرضها شيئاً ما ، قيل لها أن تعود إلى إنجلترا ، ولكنها أبت إباء شديداً ، وأصرت على البقاء فى « اسكتارى » . . .

ولما همت بزيارة أخيرة للميدان ، خطرت لرئيس القسم الطبى فكرة عبقرية لوقف نشاطها وإذلال كبريائها وقهرها : أن يأمر المراكز الطبية التى تزورها أن تمتنع عن صرف أى نوع من الغذاء إليها وإلى من معها ، فإن الجوع قد يفلح معها

حيث لم تفلح المقاومة الإيجابية .

إلى هذا الحد بلغت العداوة بين هذه المرأة الباسلة القوية فى الحق والرحمة وهؤلاء الرجال الصناديد ، الذين ينتسبون إلى طائفتى الجنود والأطباء فى وقت واحد . ولعل هذا يكفى للتدليل على مبلغ وهم من يحسبون روح العسكرية صنو الشجاعة والأريحية وأن الطب لا يقوم إلا على الشفقة والإيثار . . . وإنما هى فى الواقع صناعة كأى صناعة ، لا تبلغ بأصحابها ما لا يبلغونه بأنفسهم من صفات الكمال . . .

إلى هذا الدرك إذن انحدر الضابط العظيم والطبيب الكبير فى محاربة امرأة شجاعة تجردت لخدمة المرضى ، ولكنها كانت أقوى منه بأساً كما كانت أعلى منه باعثاً وغاية وخلقاً ، إذ تحوطت للأمر دون علم سابق فأخذت معها زاداً محفوظاً كفاها ورفاقها الحاجة إلى طعام ، فأتمت رحلتها مع الأناة والتطويل ، وجرعت خصمها غصص الغيظ . وما كان رفاقها خمسة أو عشرة ، بل أربعة وعشرين ممرضة . . . تركن بلا طعام وأمدتهن هى بحسن تدبيرها بما يلزمهن أياماً كثيرة . . .

وهكذا انتصرت فلورنس على طول الخط . . .

انتصرت ، وسجلت بانتصارها مرة أخرى أن العامل للخير يخطئ إذا ظن الناس سيسارعون لمعونته ، وإنما هو حرى أن

يوطن النفس على أن معظم القوى ستتصدى لحربة تطوعاً ولغير علة ظاهرة . . .

وأبت نفسها الكبيرة أن تبرح اسكتارى إلا بعد أربعة شهور من الصلح ، ريثما رحل عنها آخر جندى جريح ... فاستقبلت فى بريطانيا استقبال الغزاة وحيتها الملكة بهدية فاخرة . . . هى عليقة من الماس عليها هذه العبارة « طوبى للرحماء » .

فهل استكانت للراحة بعد هذا الجهاد الشاق ؟

كلا !

بل بدأ جهادها الأمر ، لتغيير النظم الأساسية فى القسم الطبى بالجيش ، ولتأسيس مدارس للممرضات المثقفات النظيفات للخدمة فى جميع المستشفيات ، ولوضع أسس علم التمريض بمعنى الكلمة على نهج علمى صحيح .

جاهدت فلم تدع لنفسها راحة ، ولا لأصدقائها : تعقد الاجتماعات ، وتزور الملكة ورئيس الوزارة ، وتؤلب الرأى العام على كبار الموظفين الذين يعطلون الإصلاح ، وتكتب تقريراً عن مأساة اسكتارى عدته ثمانمائة صفحة من البنط الدقيق ، هو أوفى سجل إحصائى لمشاكل التمريض فى الميادين...

ظلت تكافح حتى مات « سيدنى هربرت » صديقها الوزير تحت وطأة الإجهاد الذى كانت تلزم به أصدقاءها إلزاماً

لا هوادة فيه ، حتى كان من يفكر فى الراحة منهم يعتبر فى نظرها مجرماً خائناً للقضية ؛ فهى نفسها كانت مريضة ، ولكنها لم تكف لحظة واحدة عن الكفاح .

وأخيراً تألفت لجنة عليا لإتمام الإصلاح المنشود ، وتأسست مدرسة فلورنس نايتنجيل لتخريج الممرضات .

ولكن اللجنة — ككل لجنة حكومية — جعلت تتلكأ ، فوالتها بالحملات العنيفة حتى أتمت عملها بعد لأى .

وكان اسم فلورنس قد لمع فى العالم كله ، وأصبحت مستشاراً عالمياً فى مسائل التمريض وهندسة المستشفيات وإعدادها يطلب رأيها أهل ألمانيا وأمريكا وفرنسا والهند ، وسائر البلدان... حتى رأت بعينيها ثمرة انتصارها تعم العالم أجمع وهى فى أواخر العمر . . . وكرمها إمبراطور ألمانيا ، كما كرمتها حكومة بلادها وصار بيتها كعبة للعظماء ، السعيد منهم من أذنت بمقابلته — وهى يومئذ مشلولة الساقين — فى الوقت الذى تشاء . . .

ولكن الإنسان ضعيف . . .

فإن الطبيعة التى قاومتها بنجاح عشرات السنين تربصت لها حتى ضعفت فى أواخر العمر ، وأطلت برأسها تطالبها بحقها الممطول . . . وبدأ هذا الهيكل القوى العصبى على الشهوات وضعف البشرية الفانية يتداعى لترقص على أطلاله شياطين

قميئة شائهة الوجوه . . . على هيئة ميول منحرفة من المجاهدة الشيخة نحو الفتيات اللواتى يلتمسن من محرابها نور القدوة . . .

ولكنه الضعف الذى يعطف القلوب ، لأنه آية نفاد القوة ، وما نفدت إلا فى نصرة الخير ومحاربة جحافل من الغباوة والقسوة والفساد . . .

وهكذا تكون العبقرية فى بنى الإنسان ، من النساء أو الرجال ، قوة دافعة للإنسانية فى مراقى الكمال ، للعالم خيرها ، وعلى أصحابها ضيرها وبوارها . . . كما تحترق الشموع لتنير للناس...

٣ — يوديث

ولئن كانت « چان دارك » مثل الشجاعة التى تستمد من عليين . ولئن كانت « فلورنس نيتنجيل » مثل الشجاعة التى يساندها الخلق القوى والطبع الركين ، فإن من النساء من حاربن بمدد أعلى من بواعث الطبع ومشارب الفطرة . فكانت شجاعتهن أعلى من نداء البقاء ، ومن نداء النوع ، ومن سلطان الفطرة ، ولو كانت فطرة الأمومة . . . وذلك نمط من البطولة فريد . يعلو بمثاله فوق رؤوس بنى آدم جميعاً من النساء والرجال. وقد ضربته للناس أم مجرية من غمار العامة فى بعض قرى الحدود . . .

* * *

... صمتت المدافع وخفت صوت المعركة ، وسقط الشجعان صرعى فى الميدان الذى بسط عليه الموت ظله ، بعد أن ظل حامى الوطيس سحابة النهار ، فلم يعد يسمع هناك صوت إلا أن يكون قصف الرعد أو أنين الريح .

وعند أبواب القرية ، حيث كانت البيعة تملأ رحبتها شواهد القبور البيضاء ، احتشد النساء يأكلهن القلق الممض متلهفات — لا على الأزواج والأبناء والأحباب — بل على أنباء القتال وبشائر النصر ...

وكن جميعاً — من أمهات وعذارى وذوات بعول — يتنفسن عن أمل واحد : أن يعود الرجال يكللهم النصر ، أو لا يعودوا قط . فما تود واحدة منهن أن تبقى الهزيمة على رجل حى — مهما كان عزيزاً عليها — ليحمل إليهن نبأها المشئوم .

وعلى عتبة البيعة جلس شيخ نيف على التسعين ، ذهبت السن ببصره وأوهنت عظمه ولسانه . وكان هو أيضاً فى انتظار ما ينجلى عنه اليوم العظيم ، وإلى جانب الشيخ فتى مقعد جارت عليه الأيام فى واحدة من ساقيه وفى ذماء عافيته ، فهو لقى لاحول له ولا طول .

وإنه — مع هذا — ليحس قلبه قد فارق حنايا صدره ليشهد

الوعى مع المصطرعين فى الميدان ، وهو لا يفتأ يقول للشيخ بلسان حسير ممرور :

ـ لماذا قضى الله علىّ ألا أكون فى المدافعين الكماة ؟

فيقول له الشيخ شيئاً مما يرد على ذهنه المكدود ، عن قضاء الله وإرادة الله والخفى من حكمة الله . . .

وفى ظل شجرة من أشجار السنط انفردت عن الجمع أنثيان : كبراهما فى نحو السادسة والثلاثين ، لم تطمس أمارات الجد والصرامة فى ملامحها مسحة من الجمال الرائع ، وقد أضفى الشحوب والتماع الحماسة فى عينيها الحوراوين روعة على محياها وأيما روعة . فقد كانت « يوديث » مثلا كاملا لبنات جنسها : قوة بنية ، وشدة أسر ، وبقاء رونق على العفاء عزيز .

وقد أحاطت بجيدها خود فى السادسة عشرة تلوذ بها ، ذهبية الغدائر زرقاء المقلتين ، ههيفة القد ، فكأن « أرانكا » وهى ملقية على « يوديث » عبء ما ناءت به من أمل ومخاوف ، زنبقة أحنى عودها اللدن هبوب النسيم . . .

وكانت « ارانكا » خطيبة ولد « يوديث » الوحيد ، الذى كان يخوض فى هذه الساعة معركة البلدة ضد جيش الأعداء من فرسان القوازق العتاه . .

وأخيراً قالت « يوديث » وهى تومئ إلى السهل المترامى :

ـ أما ترين شبحاً يدنو ؟ . .

فحدقت « أرانكا » ، ولكن أنى للعيون الزرق أن تتبين فى غبشة الأصيل ، ما تستشفه العيون الحديدة السوداء !

ولكن الشبح ما زال يدنو حتى اتضح رسمه ، فتضرجت وجنة الفتاة بحمرة الحب وتلهب وجه الأم بنيران الغضب ، وهمست أرانكا وهى تضغط على قلبها بيدها :

ـ أنه هو .

وصرخت « يوديث » مر وعة :

ـ وبلا سلاح ! ؟ . .

وسترت عينيها بكفيها ، وقد أشاحت بوجهها عنه . .

ودنا الشبح واهن الخطو ، رأسه مدلاة على صدره ، وكأنه يجد للحركة ألماً . فلما رأى النسوة فى رحبة البيعة يمم شطرها فعرفن فيه ابن « يوديث » فاجتمعن حولها فى انتظار وصوله وكان خندق البيعة يفصل الأم وصواحبها عن فتاها ، فلما أعياه العبور خر أمام الضفة ، فانكشفت للناظرات حقيقته ، فإذا ثيابه ممزقة ملطخة بالدماء ، ويداه ـ كلتاهما ـ على موضع جرح فى صدره . فصاحت به أمه بصوت صارم ، وقد تقدمت الجمع :

ـ أين تركت سلاحك ؟

وكان فى مقدوره أن يجيبها — صادقاً غير متحرج :

— تركته فى صدر عدو وطنى . .

ولكنه لم يستطع أن يقول تلك الكلمة ، لأنه وجدها غير شفيعة له فى الحياة مع الذل، ثم أنه لم يجد فى نفسه فضلة من القوة للنطق .

— تكلم يا فتى ! هل دارت الدائرة علينا ؟

— . . . .

— ولماذا إذن عداك مصير الشجعان من لداتك ؟ لم تركت الشمس تطلع على خزيك وعارك ؟ لماذا عدت ؟ . . .

— . . .

— إن قد كنت عدت لندفنك هنا ، فقد خدعت يا مسكين نفسك بالأباطيل . وأولى لك أن تنشد قبراً حيثما يكون الموت مجداً ومفخرة : هناك فى ساحة الوغى ! اذهب ! فليس بين قبور موتانا الشرفاء مكان لمثلك ! اذهب عنا ولا تذكر للناس أنك ولدت فى هذا البلد .

وسكتت الأم ، وقد وضعت يديها على وجهها الملتهب بنيران الغضب والقهر ، وأجال الفتى بصره فى النساء كافة فلم يجد نظرة عطف ولا بادرة رحمة ، فيئس أن يكون فى الجمع كله نصير أو عذير ، حتى عروسه ، فدار على عقبيه وعاد

من حيث أتى ، فأخذ ظله الباهت يتضاءل رويداً رويداً ، وهو يعبر الغاب إلى السهل الذى يليه ، يتعثر فيقوم ويجر ساقيه المتداعيتين جراً حتى بلغ الأجمة فسقط على الأرض يلتمس فى جذع شجرة ألقتها الريح سنداً ، ولكن رقدته هناك طالت حتى نزف دمه وأصبح إلى جانب الجذع الملقى جذعاً آخر لفظته الحياة وتلقفه العدم .

* * *

ولقى نفس هذا المصير أولئك النفر القلائل الذى عادوا من المعركة أحياء . . .

* * *

ولما ثبت أن المعركة قد خسرتها البلدة ، وأن الغزاة سيجتاحون أرضها ويدوسون حماها ، علا بكاء النسوة حتى بلغ أعنان السماء فسأل الشيخ الأعمى ما الخبر ، فقيل له :

— لقد ضاع الوطن ، وهلك بنوك وحفدتك مع قائدهم ورفاقهم فى السلاح ، فلم تبق منهم باقية .

فخر الشيخ على الأرض ، وارتفع عنه العمى ، لأن النور الأبدية قد أشرق على روحه :

لقد مات . . .

واجتمع النسوة حول جثمانه يندبن ، فلا يندبن الشيخ الذاهب

ولا الأزواج والبنين ، بل أرض الوطن التى أضحت مستباحة للغاصبين بعد أن سقط دونها الحماة .

وتكوم الفتى المقعد عند رأس الميت ، وقد أخذ قلبه يتنزى لندب النسوة ، وهن يصحن مولولات :

ـ اليوم مات آخر الرجال . .

فاستبد به الكمد ، ولم تدمع له من شدة القهر عين ، فهو موجود كلا موجود ، لأنه موجود غير معدود . . .

وهكذا انقضى الليل . . .

فلما آذنت خيوط الفجر الأولى أن تطلع ، سعت « يوديث » إلى حيث تكوم الفتى ، فانتحت به جانباً وشرعت تتحدث إليه مترفقة به حانية عليه :

ـ أيجمل بك يا « داود » أن يكون جدك ميتاً مسجى بين ناظريك ، يندبه الناس من حوللِك ، ولا تذرف عينيك دمعة واحدة ؟ ما بك ؟

فسكت ولم يجب . . .

فعادت تقول :

ـ لقد رأيتك أمس تتقلب فى رقدتك كأنك ترقد على شوك ، فلم تنم من ليلتك لحظة ، فأنت إذن موجع يسهدك الألم فكيف تتوجع ولا تبكى ؟ إنك إذا ألمت فلا حيلة للموجع

غير البكاء ، وما أراك يهنأ لك عيش وأنت لا تنفس عن نفسك . .

ـــ كيف أبكي يا عمتى « يوديث » ، ومن لى بالبكاء ، وأنا أرانى مما عناهم الشاعر بقوله :

لا كالرجال ولا كالغيد ، قد صفرت
أكفهم من حلى بأس وحناء . !

فلست رجلا أحمل السيف وأدفع ضريبة الرجولة للوطن . ولست أرانى يليق بى البكاء شأن النساء .

ـــ وهل إلى هذا الحد بلغ بك الأسف لأن الموت قد فاتك ؟

ـــ وهل تسمين ما بى أسفاً على فوات الموت ؟ بل سمه أسفاً على الحياة التى لا تشرف صاحبها ولا تترك الموت يشرفه بدلا عنها ! لقد عافتنى حياتى يا عمتى « يوديث » ، ولم ينقذنى الله كما تعطف على جدى فاختاره لجواره حين أضحت الدنيا أحلك فى عين الكريم من ظلمة القبر . . .

فأطرقت يوديث لحظة حتى لا يراها تنظر إلى وجهه المكفهر المربد من أثر السهاد والغيظ والهوان ، ثم رفعت رأسها وثبتت عينيها فى عينيه ، وقالت بصوت هادئ يقطر رقة وعطفاً ؟ .

ـــ يا داود ! إن كنت صادقاً فى تشهى الموت ، فأنت لا شك ترضاه لو عرض عليك . . .

فقال فى لهفة ظاهرة :

ــ وكيف لى به يا عمتى ؟ لا تهزئى بى . فلم يخلق فى الدنيا رجل يرضى أن ينزل بنفسه إلى قتل « جيفة » مثلى كالعجاوات أو أقل . . .

ــ كلا يا داود ، لست أهزأ بك ، وحاشاى أن أفعل . فأنا مقدرة كل التقدير شعورك النبيل بقدرك القاسى . ولكنى أعرض الموت عليك حقاً وصدقاً . وأعرضه عليك فى أمجد صورة يمكن أن يحلم بها بطل صنديد من أبطال الأساطير ، وفى أبهى إطار تشارك الأرض والسماء فى رسم ألوانه وأطيافه .

ــ كيف ؟

ــ . . ميتة يصحبك فيها ، فى موكب رائع ، كل عزيز لديك فى هذه الدنيا ، كأنه يحرق البخور بين يديك قربى إلى جثمانك وزلفى . .

ــ لست أفهمك يا عمتى ؟

ــ . . . هه ! وقد لا تفهمنى أبداً ؛ فحياتك لا تزال على شقاوتها وقلة حظك منها شهية فى عينيك ، وعكازتك فيما يلوح أحب إليك من جناحى إله من الآلهة الخالدين . .

ــ بالله يا عمتى لا تذكرى هذا ، فكم تمنيت أن أشترى بالبغيض من حياتى ميتة أشتهيها وأنفس عليها الأبطال .

— اسمع إذن : « . . . . ،
» . . . . ،
» . . . . «

* * *

ثم قادته من يده ، والحماسة تكاد تخرجه من إهابة ، إلى برج البيعة حيث الناقوس الكبير ، فدخل وغلق دونه الأبواب، ثم ألقى إليها بالمفتاح من كوة فيه ، وهو يصيح بها :

— خذى هذا المفتاح . فما بى إليه حاجة .

وجلس إلى نافذة البرج يرقب الأفق البعيد . وعادت « يوديث » إلى مأتم الشيخ ، أو مأتم البلدة ، فأشارت إلى النساء أن يرقأن الدمع ، ويلقين إليها السمع ، ثم انبرت تقول:

— لقد امتحنتنا الأقدار فعشنا وقد ذهب خير العيش كله مع من ذهب ، فلا خير فى عمر — وإن طال — بعد إذ كتب علينا ألا نسترد فيه من فقدنا ، وإنما قصارى هذا العيش أن تقوس السنون ظهورنا فى الهم والحسرات — فلا حظ لنا وايم الله من هناءة إلا هذا الذى أضحى ودونه جندل وصفائح ودمع نائح — وأن نرى عدونا يغشى ديارنا وهو آمن ، وإن الموت لخير من هذا الذى ينتظرنا . . فاذهبن إلى بيوتكن فأعددن الحطب للنار ، وضعن على الحطب الزيت ليسرع إليه الاشتعال ،

حتى إذا سمعتن ناقوس البيعة يدوى أسرعن إلى هنا لنحمل فقيدنا إلى باب البلدة ونحفر له مثوى فى عرض الطريق المفضى إليها نقف دونه فلا يدخل القرية عدو إلا على أشلائنا . . .

وأنفذ النسوة ما أمرتهن « يوديث » . .

وعند الفجر حان الوقت المعلوم ، فانطلقت دقات الناقوس ترن مجلجلة فى الفضاء : ذلك أن سحباً من العثير قد ظهرت على مرمى النظر فى الأفق البعيد زاحفة نحو البلدة ، فاصطفت النساء دون قبر الشيخ ، ووقفن على أهبة للقاء الزاحفين من العدوة الأخرى للطريق . . .

وما اقتحم المغيرون الطريق حتى استعر القتال استعاراً شديداً ، ودار فى القرية داراً داراً وحجراً حجراً ، حتى كان المساء ، فباتت القرية كلها فى قبضة العدو ، واطمأن إلى غنيمته التى جمتها النساء بعد الرجال . . وإذا النار تنشب فى سقوف الدور جميعها فى وقت واحد كأنها هبطت من السماء ، وزئير الريح يزيدها ضراماً ، حتى اشتعلت البلدة من أدناها إلى أقصاها ، وقد ارتفع عويل « المنتصرين » إلى عنان السماء ! ولكن كان يعلو على أصواتهم الفزعة الجازعة صوت ناقوس البيعة ، التى كانت قذائف الزيت المشتعل تتوالى من برجها فتشعل الحرائق يمنة ويساراً أينما حملتها الريح ، وقد اختلطت فى الجو أصوات

استعار النار وزئير العاصفة المبرقة المرعدة . وأنين الموتى بين اللظى والأنقاض . . .

ثم سمعت دكة قوية . تلاها صمت كصمت الموت . . .

بل إنه كان هو صمت الموت .

فقد تداعى البرج ، وانتهى الغلام القعيد ، بعد أن وفى بنذر « بوديث » أن تأتى على أعداء وطنها غير مبالية فى سبيل ذلك بالحياة ، ولا بما هو أغلى من الحياة عند سائر الأمهات...

رقم الإيداع	٨٧٦٥ / ١٩٩١	
الترقيم الدولى	977 - 02 - 3554 - 7	ISBN

١ / ٨٦ / ٧١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

اقرأ

قد يكون أول ما يتبادر إلى الذهن عند الإطلاع على عنوان هذا الكتاب « نساء محاربات » « ماذا جمع الشامى مع المغربى ؟ ! » لأن المفروض أن المرأة والحرب مقولتان مختلفتان . فصنعة الحرب ينهض بها الرجال أما النساء فقوارير رقيقة ودمى لطيفة . فكيف إذن ؟ !

هذا الكتاب يجيب على هذا السؤال

ص
١٠٠

اقرأ

امبابي أحمد

قصة العناصر

قصة العناصر

امبابي أحمد

قصة العناصر

اقرأ
١٠٠
دار المعارف للطباعة والنشر بمصر

اقرأ ١٠٠ — مايو سنة ١٩٥١

الإهداء

إلى الأرض . . .

مصدر العناصر . . وأمنا العجـــوز .

. . . وكلما ازددنا علماً تفتحت أمامنا آفاق عـــديدة جديدة . . فما أقل ما نعلم . . وما أكثر المجهول الذى لم نتوصل إلى معرفته بعد . .

(سير همفرى دافى)

مقدمة

ما كان الإنسان فى العصر الأول يعرف شيئاً عن المعادن بل كانت جل أدواته تصنع من الحجر أو العظم أو قرون الحيوان . ولعل الذهب بما له من بريق ولمعان كان أول المعادن التى استرعت انتباهه فهناك بقايا من حلى ذهبية اكتشفت مع أدوات مصنوعة من الحجر الصقيل يرجع تاريخها إلى العصور الحجرية . وهذا دليل بين على أن الذهب هو أول المعادن التى عرفها الإنسان .

والمعدن الثانى هو النحاس . وهناك قول بأن المصريين عرفوه قبل معرفتهم للذهب وكانوا تستخلصونه من كربوناته Malachite وهى أهم خاماته وكان مصدرها صحراء سينا ,وقد اكتشفت فى مصر آثار نحاسية يرجع عهدها إلى ٣٥٠٠ سنة قبل الميلاد . ويقال أيضاً إن أول من اشتغل بالتعدين هم أهل العراق غير أنه من الثابت أن هذه الصناعة كانت معروفة أيضاً لأهل مصر ولسكان جزيرة كريت منذ ٣٤٠٠ سنة قبل الميلاد وأن الذهب والفضة والنحاس والبرونز والرصاص والحديد من

المعادن التي كانت معروفة عندهم . ولم يعرف على التحديد مصدر القصدير الذى كان يدخل فى صناعة البرونز حينذاك (والبرونز خليط من النحاس والقصدير) فهناك قول بأنه كان يرد من ساحل كورنول Cornwall Coast ببريطانيا وقول آخر كان يرد من درانجيانا Drangiana ببلاد الفرس. ومن الثابت أيضاً أن قدماء المصريين استخدموا الحديد والفضة والرصاص بعد استخدامهم للنحاس . أما الذهب فقد عرفته البلاد قبل عهد الأسر Predynastic Period أى قبل عصر الملك مينا (٣٤٠٠ سنة قبل الميلاد) ومن طريف ما عثر عليه الباحثون رسالة من أحد ملوك مصر القدامى يرجع عهدها إلى ١٢٥٠ سنة قبل الميلاد إلى أحد ملوك الحيثيين Hittites بآسيا الصغرى يسأله فيها إمداداً من الحديد . كما عثروا على رد هذه الرسالة وفيه يطلب الملك الأسيوى شحنة من الذهب مقابل هذا الحديد . وقد ورد فى الرد المذكور فقرة تقول . —

« والذهب فى بلاد أخى ملك مصر وفير جداً كالتراب »

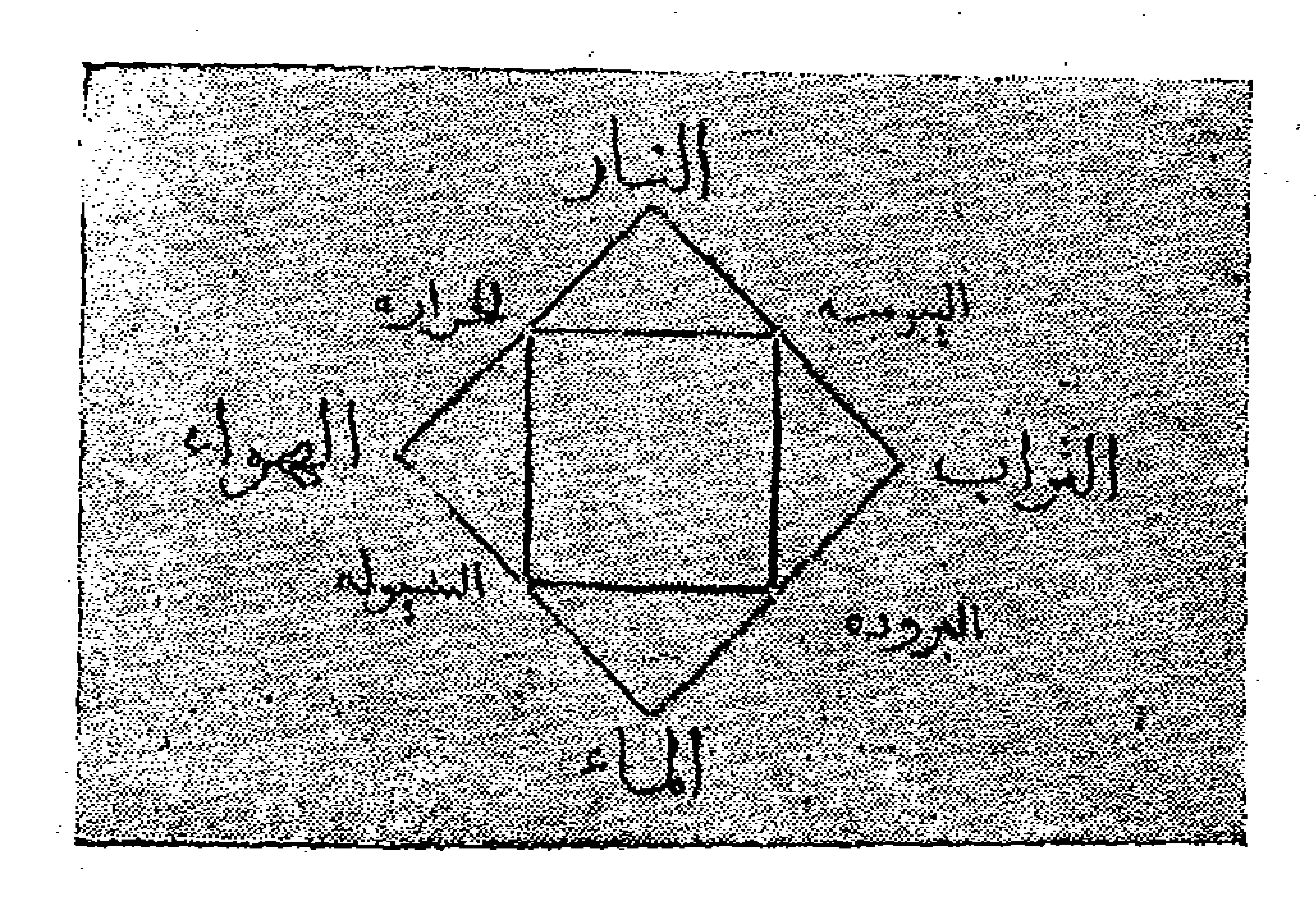
الباب الأول

١

العناصر الأربعة

تعال معى أرجع بك عبر القرون . . إلى غابر العصور أيام كان الإغريق والرومان أئمة العالم وقادة الفكر . . أيام سطعت من بلادهم شموس المعارف وأنوار العرفان فعمت سائر الأمم . . ففى هذه العصور البعيدة ظهرت الفكرة الأولى عن العناصر . فمنذ ٤٦٠ سنة قبل ميلاد المسيح قال طاليس Thales إن الماء هو أصل كل شىء . . وكانت تعاليم أناكسيمينيس Anaxemenes منذ ٥٦٠ سنة قبل الميلاد تقول إن الهواء هو أصل الكائنات . بينما قال هيراقليتيس Herakleitos منذ ٥٣٦ سنة قبل الميلاد إن النار هى أصل كل شىء . وفى الفترة من ٤٩٠ — ٤٣٠ ق.م. ظهرت نظرية العناصر الأربعة وكان أول من بشر بها هو إيمبيدوكليس Empedokles فقد قال إن كل شىء فى الكون مركب من عناصر أربعة هى النار والهواء والماء والتراب . . ثم جاء أرسطو (٣٨٤

– ٣٢٢ ق.م.) فلخص فلسفة المفكرين الأولين وقال إن جميع الأشياء مهما تباينت واختلفت فى الخصائص والتركيب يرجع أصلها إلى مادة بدائية سماها الهيولى Hylé فجميع الأشياء يدخل فى تركيبها هذا الهيولى مع عناصر الكون الأربعة كلها أو بعضها . بل ذهب أرسطو فى فلسفته إلى أبعد من ذلك فقال إن هذه العناصر تحوى فى الحقيقة أسساً تكسب المادة المكونة منها خصائص مميزة ومن هذه الأسس اختار الحرارة والبرودة والسيولة واليبوسة . . وأن كل عنصر من العناصر الأربعة ينتج من اتحاد زوجين من هذه الأسس كما هو موضح فى التخطيط التالى :–



وقال إن الأجسام التى من خصائصها السيولة أو البرودة عنصرها الماء والمواد التى من خصائصها الحرارة أو اليبوسة عنصرها النار وهكذا .

وأضاف من جاء بعده من المفكرين — إلى العناصر الأربعة — عنصراً خامساً غير منظور (الأثير) وقالوا إن المصادر الطبيعية لهذه العناصر هى الأرض للتراب والبحار للماء والجو للهواء وال بماء وأجرامها للنار والأثير .

أما أفلاطون (٤٢٧ — ٣٤٧ ق . م) وأتباعه فقد افترضوا فى مذهبهم فى خلق الكون أن النار والهواء والماء والتراب وجدت كلها مصادفة ولم توجد بفعل فاعل . . وأن الأرض والشمس والقمر والنجوم فطرت من هذه العناصر الجامدة التى لا روح فيها والتى تتحرك بالمصادفة البحتة والقوى الكامنة فيها . فخلق الكون بما فيه من حيوان ونبات إنما حصل عن هذه العناصر وحدها ولم يصنع صنعاً . . فهو لم يخلق بفعل عقل أو فعـــل إله . . بل خلق بالطبيعة والمصادفة فقط .

وهذه الآراء وغيرها مما سيلى فى الصفحات التالية وإن كان لا يعتد به اليوم لما عرف من الحقائق التى تنقضها كما لا يعتد بآراء بطليموس Ptolemaeus فى ثبوت الأرض ودوران الأرض حولها بيد أن عدم الاعتداد بمثل هذه الآراء لا ينفى ما تأتى

عنها من جليل النفع وعظيم الفائدة . . فالعلوم لم تتسع ولم ترتق إلا بعد أن ارتأى العلماء والفلاسفة الآراء لتعليل الحقائق والمشاهدات ومحصوها هم وغيرهم للتحقيق من صحتها أو بطلانها فإذا وجدت بعد البحث والتمحيص كاذبة أو غير مدعمة بدليل بطلت فيغلق بإبطالها باب من أبواب الخطأ وربما فتح بهذا الباب باب من أبواب الصواب التى تهتدى فيها العقول إلى اجتلاء الحق المبين .

وظل الاعتقاد بصحة العناصر الأربعة سائداً حتى نهاية القرن الثامن عشر . . ولا يزال الكتاب والروائيون إلى يومنا هذا يطيب لهم أن يصفوا ثورة الطبيعة بقولهم .

« غضبت عناصر الكون . . فزمجرت الرياح وهاج البحر وقصفت الرعود والتمعت البروق » .

٢

الأكسير – حجر الفلاسفة

فى عام ١٨٢٨ ميلادية اكتشفت فى إحدى مقابر طيبة حزمة من أوراق البردى بعضها الآن فى مدينة ليدن ويعرف ببردى ليدن Papyrus of Leyden والبعض الآخر محفوظ

فى مدينة ستوكهولم ويعرف ببردى ستوكهولم Papyrus of Stockholm . وهذا البردى مخطوط باللغة الإغريقية فى تاريخ يرجع إلى حوالى ٣٠٠ سنة بعد الميلاد وهو مأخوذ فى الغالب عن مصادر مصرية قديمة . . ومما جاء فى بردى ليدن ما يلى :—

« يسحق قدر من الذهب وآخر من الرصاص بنسبة جزء من الأول إلى جزئين من الثانى ثم يخلط المسحوق جيداً ويعالج بعد ذلك بشىء من الصمغ . . تغمس حلقة من النحاس فى الخليط ثم تسخن . . وتكرر العملية . . وبفضل هذا الخليط تصبح الحلقة النحاسية ولها جميع صفات الذهب الحقيقى » .

وأوراق البردى هذه إن دلت على شىء فإنما تدل على أن الذهب كان مطلب الإنسان منذ أقدم العصور . . وأن الإنسان لم يكتف بما يجده منه خالصاً فى الطبيعة بل راح يتحايل على صنعه من خسيس المعادن وما من شك فى أن قدماء المصريين قد عالجوا هذا الأمر فقد كان كهنتهم يمارسون صناعة الكيمياء فى معابدهم وكانوا يضفون على هذه الصناعة الكثير من الغموض والأسرار .

وبهرت الفكرة الكثير من الفلاسفة والعلماء حتى أنهم سموا

هذا العلم بعلم الحيل أو علم صناعة الذهب . وكان هم المشتغلين به هو الحصول على مادة لها فعل السحر يمكن بواسطتها تحويل الحديد والنحاس والرصاص والزئبق وغيرها من المعادن الشائعة إلى ذهب يخطف بسنائه الأبصار . فكثرت . محاولاتهم لتحضير هذه المادة المثالية التى سموها حجر الفلاسفة أو أكسير الحياة . فهذه المادة العجيبة تجمعت فيها سائر آمال البشر ومطامع دنياهم فهى ليست لتدبير الذهب والفضة فحسب . بل إنها أيضاً تشفى العلل وتمنح من يتناولها نعمة الشباب الدائم والصحة المستكملة حتى لقد قيل إن نوحاً عليه السلام قد تناول هذا الأكسير فعمر الدهور الطوال .

ومن طريف ما قيل فى هذا الصدد قول الشاعر القديم :

أعيــا الفــلاسفة الماضين فى الحقب
أن يستخلصوا ذهباً إلا من الــذهب
أو يصنعوا فضـــة بيضـــاء خالصة
إلاّ من الفضـــة المعـــروفة النسب
فقـــل لطالبهـــا من غـــير معدنها
ضيعت عمـــرك فى التنكيـــد والتعب

وهؤلاء الباحثون عن الذهب وعن أكسير الحياة . وطلاب الفضة من غير معدنها وإن كانوا قد ضيعوا أعمارهم فى التنكيد

والتعب على حد قول الشاعر إلا أنهم فى بحثهم هذا قد توصلوا إلى معرفة الكثير من حقائق العلم وأصول الصناعة فى الصيدلة والتعدين . فهذا براند Brand من هامبورج بألمانيا كان يبحث عن حجر الفلاسفة فى البول غير مشمئز ولا متأفف . . وعكف على بحثه فى هذه المادة النجسة راضى النفس وبعزم لا يلين غير أنه لم يحصل على حجر الفلاسفة الموعود وأمكنه آخر الأمر أن يستخلص من البول مادة وجد أنها تنير إذا ما وضعت فى حجرة مظلمة فسماها الفوسفور Phosphorous ومعناها حامل النور .

وهكذا اكتشف عنصر من أهم العناصر . . وكان ذلك عام ١٦٧٤ وما من أحد ينكر ما للفسفور من جزيل الفوائد فى الصناعة والطب .

وكان من قول الفلاسفة الأقدمين أيضاً إن المعادن كلها مركبة من مادتى الكبريت والزئبق . وأن اختلاف المعادن يرجع إلى اختلاف النسبة بين هذين العنصرين لذلك اعتقدوا بإمكان تحويل معدن إلى آخر بتغيير هذه النسبة .

وفرق زوزيموس Zosimos بين ما سماه بالأجسام وما سماه بالأرواح فقال إن الأرواح ويقصد بها أبخرة الزئبق والكبريت تؤثر فى الأجسام وتحولها . . وأن الأرواح نفسها قد تأتلف

وتتحول إلى أجسام كما أنه يمكن أن تعود سيرتها الأول بعمليات مناسبة .

وكان زوزيموس يردد قول الفيلسوف القديم كيميس Chymes « الكل فى واحد »، فيقول إن « الواحد » هو أصل » الكل » فالكل يخرج من هذا الواحد أي أن هناك صلة بين جميع المواد .

٣

الماء والهواء

وجاء فان هيلمونت Van Helmont (١٥٧٧–١٦٤٤ م.) فلم يعترف بنظرية العناصر الأربعة ولا بنظرية أرسطو وقال إن العناصر – فى الحقيقة – اثنان فقط هما الماء والهواء . . وأن أحداً من هذين العنصرين لا يمكن أن يتحول إلى الآخر . كما عرف فان هيلمونت العنصر بأنه المادة التى لا تتجزأ إلى مادة أبسط . . وأما النار والتراب فغير عنصرين فالنار ليس لها صفات المادة قط . والتراب يمكن تكوينه من الماء . وقد دلل هيلمونت على أن الماء يدخل فى تكوين الكائنات بتجربته المشهورة « تجربة الشجرة » .

قال هيلمونت :

« وضعت فى وعاء من الخزف (الطين) ٢٠٠ رطل من

التراب التام الجفاف . بللت هذا التراب بماء المطر وغرست فيه عوداً من شجرة صفصاف زنته ٥ أرطال . وبعد مضى ٥ سنوات نمت الشجرة وترعرعت . . وكنت خلال هذه المدة أبلل التراب بماء المطر أو بالماء المقطر كلما لزم الأمر . . وزنت الشجرة بعد ذلك فكان وزنها ١٦٩ رطلا (وقد أسقطت من حسابى وزن الأوراق التى تساقطت من الشجرة فى فصول الخريف) . . جففت التراب الذى فى الوعاء بعد ذلك تماماً ولما أعدت وزنه وجدته لم يتغير (أى ٢٠٠ رطل) .وعلى ذلك يكون ١٦٤ رطلا من الخشب والفروع والأوراق قد تكونت من الماء فقط » .

وهذه التجربة وإن كانت صحيحة فى مشاهداتها إلا أنه قد فات على فان هيلمونت الدور الذى لعبه فيها غاز ثانى أوكسيد الكربون الموجود فى الهواء . .

* * *

وقال روبرت بويل Robert Boyle وهو أول من عرف العنصر تعريفاً صحيحاً :—

« وأقصد بالعناصر تلك المواد البسيطة التى تدخل فى تركيب المواد المعقدة . . وهذه الأخيرة يمكن تبسيطها إلى عناصرها » .

وقال أيضاً :ـ

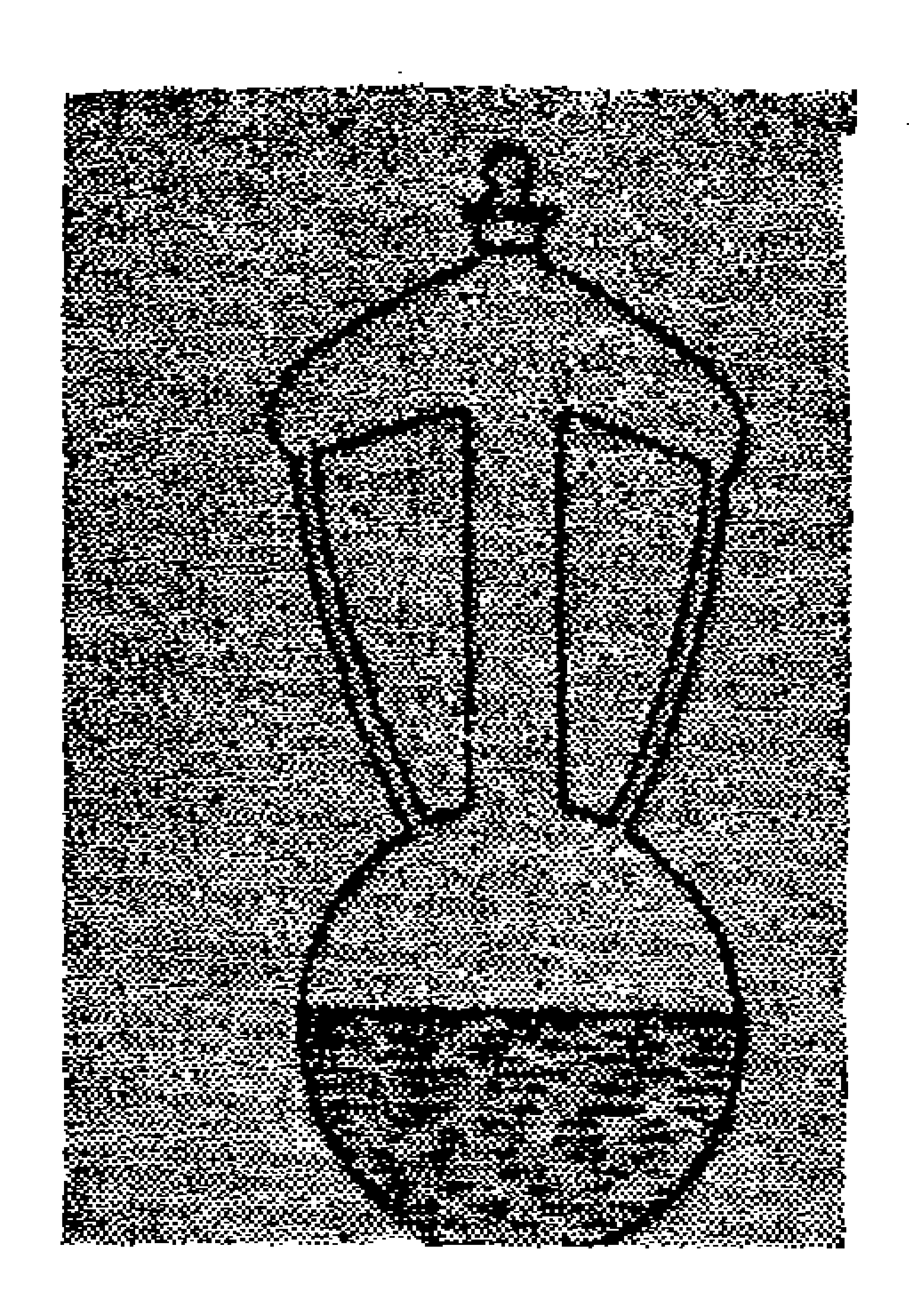
« والعناصر نفسها تتركب من دقائق . . وإن الاختلاف فى خواص العناصر يرجع إلى أشكال وحركات هذه الدقائق » .

ولقد أعاد بويل تجربة الشجرة بيد أنه اختلف عن فان هيلمونت فى تفسيره للزيادة التى طرأت على الشجرة إذ قال إن معظم هذه الزيادة جاءت من جسيمات متناهية فى الصغر تسبح فى الهواء .

وكان كثير من الكيميائيين يؤيدون زعم فان هيلمونت القائل بأن الماء يتحول إلى تراب مدللين على ذلك بأن الماء المقطر إذا ما بخر فى إناء زجاجى ترك بعض الرواسب فجاء لافوازييه Lavoisier وهدم بتجربته التالية هذا الزعم .

وزن لافوازييه قنينة زجاجية كالموضحة بالرسم التالى ثم وضع بها قدراً معلوماً من الماء المقطر . . سخن القنينة بالتدريج مع رفع الغطاء من وقت لآخر . . ثم أحكم سدها أخيراً وتركها تحت درجة حرارة بين ٦٠ ــ ٧٠ ريمور Reaumur لمدة ١٠١ يوم .

فحص لافوازييه الجهاز بعد ذلك فوجد رواسب فى قاع القنينة فما هذه الرواسب ومن أين جاءت ؟



إنها الرّواسب التى زعم فان هيلمونت ومن ذهب مذهبه أنها تكونت من الماء . . .

ترك لافوازييه الجهاز يبرد . وزن القنينة فوجد أن وزنها مساوياً تماماً لوزنها قبل بدء التجربة . . أفرغ الماء والرواسب ثم وزن القنينة فارغة فوجد الوزن ينقص عما كان عليه قبل بدء التجربة بقدر ١٧ $\frac{٤}{١٠}$ قمحة . . !

فما هذا النقص ؟

بخر لافوازييه الماء فحصل على رواسب أخرى تخلفت عن البخر قدرها ١٥ $\frac{١}{٢}$ قمحة أما الرواسب الأولى فكانت تزن بعد تجفيفها ٤ $\frac{٩}{١٠}$ قمحة .

أى أنه حصل على رواسب قدرها ١٥ ١/٢ + ٤ ٩/٣٢ = ٢٠ ٤/٣٢ قمحة .

أى بقدر ٣ قمحات زيادة عن النقص فى وزن القنينة بعد التجربة . . وهذه القَمحات الثلاث هى وزن مقدار من الماء ظل بالرواسب التى لم تكن قد جففت تماماً . .

ولو كان فى مكنة لافوازييه أن يحصل على الرواسب تامة الجفاف لوجد وزنها يساوى ١٧ ٤/٣٢ قمحة تماماً أى مقدار الوزن الذى فقدته القنينة وهو مقدار الزجاج الذى ذاب منها فى الماء خلال التجربة .

وكان ذلك فى عام ١٧٧٠ م .

* * *

وبعد ففكرة تحويل المعدن الخسيس إلى آخر نفيس جاءت إلى أفكار الفلاسفة والمفكرين القدامى من تأملاتهم فى مشاهدات الطبيعة . . فالنبات أول ما يكون بذرة صغيرة والشجرة الكاملة بما تحويه من أوراق وأزهار وثمار تختلف تمام الاختلاف عن هذه البذور . . والحيوان ينمو بعد أن كان جنيناً فيزداد مع الزمن قوة وكمالا والحيوان الكامل يختلف تمام الاختلاف عن هذا الجنين . .

إذن فهناك درجة كمال فى كل من المملكتين النباتية والحيوانية . . ! !

فلماذا لا يكون هناك مثل هذه الدرجة للجمادات . . ؟
إن من المعادن ما يختفى فى الأحماض وما يتلف بالنار ومنها ما لا يتأثر بالأحماض ولا بشديد الحرارة فمعدن من النوع الثانى أفضل — بلا شك — من معدن من النوع الأول . . وكما أن البذرة التافهة يمكن تحويلها تحت ظروف ملائمة إلى نبات قوى والنبات نفسه إذا ما تعهدناه بالعناية يزداد فضلا وكمالا . . كذلك المعدن التافه الرخيص إذا ما تعهدته يد إنسان ماهر يتحول بالتدريج إلى معدن نفيس نافع . . .

وجاء بعد ذلك الكيميائيون الأوائل فأيدوا هذا القول بل زادوه إيضاحاً بأن قالوا « إذا كان هذا شأن كل من مملكتى النبات والحيوان فإن الجمادات — وهى أقلهما كمالا تكون أكثر استجابة للتحول من درجة إلى درجة أفضل . . »

على أن هذه الأقوال التى لم تدعم بدليل لم تصمد طويلا أمام مباحث المجددين من العلماء الذين أثبتوا ببراهين علمية ثابتة بطلان معظمها . . فكل نظرية لا تستند إلى أصل ثابت لا يؤخذ بها حتى يظهر بالدليل الملموس صحة هذه النظرية أو بطلانها . . وصاحب أمثال هذه الفروض — فى نظرهم — صاحب أنصاف حقائق . . وصاحب أنصاف الحقائق لا يعد أبداً من العلماء الباحثين .

الباب الثانى

١
زكيبة الكيميائى

لنتخيل زكيبة كبيرة بها أشياء كثيرة . ولتكن هذه الأشياء كرات من الخشب وقطع مختلفة الأشكال والأحجام من الحديد والرصاص وقصاصات من الورق وقدر من حب الفول والترمس والشعير . . وأكياس مختلفة بها مسحوق السكر والشاى والنشا ومسحوق القرفة والدقيق . . لنتخيل مثل هذه الغرارة المملوءة بمثل هذه الأشياء . لن نأخذ منها شيئاً ولن نضيف إلى ما بها شيئاً . . . ودعنا نكلف أحد الأشخاص أن يفحص أحد هذه الأشياء جيداً وأن يدقق فيه النظر . . ليكن هذا الشيء أحد الأكياس المملوءة بالدقيق . . لنطلب منه بعد ذلك أن يعيد الكيس إلى مكانه فى الغرارة وأن يدير وجهه عنها . . ودعنا نكلف شخصاً آخر أن يعبث عبثاً خفيفاً بكيس الدقيق كأن يأخذ منه قدراً ويضع بدله شيئاً آخر من محتويات الزكيبة أو أن يضيف هذا الشيء دون أن يمس الدقيق . .

أو لا يفعل شيئاً من هذا ويكتفى بأن يخط بقلمه على ورق الكيس خطاً رفيعاً جداً . . إن تغيراً قد حل بالكيس بلا ريب . . فلنطلب من صاحبنا الأول أن يعود إلى التركيبة وأن يفحص كيس الدقيق ويحدثنا عما حل به .

يا له من مطلب . . ! !

إذا كان الشيء الغريب الذى وضع فى الكيس يخالف الدقيق فى شكله وقوامه ككرة من خشب أو قطعة من رصاص كان الحكم فى هذه الحالة للعين كما أن الحكم يكون للميزان فى حالتى النقص والزيادة . . ولكن ماذا لو كان ما أضيف إلى الدقيق شيء يشبه تمام الشبه كمسحوق السكر أو النشا . . ؟ ثم ماذا لو كان وزن ما أخذ من دقيق الكيس مساوياً تماماً لوزن الشيء الغريب الذى أضيف إليه ؟ . فى هاتين الحالتين لا تجدى العين مهما دقت ولا الميزان مهما حس ويتعين على الرجل أن يكون دقيق الملاحظة وأن يكون ملماً بخصائص كل ما فى الغرارة من أشياء . وفى مكنته أيضاً أن يفرق بين خليط من مسحوق النشا والدقيق وبين الدقيق الخالص . . وهذا لا يتأتى له مهما بلغ من الحذق والمهارة إلا إذا أعان حواسه بأدوات مما أتاحها لنا العلم الحديث .

وهذا هو عمل الكيميائى اليوم . . بيد أن تركيبته ليست

غرارة بها كرات الخشب وقطع الحديد وحب الفول والترمس . إنها أكبر من ذلك وأضخم بكثير . وتحتوى على أشياء أهم من هذه وأعظم خطراً . .

إن زكيبة الكيميائى هى الأرض . . . مصدر العناصر وأمنا العجوز . . .

ومن المواد التى فى زكيبة الكيميائى اجتمع نيف وتسعون مادة عجز الكيميائيون حتى يومنا هذا بما لديهم من عديد الوسائل والعدة عن أن يستخلصوا منها مواداً أبسط . . ومن هذه المواد أو العناصر ينتج جيش عرمرم من المركبات منها ما هو من عنصرين ومنها ما هو أكثر تعقيداً يتركب من ثلاثة عناصر أو أكثر .

ومن العناصر المعدنية (الفلزية) النحاس والذهب والحديد والرصاص والفضة والقصدير والزنك والألمنيوم وكلها من المعادن الشائعة وتدخل فى كثير من الصناعات الهامة التى لا نستغنى عنها . . ومن المعادن النادرة الأنتيمون والبزموت والكوبالت . . وهناك أكثر من أربعين عنصراً أخرى تدخل فى طائفة المعادن .

ومن العناصر الغير معدنية (اللافلزية) اليود والفسفور

والكبريت والكربون[1] والماس هو الكربون فى أنقى صوره . .
ومن العناصر أيضاً عشرة فى الحالة الغازية تحت درجتى الضغط والحرارة العاديتين . وهذه الغازات هى الهيدروجين وهو غاز غاية فى اللطف والخفة . يشتعل ولكن لا يساعد على الاشتعال . والأوكسجين ويقال له أيضاً الغاز الفعال لأن الأجسام تشتعل فيه بوهج وشدة . والأزوت أو النيتروجين ويقال له الغاز الخامل لأنه لا يشتعل ولا يساعد على الاشتعال ولأنه لا يتحد مع غيره من العناصر إلا بصعوبة . وهذه الثلاثة لا لون لها ولا رائحة . وغاز الكلور وله لون أزرق مصفر ورائحة كريهة ممقوتة . وغاز الفلور وله نفس لون الكلور وهو أنشط العناصر على الإطلاق وأكثرها اتحاداً وألفة . أما الخمسة عناصر الغازية الأخرى فهى الهليوم والنيون والأرجون والكريبتون والزينون وهذه الغازات الخمس عناصر غاية فى الكسل فهى لا تتحد مع غيرها من العناصر مهما تحايلنا عليها لذلك سميت بمجموعة الصفر أو مجموعة العناصر البليدة . . .

وماذا أيضاً فى زكيبة الكيميائى ؟

هناك عنصرى الزئبق والبرم وهما سائلان فى درجة الحرارة العادية . أولها واحد من المعادن كثيف رجراج فى لون الفضة

(١) يلعب عنصر الكربون دوراً هاماً فى حياتنا لذلك أفردنا له باباً خاصاً .

السائلة . . وثانيهما سائل أحمر اللون ثقيل له رائحة نفاذة مؤذية أشد قبحاً من رائحة الكاور . . ثم هناك البورون وهو عنصر يستخلص من البورق (البوراكس) وعنصر السليكون (أصل الرمل) والسلينيوم وهو عنصر له الكثير من الخصائص الكيميائية لعنصر الكبريت . .

والعناصر هى أحجار البناء لكل ما فى الكون . . فالأرض يابسها وماؤها . وأجرام السماء وسائر المخلوقات ما يدب منها على الأرض وما يعيش فى الماء أو يسبح فى الهواء . .والهواء نفسه . . كل هذه مركبات من عنصرين أو أكثر . والعناصر ومركباتها فى تفاعل مستمر ما دامت تجد الظروف الملائمة لذلك فهناك تفاعل العناصر مع العناصر وتفاعل العناصر مع المركبات . وتفاعل المركبات مع المركبات . . وخير مثل نضربه لذلك أجسامنا وما يجرى بداخلها من تفاعلات . فنحن نستنشق الهواء الذى يمد الجسم بعنصر الأوكسجين . وهذا يتفاعل فى الداخل مع مركبات الكربون والهيدروجين والأزوت مكوناً معها مركبات جديدة . ومن هذه الأخيرة ما يدخل بدوره فى مركبات جديدة أكثر تعقيداً بعضها يبقى فى الجسم لحاجته إليها والبعض الآخر يخرج منه مع هواء الزفير أو بوسائل أخرى .

وما يجرى على الكائنات الحية يجرى على الأرض التى تعيش عليها هذه الكائنات فإن هذه الأم العجوز تزداد كهولة على مر السنين لأن المركبات التى تحويها تتحول من مركبات معقدة إلى أخرى أكثر تعقيداً . . ولما كانت سنة الله أن يسير كل شيء إلى مستقر وغاية فإن هذه المركبات ستصل حتماً ذات يوم أو ذات قرن إلى درجة من التعقيد بحيث تتعذر على الأرض الحياة .

ولعل الزمن قد بلغ بالقمر هذه الدرجة فلا تفاعلات كيميائية تجرى فيه وهو خلو من الحياة والأحياء .

ولا تحسبن أن تفاعل العناصر واتحاد بعضها ببعض يحدث بلا رابط أو حساب . ولكنه يجرى تحت ظروف خاصة ملائمة من الضغط والحرارة والرطوبة . . وفى حدود قوانين ثابته لا تتغير أبداً . . فهذه التفاعلات التى تجرى فى أجسادنا وفى كل كائن حى . . وفى الأرض ظاهرها وباطنها . وفى الهواء المحيط بنا . وفى أعماق الفضاء كل هذه التفاعلات تجرى وفقاً لنواميس لا تحيد عنها وبنسب لا تتغير . . فسبحان الله خلق كل شيء وجعله يجرى بحساب ومقدار .

٢

العناصر الغازية

١ – غازات الهـــواء

يحيط بالأرض التى نعيش عليها بحر من الغازات نسميها الهواء . والهواء مادة وإن كنا لا نراها إلا أننا نحس بوجودها فهو يغمر كل شىء على وجه الأرض ويعلو فوقها أميالا عديدة . ثم هو يتخلل أدق المسام ويملأ أصغر الخلايا فهو محيز فلا يشغل وجسماً آخر حيزاً واحداً فى وقت معاً . . وللهواء ثقل أو ضغط ومقدار ثقله أو ضغطه على كل عقدة مربعة من سطح الأرض ٦ أقات وعلى جسم الإنسان المعتدل القامة ٦٠ قنطاراً وثقله على سطح الأرض كله كقدر ثقل بحر من الزئبق يغمر الأرض كلها ويرتفع عليها ٣٠ عقدة فإذا راق لك – أيها القارئ أن تحصى هذا الثقل الهائل فاعلم أن السنتيمتر الواحد من الزئبق يزن ١٣,٦ من الجرامات وأن العقدة تعادل حوالى ٢,٥ من السنتيمترات . غير أن هذا الضغط الجبار تحكمه قوة تعادله تماماً هى قوة الحرارة حتى أنه مع ثقله العظيم هذا لا يكسر أضعف الأغصان ولا يقطع

أدق الخيوط فيالها من حكمة خالق مبدع خلق. هذه القوة العاتية وقيدها بهذا القدر من الإحكام والدقة ! ! .

وقد كان القدماء يعتقدون أن الهواء واحد من العناصر وجهلوا أنه مؤلف من غازات عدة حتى جاء كيميائيو هذا العصر فهدموا هذا الاعتقاد وبينوا أن هذا الهواء الكروى مجموعة من الغازات إن كانت تتشابه فى أنها لا ترى بالعين المجردة إلا أنها تختلف عن بعضها تمام الاختلاف فى الخواص والصفات .

وأهم العناصر الغازية وأخطرها شأناً هو غاز الأوكسجين . وهو العنصر الفعال فى الهواء فبدونه لا يجرى فى الإنسان أو الحيوان نفس ولا تشعل نار ولا تدار آلة . . وهو خُمس الهواء جرماً . أما الأربعة أخماس الأخرى فيشغلها (تقريباً) غاز يعرف بالأزوت أو النيتروجين وهو عنصر الهواء الغير فعال وكل صفاته سلبية بالنسبة إلى صفات الأوكسجين ففيه لا تجرى حياة ولا توقد نار . والأزوت على شىء من الكسل غير قليل فليس له أى تأثير يذكر على كثير من المركبات كما أنه لا يتحد مع غيره إلا بصعوبة وفى ظروف ملائمة وبوساطة خاصة فهويتحد فى مثل هذه الظروف بعنصر الأوكسجين مكوناً ما يسمونه بحامض الأزوتيك أو النيتريك (وهو ما

يعرف بماء الفضة) وهو من أقوى الحوامض وأخطرها. الفرق بين هذا الحامض الجهنمى وبين الهواء (وكلاهما أوكسجين ونيتروجين) أن الأوكسجين والنيتروجين فى الأول متحدان اتحاداً كيميائياً لا يتم إلا فى ظروف خاصة . بينما هما فى الثانى ممتزجان امتزاجاً . وهذا أوضح الأمثلة على الفرق بين الاتحاد والمزج . فلو تخلى النيتروجين عن صفاته السلبية هذه - لاقدر الله - واتحد بالأوكسجين اتحاداً كيميائياً فى سهولة ويسر وبلا وساطة لاستحالا فى الجو حامضاً فتاكاً ولأمطرا ماء الفضة شواظ من نار تحرق الأرض وماعليها .

ومن فوائد النيتروجين أيضاً أن وجوده بهذه النسبة قد حد من مساعدة الأوكسجين على الاحتراق . فالواد تحترق فى الأوكسجين الصرف بشدة وسرعة مروعتين . . ووجود النيتروجين ممتزجاً به يضعف هذه الخاصية ويبقى له من الفعل ما يكفى لقضاء مصالح البشر . ولولا ذلك لأكلت النار الأرض ولم تبق ولم تذر

فالهواء - إذن - ضرورى لاشتعال الأجسام . . فإذا وضع جسم مشتعل فى إناء مسدود انطفأ سريعاً لأن احتراق الأجسام هو اتحاد عناصرها بالأوكسجين الذى فى الهواء اتحاداً كيميائياً . وما اللهب الذى نراه إلا نتيجة لهذا الاتحاد

والهواء أيضاً ضروري لحياة الحيوان بأنواعه . فإذا ما سد أنف حيوان وكذلك فمه حتى لا يدخلهما الهواء مات لتوه . وفي جسم الإنسان معمل كيميائي فهو يستنشق الهواء فيتحد أوكسجينه بالكربون الموجود بالجسم اتحاداً كيميائياً مكوناً غاز ثاني أوكسيد الكربون (حامض الكربونيك) يخرج من الجسم مع هواء الزفير وينشأ هذا الاتحاد الكيميائي حرارة . . وهذا هو السبب في أن أجساد الحيوانات الحية أسخن دائماً مما يجاورها من الجمادات . . فإذا ماتت أي انقطع نفسها بطل هذا الفعل وأضحت أجسادها باردة مثل ما يجاورها تماماً . وهذا العمل الجاري في جسم الإنسان أو الحيوان هو نفس العمل الجاري في احتراق الشمعة فإن أوكسجين الهواء يتحد بكربون الشمعة وينشأ عن هذا الاتحاد نفس الغاز الكربوني . . فإذا ما شبهنا الحياة بسراج مشتعل لم يكن ذلك مجازاً شعرياً بل حقيقة راهنة . وإن قلنا إن هذا الجسد حي فمعنى ذلك أنه يتحد بالأوكسجين تماماً كالسراج المشتعل فإذا بطل هذا العمل فقد الجسد حرارته وانطفأ سراج الحياة .

والاشتعال عمل دائم يجري في كل زمان ومكان فالإنسان وسائر المخلوقات الحية تتنفس منذ وجدت الحياة على الأرض .. والنيران منذ عرفها الإنسان توقد للطبخ والاستصباح والاستدفاء

وإدارة الآلات . . وفى عمليتى التنفس والاشتعال يتحد أوكسجين الهواء بالكربون الموجود بأجسامنا أو بالجسم المشتعل مكوناً غاز حامض الكربونيك . . فإذا سألنا لماذا لا يقل تبعاً لذلك كمية الأوكسجين التى بالهواء . ؟ بل لماذا لا تتحول كلها إلى غاز حامض الكربونيك هذا . . ؟ قيل لنا إن الله القادر على كل شىء أمر النبات أن يأخذ هذا الغاز من الهواء فيحلله فى نور الشمس إلى عنصريه الكربون والأكسجين فيحتفظ بالأول غذاء له ويعيد الثانى إلى الهواء وطنه الأصلى . . وهذه المبادلة العجيبة جارية دائماً بإذن الله فيبقى الهواء صالحاً لحياة الحيوان والنبات جميعاً . . فما هى حكمة حكماء الأرض بجانب حكمة الإله السرمدي الذى خلق لنا الهواء وجعل أوكسجينه فعالا يحرق الأجسام حرقاً حتى الحديد أصلبها وأقساها . . ولكن فعله هذا يتكيف بعنصر النيتروجين حتى يصير الأوكسجين أصدق الأصدقاء للإنسان ومصدراً للحرارة والنور . . ! !

والوقود الذى نشعله للحرارة والنور من حطب وزيوت ودهون يحترق فى أوكسجين الهواء ويستحيل إلى حامض كربونيك وبخار ماء وكليهما غازين شفافين خاليين من الطعم واللون والرائحة يصعدان من الوقود المشتعل غير منظورين ويتفرقان

فى الهواء خلافاً لما يحدث من احتراق أكثر المواد من غير الوقود إذ يحدث من اتحاد هذه الأخيرة بالأكسجين مواد جامدة وعلى هذا النحو تكونت قشرة الأرض فنصف وزنها تقريباً أوكسجين . . ولو نتج من احتراق وقودنا مواد جامدة لانطفأت النار فى التو بالجوامد المتكونة . . ولو حدث من هذا الاحتراق غاز خانق كذلك الذى يحدث من احتراق الكبريت مثلا لما أمكننا إضرام النار ولا سكنى الديار التى توقد فيها . . ولكن المواد المستعملة وقوداً تتركب من كربون وهيدروجين يتحد كلاهما بأوكسجين الهواء فيتحول أولهما إلى غاز حامض الكربونيك كما أسلفنا وثانيهما إلى بخار الماء ويصعدان فى الهواء . .

ولا تنتهى حكمة ربك وفضله العميم للبشر عند حد . . فهو يأمر أوراق النبات أن تستخرج الكربون من حامض الكربونيك وتعيده حطباً ووقوداً كما كان لكى يستخدمه خلفاً الذين أوقدوه . . كما يرسل الرياح بُشراً بين يدى رحمته فتلم شمل بخار الماء الذى ينزل على الأرض ماء مباركاً يسقى حيوانها ويُحيي نباتها .

ولا يقتصر النبات فى غذائه على غاز حامض الكربونيك والماء فحسب لأنه لو اقتصر على ذلك لما تكون فيه غير خشب ونشا وسكر وكلها مواد (كربوهيدراتية) تتركب من كربون

وهيدروجين . ولكنه يتغذى أيضاً بالنوشادر الذى يصعد غازاً فى الهواء من المواد الحيوانية البالية فتمتصه الأمطار وتنزلها للنبات الذى يتغذى بها ويدخرها للحيوان إذ ليس فى مكنة هذا الأخير أن يتناول المواد الغير عضوية ويحولها إلى مواد عضوية أما النبات ففى مكنته ذلك فيأكله الحيوان فتنتقل هذه المواد إلى بيئته فكأن النبات وسيط يتكون فيه غذاء الحيوان من غازات الهواء وبعض عناصر الأرض .

ويموت النبات وترجع عناصره إلى الهواء لكى تدخل نباتاً آخر أو تدخر فى الأرض لكى يستعملها الحيوان . . ويموت الحيوان فينحل كما تركب وترجع عناصره حيث كانت فيعود غاز حامض الكربونيك والماء والنوشادر إلى الهواء فيأخذها النبات ومنه إلى الحيوان وهكذا حتى يرث الله الأرض وما عليها .

* * *

٢ ــ غازات المــاء

إن الهواء الذى كان القدماء يعتبرونه غازاً بسيطاً أثبت المحدثون أنه مؤلف من الأوكسجين والنيترجين وحامض الكربونيك

وبخار الماء . . ولم يكن خطأهم فى أمر الهواء بعد أن ظهر أنه مزيج لا عنصر بسيط أعظم منه فى أمر الماء عندما تبين بالبرهان الساطع أنه مركب من غازين يختلفان عنه فى صفاتهما وفى حالتهما الغازية كل الاختلاف وليس بينهما وبين الماء من تشابه سوى قابليتهما للتحول إلى السيولة بالضغط العظيم والتبريد الشديد وهذان العنصران هما الأوكسجين والهيدروجين .

والهيدروجين وإن كان أوائل المشتغلين بصناعة الكيمياء حضروه فى تجاربهم على المعادن والأحماض إلا أنهم لم يميزوه أو يدرسوه درساً حقيقياً كما يدرس عنصر من العناصر أما الفضل فى اكتشافه فيرجع إلى كافندش Cavendish الذى برهن عام ١٧٨١ على إمكان توليد الماء من جمع غازى الهيدروجين والأوكسجين . وتبعه بعد ذلك جاى لوساك Gay-Lussac فأثبت عام ١٨٠٥ أن الغازين يتحدان بنسبة كيلين من الهيدروجين إلى كيل واحد من الأوكسجين ويكونان ماء .

والهيدروجين ألطف العناصر وأخفها فاللتر الواحد منه يزن فى درجة الصفر وتحت درجة الضغط العادى (٧٦٠ ملليمتراً) ٠٫٨٩٨ من الجرام أى أن كل ١١٫١٥٧ لتر منه تزن جراماً واحداً . ولخفة هذا العنصر يتخذ قياساً لتقدير كثافة الغازات بدلا من الهواء ولخفته أيضاً يستعمل فى ملء السفن

الهوائية (المناطيد والبالونات) .

وهذا الغاز لا لون له ولا طعم ولا رائحة وهو لا يشعل المواد ولا يساعد على إشعالها ولكنه يشتعل . واستنشاق الهيدروجين الصرف لا يؤثر فى صحة الإنسان ولكنه يؤثر فى الصوت فيضعفه وإن كان يعلى طبقته .

ويوجد الهيدروجين صرفاً فى الحالة العنصرية فى الشمس وفى مقذوفات البراكين ومواد النيازك . . أما فى الأرض فيوجد مركباً مع غيره من العناصر فهو يدخل فى تركيب الماء كما رأينا كما يدخل فى تركيب الزيوت والخلايا الحيوانية .

وعند اتحاد الهيدروجين بالأوكسجين لتكوين الماء تنتج حرارة شديدة فاتحاد كيلوجرام واحد منه بالأوكسجين يولد حرارة قدرها ٣٤٤٦٢ فرداً حاراً (سعراً حرارياً) والفرد الحار — هنا — هو مقدار من الحرارة يكفى لرفع درجة حرارة كيلوجرام من الماء درجة واحدة . وهذا معناه أن الكيلوجرام من الهيدروجين يسخن ٣٤٤٦٢ كيلوجراماً من الماء درجة واحدة باشتعاله أي باتحاده مع الأكسجين . وهذه الحرارة أشد من أية حرارة تتولد من اتحاد أى عنصر آخر بالأوكسجين . ولهذا يستخدم اللهب الأوكسيهيدروجينى عندما تدعو الحالة إلى حرارة شديدة ويستعمل لهذا الغرض مشعل خاص يعرف بالمشعل

الأوكسيهيدروجيني . وهذا المشعل يجمع الغازين حال اشتعالهما .. وكانوا قبل استنباطه يمزجون كيلين من الهيدروجين بكيل من الأوكسجين ويحرقونهما معاً فيفرقعان عادة بشكل مهول وقد تحدث من ذلك أضراراً بليغة .

وهذه الحرارة المتولدة عن احتراق الهيدروجين ما علتها . . ؟ ولماذا نحصل من هذا العنصر الخفيف اللطيف على حرارة أشد وأعتى من أية حرارة تنتج من احتراق أى عنصر آخر . . ؟ إن الحرارة الحاصلة من احتراق كيلوجرام من الكربون (الفحم) تعادل ٨٠٨٠ فرداً حاراً فقط وهى أقل من ربع الحرارة الحاصلة من احتراق كيلوجرام من الهيدروجين . . بل هناك النحاس الذى لا يعطى الكيلوجرام منه إلا ٦٠٢ فرداً حاراً فقط فلماذا ..؟ إن تفسير ذلك ليس بالأمر العسير . . فالهيدروجين فى تفاعله مع الأوكسجين لتكوين الماء يتحد بنسبة وزنين منه وستة عشر أوزان من الأوكسجين وأما الكربون فى تفاعله مع الأوكسجين لتكوين حامض الكربونيك يتحد بنسبة اثنى عشر وزناً واثنين وثلاثين وزناً من الأوكسجين . أى أن :

وزن واحد من الهيدروجين يتحد مع ٨ أوزان من الأوكسجين

ووزن واحد من الكربون يتحد مع ٢⅔ وزناً من الأوكسجين

ولما كانت الحرارة من نواتج الاتحاد بالأوكسجين . فإن كثر

كثرت وإن قل قلت . فالحرارة الحاصلة من احتراق الهيدروجين أكثر من تلك الحاصلة من احتراق الكربون بنسبة ٨ إلى ٢٢ ¾ أى أن الحرارة تتوقف على مقدار الأوكسجين . وبما أن مقدار الأوكسجين الذى يتحد بعنصر ما لا يتغير أبداً فمقدار الحرارة الناتجة من اتحاد وزن بعينه من ذلك العنصر بالأوكسجين لاتتغير أبداً . .

ويتحد الهيدروجين بالأوكسجين أيضاً بنسبة كيلين من كل منهما لتكوين أوكسيد الهيدروجين الثانى[1] وأول من اكتشف المركب رجل فرنسى يدعى لويس ثينارد Thenard عام ١٨١٨ . وهذا الأوكسيد سائل زيتى القوام لا لون له ولا رائحة . له مذاق مر قابض . إذا أصاب الجلد أحدث به هياجاً شديداً . . وهو أثقل من الماء إلا أنه غير مستقر يسرع إلى الانحلال إلى ماء وأوكسجين إذا ما ارتفعت درجة الحرارة ولذا يلزم حفظه فى مكان رطب .

ومن فوائد هذا المركب أنه يستعمل فى قصر الألوان العضوية (أى إزالتها) فهو يستعمل فى تبييض الأقمشة والخيوط سيما الحريرية والصوفية . ومحلول هذا الأوكسيد فى الماء أى المخفف به ويطلقون عليه اسم (ماء الأوكسجين) أكثر ثبوتاً واستقراراً

---

(١) أما أوكسيد الهيدروجين الأول فيطلقونه على الماء .

ويستعمل فى تطهير الجروح وفى أغراض التنظيف وصباغة الشعر .

وللهيدروجين قوة اختزالية كبيرة . ولشدة شرهه للاتحاد بالأوكسجين ينتزعه من مركباته وينتفع بهذه الخاصية فى استخلاص بعض المعادن من أكاسيدها . فإذا مررنا تياراً من الهيدروجين فوق أوكسيد النحاس المحمى انتزع منه الأوكسجين واتحد به مكوناً ماء وترك النحاس فى حالته العنصرية .

وينتفع بخاصية الهيدروجين الاختزالية أيضاً فى صناعة تجميد الزيوت Hydrogination of oils وطريقة هذا التجميد اكتشفها سابتييه Sabatier عام ١٩٠٢ فقد وجد هذا العالم أن الزيوت الحيوانية والنباتية كزيت الحوت وزيت بذرة القطن إذا ما سخنت بلطف فى تيار من الهيدروجين مع وجود وسيط معدنى كالنيكل تجمدت عند تبريدها . فأما الزيوت الحيوانية فتدخل بعد اختزالها فى صناعة الصابون والشموع . وأما الزيوت النباتية فتستعمل فى صناعة الدهن الصناعى وهو ما يسمونه الآن (المسلى النباتى) وهى صناعة انتشرت وراجت فى بلادنا فى هذه الأيام خصوصاً بعد أن عز المسلى الحيوانى وارتفعت أسعاره ، . ومن المسلى النباتى تصنع الأطعمة ويحضر

الكثير من الحلوى . . وهو نافع للصحة إلا أنه لا يحتوى على فيتامينى ا و د الموجودين فى المسلى الحيوانى واللازمين للجسم . لذلك يجب عند تقديم وجبة من الطعام المجهز بالمسلى النباتى أن يقدم معها بعض عناصر غذائية أخرى تحوى هذين الصنفين من الفيتامينات .

* * *

٣ – الجماعة الكسولة

فى عام ١٧٨٤ كان كافندش يجرى بعض أبحاثه على الهواء الجوى فحبس جرماً معلوماً منه فى أنبوبة بها محلول البوتاسا الكاوية ثم أرسل فيه تياراً كهربائياً فظهر فى الأنبوبة دخان بنى اللون هو غاز أوكسيد النيتروجين الثانى . وسرعان ما امتصه محلول البوتاسا . . . وعندئذ قل جرم الهواء المحبوس فأدخل كافندش قدراً من الأوكسجين فى الأنبوبة وأعاد إرسال التيار الكهربائى فظهر الغاز البنى اللون واختفى فى المحلول . وكرر هذه العملية حتى انقطع ظهور الغاز البنى تماماً وبذلك تخلص كافندش من معظم الهـــواء المحبوس . أما الأوكسجين الزائد الذى تخلف بعد هذه العملية فقد تخلص منه كافندش

بمحلول كبريتى[١] غير أنه وجد آخر الأمر فقاعة غازية صغيرة عاصية ظلت فى الأنبوبة لا تريم . وعند ما قدر جرمها وجده لا يزيد عن $\frac{١}{١٢٠}$ من جرم النيتروجين .

حار كافندش فى أمر هذه الفقاعة العاصية التى ثبت له أنها ليست من الأوكسجين أو النيتروجين . . وما درى كافندش أنه اكتشف فى الهواء عنصراً جديداً .

ومر على ذلك قرن من الزمان .

وفى عام ١٨٩٢ كان لورد رايلى Lord Rayleigh يقوم بأبحاثه على كثافة الغازات فعجب من أمر أعياه تفسيره . . إذ وجد أن كثافة النيتروجين الذى حضره من الهواء الجوى أثقل من ذلك الذى حصل عليه من تحليل النوشادر بفرق قدره $\frac{١}{١٠٠٠}$ وكان لورد رايلى أميناً فى أبحاثه دقيقاً فى تدوين نتائجها فلم يرض أن يسقط فرقاً صغيراً كهذا من حسابه فكتب إلى مجلة Nature يستشير على أحداً من الباحثين الذين يهمهم الأمر يدلى برأيه فى الموضوع .

ومرت سنتان . . وفى عام ١٨٩٤ علل وليم رامساى W. Ramsay ثقل عينة النيتروجين التى حضرها رايلى من الهواء الجوى باحتمال

---

(١) محلول Liver of sulpher وهو محلول كبريت فى ماء جير و زيت بذر الكتان و برادة حديد منداة بالماء .

احتوائها على نسبة صغيرة جداً من غاز آخر أثقل من النيتروجين.. فتعاون العالمان ووحدا جهودهما فحضرا عينة من النيتروجين الجوى وذلك بأن أزالا من حجم معلوم من الهواء غاز ثانى أوكسيد الكربون والأوكسجين وبخار الماء فتبقى النيتروجين وعلى هذا الأخير أجريا بحثهما فمرراه على معدن المغنسيوم فاتحد به مكوناً نيتريد المغنسيوم Magnesium nitride غير أن غازاً تخلف من هذه العملية فلم يتحد بالمغنسيوم وعند فحصه بالمطياف[1] Spectroscope وجد أن له طيفاً يخالف طيف النيتروجين كما أن كثافته عند ما قدرت وجدت أكبر وعندئذ أدركا أن تلك الفقاعة التى طالما عصت كافندش وأعيته عام ١٧٨٤ كانت عنصراً جديداً.

ولما كان هذا العنصر الجديد خاملا بليداً وليست له أية خاصية كيميائية فقد سمى بغاز الأرجون Argon ومعناه العاطل .

وبينما كان رامساى يبحث عن مصدر آخر لعنصر الأرجون غير الهواء الجوى أتاه نبأ من ميرز Miers يقول إن هيلدبراند Hildebrande قد حصل على غاز النيتروجين من خام معدنى[2]

---

(١) ثبت أن للعناصر أضواء إذا ما حللت بالمطياف تكونت لها طيوف تتميز بها عن بعضها – راجع عيون العلم (اقرأ ٧٥) .

(٢) هذا الخام يسمى Cleveite ويحوى أيضاً ضمن عناصره نسبة من عنصر اليورانيوم .

فأرسل رامساى أحد أعوانه فاشترى من هذا الخام بما قيمته ٢٠ قرشاً وأقامه على العمل يستخلص النيتروجين من هذا المصدر الجديد وعكف رامساى على النيتروجين الذى حضره مساعده يختبره فحوله جميعه إلى غاز النوشادر بمعالجته بالهيدروجين فى ظروف خاصة غير أنه وجد فى النهاية جرماً صغيراً من الغاز لم يتحول إلى نوشادر .

ترى ما هذا الغاز المختلف ؟ عالجه رامساى بالأوكسجين عله يتحد به غير أنه ظل عنيداً لايتحول قط وأخيراً حلله بالمطياف فوجد له طيفاً خاصاً فحار فى أمره وأرسل عينة منه إلى سير وليم كروكس Sir W. Crookes الذى كان أطول باعاً من رامساى فى بحوث التحليل الطيفى غير أن هذا كان مشغولا فى بحوثه الخاصة فلم يعر غاز رامساى اهتماماً بادئ الأمر وترك عينته أسبوعاً أو يزيد . وفى يوم ٢٣ مارس سنة ١٨٩٥ أبرق كروكس إلى رامساى بالنبأ العظيم. إن هذا الغاز هو الهيليوم Helium العنصر الذى اكتشفه الفلكى لوكير Sir N. Lockyer فى الشمس عندما كان يراقبها وقت كسوفها عام ١٨٦٨ وسمى بهذا الاسم نسبة إليها فكلمة Hélios معناها الشمس . .

ويرجع الفضل فى هذا الكشف إلى المطياف فهذه العين السحرية العجيبة مكنت العلماء من معرفة أمور كثيرة كانت

سراً مجهولا إلى عهد قريب . وبها أيضاً أثبتوا أن الكثير من العناصر مثل الهيدروجين والصوديوم والحديد والنحاس وعناصر أخرى كان المعتقد أنها خاصة بالأرض موجودة أيضاً بالشمس بنفس النسبة الموجودة بها فى الأرض . وهذا من أقوى الأدلة على أن الأرض كانت جزء من الشمس انسلخ عنها فى الأزمان الغابرة .

وكان لاكتشاف الهليوم فى بعض خامات الأرض عام ١٨٩٥ هزة عنيفة فى الدوائر العلمية . .

ويوجد الهليوم أيضاً فى بعض الغازات الطبيعية التى تخرج من الأرض . ففى كنساس بولاية تكساس بأمريكا يخرج من الأرض غاز طبيعى يحتوى على ١ فى المائة من الهليوم كما يخرج هذا الغاز من بعض الأراضى فى كندا . . والولايات المتحدة وحدها تنتج من الهليوم ٥٠٠٠٠٠ قدماً مكعبة يومياً وسعر القدم المكعبة فى تلك البلاد لا يزيد عن قرش صاغ واحد .

* * *

وجد سير وليم رامساى أن الهليوم والأرجون صنوان فى البلادة والكسل . ولما كان أحد العلماء قد وضع عام ١٨٦٩ جدولا للعناصر — كما سنرى فيما بعد — ورتبها فى مجموعات أو أسر

يتشابه أعضاء الأسرة الواحدة فيما بينها فى الخواص الكيميائية فقد خطر فى رأس رامساى خاطر جرىء ! !

لماذا لا يكون فى جدول العناصر أسرة من العناصر الخاملة .

ولكن عنصرين فقط لايكفيان لتكوين أسرة . . فلابد — إذن — من البحث عن أعضاء جدد .

وعاود رامساى البحث يعاونه ترافرس M. W. Travers وآخرون وكان مجال بحثهم هواء الجو بعد إسالته . . وقد كللت جهودهم بالنجاح واكتشفوا عنصراً جديداً سموه الكريبتون Krypton ومعناه المختفى .

وتوالى البحث وأضيف لهذه الأسرة العجيبة عضوان آخران هما النيون Neon ومعناه الجديد والزينون Xenon ومعناه الغريب. وأخيراً اكتمل أعضاؤها باكتشاف عنصر آخر له نشاط إشعاعى مؤقت وهو عنصر الرادون Radon ..

والجدول التالى يبين نسبة هذه العناصر الغازية فى الهواء الجوى :—

الغاز	النسبة بالحجم	النسبة بالوزن
الهليوم	جزء واحد فى كل ٢٠٠،٠٠٠ جزء	رطل واحد فى كل ٧٢٥ طن
النيون	« « « « ٦٥،٠٠٠	« « « « ٤٤ «
الأرجون	« « « « ١٠،٠٠٠ «	« « « « ٧٥ رطل
الكريبتون	« « « « ١،٠٠٠،٠٠٠ «	« « « « ١٧٣ طن
الزينون	« « « « ١١،٠٠٠،٠٠٠ «	« « « « ١٢٠٨ «

وجميع أعضاء هذه الأسرة أو مجموعة الصفر كما سماها السير وليم رامساى ليس لها أى نشاط كيمائى فهى لا تتحد مع غيرها من العناصر . غير أن العلم لم يتركها على كسلها وبلادتها بل تحايل عليها حتى استخدمها فى كثير من الأغراض الصناعية . فالهيليوم — كما سبق الإشارة — يستعمل بأمان تام فى ملء البالونات والسفن الهوائية فهو يمتاز عن الهيدروجين الذى كان يستعمل قبلا لهذا الغرض بأنه لا يشتعل . . كما يستخدم الهيليوم أيضاً فى صنع جو مناسب يتنفس فيه الغواصون أثناء القيام بواجبهم . . فالغواص إذا استنشق هواء مسحوباً له من الجو الطبيعى وهو يعمل فى الأعماق البعيدة تحت ضغط الماء ذاب قدر كبير من نيتروجين هذا الهواء فى دمه. وعند عودته إلى سطح الماء ينفصل النيتروجين الزائد فجأة عن الدم

وربما سبب ذلك جلطة دموية قد تؤدى إلى نتائج مميتة . .
أما إذا استنشق الغواص وهو فى الأعماق جوا مصنوعاً من الأوكسجين والهيليوم أمكنه أن يعمل دون خطر لأن الهليوم يكاد لا يذوب فى الدم .

والهيليوم والنيون والأرجون تعطى أضواء بديعة إذا ما حبست فى أنابيب زجاجية ومرر خلالها تيار كهربائى عالى الفولت قليل الضغط . وتستخدم هذه الأضواء بكثرة اليوم فى الإعلانات فنراها على وجهات المحال التجارية ومطارح اللهو وفى الإعلانات الضوئية الكبيرة . وغاز النيون يعطى أضواء حمراء برتقالية بينما الأرجون مع بخار الزئبق يعطى لوناً أزرق يظهر أخضر إذا ما مر خلال أنبوب زجاجى أغبش . . أما الهيليوم فيعطى نوراً أبيض يظهر خلال الزجاج الأصفر ذهبى جذاب . . أما الرادون فلنشاطه الإشعاعى قد يستعمل فى أغراض طبية .

* * *

٤ ــ عنصر الكلور

فى عام ١٨٣٤ أقام الملك شارل العاشر ملك فرنسا حفلة ساهرة فى قصر التوليرى دعى إليها الكثير من النبلاء وأكابر القوم . . وأضيئت أبهاء القصر وردهاته بمئات الشموع . .

وبعد برهة فسد جو القصر بغاز مثير نفاذ تولد من احتراق الشموع الكثيرة فضايق ضيوف الملك وعكر مزاجهم .

وفى الحال استدعى الملك شارل العالم دوماس J.B. Dumas وطلب منه تفسير هذا الأمر وتدبير العلاج اللازم .

ونظر دوماس فى الشموع . . وجدها بيضاء ناصعة البياض وأدرك كل شيء . . أدرك أن الشموع قد بيضبت بالكلور فمن خواص هذا العنصر قصر الألوان (أى إزالتها) فالكلور المتخلف من عملية تبييض الشموع قد اتحد بهيدروجين هذه الشموع عند اشتعالها وتكوّن من هذا الاتحاد غاز مثير نفاذ هو الذى أفسد جو التوليرى وأزعج المدعوين .

فأما الهيدروجين فقد عرفناه . . فما هذا الكلور وما قصته ؟

فى أواسط القرن السابع عشر الميلادى حضر جوهان رودلف جلوبر J. R. Glauber الكيميائى البافارى حامضاً سائلا سماه حامض المورياتيك . وذلك من استقطار ملح الطعام الممزوج بحامض الكبريتيك . وقد تخلف من عملية الاستقطار كتلة ملحية سميت « ملح جلوبر » . وهو الملح الذى نعرفه الآن باسم كبريتات الصودا أو سلفات الصودا .

ولم يتمكن جلوبر من معرفة تركيب حامض المورياتيك هذا ولا من كشف عنصر الكلور فيه . وفى عام ١٧٧٤ حصل

شيل C. W. Scheele السويدى على غاز بتأثير أوكسيد المنجنيز مع حامض المورياتيك . بيد أنه اعتقد أن هذا الغاز أحد مركبات حامض المورياتيك مع الأوكسجين . وظل هذا الغاز محسوباً كذلك حتى عام ١٨١٠ عند ما برهن السير همفرى دافى Sir H. Davy بالدليل الساطع على أن الغاز الذى حصل عليه شيل مادة بسيطة وعنصراً من العناصر . وسماه الكلور نسبة إلى لونه الأخضر المصفر فلفظة كلور معناها الأخضر .

وعنصر الكلور لايوجد صرفاً فى الطبيعة ولكنه يوجد على هيئة كلوريدات . ومن هذه الكلوريدات وأكثرها كلوريد الصوديوم (ملح الطعام) وكلوريد البوتاسيوم . والملح الأول غنى عن التعريف والبيان فكلنا يعلم أنه من أهم المواد اللازمة للجسم فهو يدخل فى تركيب الدم . كما أن طعامنا لا يستساغ بدونه . وهو مصدر لكثير من المواد الكيميائية الهامة منها الكلور نفسه وحامض الهيدروكلوريك .

وللكلور رائحة خاصة مهيجة تؤثر فى الأغشية المخاطية وقد يسبب استنشاق المقادير الكبيرة منه الاختناق والوفاة . . وهو سريع الذوبان فى الماء فمقدارين منه يذوبان فى مقدار واحد من الماء فى درجة الحرارة العادية . وهو أثقل من الهواء

بضعفين ونصف ضعف . وله ألفة شديدة للاتحاد بالمعادن فإذا ما وضعت فيه وهى مسحوقة اشتعلت بلهب ولمعان متحولة إلى كلوريدات كما أنه يتحد مع الزئبق مكوناً كلوريد الزئبق وهو المطهر المعروف باسم السليمانى . أما ميله الشديد وشرهه للاتحاد مع الهيدروجين فيكاد يكون أهم صفاته . ومن هذا الاتحاد ينتج غاز حامض الهيدروكلوريك وهو الغاز الذى أزعج ضيوف الملك شارل العاشر وعكر مزاجهم فى حفلتهم الساهرة .

واتحاد الكلور بالهيدروجين لا يجرى إلا فى أحوال خاصة . فالكلور والهيدروجين إذا مزجا بالتساوى كيلا لا يتحدان ما دام مزجهما فى الظلام ولكنه عندما يتعرض إلى نور الشمس يتحد العنصران فى التو بفرقعة شديدة . وإذا وضع المزيج فى نور متفرق كنور الغرف يتحدان تدريجاً بدوى فرقعة . فنور الشمس واسطة كبرى لهذا الاتحاد . . على أن العنصرين يتحدان أيضاً بإدخال لهب أو شرارة فى مزجهما . وقابلية الكلور للاتحاد بالهيدروجين تجعله كثير النفع فهو يستعمل فى تبييض القطن والكتان والورق وغيره . وإزالة ألوانها النباتية (العضوية) وعملية التبييض هذه لا تتم إلا فى وجود الرطوبة (الماء) ففى نور الشمس ينتزع الكلور هيدروجين الماء وتترك

أوكسجينه فيتجرد هذا العمل حال ولادته فيتحد مع كربون تلك الألوان وهيدروجينها ونيتروجينها مكوناً معها مركبات لا لون لهـــا .

ولا تأثير للكلور على الألوان المعدنية (الغير عضوية) ولا على الألوان التى يتوقف سوادها على الكربون كأحبار المطابع .

وتبييض الخيوط بالكلور يكاد يكون مقصوراً على القطنية والكتانية منها فهو لا يؤثر فى أليافها أما المنسوجات الصوفية والحريرية فلا تبيض به لأنها أقل احتمالا لفعله وإنما يستعمل فى تبييضها مركب يعرف بحامض الكبريتوز .

ولا يستعمل الكلور الصرف فى التبييض لأنه غاز قبيح خانق يسبب الكثير من المتاعب والأخطار للقائمين بالعمل . لذلك يؤثرون عليه أحد مركباته مع الكالسيوم (الجير) ويعرف هذا المركب باسم هيبو كلوريت الكالسيوم وهو ما يسمى عند عمال المصانع ومحال التبييض باسم « مسحوق التبييض » ويحتوى هذا المسحوق على ذرة واحدة من الكالسيوم وذرتين من الكلور . وواحدة من الأوكسجين . ولتحضيره يمر تيار من الكلور على الجير المطفأ .

وللكلور فائدة أخرى ومنّة لا ننكرها له فهو مضاد للفساد

والروائح الكريهة وفعله فى ذلك كفعله فى عمليات قصر الألوان
أى أنه يتحد مع الهيدروجين المتصاعد من انحلال المواد
العضوية المتعفنة مصدر الروائح الكريهة فيوقف الفساد ويقضى
على هذه الروائح . . وليس التطهير بالكلور قاصر على إزالة
الروائح العفنة إنما يستخدم أيضاً فى القضاء على بعض الجراثيم
فى تطهير الماء والهواء . فيقلل من شرور الأمراض وويلاتها .

* * *

ومحلول حامض الهيدروكلوريك عرف منذ عدة قرون تحت
اسم « روح الملح » فقد عرفه العرب وقدماء الكيميائيين ممزوجاً
مع حامض الأزوتيك (النيتريك) وسموا هذا المزيج بماء الذهب
أو الماء الملكى لأنه يذيب المعادن النفيسة كالبلاتين والذهب
والفضة . وأما الحامض الغازى نفسه فلم يعرف حتى أواسط
القرن السابع عشر لأن الغازات حتى ذلك الحين كانت تجمع
عند تحضيرها فوق الماء وهذا الغاز — كما سبق الإشارة —
سريع الذوبان فى الماء . وأول من استحضره هو برستلى J. Priestley
وذلك بجمعه فوق الزئبق . وفى عام ١٨١٠ أثبت السير همفرى
دافى أن هذا الحامض الغازى مركب من الكلور والهيدروجين
فقط . وبذلك أفسد الزعم القديم القائل بأن الأحماض لا بد لها
من غاز الأوكسجين .

* * *

قلنا إن الكلور يتحد مع كثير من العناصر مولداً ما يعرف بالكلوريدات وهى أملاح يدخل فى تركيبها الكلور مع هذه العناصر أو أكاسيدها أو هيدراتها أو بيكربوناتها . . وللكلور فى الخاصية نظائر هى عناصر البروم واليود والفلور لذلك تعرف هذه العناصر الأربعة بالمجموعة الهالوجينية Halogens ومعناها « مولدات الملح » .

* * *

٥ ــ غاز الفلور

يقال إن أول مركب يحتوى على الفلور قد استخدمه شوانهاردت Sohwanhardt عام ١٦٧٠ م. فى التأثير على الزجاج. وهذا المركب هو ما يعرف بحجر دربيشير Derbyshire spar خلطه شوانهاردت بحامض الكبريتيك فوجد لهذا الخليط تأثيراً عجيباً فى مادة الزجاج .

وفى عام ١٧٧١ حضر شيل عينة لحامض أدرك فيما بعد أن حجر دربيشير هو ملح هذا الحامض متحداً بالجير . . ثم جاء أمبير Ampere عام ١٨١٠ فقال إن هذا الحامض الذى

حضره شيل هو أحد مركبات الهيدروجين مع عنصر غير معروف يماثل عنصر الكلور بيد أن قوله هذا ظل فرضاً يعوزه الدليل حتى جاء دافى فأثبت (فى نفس العام) بعد مباحث عديدة أجراها على هذا الحامض ومقارنته بحامض الهيدروكلوريك — صحة قول أمبير ومن ثم أطلق على هذا العنصر المجهول اسم الفلور وسمى الحامض باسم حامض الهيدروفلوريك .

وانبرى الكيميائيون يحاولون الحصول على هذا العنصر الجديد مفرداً ولكن مساعيهم خابت كلها وظل الفلور عاصياً على تجاربهم وحيلهم .

ومرت السنون والفلور لا يلبى النداء حتى إذا ما انتصف عام ١٨٨٦ أو على التحديد فى السادس والعشرين من يونيو من هذا العام أعلن هنرى مواسان H. Moissan الأستاذ بمدرسة الصيدلة بباريس أنه حصل بعد جهود جبارة استنفدت الكثير من الوقت والمال على بضع فقعات من العنصر فى الحالة الصرفة . وفى الحال طير الخبر إلى أكاديمية العلوم التى شكلت لجنة لفحص الموضوع وتقديم التقرير اللازم .

والطريقة التى حضر بها مواسان الفلور تتلخص فى أنه حلل بواسطة الكهرباء محلولا هو حامض الهيدروفلوريك الجاف (الخالى من الماء) مذاباً فيه ملح فلوريد البوتاسيوم الهيدروجينى

فى أنبوبة على شكل « U » مصنوعة من سبيكة من البلاتين والإيريديوم وقد وضع الأنبوبة المذكورة فى حمام تبريد درجته ـ٢٣ (تحت الصفر) مستعملا لهذا الغرض كلوريد المثيل وذلك لكى لا يتطاير حامض الهيدروفلوريك الذى يغلى عند درجة ١٩ مئوى فقط .

وكان نجاح مواسان فى فصل هذا العنصر من الأعمال الباهرة ومن الآثار العظيمة فى هذه الصناعة .

وعنصر الفلور غاز له لون أخضر كلون الكلور — يوجد فى الطبيعة مركباً مع الكالسيوم فى الحجر المعروف باسم حجر دربيشير . وفى مياه البحار والينابيع المعدنية كميات ضئيلة منه . كما يوجد أيضاً فى عظام ذوات الثدى وأسنانها وفى بعض النباتات . . والفلور هو أنشط العناصر جميعاً وأكثرها اتحاداً وألفة . فهو يتحد بقوة وشراهة مع جميع العناصر تقريباً باستثناء الأوكسجين والغازات الخاملة طبعاً . ولشدة نشاطه إننا حالما نفصله من مركبات يتحد فى التو مع غيره مكوناً مركبات أخرى . أما ألفته بالهيدروجين فتفوق فى شدتها ألفة الكلور ، واتحاده بالهيدروجين يكون فى الظلام بفرقعة عظيمة لشدة التفاعل . وهو أيضاً ينتزع الهيدروجين من مركباته فإذا ما اتصل بالماء مثلا تفاعل معه بشدة منتزعاً هيدروجينه . أما فعله فى

السليكا (مادة الرمل ويصنع منها الزجاج كما سنرى) فجدير بالذكر فهو حال التقائه بها يطرد أوكسجينها ويحل محله مكوناً فلوريد السليكون الرابع . ومن هذا يتضح ما اكتنف عمليات تحضيره من مصاعب . فعندما حاول دافى تحضيره فى آنية زجاجية بواسطة إحماء فلوريد الفضة الجاف مع غاز الكلور تولد من هذا الإحماء كلوريد الفضة وانفرد الفلور ففعل لتوه فى الزجاج متحداً مع السيليكا طارداً الأوكسجين . . ولما حاول تحضيره فى آنية بلاتينية اتحد عند انفراده بالبلاتين وكون فلوريد البلاتين . وهكذا خابت كل الحيل فى تحضيره منفرداً حتى وفق مواسان عام ١٨٨٦ فى تحضيره بالطريقة التى سبق ذكرها . .

ومن اتحاد الفلور مع الهيدروجين ينتج حامض قوي قريب فى الصفات من حمض الهيدروكلوريك والأحماض التى تجرى مجراه غير أنه أقوى منها جميعاً ويمتاز عنها بشدة تأثيره على الزجاج . . ويحضر هذا الحامض من استقطار مسحوق حجر دربيشير مع حامض الكبريتيك واستقبال الناتج فى آنية معدنية أقل تأثيراً بفعل الحامض . وأكثرها استعمالا الرصاصية والبلاتينية .

وهذا الحامض سائل عديم اللون له رائحة مهيجة حريفة

خانقة. وإذا سقطت نقطة منه على الجلد قرحته قرحاً بليغاً يتسع ويزداد مسبباً ألماً وإزعاجاً شديداً وقد لا يعالج إلا بقطع الجلد المصاب . . وحتى بخاره إذا ما أصاب الأصابع أهاج ما تحت الأظافر وسبب ألماً مؤلماً . .

ولشدة ألفة هذا الحامض بالماء فإنه إذا ما قرب منه اتحد معه محدثاً أزيزاً شبيهاً بذلك الذي يحدث عند وضع الحديد المحمى فى الماء .

ومن أهم الخصائص الكيميائية لهذا الحامض تذويبه السليكا مهما كانت صلابتها لذلك ينتفع به فى تحليل السليكات المعدنية التى لا تتأثر بالأحماض الأخرى . كما ينتفع به فى الكتابة والنقش على الزجاج . وطريقة هذا النقش نوردها فى السطور التالية :—

من المعلوم أن الزجاج العادى مؤلف من سليكات الصوديوم أو البوتاسيوم مركبة مع سليكات الكالسيوم أو أوكسيد الرصاص . . فعند فعل الحامض فى الزجاج ينتزع السليكا منه ويبقى أثر هذا الفعل ظاهراً على الزجاج . . . لذلك يحمى الزجاج المراد النقش عليه لدرجة تكفى لإذابة الشمع ثم يذر عليه فتات الشمع حتى يغطيه المذاب تماماً ثم ينقش على الزجاج بقلم مرأس صلب بحيث يذهب الشمع بفعل القلم ويتعرى

بالنقش ويصبح مكانه مكشوفاً . يوضع مكان النقش مسحوق حجر دربيشير المندى بحامض الكبريتيك ويترك حوالى ١٥ دقيقة ثم يغسل الزجاج ويحمى مرة أخرى لإذابة الشمع فيظهر النقش محفوراً فى الزجاج بفعل حامض الهيدروفلوريك الذى تصاعد من الحجر المندى بالحامض .

* * *

٣

العناصر المعدنية

النحاس والذهب والحديد والرصاص والفضة والقصدير والخارصين كلها عناصر معدنية عرفها الإنسان منذ عصور متغلغلة فى القدم واستخدمها فى صناعة الكثير من أدواته . وهى عناصر شائعة ليست فى حاجة إلى بيان أو تعريف .

والعناصر المعدنية من صفاتها اللمعان والصلابة وجودة توصيلها للحرارة والكهربائية . وكلها تنصهر وتغلى فى درجات الحرارة العالية غير أن هناك طائفة من المعادن تجمع بين الصفات المعدنية والغير معدنية — وإن كانت تعتبر من العناصر المعدنية — ومن هذه نذكر الصوديوم والبوتاسيوم فهما ينصهران

ويغليان فى درجات حرارة منخفضة بالنسبة لبقية المعادن .

* * *

١ ـ الصوديوم والبوتاسيوم

سمى بعضهم الصوديوم « معدن الصداع » فقد قيل إن كلمة صوديوم Sodium مأخوذة من كلمة صودا Soda وهذه الأخيرة مأخوذه عن اللفظ العربى « صداع » فقد كان العرب يستعملون بعض مركبات هذا العنصر فى التطبيب وانتشر استعمال هذه المركبات بعد ذلك فى أوربا فى العصور الوسطى حيث كانوا يستخدمون منسحوقاً أبيض يسمى صودانم Sodanum لتلطيف آلام الصداع . وهذا المسحوق هو ما يعرف الآن باسم كربونات الصوديوم .

وأهم مصادر كربونات الصوديوم فى الطبيعة هو النطرون Natron وهى لفظة عبرية وعنها أخذت الكلمة اللاتينية ناتريوم Natrium اسماً لمعدن الصوديوم . ومن الثابت أن كلوريد الصوديوم (ملح الطعام) وكربونات الصوديوم كانت من الأملاح التى عرفها الإنسان فى عصور ما قبل التاريخ ويرجع ذلك إلى كثرة وجودها فى الطبيعة وانتشارها فى كثير من بقاع الأرض مختلطة ببعض الأملاح الأخرى .

وأول من ميز بين أملاح الصوديوم وأملاح البوتاسيوم هو أبو منصور الموفق الفارسى فى القرن العاشر الميلادى ففرق بين كربونات الصوديوم (ملح الرماد) وكربونات البوتاسيوم (ملح القلى) وشرح طرق استخلاص هذين الملحين من رماد بعض النباتات .

وكان كير Kerr حتى عام ١٨٠٧ يقول إن الصودا الكاوية والبوتاسا الكاوية عنصران معدنان فجاء دافى وأعلن فى ذلك الحين أن هاتين المادتين مركبان يمكن تحليلهما بالكهربائية : وقد حصل دافى من هذين المركبين على عنصرى الصوديوم والبوتاسيوم .

والصوديوم لا يوجد صرفاً فى الطبيعة وذلك لشدة ألفته واتحاده مع غيره من العناصر ، ومن أهم المركبات التى توجد فى الطبيعة وتعد من أهم مصادر تحضيره كلوريد الصوديوم (ملح الطعام) وسلكات الصوديوم الألومنيومية ونترات الصوديوم وكربونات الصوديوم (النطرون) والصوديوم معدن أبيض فى لون الفضة غير أنه إذا تعرض للهواء اكتسى بطبقة صدئة نتيجة اتحاده بالأوكسجين . . وهو لين يمكن قطعه بالسكين فى يسر وسهولة . . ينصهر عند درجة ٩٧,٥ ويغلى عند درجة ٨٨٠ فتتصاعد أبخرته فى لون بنفسجى جميل . وهو موصل جيد

للحرارة والكهربائية . وإذا وضع فى الماء طاف على سطحه مشتعلا بفرقعة لشدة التفاعل فهو يتحد مع أوكسجين الماء مكوناً أوكسيد الصوديوم أما هيدروجين الماء فيتصاعد .

ومن طريف الحيل أنك إذا أخذت قطعة من الجليد وأحدثت بها تجويفاً صغيراً غير عميق ووضعت فى هذا التجويف قطعة صغيرة جداً من الصوديوم أمكنك أن تشعل سيجارتك من قطعة الصوديوم فيظن من يراك أنك تشعلها من الجليد .

وللصوديوم مركبات غاية الأهميـــة فى الصناعة نذكر منها الأوكسيد الأول والأوكسيد الثانى فأوكسيد الصوديوم الثانى عامل مؤكسد قوى ويستعمل فى عمليات التبييض وفى تنقية الهواء المحبوس فى الأماكن الضيقة كالغواصات وغيرها فهو فى هذه الحالة يمتص غاز ثانى أوكسيد الكربون الغير صالح للتنفس وفى الوقت ذاته يطلق غاز الأوكسجين .

ومن مركباته أيضاً الصودا الكاوية أو هيدروكسيد الصوديوم (أوكسيد الصوديوم المائى) وكربونات الصوديوم وهما مركبان يستعملان فى أغراض صناعية كثيرة سيما الأول فهو يستعمل فى صناعة الصابون وفى صناعة الحرير الصناعى وفى الصباغة وغيرها .

وهناك أيضاً من المركبات بيكربونات الصوديوم وسلفاته

(كبريتاته) وستراته (ليموناته) وبروميده ويوديده وكلوراته وكلها مواد معروفة بفوائدها الطبية العميمة .

* * *

والبوتاسيوم عنصر كثير الشبه بالصوديوم فى جميع خواصه الطبيعية والكيمياوية فهو فلز لين أبيض ينصهر عند درجة ٦٢م ويغلى عند درجة ٧٦٠ متحولا إلى أبخرة خضراء جميلة .

وكانت كربونات هذا الفلز تستخلص بادئ الأمر من رماد بعض النباتات بمعالجته بالماء فى وعاء من الحديد ومن هنا جاءت تسمية العنصر فكلمة وعاء معناها بالإنجليزية Pot وكلمة رماد معناها Ash فأدمج الكلمتان فأصبح اللفظ Pot-ash ومعناه الرماد الذى فى الوعاء ثم أضيف إليه المقطع اللاتينى ium للدلالة على المعدن فصار Potashium ومعناه معدن الرماد الذى فى الوعاء (أى الذى يستخلص فى الوعاء) ثم حذف الحرف (h) وشدد حرف ال (S) فصار اللفظ Potassium واتخذ اسماً للعنصر .

أما الاسم اللاتينى له فهو Kalium وهو من مقطعين الأول Kali وقد أخذ عن الكلمة العربية (قلى) والثانى هو المقطع اللاتينى ium ومعنى اللفظ معدن القلى أى معدن الرماد .

وأول من حضر البوتاسيوم فى الحالة العنصرية هو السير

همفرى دافى عام ١٨٠٧ ومركبات هذا العنصر كثيرة الانتشار فى الطبيعة فماء البحر يحتوى على حوالى ١ فى المائة من كلوريد البوتاسيوم . كما أن الرواسب الملحية فى ستاسفورد وفى الألزاس وفى الولايات المتحدة الأمريكية وفى روسيا وفى فلسطين (منطقة البحر الميت) غنية بأملاح هذا العنصر .

وسليكات البوتاسيوم الألومنيومية كثيرة الانتشار فى الأرض ومنها تتسرب مركبات البوتاسيوم إلى التربة بفعل الأمطار وعوامل الطبيعة الأخرى ومن ثم يمتصه النبات .

والبوتاسيوم — كما أسلفنا — يشبه الصوديوم فى خواصه الطبيعية والكيميائية لذلك كانت أملاح العنصرين متماثلة تماماً فى هذه الخواص ولكن من الغريب أنها تختلف تمام الاختلاف فى الخواص الفسيولوجية فمثلا كلوريد البوتاسيوم لا يحل محل كلوريد الصوديوم فى تجهيز الطعام .

ومن أهم مركبات البوتاسيوم أكسيده الأول وأوكسيده الرابع وهذا الأخير عامل مؤكسد يفوق فى قوته الأوكسيد الثانى للصوديوم . ومن مركباته أيضاً البوتاسا الكاوية أو هيدروكسيد البوتاسيوم (أوكسيد البوتاسيوم المائى) ويدخل هذا المركب فى صناعة الصابون الطرى وغيره من الصناعات . . ثم هناك أيضاً كربونات البوتاسيوم وبيكربوناته وكلوريده وبروميده وهذا

الأخير يستعمل طبياً منوماً ومسكناً للأعصاب غير أن كثرة استعماله لهذه الأغراض والتعود عليه قد يؤثر فى القوى العقلية .

وهناك أيضاً يوديد البوتاسيوم وسلفاته ونتراته وكلوراته والمركب الأخير مؤكسد قوى ويدخل فى صناعه المفرقعات فإذا خلط بالفسفور والكبريت كان باروداً خطراً وهو يستعمل فى بعض الأغراض الطبية كالتطهير وقتل الجراثيم . وأما فى الصناعة فيستعمل فى الأكسدة وفى صناعة الثقاب (الكبريت) وفى صناعة الألغام والمواد الناسفة .

* * *

٢ — الزئبق

عنصر لعب دوراً كبيراً أيام الكيميائيين الأوائل فقد عده جابر بن حيان شيخ الكيميائيين العرب ركناً ركيناً لإقامة دعائم المذهب الذى كان يعد أول المذاهب الكيميائية . وهو مذهب تحويل المعادن . فقد ذهب جابر ومن تبعه من المشتغلين بصناعة الكيمياء إلى أن المعادن كلها مركبة من الزئبق والكبريت. وأن الاختلاف الجوهرى فيما بينها يتوقف على اختلاف مقدار هاتين المادتين ونقائهما . وأن اختلاف المعدن وخصائصه تتوقف على الزئبق ، وأما التغيرات التى تظهر فيه بالإحماء فناتجة

من الكبريت الذى فيه ، وكان جابر يذهب أيضاً إلى أن أفخر المعادن وأشرفها هى المحتوية على أنقى الزئبق ولذلك لا تؤثر فيها الحرارة ولا تغير صفاتها . وأما المعادن الأقل كرامة فالزئبق فيها أقل كمية ونقاء لذلك تفعل فيها الحرارة . فكل من الذهب والفضة مؤلف بحسب مذهب جابر هذا من الزئبق والكبريت النقيين . الذهب من الكبريت الأحمر والفضة من الكبريت الأبيض . وأما خسيس المعادن فزئبقها قليل الكمية قليل النقاء وكبريتها كثير الكمية قليل النقاء . . وهذا المذهب وغيره من مذاهب المتقدمين لا يعتد به فى أيامنا هذه لأن نور العرفان قد نفذ إلى كل شيء فميز الناس بين الفاسد والصحيح من هذه المذاهب والآراء .

* * *

والزئبق معدن من المعادن ويرجع الفضل فى إثبات ذلك إلى برون Braun عام ١٧٦٠ . وهو سائل فى درجات الحرارة العادية . كثيف رجراج فى لون الفضة السائلة ولكنه يجمد فى درجة ٤٠ تحت الصفر .

ويوجد هذا المعدن فى جهات متفرقة من العالم . إما خالصاً أو على هيئة ملغمات مع الذهب أو الفضة أو كليهما . ولكن المصدر الرئيسى له هو الزنجفر (كبريتيد الزئبق) وأهم مواطن

هذا الخام إسبانيا وإيطاليا وبعض جهات من أمريكا وفى روسيا .

والزئبق وإن كان يغلى فى درجات الحرارة العالية (٣٥٧) فإن بخاره قد يتطاير فى درجات الحرارة العادية . وبخاره سام خطر .

حدث عام ١٨١٠ أن كانت إحدى السفن تحمل ١٣٠ طنا من الزئبق انتشلته من حطام إحدى السفن الإسبانية . وكان الزئبق محبوساً فى رقاق وضعت داخل براميل من الخشب وكان العطب قد أصاب بعض هذه الرقاق فتسرب الزئبق من محبسه وعملت فيه حرارة الجو فانتشر بخاره وعم سائر عنابر السفينة . فظهرت أعراض التسمم الزئبقى على رجال السفينة فخرج الزبد من أفواههم بكثرة وأصاب بعضهم شلل جزئى وسقطت أسنانهم ومات كثير منهم ونفق جميع ما بعنبر الماشية من خراف وخنازير ودجاج ولم ينج من هذا الكرب العظيم الذى أصاب السفينة وأهلها سوى نفر قليل من ضباطها كان عملهم يقتضى وجودهم دائماً على سطحها .

ومما جاء فى تقرير طبيب السفينة المنكوبة فى وصف هذا الحادث قوله .

« وكانت الجرذان تصعد بذعر بالغ من العنابر السفلية إلى

سطح السفينة فتقفز فى الهواء ثم تسقط ميتة .

وللزئبق تأثير كبير على الكثير من المعادن فهو يذيبها مكوناً مركبات صلبة أو سائلة تعرف بالملغمات ومن أمثلة ذلك أننا إذا غمرنا قطعة من الصوديوم فيه بعد تدفئته ذابت على الفور وينتج عن ذلك وهج وحرارة ويعرف المركب الجديد باسم الصوديوم المملغم . وهو عامل مختزل قوى .

ومن أهم مركبات الزئبق أوكسيد الزئبق الأحمر وهو شائع الاستعمال فى تحضير عينات الأوكسجين فى المعامل الدراسية . وقد لعب هذا المركب الدور الأول فى هدم نظرية السعير (الفلوجستون) The Phlogiston Theory على يدى لافوازييه[1].

ومن مركباته أيضاً كلوريد الزئبقوز (الكالومل) وهو مسهل معروف كثير الاستعمال فى الأغراض الطبية وكلوريد الزئبقيك وهو المطهر المعروف بالسليمانى . وهو سام وكثيراً تستعمله الطبقة الدنيا فى الانتحار وارتكاب جرائم التسمم . وخير ترياق له زلال البيض مع ماء كثير .

* * *

(١) راجع لافوازييه (اقرأ رقم ٢٤) .

٣ ــ المعادن المشعّة

فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن الحاضر حدث تطور عظيم فى العلوم الطبيعية . فذرات العناصر التى كان يظن أنها غير قابلة للتجزئة ثبت أنها تتجزأ وأن بعض العناصر تتحطم ذراتها وتتجزأ من تلقاء نفسها وتعرف هذه العناصر بالعناصر ذات النشاط الإشعاعى . ويرجع الفضل فى إثبات ذلك إلى هنرى بيكيرل H. Becquerel عام ١٨٩٦ وإلى بيير ومدام كورى P. & Mme. Curie عام ١٨٩٨ .

فما هذا النشاط الإشعاعى ؟ وما هذه العناصر المشعة ؟

نظرت مدام كورى إلى عينة الراديوم التى حضرتها عام ١٨٩٨ فرأت وهجاً وشعاعاً أنارا الظلام . فهب العلماء يدرسون هذه الأشعة ويحللونها فمن ذلك أنهم جعلوها تمر بمجال مغناطيسى فتحللت إلى ثلاثة أجزاء انحرف أولها يميناً وانحرف ثانيها شمالا بينما سار ثالثها فى سبيله لا يلوى على شىء غير متأثر بقوة المغناطيس . وسمى العلماء الجزء الأول أشعة ألفا والجزء الثانى أشعة بيتا والجزء الثالث أشعة جاما . وألفا وبيتا وجاما أول الحروف الهجائية فى اللغة اليونانية . غير أن البحوث أثبتت بعد ذلك أن أشعتى ألفا وبيتا ليستا أشعة بالمعنى المعروف

بل أن كلا منهما عبارة عن جسيمات صغيرة تحمل الكهرباء فالأولى تحمل كهرباء موجبة والثانية تحمل كهرباء سالبة وأما أشعة جاما فهى ليست جسيمات مكهربة وهذا هو السبب فى عدم انحرافها عند مرورها بمجال المغناطيس . . وهى أشعة حقيقية تشبه أشعة الضوء وإن كانت تختلف عنها فى قصر الموجة .

والجسيم الواحد من جسيمات ألفا يزن سبعة أجزاء من مليون مليون مليون مليون جزء من الجرام وإن عجبت أيها القارئ من ضآلة هذا الوزن وخفته فاعلم أيضاً أن هذا الوزن يعادل أربعة أمثال وزن ذرة الهيدروجين التى هى أخف ذرات العناصر على الإطلاق . أما جسيم بيتا فوزنه أقل من ذلك بكثير إذ يساوى نحو جزء من ١٨٠٠ جزء من ذرة الهيدروجين .

فالنشاط الإشعاعى لبعض العناصر كالراديوم واليورانيوم وغيرها هو تهشم ذرات هذه العناصر تهشما ذاتياً وتناثر جسيمات ألفا وبيتا وأشعة جاما . فالأمور فى هذه الذرات مضطربة غير مستقرة وتلك هى الميزة التى تميزها عن غيرها من ذرات العناصر الأخرى .

* * *

اليورانيوم عنصر أهم خاماته البتشبلند Pitchblende وهو

خام معقد يحتوى على يورانات اليورانيل والرصاص وبعض العناصر الأخرى والغازات وأهم مناجم التتشبلند هى مناجم تشينكو لوبوى فى الكنغو البلجيكى كما اكتشفت مناجم له فى شمال كندا الغربى حيث يوجد البتشبلند مختلطاً بالفضة الخالصة وبعض مركبات النيكل والكوبالت . ومن المناجم الشهيرة لليورانيوم أيضاً مناجم يواخيمستال Ioachimstal فى تشيكوسلوفاكيا فعلى البتشبلند المستخرج من هذه المناجم أجرت مدام كورى وزوجها تجاربهما عام ١٨٩٨ ومنه أيضاً استخرجت أول إنتاج للراديوم فى العام نفسه .

وأما اكتشاف اليورانيوم فكان عام ١٧٨٩ ويرجع الفضل فى ذلك إلى كلابروث M.H. Klaproth الألمانى وأول من بحث فى نشاطه الإشعاعى هو بيكيرل الفرنسى عام ١٨٩٦ .

وكلمة اليورانيوم تذكرنا دائماً بالقنبلة الذرية . تلك القنبلة التى هزت الدنيا وجعلت الناس يهتمون بأمر الذرة وتركيبها كما جعلتهم يهتمون بالعلوم الطبيعية والبحوث العلمية فقد كانت لأبحاث العالمين هاهن واشتراسمان Hahn and Strassmann فى برلين فى فلق ذرة هذا العنصر مقدمة لعصر جديد . . عنصر الذرة التى لو شاء العلماء استخدموا طاقتها على شكل قنبلة مدمرة تمحى المدن وتهلك الشعوب ولو شاءوا استخدموها أداة محركة

تعود على العالم بالخير وعلى الشعوب بالسلام والرخاء .

* * *

وأما الراديوم فإننا عندما نذكره نذكر مدام كورى . . .
نذكر قصة مولد عنصر من أهم العناصر . . . نذكر قصة
من أروع قصص رواد العلم وأبطال البحوث الذين عملوا فى
صمت ولم تفسدهم الشهرة أو ذيوع الصيت . .

استرعى نظر مدام كورى رسالة نشرها بيكيرل عام ١٨٩٧
عن الإشعاع الذاتى لمركبات اليورانيوم فاستهواها البحث وكانت
وقتذاك تفكر فى موضوع تختص فى بحثه لنيل إجازة الدكتوراه
فى العلوم الطبيعية . فتساءلت عن ماهية هذا الإشعاع وعن
مصدره ففتح لها هذا السؤال مجالا واسعاً للبحث والدراسة .
فعكفت فى معملها المتواضع تجرى التجارب فى صبر عجيب ..
وامتحنت فى تجاربها هذه جميع العناصر التى كانت معروفة
وقتذاك تقريباً . وأخيراً قفز فى رأسها خاطر جرىء . . . . .
إن معدن البتشبلند الذى يستخلص منه اليورانيوم لا بد أن
يكون محتوياً على مقادير صغيرة من عنصر غريب أقوى إشعاعاً
من اليورانيوم فما هذا العنصر يا ترى ؟

وتحمس زوجها بيير كورى لفكرتها هذه فترك بحوثه الخاصة
جانباً ثم وحدا جهودهما لكشف القناع عن هذا العنصر

الحديد . . فانبرى الاثنان على العمل رغم حاجتهما إلى المال بعزم لا يلين فاختبرا كل العناصر التى يحتويها البتشبلند ومدى النشاط الإشعاعى لكل منها فتوصلا آخر الأمر إلى أن هناك عنصرين لا عنصر واحد يمتازان بالنشاط الإشعاعى ، وفى منتصف عام ١٨٩٨ أو على التحديد وفى شهر يوليو من ذلك العام أعلنت مدام كورى أنها اكتشفت أحد هذين العنصرين وأطلقت عليه اسم البولونيوم Polonium نسبة إلى بلادها بولونيا التى تكن لها كل ولاء ووفاء . . وفى شهر ديسمبر من العام نفسه أعلنت عن اكتشافها الذى هز الدوائر العلمية ... إنه عنصر جديد يمتاز بنشاطه الإشعاعى العظيم . . إنه الراديوم . . ! !

وكان أول ما حصلا عليه من هذا العنصر دقائق لا تشفى غليل علماء الطبيعة وعلماء الكيمياء الذين قابلوا هذا الكشف فى شىء غير قليل من التحفظ والفتور بادئ الأمر . كان لا بد لهم لكى يعترفوا بهذا الكشف أن يروا هذا العنصر رأى العين وأن يختبروه فى مختبراتهم وأن يقرروا وزنه الذرى . . . وتسرب الملل واليأس إلى نفس بيير لكثرة ما يكتنف هذا العمل من عقبات ولعدم توافر المال حتى لقد فكر فى أن ينفض يده من الأمر كله ويعود إلى أبحاثه . . وأما مارى فلم تيأس ولم تبتئس بل واصلت العمل فى عزم وإصرار سنين أخرى حتى

تم لها النصر أخيراً وأمكنها أن تحصل على قدر ديسيجرام من عنصر الراديوم الصرف . . وكان ذلك عام ١٩٠٢ . . . وهنا أحنى العلماء رؤوسهم لماري وبيير كورى تقديراً لمجهودهما واعترافاً بفضلهما على العلم .

واعترفت الدوائر العلمية بهذا الفضل، ففى عام ١٩٠٣ منحتهم الجمعية الملكية بلندن وسام دافى . . وفى نفس العام أعلنت أكاديمية العلوم بمدينة استكهولم بالسويد أن جائزة نوبل للعلوم فاز بها مناصفة هنرى بيكيرل من ناحية ومارى وبيير كوري من الناحية الأخرى تقديراً لبحوثهم القيمة فى النشاط الإشعاعى .

وإشعاع الراديوم يفوق آلاف المرات إشعاع اليورانيوم . . وأشعته تخترق أعسر المواد وأكثفها . . وللراديوم قيمة طبية عظيمة . . فقد كان كشف هذا العنصر نعمة من نعم الله ساقها لعباده على يدى مارى سكلودفسكا البولونية الأصل تخفيفاً لآلام مرضى السرطان المساكين .

* * *

ولم تعد ظاهرة الإشعاع قاصرة على بعض العناصر دون الآخر ففى عام ١٩٤٣ أعلنت إيرين كورى Irene Curie ابنة مدام كورى بالاشتراك مع زوجها جلوليو Joliot أن العناصر

غير المشعة يمكن تحويلها إلى عناصر مشعة ودللا على ذلك بأن أطلقا جسيمات ألفا على عنصرى البورق والألومينيوم فتحولا إلى عنصرين مشعين وعندما أبطل إطلاق هذه الجسيمات استمر الإشعاع تماماً على نحو ما يحدث فى العناصر ذات الإشعاع الطبيعى . ! !

وقد أدى بحث إيرين وجوليو كورى إلى فتح ميادين واسعة من البحث ولجها العلماء فتوصلوا إلى نتائج باهرة تبشر بالخير العميم لبنى الإنسان فها نحن أولاء نسمع عن الكربون المشع أو صنف الكربون ١٤ الذى إذا أدخل فى غذاء النباتات تحت ظروف خاصة — أعطت هذه النباتات أحماضاً أو قلويات مشعة — حسب نوعها — وهى مواد فعالة جزيلة النفع فى علاج بعض الأمراض .

* * *

وهناك غير ما تقدم عشرات أخرى من العناصر المعدنية نذكر منها — باستثناء الشائع المعروف — الليثيوم والمنجنيز والفاناديوم والكروميوم والمغنسيوم والكوبالت والرابيديوم والأسترونيوم والمليبدينيوم والبالاديوم والكادميوم والتنجستن والأوزميوم والإيريديوم .

* * *

٤
العناصر الغير المعدنية

هناك طائفة من العناصر لا تمتاز بشكل ثابت فقد ترى العنصر الواحد منها فى جملة صور وهى كذلك لا تمتاز باللمعان المعدنى — باستثناء اليود إذا حسبناه من هذه الطائفة — وهذه العناصر الغير معدنية هشة فى الغالب لا تقبل السحب ولا الطرق ورديئة التوصيل للحرارة والكهربائية . وهى تنصهر وتغلى فى درجات حرارة واطئة بالنسبة للمعادن وأهم العناصر الغير معدنية الكربون والسليكون والفوسفور والكبريت والبروم واليود .

* * *

١ — السليكون

إذا تصورنا القشرة الأرضية وما عليها من حيوان ونبات وجماد صحيفة مربعة الشكل كان نصف هذه الصحيفة أوكسجيناً وربعها سليكوناً والربع الباقى يشمل بقية العناصر .

من هذا نرى أن عنصر السليكون كثير الانتشار فى الأرض

وهو لا يوجد فى الحالة العنصرية بل مركب مع غيره من العناصر فى كثير من الصور كالسليكا (أوكسيد السليكون) والرمل والطفل وحجر الصوان والإردواز . .

فى عام ١٦٦٠ أشار أوتو تاخينو O. Tachenius أن السليكا لها خصائص حامضية وفى عام ١٧٨٧ قال لافوازييه إن السليكا ما هى إلا أوكسيد لعنصر غير معروف حتى جاء جاى لوساك فكشف النقاب عن هذا العنصر الغير معروف وحضر السليكون بالاشتراك مع لويس ثينارد L. Thenard (١٨٠٩ – ١٨١١) وذلك بتسخين البوتاسيوم مع مركب فلوريد السليكون الغازى .

وللسليكون صورتان . الأولى مسحوق بنى اللون يشتعل بشدة فى الهواء أو الأوكسجين مكوناً السليكا أو أوكسيد السليكون .. والثانية بلورات تشبه المعدن فى شكلها . . ويستخدم السليكون فى عمل صلب مقاوم للأحماض بخلطه مع الحديد بنسبة النصف .

ومن أهم مركبات السليكون مركب كربيد السليكون . وهو ما يعرف بالكاربوراندوم ويستعمل لقساوته وشدة صلابته فى شحذ الآلات الحادة كما يستعمل فى قطع الزجاج وكشط المعادن . ثم السليكا أو الأوكسيد الثانى للسليكون وهو مركب كثير الانتشار فى الطبيعة بصور عديدة منها الصوان والكوارتز

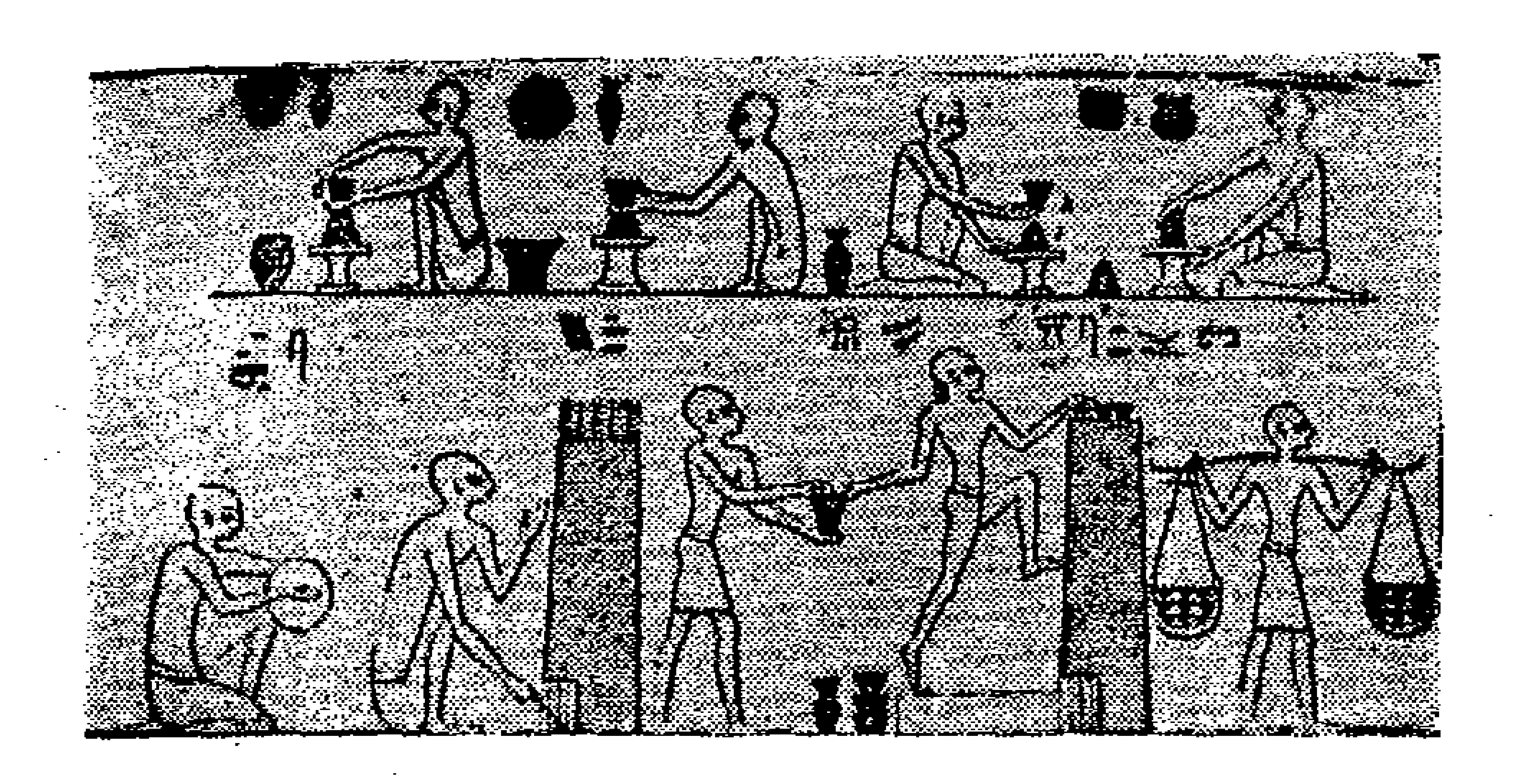
أو الصخر البلورى والرمل . ومن الكوارتز يصنع زجاج يعرف بزجاج السليكا ويمتاز هذا الزجاج عن غيره بأن معامل تمدده صغير للغاية لذلك فالأدوات التى تصنع منه لا تتأثر بالحرارة أو البرودة المفاجئة .

ومن المركبات أيضاً سليكات الصوديوم وسليكات البوتاسيوم وهذان المركبان أساسيان فى صناعة الزجاج .

وتستعمل السليكا فى صناعة الزجاج العادى والزجاج الكريستال ويصنع الزجاج العادى بصهر الرمل (إحدى صور السليكا) مع كربونات الصوديوم وأوكسيد الجير وكربوناته . . وتسهيلا لعملية الصهر يضاف إلى هذا الخليط نسبة معينة من قطع الزجاج القديم . . وينتج من صهر هذا الخليط سليكات الصوديوم وسليكات الجير مع فائض من السليكا . . والزجاج المجهز بهذه العملية يعرف بزجاج الصودا ويستخدم فى النوافذ ومنه تصنع الأنابيب الزجاجية والأوانى .

وتستعمل كربونات البوتاسيوم بدلا من كربونات الصوديوم فى العملية السابقة للحصول على زجاج أشد صلابة .

أما زجاج الكريستال الذى منه تصنع الأكواب والقنانى وأوانى الزهور فيصنع من خليط من الرمل وأوكسيد الرصاص الأحمر مع كربونات البوتاس . بينما تصنع الزجاجات العادية



صناعة الزجاج عند قدماء المصريين
(من آثار ببلدة بنى حسن يرجع تاريخها إلى
١٩٠٠ سنة قبل الميلاد)

من خليط من سليكات الصوديوم والجير والألومينيوم والمنجنيز والحديد . والحديد هو الذى يلون الزجاج باللون الأخضر فإذا أريد الحصول على زجاج أبيض استخدم الرمل الأبيض واستبعد الحديد تماماً من مركبات الخليط . ولما كان ذلك ليس بالشيء الهين فإن إضافة شيء من ثانى أوكسيد المنجنيز للخليط يزيل اللون الأخضر وذلك بالتعادل معه .

ويصنع زجاج النظارات وآلات النظر باستعمال مركبات خاصة فالزجاج المعروف باسم كروكس Crookes يدخل فى صنعه مركبات من النيودايميوم والبرازيودايميوم neodymium & paraseodymium التى تكسر الأشعة فوق البنفسجية .

وللحصول على زجاج ملون يضاف للخليط قبل صهره مقادير معينة من مركبات خاصة بنسبة تقل أو تزيد حسب عمق اللون المطلوب . فتستعمل مركبات الكوبالت للحصول على اللون الأزرق بينما تستعمل مركبات الذهب والنحاس للون الأحمر . وثانى أوكسيد المنجنيز للون البنفسجى ومركبات الكروم للون الأخضر ومركبات الأنتيمون والكادميوم للون الأصفر .

* * *

وصناعة الزجاج صناعة مصرية قديمة والفراعنة هم أول من اكتشفوها واشتغلوا بها وإن كان بلينى Pliny يزعم غير ذلك

فقد روى هذا المؤرخ الرومانى أن جماعة من التجار كانوا يستريحون تحت سفح جبل الكرمل بفلسطين وقد رست سفينتهم — وكانت محملة بتجارة من النطرون (كربونات الصودا المتجرية) على بعد حوالى نصف الميل من مجلسهم . . ولما شرعوا فى إعداد الطعام لم يجدوا فى الأرض الرملية صخوراً لكى يهيئوا بها وجاقاً ليضعوا عليه قدورهم . فذهب أحدهم إلى السفينة وحمل كتلا من الصودا وأعدوا الوجاق وأشعلوا النار . . وعملت النار فى الصودا فأذابتها وامتزجت بالرمل الذى انصهر أيضاً ورأى الناس سيالاً شفافاً يجرى عل الأرض بين أيديهم . . وهكذا اكتشف الزجاج .

وهناك أكثر من دليل على أن هذه الرواية لا نصيب لها من الصحة فمن الثابت أن الزجاج عرفه قدماء المصريين منذ عصور بعيدة . . فعلماء الآثار يقررون أن الزجاج اختراع مصرى أو على الأقل كانت صناعته راسخة فى البلاد ومنتشرة انتشاراً كبيراً أيام الفراعين الأولين شأنها فى ذلك شأن صناعة المعادن . . وقد اكتشفت فى مصر خُرزات من زجاج أخضر يرجع تأريخها إلى ٣٤٠٠ سنة قبل الميلاد أى قبل عهد الأسرات... كما يوجد فى المتحف البريطانى إناء زجاجى أزرق جميل يرجع تأريخه إلى عهد الملك تحتمس الثالث (١٥٥٠ سنة ق.م.)

وكانت مدينة تل العمارنة مركزاً هاماً لتلك الصناعة . وكان النطرون اللازم يستورد من البحيرات الملحة بالوجه البحرى .

ومن المحتمل أن تكون صناعة الزجاج قد عرفت منذ أزمان بعيدة فى بلاد سوريا وفى بريطانيا . غير أنه من الثابت أن الزجاج المصرى كان يصدر إلى سائر بلاد الإمبراطورية الرومانيـــة .

ومن الشعوب التى عرفت الزجاج وصناعته أيضاً السوماريون والأشوريون ففى المتحف البريطانى آنية زجاجية يرجع تأريخها إلى عهد الملك سرجون الأشورى (٧٠٠ سنة ق.م.) .

* * *

٢ ــ الفوسفور أو حامل النور

فى عام ١٦٧٤ كان براند الألمانى يجرى أبحاثه بغية الحصول على حجر الفلاسفة . . تلك المادة التى طالما داعبت أحلام الفلاسفة القدماء فكانوا يعتقدون أن لها فعل أشد من قوة السحر . . فهى التى تجلب الذهب . . وتهب الشباب الدائم والنعيم المقيم . . ومن العجيب أن براند راح يبحث عن الشباب

والسعادة فى الرجس والنجاسة . . وكان يبحث عن الحجر الموعود فى البول . . فعكف يجرى التجربة تلو التجربة غير مشمئز ولا متأفف . . وفى أثناء بحثه هذا توصل إلى استخلاص مادة عند امتحانها وجد أنها تنير فى الظلام فسماها الفوسفور ومعناها Light bearer حامل النور .

وقد حاول جوهان كانكل J. Kunckel (١٦٣٠–١٧٠٣) أن يشترى سر استخلاص الفوسفور وطريقة إعداده ولكن براند كان قد باعه إلى كرافت Krafft فعكف كانكل على إجراء التجارب حتى وفق أخيراً عام ١٦٧٨ إلى تحضيره .

وعرض كرافت الفوسفور فى إنجلترا ولمّح لروبرت بويل ببعض سر تحضيره فانبرى هذا للعمل فى البول يخمره ويقطره حتى تمكن آخر الأمر من تحضير عينة منه عام ١٦٨٠ وبذلك كان بويل ثالث من حضروا الفوسفور من البول وأول من نشر طريقة استخلاصه .

وحتى ذلك الحين لم يكن الفوسفور معدوداً من العناصر حتى أثبت ذلك لافوازييه عام ١٧٧٢ .

ومصادر الفوسفور الطبيعية هى الفوسفات – مركبات العنصر مع الكالسيوم والألومينيوم والحديد وغيرها . وتحتوى العظام على ⅗ وزنها فوسفاتاً (فوسفات كالسيوم) .

والفوسفور من العناصر الضرورية لمادة البروتوبلازم — وهى المادة الحية فى الحيوان والنبات .

ويحضر الفوسفور الآن من الفوسفات فتسخن هذه وتخلط بالرمل والفحم فى أفران كهربائية درجة حرارتها ١٤٠٠ — ١٥٠٠ فيتصاعد بخار العنصر فيكثف .

والفوسفور الناتج بعد التكثيف يكون مختلطاً بالشوائب فلتنقيته يصهر فى محلول محمض من بيكرومات الصوديوم فتتأكسد هذه الشوائب وتذوب فى المحلول أو تطفو على سطحه . تؤخذ بعد ذلك كتلة الفوسفور وتجفف .

والفوسفور سريع الاشتعال فقد يشتعل فى درجة الحرارة العادية لذلك يحفظ دائماً مغموراً تحت الماء .

ولهذا العنصر عدة صور أهمها الفوسفور الأصفر والفوسفور الأحمر والفوسفور الأسود . فأما الأول فيكاد يكون فى لون الشمع وشكله — وهو ما كان يسميه جابر بن حيان بالفوسفور الأبيض . كثافته ١.٨ وهو ينصهر فى درجة ٤٤.١ ويغلى فى درجة ٢٨٠ ، لا يذوب فى الماء ولكنه يذوب فى ثانى كبريتيد الكربون وزيت الزيتون والبنزين . وإذا وضعنا قطعة منه فى مكان مظلم صدر منها نور أخضر . وتفسير ذلك أن أبخرة تتصاعد من الفوسفور فتتأكسد ببطء بأوكسجين الهواء متحولة

إلى ثالث أوكسيد الفوسفور الذى عنه يصدر النور ثم يتحول هذا فيما بعد إلى الأوكسيد الخامس .

أما الفوسفور الأحمر فهو فى الأصل فوسفور أصفر عمل فيه الضوء أو عملت فيه الحرارة وهو يختلف عن الأول بأنه غير متماسك وكثافته ٢,٢ — لا يتوهج فى الظلام . وينصهر عند درجة ٥٩٠ ويغلى عند درجة ٧٤٠ وبخاره عند تكثيفه يتحول إلى بلورات من الفوسفور الأصفر .

والصورة الثالثة أو الفوسفور الأسود وكثافته ٢,٧ يحضر من الفوسفور الأصفر بعد ضغطه ضغطاً هائلاً تحت درجة ٢٠٠ مئوى .

* * *

ويجهز كل عام حوالى ٤٠ — ٥٠ ألف طن من الفوسفور ويستخدم الجزء الأكبر منه فى صناعة الثقاب (الكبريت) فرؤوس عيدان الكبريت تصنع من خليط من كلورات البوتاسيوم وأوكسيد الحديديك وثانى أوكسيد المنجنيز وبيكربونات البوتاسيوم — أو خليط من بعض المؤكسدات مع صمغ وغراء ومسحوق الزجاج وقليل من مادة الكبريت . وأما المادة التى تكون عادة على علب الثقاب والتى عليها تحك رؤوس الثقاب فمصنوعة من خليط من الفوسفور الأحمر وكبريتيك الأنتيمون

مع الصمغ . فعند عملية (الحك) تتولد حرارة تكون كافية لإشعال الفوسفور مع المواد المؤكسدة التي في رأس العود .

ومن فوائد الفوسفور أيضاً أنه يدخل في صناعة نوع من البرونز يعرف بالبرونز الفوسفوري وهو معدن قاسي شديد الصلابة يستعمل في شتى الأغراض الصناعية .

وللفسفور مركبات عديدة نذكر منها الهيدروجين المفسفر (الفوسفين) وحامض الفوسفوريك وخامس أوكسيد الفوسفور وخامس كلوريده . والمركبان الأخيران يمتازان بشدة ألفتهما للماء والاتحاد به ولذا يستعملان في تخفيف المواد عند تحضيرها سيما الغازات .

* * *

٣ – الكبريت

عرف الكبريت في الأزمان القديمة وذلك لانتشار رواسبه (في الحالة العنصرية) في جهات عديدة من المعمورة . . . فقد ذكره هوميروس في الأودسة ووصفه بأنه (بارئ الأسقام). نظراً لتأثير الغاز الناتج من احتراقه (ثاني أوكسيد الكبريت) في قتل الجراثيم . وقال عنه بليني إنه يزيل البثور من الوجه وأنه علاج لإسعاف لدغ العقرب . . . بينما قال بارثولوميو الإنجليزي

Bartholomew فى القرن الثالث عشر إن هناك أربعة أنواع من الكبريت ووصف واحد من هذه الأربعة بأنه خطير عاصف ملآن بالخبث . .

وقال السير توماس براون Sir Thomas Browne (١٦٠٥–١٦٨٢) إن الكبريت أو حجر الاشتعال مادة طبيعية مكونة من الدهن وأجسام أخرى قابلة للاشتعال . يستعمل إما خاماً كما يوجد فى الطبيعة وقد سماه فى هذه الحالة الكبريت الحى ولونه أصفر معتم . أو بعد تنقيته حيث يصفى لونه ويصبح أصفر فاتحاً .

والعرب عرفوه أيضاً وزعم كيميائيوهم على رأسهم ابن حيان أن جميع المعادن مركبات من الكبريت والزئبق . . وعرفوا فوائده الطبية واستخدموه فى علاج الكثير من الأمراض .

وفى القرن الثامن عشر – وفى عام ١٦٩٧ على التحديد زعم شتال E. Stahl أن الكبريت مركب من حامض الكبريتيك (وكان يعتبر من العناصر وقتذاك) ومن الفلوجستون (السعير أو مادة النار) Phlogeston وأن الكبريت عند احتراقه يطرد لهباً (هو فلوجستون متصاعداً) ويتخلف حامض الكبريتيك... وأن الفلوجستون إذا ما أمكن إضافته للحامض المذكور نتج الكبريت .

وظلت الأقوال تتضارب فى أمر الكبريت حتى جاء لافوازييه (١٧٤٣ – ١٧٩٤) فأثبت أنه مادة بسيطة وعنصر من العناصر .

ويوجد الكبريت صرفاً فى الطبيعة أو مركباً مع كثير من العناصر على هيئة كبريتيدات أو كبريتاتات ومن هذه المركبات كبريتيد الحديد (بيريت الحديد) وكبريتيد الرصاص أو (الجالينا) وكبريتيد الزئبق (الزنجفر) . . منها أيضاً كبريتات الكالسيوم (أى سلفاته) وهى الجبس والمصيص والألبستر – وكبريتات المغنسيوم (ملح إبسوم أو الملح الإنجليزى) وكبريتات الباريوم .

والكبريت كثير الوجود فى النبات فبروتين الفول والحمص والعدس تحتوى على أكثر من ٢ فى المائة منه . كما أن الرائحة (الخاصة) للبصل والثوم والخردل تعزى إلى احتواء هذه الثمار على مركباته .

وتحوى البروتينات الحيوانية . . والشعر والصوف على مقادير من هذا العنصر .

وأهم مصادر الكبريت فى هذه الأيام هى الولايات المتحدة الأمريكية فى ولايتى لويزيانا وتكساس فمن هاتين الولايتين يستخرج نحو ٨٠ فى المائة من إنتاجه فى العالم . وأما مصدره

القديم فكان إيطاليا خصوصاً جزيرة صقلية . . ويوجد الكبريت أيضاً فى المناطق البركانية وفى مياه الينابيع الطبيعية كمياه مدينة حلوان .

والكبريت فى درجة الحرارة العادية جامد سهل الانكسار . وأما لونه فكما هو معروف أصفر فاتح . . وهو عديم الطعم ولا رائحة له فالروائح التى ينسبونها إليه هى رائحة مركباته . . وأما إذا اشتعل تكون له رائحة خصوصية خانقة . وهو لا يذوب فى الماء ولكن يذوب فى الكلوروفورم والأثير والكحول وثانى كبريتيك الكربون .

ومما يتصف به هذا العنصر التكيف الغريب الذى تتشكل به صوره فهو لا يلبث على حالة واحدة بل تختلف صوره باختلاف الأحوال . فهو يرى فى الطبيعة على هيئة بلورات كبيرة جميلة والمظنون أنها تتولد بالتصعيد أى بعد انصهار الكبريت فى باطن الأرض وبرودته بالتدريج . . ومن صوره أيضاً البلورات ذات الشكل الثمانى التى يمكن تحضيرها صناعياً بتذويب قليل من الكبريت فى ثانى كبريتيد الكربون ثم ترك السائل يتبخر فتتولد البلورات المطلوبة وهى ذات ثقل نوعى ٢,٠٥ .

ثم هناك بلورات إبرية الشكل . وهى إبر طويلة شفافة

ثقلها النوعى ١,٩٦ ولها ثمانى زوايا ويمكن تحضيرها بصهر كمية من الكبريت فى بودقة ثم تركها تبرد فى درجة الحرارة العادية فيتولد على ظاهر الكتلة المنصهرة قشرة رقيقة إذا كسرت ظهر تحتها الكبريت فى باطن البودقة على هيئة إبر طويلة . . .

هذا وللحرارة فعل غريب فى الكبريت نبينه فيما يلى : —

ا — عند درجة ١١٤,٥ يذوب متحولا إلى سائل أصفر صاف ثقله النوعى ١,٨ يجرى فى الإناء الموضوع فيه فى يسر كما يجرى الماء . . وإذا سكب هذا السائل فى الماء تحول فى التو إلى جامد أصفر كما كان أولا . . وإذا ما ارتفعت درجة الحرارة أكثر من ١١٤,٥ تغير السائل الأصفر الصافى تدريجاً إلى سائل لزج بنى اللون .

ب — عند درجة ٢٠٠ يصبح لون السائل ضارباً إلى السواد ويصير قوامه شديد اللزوجة حتى أنه لا ينسكب إذا قلب الوعاء .

جـ — عند درجة ٣٢٠ يعود الكبريت اللزج إلى حالة السيولة غير أنه إذا سكب فى الماء هذه المرة تحول إلى مادة كالعجين لونها بنى — قليلة الذوبان فى ثانى كبريتيد الكربون ولشدة لينه يسهل سحبه خيوطاً . . ولكن هذه المادة الطرية لا تلبث أن تعود إلى صورة الكبريت المعتاد . أى تأخذ القوام الجامد واللون

الأصفر وتصير هشة سهلة الانكسار وتذوب فى كبريتيد الكربون الثانى .

د ــ عند درجة ٤٥٠ تتصاعد أبخرة حمراء قاتمة كثافتها ٩٦ بالنسبة لكثافة الهيدروجين .

هـ ــ وإذا ما ارتفعت الدرجة إلى ٨٦٠ تصير كثافة البخار المتصاعد ٣٢ أى أن جزىء العنصر فى هذه الحالة الغازية وفى هذه الدرجة من الحرارة يكون محتوياً على ذرتين فقط كسائر الغازات . . . غير أنه يمكن الحصول على بخار كبريت كثافته ١٦ أى أن الجزىء يحتوى على ذرة واحدة فقط وذلك إذا ما ارتفعت درجة الحرارة إلى ٢٠٠٠ مئوى .

* * *

وكان العرب يعرفون ما يسمى بلبن الكبريت وهو مركب استخدمه شيخهم جابر ومن جاء بعده فى علاج بعض الأمراض ــ ويحضر بغليان جزئين من الكبريت الزهر مع ١٣ جزءاً من الماء وجزء من الجير الرائب فيتولد من ذلك مذوب أحمر يحتوى على خامس كبريتيد الكالسيوم الذى ينحل بإضافة حامض الهيدروكلوريك له فيتصاعد الهيدروجين ويتخلف مسحوق أبيض هو لبن الكبريت .

ومن صفات الكبريت الهامة ميله الشديد للاتحاد بالعناصر

فهو يتحد مع أغلبها بدون وساطة . . . ومن مركباته ما يلى :—

١ — الهيدروجين المكبرت — أهم مركبات العنصر مع الهيدروجين — غاز حلو المذاق كريه الرائحة (له رائحة البيض الفاسد) — سام خطر على الصحة وخير ترياق للمصاب باستنشاقه غاز الكلور فيحضر هذا بذر مسحوق هيبوكلوريت الكالسيوم أو (مسحوق التبييض) على خرقة مبللة بحامض الخليك أو الخل وتقرب من أنف المصاب ليستنشق الكلور المتصاعد . ويتحد الهيدروجين المكبرت بالمعادن ويكون أملاحاً تعرف بالكبريتيدات .

٢ — كلوريد الكبريت الأول — أهم مركبات الكبريت مع الكلور — سائل أصفر اللون كريه الرائحة له قدرة عجيبة على تذويب الكبريت بسهولة فى درجة الحرارة العادية . ومحلوله كثيف يحتوى على حوالى ٦٠ فى المائة من الكبريت . . ويستعمل فى الكثير من الصناعات منها صناعة الأحذية الكاوتشوك .

٣ — ثانى أوكسيد الكبريت — غاز عديم اللون خانق كريه الرائحة . يوجد فى مقذوفات البراكين والينابيع البركانية ويحضر بإشعال الكبريت فى الهواء أو فى الأوكسجين الصرف . أو بفعل بعض المعادن كالنحاس أو الفضة فى حامض الكبريتيك

أو بتسخين مزيج من الفحم وحامض الكبريتيك على أن الغاز المحضر بالطريقة الأخيرة يكون ممتزجاً بثانى أوكسيد الكربون . وهذا الغاز عرفت فوائده منذ أزمان بعيدة واستعمل فى أغراض التبخير وتطهير الثياب . ومن أهم صفاته قدرته العظيمة على إزالة الألوان العضوية . ويشاركه فى هذه الخاصية مذوبه فى الماء وهو ما يعرف بحامض الكبريتوس لذلك كان هذا الأخير كثير الاستعمال فى صناعة تبييض الحرير والصوف والقش والإسفنج (وكلها تتلف إذا ما بيضت بالكلور) فهى لا تتلف إذا ما بيضت بهذا الحامض أو بأوكسيده .

ومن صفات هذا الأوكسيد أيضاً قدرته على إيقاف الاختمار والفساد ومنع نمو الجراثيم الحيوانية والنباتية وتكاثرها . لذلك يعتبر ضمن المواد المضادة للفساد ويستعمل فى تطهير البراميل والأوعية الخشبية قبل حفظ السوائل بها .

٤ ــ حامض الهيبوكبريتوس ــ سائل أصفر قاتم فعله أسرع وأقوى من أوكسيد الكبريت الثانى وحامضه فى تبييض المواد العضوية وإزالة ألوانها . ويستعمل مركبه مع الصوديوم (هيبوكبريتيت الصوديوم) فى الصباغة والنقش على القماش .

٥ ــ حامض الكبريتيك ــ حامض من أهم الحوامض وأنفعها . . فهو الوساطة فى تحضير معظم الحوامض الأخرى . .

ويكاد يكون من أهم دعائم الصناعة فى هذا الزمان وأكثرها شيوعاً إذ قلما توجد صناعة لا تحتاج إليه من قريب أو من بعيـــد . .

وهذا الحامض كان معروفاً عند العرب وكانوا يسمونه (زيت الزاج) ولكنه لم يكن فى ذلك الزمان على ما هو عليه الآن من النقاء ويقال إن أول من وصف طريقة تحضيره من الشب الأخضر وصفاً دقيقاً مفصلا هو فالنتين الذى بين أنه يتولد من احتراق الشب الأخضر (كبريتات الحديد) بعد مزجه بحامض قوى .

ويقال أيضاً إن الطبيب وارد المعروف بالدجال ابتدع طريقة لتحضير هذا الحامض احتكرها لنفسه فترة من الزمن .. وتتلخص هذه الطريقة فى أنه وضع فى إناء حديدى خليطاً من الكبريت وملح البارود . وسخن الوعاء لدرجة الاحمرار . . وقد جعل هذا الإناء الحديدى يرتكز على قاعدة من الفخار موضوعة فى إناء زجاجى به قليل من الماء . . وبعد إحماء الوعاء الذى به الخليط غطى الجهاز كله منعاً لتسرب البخار الذى امتصه الماء وصار بفضله حامضاً قوياً هو حامض الكبريتيك . .

* * *

ومن الطرق الحديثة لتحضير هذا الحامض الآن بكميات

هائلة للتجارة – أكسدة ثانى أوكسيد الكبريت في حجرات كبيرة من الرصاص . . وأهم مصادر تحضير ثانى أوكسيد الكبريت بيريت الحديد ومواطنه إسبانيا و بلجيكا وفرنسا وقبرص. ويتراوح ما ينتجه العالم اليوم من حامض الكبريتيك بين ٢٠ إلى ٢٥ مليون طن فى العام .

ويمتاز الحامض بثقله وقوامه الزيتى . . وهو خطر يقرح الجلد إذا أصابه . . ولشراهته فى الاتحاد بالماء تتولد حرارة عند امتزاجهما تزيد عن درجة الغليان وقد تسبب كسر الآنية التى بها المزيج إذا كانت من الزجاج . . وهو يؤثر فى جميع المعادن تقريباً ما عدا الذهب والبلاتين – غير أنه إذا خلط بحامض النيتريك (الأزوتيك) كان مزيجهما (الماء الملكى) قادراً على تذويب الذهب وإذا خفف المذوب بالماء انفصل ما ذاب من الذهب على هيئة مسحوق أرجوانى .

وبعد فالكبريت ومركباته من المواد الجزيلة النفع العميمة الفائدة . . وقد عرفه الإنسان واستخدمه فى الأزمان القديمة . . واليوم تقوم عليه صناعات لا تدخل تحت حصر نذكر منها صناعة حامض الكبريتيك – عماد كل الصناعات تقريباً – وصناعة الثقاب والمفرقعات كما تستخدم فى صناعة بعض أنواع من المطاط وفى بعض أغراض طبية . . ومرهم الكبريت شائع

معروف وهو يستعمل فى علاج الجرب وبعض الأمراض الجلدية .

* * *

٤ — البروم واليود

سبق الإشارة — فى ختام الكلام عن عنصر الكلور — أن عناصر الفلور والكلور واليود والبروم تكون مجموعة تعرف بالمجموعة الهالوجينية أى مولدات الملح . وهى عناصر تتشابه مركباتها مشابهة عظيمة فى الخصائص والصفات . فكل واحد من هذه الأربعة يتحد بالهيدروجين بنسبة جوهر منه إلى جوهر من الهيدروجين ويتولد من هذا الاتحاد حامض قوى ذواب فى الماء وكل حامض من هذه الحوامض يولد باتحاده مع المعادن ملحاً يشابه الملح المتولد من الآخر فى وجوه عديدة كالتشابه بين كلوريد البوتاسيوم ويوديده وبروميده . وكالتشابه بين الأملاح جميعها بتركيبها من عنصرين أحدهما معدنى والآخر غير معدنى وبخلوها من الأوكسجين . وبكونها جوامد بلورية ملحية الطعم .

وقد سبق الكلام عن عنصرين من هذه العناصر مولدات

الملح هما الفلور والكلور . وفى السطور التالية نسوق الحديث عن البروم واليود .

* * *

من المستنقعات الملحية القريبة من منتبيلييه Montpellier بفرنسا أخذ بالار Balarad الباريسى ١٨٢٦ بعض الماء وحضر منه بلورات من الملح . . ولما مرر بالار تيار من غاز الكلور فى السائل المتخلف لاحظ تلون السائل بلون أصفر قاتم فبخر هذا السائل ثم عالج الرواسب التى تخلفت بعد البخر بتسخينها مع ثانى أوكسيد المنجنيز وحامض الكبريتيك القوى فحصل على سائل أحمر قاتم له رائحة قوية نفاذة ممقوتة . وسمى بالار هذا السائل الأحمر « الموارايد » muride.

وعرف هذا الموارايد بأنه عنصر وعرف أنه يشبه الكلور والفلور واليود فى توليده الملح فاعتبر ضمن مجموعتهم وتغير اسمه من الموارايد إلى البروم نسبة إلى رائحته الكريهة فكلمة Bromos كلمة يونانية معناها رائحة كريهة .

والبروم كثير الانتشار فى الطبيعة غير أنه لا يوجد فى الحالة العنصرية الصرفة فيوجد فى ماء البحر — سيما مياه البحر الميت — على هيئة بروميدات الصوديوم والبوتاسيوم والمغنسيوم كما أن بعض مياه الينابيع الملحة كالتى توجد بالقرب من

ولايتي أهيو وميشجان بأمريكا . وكذا بعض الرواسب الملحية كالتي توجد بالقرب من ستاسفورت تحتوى على نسبة من هذه البرميدات ويوجد البروم أيضاً بنسبة قليلة فى الأعشاب البحرية فرماد هذه الأعشاب يحتوى على ٠,٧ فى المائة منه .

والبروم سائل أحمر قاتم ثقيل يزن السنتيمتر المكعب منه ٣,١٢ من الجرام . . والبروم والزئبق هما العنصران السائلان فى درجتي الضغط والحرارة العاديتين . . على أن البروم وإن كان يغلى فى درجة ٥٩ إلا أنه سريع التطاير وبخاره الأحمر سام ممقوت خانق يؤذى العين ويهيجها . . والسائل إذا أصاب الجلد أحدث آلاماً مبرحة وحروقاً بليغة . . ولعلاج حروقة يغسل الجزء المصاب بمحلول مخفف من بيكربونات الصوديوم ثم بالكحول وأخيراً بمحلول من حامض التنيك .

والبروم قليل الذوبان فى الماء كثيره فى الكلوروفورم وكلوريد الكربون الرابع وكبريتيد الكربون الثانى والبنزين . . وهو يشبه الكلور فى قدرته على قصر الألوان .

ومركبات هذا العنصر على جانب عظيم من الأهمية فى الطب والصناعة — وأهم مركباته المستعملة فى الطب بروميدات البوتاسيوم والصوديوم والألومينيوم .. . كما أن برميدات الفضة والكادميوم تستعمل فى صناعة التصوير الشمسى . . وهناك

بعض مركبات منه تستعمل فى الصباغة .

* * *

فى عام ١٨١١ كان برنارد كورتوا الفرنسى B. Courtios يجهز – كعادته ملح الصخر (نترات الصوديوم) من رماد الأعشاب البحرية التى جمعها من سواحل نورماندى وبريتانى فأحرق كورتوا هذه الأعشاب وبينما هو يعالج السيال المتخلف بحامض الكبريتيك القوى دهش إذ لاحظ غيوماً بنفسجية اللون عند تبريدها تحولت إلى بلورات لماعة رصاصية اللون . وكان كورتوا كيميائياً ماهراً امتحن هذه المادة الجديدة وعرف الكثير من خواصها وانتهى من امتحانه لها بأنها ربما كانت عنصراً . . وحالت مشاغل كورتوا وأعماله العديدة دون التحقق من إثبات ذلك . . فكلف اثنين من الكيميائيين الفرنسيين هما كليمنت وديسورم Clément & Désorme لاستئناف البحث وتقصى هذه المادة الغريبة . . وفى عام ١٨١٣ نشرا نبذة عما توصلا فى بحثهم وتقصيهم . . . ثم تتابعت أبحاث بعد ذلك قام بها دافى وجاى لوساك فتحقق لهما أن هذه المادة بسيطة فضمت إلى قائمة العناصر وسميت يوداً نسبة إلى لون بخارها البنفسجى . . ذلك اللون الذى فضح أمر هذا العنصر وساعد على اكتشافه . ومعنى يود باللغة اليونانية بنفسجى . .

وظل هذا العنصر معدوداً من جملة المواد العجيبة عدة سنوات ... وكان استعماله قاصراً على بعض الأعمال الكيميائية .. وعند ما أخذ الأطباء ينسبون ما فى الإسفنج من الخواص الطبية النافعة لعلاج بعض الأمراض إلى وجود اليود فيه — كثر طلبه وشاع استعماله خصوصاً بعد أن عرفت فوائده فى صناعة الفوتوغرافيا .

وعنصر اليود لا يوجد صرفاً فى الطبيعة . . وماء البحر يحتوى مقادير قليلة منه كما يحتوى ملح نترات الصوديوم الذى يستخرج من بلاد شيلى على جزئين بالوزن من يوديد الصوديوم فى كل ألف جزء . . . والأسماك والمحار والإسفنج والأعشاب البحرية تحتوى أيضاً على مقادير من اليود .

ويحضر اليود إما من نترات البوتاسيوم الشيلى (وهى أهم مصادره) أو من الأعشاب البحرية التى تجلب من شواطئ إيرلندا واسكتلندا والشمال الغربى لفرنسا .

واليود جامد حرشفى القوام يلمع لمعاناً معدنياً . . أما لونه فرصاصى قاتم . وهو يصبغ الجلد إذا وقع عليه . ثقله النوعى ٤,٩ يسيل فى درجه ١١٥ فإذا ارتفعت الحرارة إلى حوالى ٢٠٠ تحول إلى بخار بنفسجى جميل . . . وبخاره أثقل من الهواء بحوالى تسعة أضعاف . . وطعم اليود مر نوعاً وأما رائحته فخفيفة

تذكرنا برائحة الكلور . . وهو قليل الذوبان فى الماء — يذوب بنسبة ٠,٢٩ من الجرام فى اللتر . . أما الكحول والبنزين والأثير والأسيتون وثانى كبريتيد الكربون فسوائل تذيب اليود بسرعة . . ومذوبه فى السائلين الأولين له لون بنى قاتم وأما فى السوائل الباقية فبنفسجى .

ومن أهم صفات اليود تلوين مذوب النشا لوناً أزرق جميلا كما يظهر ذلك فى فعل بخاره فى حبيبات النشا . . وينتفع بهذه الخاصية فى الكشف عن اليود .

وإنتاج العالم من اليود يقدر بحوالى ١٥٠٠ طن فى السنة ويستغل الجزء الأكبر من هذا الإنتاج فى الأغراض الطبية وصناعة العقاقير . . كما يستغل جزء منه فى الصناعة ففوائده فى التصوير الشمسى وفى الصباغة لا تنكر . . ومحلوله مطهر معروف وقاتل للجراثيم ويحضر المحلول المعروف بصبغة اليود بإذابة اليود مع يوديد البوتاسيوم فى قدر قليل من الماء ثم يخفف المذوب بكحول نقى درجة ٩٠ فإذا كانت نسبة اليود فى المحلول ١٠ جرامات لكل ١٠٠ سنتيمتر من الكحول سمى بالمحلول الثقيل أو القوى Liquor iodi forti وإذا كانت نسبة ٢,٥ من الجرام لكل ١٠٠ سنتيمتر من الكحول سمى بالمحلول الخفيف أو الضعيف Liquor iodi mitis وهناك ما يعرف

بالصبغة الفرنسية أو صبغة اليود البسيطة Liquor iodi simpley وهى تحتوى على ٩ جرامات من اليود المذاب فى ١٠٠سنتيمتر من الكحول الذى درجته ٩٥

* * *

واليود من المواد اللازمة للجسم ففى بعض البلاد يضيفونه إلى ماء الشرب كما أن بعض الناس فى بريطانيا يستعملون ملح الطعام مضافاً إليه مقادير مناسبة من مركبات اليود .

هذا وقد أثبتت التجارب أن اليود إذا ما أدخل فى طعام الدجاج أنتج بيضاً أكثر من المعتاد . . كما أن الماشية والأغنام إذا ما عولج طعامها به درت الأولى لبنا وفيراً وأعطت الثانية مزيداً من الصوف .

الباب الثالث

الكربون

١ — هذا العنصر

فى أواخر القرن الثامن عشر سجلَ التاريخ ثورتين . . الثورة الأمريكية . والثورة الفرنسية . وفى هذه الفترة بالذات . . وعندما كان توماس جيفرسون يحرر صلك الحرية فى فيلادلفيا . . وكانت الملكة أنطوانيت تفقد رأسها تحت سكين المقصلة فى باريس باسم الحرية والإخاء والمساواة . . فى هذه الفترة بالذات قامت ثورة من نوع آخر لها من الأهمية ما لهاتين الثورتين . . ثورة علمية أطاحت بالقديم من المعتقدات والنظريات العلمية الفاسدة . . وهب الكيميائيون يقيمون دعائم علمهم على أساس من الحقائق متين . . وأضحت الكيمياء علماً له من القواعد والأصول ما لغيره من العلوم .. . ولم تعد فناً من فنون الحيل والشعوذة والمعتقدات الباطلة .

وكان زعيم هذه الثورة هو أنطوان لافوازييه . . الكيميائى الفرنسى الذى كافأته حكومة الشعب . . لما أسداه للعلم من

جليل الخدمات . . بالاتهام بالإلحاد والعمل ضد الشعب . .
وقدمت رأسه إلى المقصلة التى لا تشبع من الدماء ولا ترتوى .
فنى الوقت الذى قام فيه واشنجتون فى أمريكا يجمع شمل
ولاياتها وينادى باتحادها . . كان لافوازييه فى فرنسا يجرى
تجاربه على المركبات يفكك أواصرها ويعيدها إلى عناصرها
الأولية . . فتزعم مدرسة الكيميائيين الحديثة ونادى بأن المواد
المختلفة لا يمكن دراستها دراسةوافية. ولا معرفةخصائصها الكيميائية
إلا بعد معرفة تركيبها . . ومن أمثلة ذلك أنه اختبر السكر وبين
أنه يتركب من ثلاثة مواد جوهرية هى الكربون والهيدروجين
والأوكسجين . . وأن هذه الثلاثة تتحد فى السكر بنسبة
ثابتة لا تتغير أبداً .

والآن يوجد فى الطبيعة ما يزيد عن التسعين عنصراً . .
وهذه العناصر هى الأساس فى تكوين كل ما يقع تحت
حواسنا من ماديات . . وذلك باتحادها مع بعضها اتحاداً
بسيطاً أو معقداً بنسبة ثابتة تختلف باختلاف المواد كاتحاد
عنصرى الصوديوم والكلور لتكوين ملح الطعام . . واتحاد
عناصر البوتاسيوم والكروميوم والأوكسجين لتكوين الملح
المعروف ببيكرومات البوتاسيوم . . غير أن هناك عنصراً واحداً
من هذه العناصر له قوة اتحادية معقدة جبارة . . إذ تزيد

عدد مركباته المعروفة الآن عن نصف مليون مركب . . ويكاد هذا العدد يفوق عدد المركبات التي تنتجها بقية العناصر .

وهذا العنصر هو الكربون . .

وهو الذى يوجد فى كل الكائنات الحية نباتية كانت أو حيوانية . .

وهو الذى قال عنه أرمسترونج H. E. Armstrong إنه العنصر الذي تسير معه الحياة جنباً إلى جنب . .

والمواد المشتقة من الكائنات الحية ـ نباتية أو حيوانية ـ تعرف بالمواد العضوية Organic substances وقد عرف الكثير من العمليات الكيميائية العضوية منذ أزمان بعيدة فكان قدماء المصريين يصنعون النبيذ من عصير العنب ويستخلصون الزيوت والدهون من الحيوان والنبات .

والكحول ـ وهو من المركبات العضوية ـ عرف منذ القرن الثانى عشر فقد ورد ذكره فى مخطوط يرجع تأريخه إلى ذلك القرن . . ومما ورد فى هذا المخطوط ما يلى :ـ

« عند خلط النبيذ النقى القوى بقدر من الملح وتسخين الخليط فى آنية مناسبة لهذا الغرض نتج (ماء) قابل للاشتعال . »

فهذا (الماء) القابل للاشتعال هو السائل الذى نعرفه الآن باسم الكحول . . والذى أطلق عليه هذا الاسم هو براسيلسوس

Paracelsus (١٤٩٣ – ١٥٤١) .

ومن المركبات العضوية التى عرفت قديماً أيضاً الصابون الذى كان يجهز بإحماء زيت الزيتون أو شحم الغنم لدرجة الغليان مع محلول من رماد بعض النباتات (القلى) أى كربونات الصوديوم أو البوتاسيوم . . كما عرفت بعض الأصباغ وبعض العطور والسموم وكلها من مركبات الكربون . . هذا ويقولون إن الأثير – ذلك السائل الطيار – الذى يستعمل فى التخدير والتطهير وشتى الأغراض الأخرى عرف فى القرن الخامس عشر . والذى اكتشفه هو بازيل فالنتين . . غير أن هناك ما ينفى هذا القول إذ أن فالنتين هذا لم يعش فى ذلك القرن بل بعده . . لأن الكتب المنسوبة إليه كتبت فى القرن السابع عشر .

وهذا الزعم – صح أو بطل – إن دل على شىء فإنما يدل على أن الكثير من مركبات الكربون العضوية قد عرفت فى الأزمان القديمة .

وفى أواخر القرن الثامن عشر نجح كارل وهلم شيل فى استخلاص بعض المركبات العضوية من مصادرها الأصلية فحصل على حامض الطرطريك من العنب وعلى حامض الجاويك (البنزويك) من صمغ الجاوى . . كما اكتشف

مركب الاسيتالديهايد العضوى واستخلص الجلسرين . .
وحصل على حامض اللبنيك من اللبن الحامض . . وفى السنتين
الأخيرتين من حياته وجه أبحاثه لتحضير حامض الأكساليك
بأكسدة السكر واستخلاص حامضى الستريك (الليمونيك)
والمليك (التفاحيك) من الليمون والتفاح . . غير أن الفضل
فى معرفة كنه هذه المركبات واستجلاء سرها يرجع إلى
لافوازييه مؤسس المدرسة الحديثة وصاحب نظرية الاحتراق
الذى بين أن الحياة عبارة عن عملية احتراق بطيئة . وأظهر
العمل الأساسى الذى يقوم به عنصر الكربون مع الأوكسجين
فى الحياة الحيوانية والنباتية . . والذى أثبت — بحرقه الكثير
من المركبات العضوية التى كانت معروفة فى أيامه — أن
هذه المركبات تتكون من اتحاد الكربون والهيدروجين فقط .
أو مع بعض عناصر أخرى كالأوكسجين والأزوت
بنسبة ثابتة تختلف باختلاف هذه المركبات .

٢
الكربون والحياة

وصف أرمسترونج الكربون بقوله :ـ

« يقف عنصر الكربون كالكوكب المضيء وسط سر الحياة الغامض »

والحياة سر أزلى حار الأقدمون والمحدثون في معركة كنهه واستجلاء غوامضه . . فما نعرف من أمر الحياة سوى مميزاتها ومظاهرها التى تبين لنا الفرق بين الكائنات الحية والجمادات . . فمن مميزات الحياة الحركة . . وحركة الكائن الحى ليست كحركة الجماد بل هى حركة تتطلبها ضروريات الحياة وعوامل البقاء . . ومن مميزاتها أيضاً التغذية . . والكائن الحى — على اختلاف أنواعه — يأخذ الأغذية إلى داخل جسمه ويطلق عليها شتى العصارات والخمائر فتفعل هذه فى الأغذية فعلا كيميائياً يتولد عنه طاقات عديدة يستفيد منها الكائن الحى فى نموه وأوجه نشاطه المختلفة . . فمن هذه الطاقات ما يمد الجسم بالحرارة ومنها ما يمده بالقدرة الآلية وغير ذلك من

الطاقات الأخرى . . وهذا هو الفعل الكيميائى الذى وصفه لافوازييه بأنه عملية احتراق بطىء . . .

وكل كائن حى – بسيط كان أو معقد – يتكون من وحدات أساسية تعرف بالخلايا . . وهذه الخلايا تحتوى على مادة الحياة . . تلك المادة التى عجز العلماء حتى الآن عن استجلاء سر تركيبها . .

وتتكون مادة الحياة هذه من مركبات عضوية هى الهيدروكربونات والشحوم والبروتينات . . والمركبان الأولان عناصرهما الكربون والهيدروجين والأوكسجين . . أما البروتينات فأكثر منهما تعقيداً إذ يدخل ضمن تركيبها عناصر الأزوت والكلور والكبريت والصوديوم والبوتاسيوم والكالسيوم والمغنسيوم والفوسفور والحديد . . ولقد حاول الكثير من العلماء أمثال إميل فيشر F. Fischer وشتزنبرجر Schutzenberger وغيرهما تحضير هذه المادة الحية بعمليات بنائية تكوينية Synthesis ولكن مساعيهم ذهبت سدى وذلك لعدم توصلهم إلى معرفة تركيبها الكيميائى المعقد بالضبط . . فجزئيات هذه المادة صغيرة متناهية فى الصغر وتتكون من عدد هائل من الذرات فمن أمثلة ذلك أن اليحمور (المادة الملونة فى الدم) وهو من البروتينات البسيطة التركيب يحتوى الجزىء الواحد منه

على ما يزيد عن ٦٠٠ ذرة كربون وأكثر من ١٠٠ ذرة هيدروجين وما يقرب عن ٢٠٠ ذرة أوكسجين وأزوت . .

وتكوين المواد العضوية أى الكربونية من عمل الأجسام الحية أى أنه لا يتم إلا بوساطة القوى الحيوية vis vitalis فى الأعضاء الحية للحيوان والنبات . . وكان الاعتقاد السائد حتى أواخر القرن الثامن عشر أن مثل هذه المركبات لا يمكن بناؤها فى المعمل بطرق تكوينية إلا أن بعض الكيميائيين توصلوا إلى صنع بعضها مثل حامض الأكساليك وحامض النمليك (يوجد فى النمل) . . على أن هذه المركبات العضوية التى صنعت صنعاً كانت نقطة البدء فى تحضيرها مواد عضوية أخرى . . وأن أحداً لم يتوصل إلى صنع مركبات عضوية من مواد غير عضوية صرفة . . فالقول بأن مركب البولينا الذي حضره فوهلر Wohler فى معمله عام ١٨٢٨ من سيانات النوشادر قد زعزع الاعتقاد بضرورة توسط القوى الحيوية فى تكوين المركبات العضوية . قول على شيء غير قليل من الخطأ لأن السيانات نفسها تحضر من مصادر عضوية كالحوافر والقرون ..

وكان تحضير مركبات الكربون فى المعمل فتح له خطره فى ميدان العلم قام عليه فرع جديد فى الكيمياء له دراساته الخاصة وأبحاثه المستقلة . . ويعرف هذا الفرع بالكيمياء

العضوية أو كيمياء المواد التى يدخل الكربون فى تكوينها . . .
ومن العلماء الذين لهم الفضل فى التوسع فى دراسات مركبات الكربون العالم فريدريك أوجست كوكلى A F. Kekulé الذى بين خاصية هذا العنصر فى اتحاد ذراته بعضها ببعض على هيئة سلسلة مفتوحة أو مقفلة مكوناً بذلك مركبات لا يكاد يحصيها العد .

ولندع كوكلى يصف لنا كيف تواردت هذه الفكرة إلى خاطره أثناء وجوده بلندن :—

قال الأستاذ جاب Prof. Japp عام ١٨٩٨— قال كوكلى :

« كنت عائداً إلى دارى فى ليلة صيف صافية فى آخر سيارة للركاب . . وكانت السيارة تجتاز شوارع لندن المقفرة فى تلك الساعة المتأخرة من الليل . . وما هى إلا لحظات حتى أخذتنى إغفاءة رحت بعدها فى ما يشبه الحلم . . ورأيت فيما يرى الحالم الذرات تتراقص أمام عينى . . وكانت هذه الأجسام المتناهية فى الدقة فى حركة دائمة . . وكنت قبل ذلك أعرف أن الذرات تتحرك غير أنى لم أك قادراً على تمييز حركاتها . . والآن وأنا فى غيبوبتى هذه رأيت كيف يتحد ذرتان صغيرتان ببعضهما .. وكيف يتكرر هذا الاتحاد وينضم كل زوج بالآخر فى سلسلة لا نهاية لها . . » .

* * *

وفى العصر الحاضر ازدهر هذا الفرع من العلوم ازدهاراً كبيراً . . وباتت الكيمياء حيوية وغير حيوية تتغلغل فى كل ناحية من نواحى حياتنا فى السلم وفى الحرب على السواء .

٣
صور الكربون

عرف الإنسان الكربون منذ معرفته للنار . . عرفه فى صورتى الفحم النباتى والسناج (السخام أى الهباب) . . والفحم النباتى والسناج مادتان يتخلفان من احتراق الحطب وأغصان الشجر . . ويقولون إن الرومان كانوا يصنعون السخام بحرق المواد الراتنجية أو الصمغية ويستعملونه فى عمل الحبر وبعض الأصباغ Resin والبويات . . والماس وهو أنقى صور الكربون عرف أيضاً منذ الأزمان القديمة رغم ندرته فى العالم باستثناء الهند . . فقد وصفه بلينى بأنه بلورات شفافة عديمة اللون لها زوايا ست . . سطوحها لماعة تنتهى على شكل هرم محدد الرأس أو على شكل هرمين كثيرى السطوح لهما قاعدة مشتركة . . وقال أيضاً إن قطع الماس الصغيرة تستعمل بمعرفة الحفارين وصانعى الحلى

فى أغراض شتى . وذلك لما للماس من قدرة كبيرة على خدش معظم المواد مهما كانت صلابتها . .

وفى عام ١٦٠٤ عرف دى بوت De Boot الماس بأنه مادة كبريتية نارية وبعده بقرن من الزمان وصفه السير إسحق نيوتن Sir Isaac Newton بأنه مادة قابلة للاشتعال.. ثم جاء أفيرانى Averani فأجرى حرق قطعة من الماس أمام الدوق كوزمو الثالث دوق توسكانى . . وفى عام ١٧٧٥ بين لافوازييه أن ناتج احتراق الماس النقى هو الكربون الصرف . . وأثبت تينانت Tennant ذلك أيضاً عام ١٧٩٧ ،وفى عام ١٨١٤ قال دافى إنه ما دام ناتج احتراق الماس هو ثانى أوكسيد الكربون . . فالماس كربون صرف . . وما ناتج الاحتراق هذا سوى الكربون الذى هو فى صورة الماس متحداً مع أوكسجين الهواء عند الاحتراق .

وفى عام ١٨٠٠ كان ماكنزى Mackenzie قد أثبت أن مادة الجرافيت — مثل فحم الخشب والسناج والماس — صورة من صور الكربون العديدة .

وهناك صور أخرى للكربون نذكر منها فحم الكوك والفحم الحجرى والفحم الحيوانى وفحم المعوجات .

* * *

الفحم النباتى — أو فحم الخشب . . ونحصل عليه بحرق الخشب فى قدر محدود من الهواء أو بتقطيره تقطيراً إتلافياً . . وهو مادة مسامية لها القدرة على امتصاص الغازات والسوائل الطيارة والمواد الملونة . . وهذا الفحم إذا عولج ببخار الماء الساخن — تحت ظروف خاصة — تحول إلى ما يعرف بالكربون النشط أو الكربون الفعال . . والكربون النشط المجهز من فحم قشر جوز الهند يستعمل فى الكمامات الواقية من الغازات السامة وفى بعض الأغراض الكيميائية . .

السناج — أو السخام أو النيلج . . كربون فى صورة مسحوق ناعم . . الصنف المتجرى منه يكون — عادة — مختلطاً ببعض الغازات والزيوت . . غير أن تحضيره على درجة كبيرة من النقاء ميسور للغاية . . ويصنع هذا النوع من الكربون بحرق البترول أو النفتالين أو الغاز الأسود (الخام) أو المواد الكربونية الأخرى فى أفران خاصة مع قدر محدود من الهواء يسمح فقط بإتمام عملية الاحتراق . . فيتصاعد السناج من المواد المحترقة فيمر فى أنابيب من التيل أو جلد الأغنام ويعلق بها . . . فتؤخذ هذه الأنابيب ويفصل منها السناج . . .

ويستخدم نصف السناج الذى ينتجه العالم تقريباً فى صناعة إطارات السيارات لأن الإطارات التى تحتوى على ٢٥

فى المائة منه تتحمل خمسة أضعاف ما يتحمله مثيلاتها المصنوعة من المطاط الصرف . . ويستخدم السناج أيضاً فى صناعة بعض الأحبار وفى عمل ورق الكربون . . كما يستخدم فى صناعة أقراص تسجيل الصوت (أسطوانات الفونوغراف) وفى بعض الأصباغ والدهون .

الماس — توجد أهم حقول الماس فى جنوب أفريقيا وفى أمريكا الجنوبية وفى الهند كما يوجد الماس أيضاً فى أستراليا وبعض الممالك الأخرى . وقد أمكن عمل ماس صناعى ولكن صناعته لا يمكن أن تعد ناجحة لما يكتنفها من مصاعب . . وأول من حضر الماس الصناعى هو مواسان الفرنسى عام ١٨٩٣ . . وتتلخص طريقته فى أنه سكب مصهور الحديد على كربون نقى ثم برد المخلوط بسرعة وذلك بوضع البودقة، التى فيها هذا المخلوط وهو فى درجة ١٥٠٠ مئوى فى مصهور الرصاص الذى درجته ٣٣٠ فقط . . أخذ مواسان كتلة الحـديد بعد ذلك ووضعها فى حامض الهيدروكلوريك فذاب الحديد وتخلف راسب هو دقائق صغيرة من الماس والجرافيت .

وحاول آخرون — بعد مواسان — تهذيب هذه العملية بغية الحصول على الماس الصناعى على نطاق واسع غير أنهم لم

يوفقوا إلا فى تحضير ماسات صغيرة للغاية لا يزيد قطر الواحدة منها على المليمتر الواحد . .

والماس — كما هو معروف — أصلب المواد على الإطلاق لذلك وضعه الأستاذ موهس الألمانى Prof. F. Mohs أستاذ التعدين (١٧٧٣ — ١٨٣٩) على رأس قائمة الصلابة التى وضعها لعشرة من الأحجار التى توجد فى الطبيعة ورتبها حسب صلابتها كما يلى :—

١ — الماس	٦ — الأبيتايت
٢ — الكاربوراندوم	٧ — الفلورايت
٣ — الطوباز	٨ — الكالسايت
٤ — الكوارتز	٩ — الجبس
٥ — الفلسبار	١٠ — الطلق

فكل مادة فى قائمة موهس هذه — أصلب من التى تليها فى الترتيب لذلك فهى تخدشها وتؤثر فيها . .

ويمتاز الماس بعلو معامل كسره لأشعة الضوء المختلفة . . وهو يظهر شفافاً إذا ما تعرض للأشعة السينية بعكس الماس المقلد الذى يظهر معتماً فى الأشعة المذكورة . لذلك كان التفريق بين الماسات الحرة والأخرى المقلدة سهلا ميسوراً باستخدام هذه الأشعة .

وليس للماس نشاط كيميائى يذكر غير أننا إذا أحميناه مع كربونات الصوديوم تأكسد بالتدريج متحولا إلى أول أوكسيد الكربون وإذا ما أحمى مع محلول بيكرومات البوتاسيوم فى حامض الكبريتيك القوى تأكسد إلى ثانى أوكسيد الكربون.. والماس يبدأ فى الاشتعال فى الهواء عند درجة ٩٠٠ مئوى وعند احتراقه يتولد ثانى أوكسيد الكربون ويتخلف بعض الرماد الذى يكون – غالباً – سيليكا . .

الجرافيت – وهذه صورة أخرى من صور الكربون اشتق اسمها من الكلمة اليونانية grapho ومعناها (أنا أكتب)وذلك لأن الجرافيت يستعمل فى صنع أقلام الرصاص – والجرافيت مادة بلورية لها لون رمادي مسود وملمس ناعم دسم . . وهو يوجد طبيعياً فى جهات كثيرة أهمها جزيرة سيلان وروسيا ووسط أوربا . . . واليوم يحضر الجرافيت صناعياً بطريقة أشيسون الكهربائية . . وتتلخص هذه الطريقة فى أن يؤخذ فحم الكوك النقى أو فحم الإنتراسيت ويسخن بشدة فى أفران كهربائية بمعزل عن الهواء . . فيتحول الفحم إلى جرافيت .

والجرافيت جيد التوصيل للحرارة والكهربائية . .. لذلك يستخدم فى تغطية سطوح المواد العازلة لتصير جيدة التوصيل للكهرباء . . وهو أنشط من الماس كيميائياً . . وإذا سخن

مع كربونات الصوديوم تحول مثله إلى أوكسيد الكربون الأول . . .

ومن أهم فوائد الجرافيت استخدامه فى أغراض التشحيم وتلطيف احتكاك محاور العجلات والآلات المختلفة . . وهو يستعمل لهذه الأغراض على شكل عجينة مع الماء أو الزيوت المعدنية أو زيت الخروع . . ويستخدم الجرافيت أيضاً فى عمل بوادق تتحمل الحرارة العالية كما يستخدم فى صنع أقلام الرصاص وذلك بخلطه مع الطفل .

الفحم الحجرى — تكون هذا الفحم من انحلال المواد العضوية النباتية انحلالا بطيئاً بمعزل عن الهواء . . وقد جرت هذه العملية فى الأرض — فى الحقب الفحمى — على بعد مئات الأمتار من سطحها . . جرت أولا بفعل بكتيريا التعفن فى النباتات التى دفنت فى الأرض بفعل عوامل الطبيعة الثائرة منذ ملايين السنين وتمت — بعد مضى أجيال عديدة بمساعدة الرواسب المعدنية من طمى وطين ورمال ، وبمساعدة الحرارة الباطنية والضغط الهائل . . ويتركب الفحم من مركبات الكربون والهيدروجين والأوكسجين . . كما يحتوى على مركبات آزوتية وبعض مركبات عنصرى الفوسفور والكبريت . . . وهذا التركيب إن دل على شىء فإنما يدل دلالة قاطعة على أن

النبات هو أصل الفحم الحجرى . .

وهناك أدوار جيولوجية أربعة مر بها الفحم الحجرى إبان تكوينه وهذه الأدوار نلحصها فيما يلى :—

ا — الدور الأول . . وفيه يكون النبات فى بدء تفحمه غير كامل النضج Peat ولا يحتوى فى هذه الحالة إلا على ٦٠ فى المائة من الكربون . . وفى العالم مساحات كبيرة من هذا الفحم الفج ففى الاتحاد السوفيتى ما يزيد على ٧٠,٠٠٠ ميل مربع وفى كندا حوالى ٣٧,٠٠٠ ميل مربع كما توجد مساحات كبيرة منه فى بربطانيا وفى إيرلندة يعتبر هذا النوع من الفحم من أهم مصادر الوقود . . .

ب— الدور الثانى . . وفيه يكون الفحم أكثر نضجاً ويعرف باللجنايت أوالفحم البنى Lignite or brown coal ويحتوى على ٦٧ فى المائة من الكربون و ٢٤ فى المائة من الهيدروجين والأوكسجين و ٩ فى المائة من الرماد . . وتوجد حقول هذا الفحم البنى فى البلاد الألمانية ويقدر ما كان يستخرج منه فى تلك البلاد بحوالى ١٥٠ مليون طن سنوياً .

جـ — الدور الثالث . . وفيه يكون الفحم طبيعياً ويعرف بالفحم الناعم Bituminous coal ويحتوى على ٨٨ فى المائة من الكربون وهو أكثر أنواع الفحم الحجرى شيوعاً . .

د ـ الدور الرابع . . وفيه يكون الكربون قد بلغ درجة كبيرة من الجودة والصلابة ويعرف فى هذه الحالة بالفحم الصلب أو فحم الإنتراسيت Anthracite ويحتوى على ٩٦ فى المائة من الكربون .

والفحم الحجرى عند تسخينه بمعزل عن الهواء أى بتقطيره تقطيراً إتلافياً يعطى مواداً غاية فى الأهمية هى :ـ

١ ـ غاز الاستصباح . . يعطى الفحم الحجرى عند تسخينه غازاً قابلا للاشتعال . . وقد عرفت هذه الحقيقة منذ قرون ولكن أحداً لم يحاول الاستفادة من هذا الغاز إلا فى عام ١٧٩٢ عندما استخدمه رجل ذكى أريب هو وليم موردوخ W. Murdoch فى الإنارة والاستصباح . .

وفكر موردوخ فى الاستفادة من هذا الغاز على نطاق واسع فحمل اكتشافه إلى جيمس وات J. Watt المخترع المشهور وأحد أصحاب مؤسسة بولتون وات الصناعية ببرمنجهام . . غير أن وات قابله بفتور ـ بادئ الأمر ـ ولم يأبه بمقترحاته . . وفيما كان موردوخ يهم بالانصراف سقطت قبعته عفواً أو عمداً ، وأحدثت عند سقوطها على الأرض صوتاً غريباً جعل وات يحملق فى القبعة فاحصاً . . ودهش إذ وجدها مصنوعة من كتلة خشبية . . وعندئذ أدرك وات أنه أمام رجل غير

عادى فاستمع إليه هذه المرة باهتمام وراقته مقترحاته . . وما هى إلا أشهر معدودات حتى كانت مصانع بولتون ووات تنار بغاز الاستصباح

ويتألف غاز الاستصباح من جملة غازات هى :—

(ا) غازات تحترق بلهب مضىء وهى الإيثيلين والإسيتيلين

(ب) غازات تحترق بلهب شديدة الحرارة قليل الضوء وهى الهيدروجين والميثارن (غاز المستنقعات) وأول أوكسيد الكربون.

٢ — القطران . . وهذا ثانى نواتج تقطير الفحم الحجرى . . سائل كثيف أسود له رائحة خاصة . وهو خليط معقد من حوالى ٢٠٠ مركب عضوى على الأقل . . والقطران يقطر بدوره وينتج من تقطيره مركبات لها أهمية كبيرة هى :—

١ — نفثا	٤ — زيت ثقيل
٢ — زيت خفيف	٥ — زيت أنثراسين
٣ — زيت متوسط	٦ — زفت

وكل مركب من هذه المركبات يستقطر من القطران فى درجة حرارة معينة فالنفثا وهى (أول قطفة) تستقطر عند درجة ١١٠ والزيت الخفيف فى درجة بين ١١٠ و ٢٠٠ والزيت المتوسط فى درجة بين ٢٠٠ و ٢٥٠ والزيت الثقيل فى درجة بين ٢٥٠ و ٢٧٥ أما الأنثراسين فيستقطر فى درجة بين ٢٧٥

و ٣٥٠ مئوي ويتخلف الزفت أخيراً . .

ومن النفثا يستخلص البنزين[1] Benzene والتولوين. . أما الزيوت فتعطي مركبات الزايلول أو انزايلين والفينول أو حامض الكربوليك (الفنيك) والنفتالين والكريزول والأنثراثين . .

٣ ــ السائل النوشادرى . . وهذا السائل أيضاً من مخلفات تقطير الفحم . . وهو عبارة عن نوشادر ذائب فى بخار ماء يتصاعد عند التقطير . . ويستفاد بهذا السائل فى الحصول على كبريتات النوشادر وذلك بتعادله مع حامض الكبريتيك . . ومن هذه الكبريتات تحضر معظم أملاح النوشادر . . .

٤ ــ فحم الكوك . . صورة أخرى من صور الكربون . . يتخلف فى الإناء الذى يقطر فيه الفحم الحجرى . . والكوك يحتوى من ٨٠ إلى ٨٥ فى المائة من الكربون وعلى نسبة ضئيلة من المواد المعدنية والهيدروجين. . ويستعمل هذا الفحم للوقود وهو يحترق بدون دخان تقريباً وتتولد من احتراقه حرارة عظيمة . .

٥ ــ فحم المعوجات . . تتحلل بعض المواد الهيدروكربونية الموجودة بالفحم الحجرى عند تقطيره وينشأ من هذا الانحلال نوع من الفحم يتخلف على جدر المعوجات (الأوانى) التى

---

(١) البنزين Benzene غير البنزاين Benzine الذى يستعمل وقوداً للسيارات وإدارة الموتورات .

تتم فيها عملية التقطير . . وفحم المعوجات هذا صلب سنجابى اللون جيد التوصيل للكهربائية لذلك يستخدم فى الأعمدة الكهربائية . . وهو لا يحترق بسهولة وإذا احترق تولدت عنه حرارة كبيرة وتتخلف قليل من الرماد . .

هذا ويتخلف من عملية تكليس الفحم الحجرى - عدا ما ذكر - غازات أخرى تكون - عادة - مختلطة بغاز الاستصباح - وهى مركبات سامة ولذا ينقى الغاز منها قبل استخدامه - وهذه الغازات هى :-

(ا) الهيدروجين المكبرت . . ويستدل على وجوده فى غاز الاستصباح بالراسب الأسود الذى يتخلف عند إمرار الغاز المذكور خلال محلول من خلات الرصاص

(ب) غاز ثانى أوكسيد الكربون . . وهو ضار عديم الفائدة فى غاز الاستصباح .

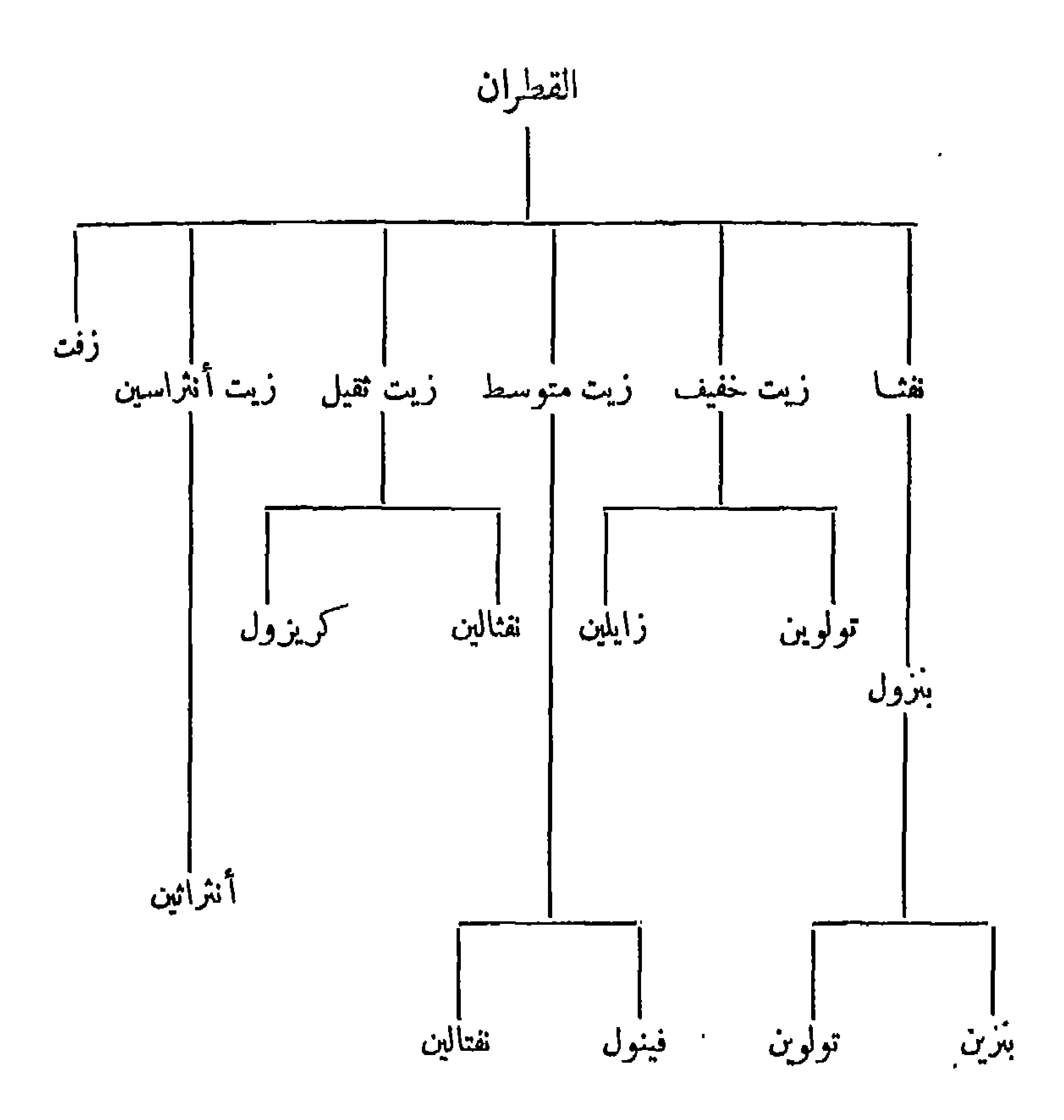
(ج) الأزوت . . وهو خامل عديم الفائدة أيضاً .

(د)السيانوجين . . وهذا غاز سام خطر وينقى منه غاز الاستصباح بإمراره على أوكسيد الحديد .

والفحم الآن تقوم عليه صناعة هامة هى صناعة البترول . . فقد أمكن الحصول على بترول صناعى باختزال الفحم . . وها هى بريطانيا اليوم تصنع ملايين الجالونات من هذا البترول

سنوياً على طريقة برجيوس Bergius process وكل أربعة أطنان من الفحم تعطى طنا واحداً من البترول .

الفحم الحيوانى — من المعلوم أن العظام تتركب من مادة عضوية وأخرى معدنية فإذا سخنت هذه العظام بمعزل عن الهواء (قطرت تقطيراً إتلافياً) تحللت المادة العضوية وتحولت إلى غازات قابلة للالتهاب وماء وتخلف نوع من الفحم المسامى يحتوى على حوالى ١٠ فى المائة من الكربون و٩٠ فى المائة فوسفات الكالسيوم . . وأهم فوائد هذا الفحم استخدامه فى إزالة الألوان النباتية وهو يستعمل فى تكرير السكر وإزالة ألوانه . . .



نواتج تقطير القطران تقطيراً إتــلافيــاً

٤
أكاسيد الكربون

عرف للكربون أكاسيد نذكر منها ما يلى :—

١ — تحت أوكسيد الكربون — غاز سام عديم اللون له رائحة حادة وهو يتحد مع الأوكسجين بفرقعة إذا سخن معه وينتج من اتحادهما غاز ثانى أوكسيد الكربون . .

٢ — أول أوكسيد الكربون — غاز عديم اللون والرائحة . . سام خطر إذا استنشق اتحد من فوره مع هيموجلوبين الدم مسبباً الإغماء فالوفاة . . ولما كان هذا الأوكسيد من الغازات التى يتألف منها غاز الاستصباح ويتولد عند احتراقه — وجب استعمال المواقد التى تعمل بغاز الاستصباح فى مكان يتجدد هواؤه . . وكذا يجب ألا تدار محركات السيارات فى جراجات مغلقة لأن وقود هذه المحركات (البنزاين) يخرج أول أوكسيد الكربون ضمن نواتج احتراقه (العادم) . .

وأول أوكسيد الكربون إذا احترق فى الهواء أو الأوكسجين تحول إلى الأوكسيد الثانى . . والأوكسيد الأول لقوته الاتحادية يعتبر من المواد المختزلة القوية خصوصاً فى درجات الحرارة

العالية . . ولذا يستعمل فى اختزال الأكاسيد المعدنية وتحويلها إلى معادن . وهو يتحد مع الكلور اتحاداً مباشراً مكوناً مركب الفوسجين السام (غاز) . . وهذا الاتحاد لا يتم إلا فى نور الشمس — وهذا هو السبب فى تسمية هذا الغاز بالفوسجين Phosgene ومعناها Light produced أى الذى تولد بالنور . . ويتحد أيضاً اتحاداً مباشراً مع وجود عامل مساعد ساخن — بالأوكسجين مكوناً نوع من الكحول يعرف بالكحول المثيلى أو الميثانول . . كما يتحد بالمعادن — تحت ظروف ملائمة من الضغط والحرارة — مكوناً ما يعرف بالكربونايلات ومن أمثلها كربونايل النيكل وكربونيل الحديد . . .

٣ — ثانى أوكسيد الكربون — غاز عديم اللون والرائحة — طعمه حاد (طعم ماء الصودا) وأول من حضره هو فان هيلمونت فى أواخر القرن السابع عشر وذلك بتأثير الأحماض فى الطباشير ووصفه بأنه غاز لا يساعد على الاحتراق . . وفى عام ١٧٥٧ أثبت بلاك Black أن محلول الصودا الكاوية يمتص هذا الغاز . . ولم يعرف تركيبه إلا عام ١٧٨١ عند ما أثبت لافوازييه أنه مؤلف من الكربون والأوكسجين .

ويوجد هذا الأوكسيد فى غازات البراكين وفى الآبار والكهوف . . . وذائباً فى ماء البحر وفى المياه المعدنية . . كما يوجد فى الهواء

الجوى بنسبة ٠,٠٣ و إلى ٠,٠٤ فى المائة من حجمه .. وينتج هذا الغاز أيضاً من احتراق الكربون أو المواد الكربونية ومن عمليات التنفس فى الحيوان والنبات . ونسبته فى الهواء تظل دائماً ثابتة لأن النبات الأخضر يمتصه من الهواء — فى ضوء النهار — فيأخذ الكربون ويدخله فى غذائه ويخرج الأوكسجين للجو . هذا ويوجد ثانى أوكسيد الكربون فى الطبيعة متحداً مع بعض الفلزات على هيئة أملاح تعرف بالكربونات . . ومن أمثالها كربونات الكالسيوم (الحجر الجيرى والرخام والطباشير) . .

وهذا الغاز يمكن إسالته وتجميده بسهولة . . وهو يذوب فى الماء بمقادير معقولة فالسنتيمتر المكعب من الماء يذيب ١,٨ منه وتزداد هذه الكمية بازدياد الضغط . فالمياه الغازية الصناعية تحتوى على مقادير كبيرة منه مذابة تحت ضغط عظيم . .

ويستعمل الحامض المتجمد مرطباً بدلا من الثلج . . كما يستعمل الغاز نفسه فى صناعة المياه الغازية (الغازوزة) وفى بعض أغراض إطفاء الحريق . .

٥

مركبات الكربون العضوية

قلنا إن مركبات الكربون المعروفة للآن تزيد عن النصف مليون مركب . . وتتألف هذه المركبات — نباتية كانت أو حيوانية — من عدد قليل من العناصر هى الكربون والهيدروجين والأوكسجين والأزوت . . وبعض هذه المركبات يحتوى على عناصر أخرى كالكبريت والفوسفور والهالوجينات (مولدات الملح) وبعض الفلزات . .

وتنقسم المركبات العضوية تبعاً للعناصر الداخلة فى تركيبها إلى : —

أولا : مركبات تتكون من الكربون والهيدروجين فقط ومن أمثلة هذه المركبات غاز الميثان وغاز الأسيتيلين والبنزين وتعرف هذه بالهيدروكربونات hydrocarbons .

ثانياً مركبات تتكون من كربون وهيدروجين وأوكسجين ومن أمثلتها :

١ — الكحولات alcohols مثل الكحول الإثيلى والكحول المثيلى وكحول البروبايل وكحول الهكسايل .

٢ ـ الألدهايدات aldehydes مثل الفورمالديهايد (الفورمالين) والأسيتالديهايد .

٣ ـ الكيتونات ketones مثل الآسيتون والبروبانون .

٤ ـ الأيثرات ethers مثل الأثير العادى .

٥ ـ الكربوهيدرات Carbohydrates وهى مركبات غاية فى الأهمية ومنها ما يعتبر من المواد الغذائية اللازمة مثل السكر بأنواعه والنشا والسليلوز .

٦ ـ الاسترات esters ومنها سلفات المثيل وأكسلات الإثيل وخلات الأميل وهى مركبات تستعمل كثيراً فى الصناعة. والمركب الأخير له رائحة الكمثرى ولذا يستخدم فى صناعة المستحضرات الغذائية .

ثالثاً : مركبات مكونة من كربون وهيدروجين وأزوت ومن مثيلاتها :ـ

١ ـ الأمينات amines وهى مركبات كربونية مشتقة من النوشادر لذلك فهى تشبهه فى خواصه القاعدية ومن أمثلة هذه الأمينات الإيثايل والميتايل أمين . . ثم الفينايل أمين أو الأنيلين وهو مركب هام يستعمل فى كثير من الأغراض الصناعية سيما فى الصباغة . . كما تستعمل بعض مركباته مثل الانتيبيرين antipyrin فى علاج بعض الأمراض .

٢ – بعض الألقالويدات alkaloids مثل النيكوتين الذى يستعمل أيضاً فى الأغراض الطبية لما له من فوائد علاجية كثيرة .

رابعاً : مركبات مكونة من كربون وهيدروجين وأوكسجين وأزوت ومن أمثلتها :–

١ – الأميدات amides مثل الأسيتاميد والفورماميد واليوريا (البولينا) .

٢ – بعض الألقالويدات مثل الأتروبين والكينين وهما مركبان غنيان عن البيان وفوائدهما الطبية لا تحصى .

خامساً : مركبات مكونة من كربون وهيدروجين وأوكسجين وأزوت وكبريت وفوسفور . . وهذه المركبات كثيرة الانتشار فى كل من مملكتى النبات والحيوان ومن أمثلتها زلال البيض والبروتينات .

سادساً : مركبات كربونية تحتوى على هالوجينات مثل مركبات الكلوروفورم والأيودوفورم ورابع كلورور الكربون وكلها مواد معروفة بقيمتها العلاجية .

سابعاً : مركبات كربونية تحتوى على فلزات ومن أهم أمثلتها طرطرات البوتاسيوم الأنتيمونى وهو مركب كثير الاستعمال فى علاج البلهارسيا كما يستخدم فى صناعة الصباغة .

هذا ومن الممكن الآن تحضير مركبات كربونية يدخل تركيبها أى عنصر من العناصر الأخرى .

الباب الرابع
أحجار بناء الكون

١
هذه الذرة

عرف روبرت بويل العناصر بأنها مواد بسيطة لا يمكن أن يستخلص منها مواد أبسط وجاء دالتون J. Dalton فقسم المواد الموجودة فى الكون إلى عناصر ومركبات وقال إنها جميعاً تتألف من ذرات العناصر على هيئة جزيئات . . فعنصر الأوكسجين مثلا مؤلف من جزيئات الأوكسجين . . وكل جزىء من هذه الجزيئات يتألف من ذرتين متشابهتين من ذرات هذا العنصر . . والماء وهو مركب من الهيدروجين والأوكسجين مؤلف من جزيئات الماء . . وكل جزىء منه إنما يتألف من ذرتين من عنصر الهيدروجين وذرة واحدة من عنصر الأوكسجين . . وبذلك بين دالتون أن ذرات العناصر المختلفة هى أحجار بناء هذا الكون . . . .

عرف الإنسان — إذن — العناصر ، وعرف أنها تتألف

من جزيئات متراصة . . وعرف أيضاً أن الجزىء يتألف من ذرات فهل انتهى الإنسان عند هذا ؟ . كلا إنه لم ينته . . فالعلم لا يعرف حدوداً . . وكلما ازداد الإنسان علماً تفتحت أمامه آفاق جديدة . . والعقل البشرى يميل بطبعه إلى استجلاء أسرار الطبيعة والتعرف على خفايا الكون . . . وكثرت مباحث العلماء عن ماهية الذرة ومم تتركب مستعينين بالصبر مزودين بالدقيق من الآلات حتى إذا ما غربت شمس القرن التاسع عشر وبزغت طلائع القرن العشرين كانوا قد تمكنوا من هتك أستارها ومعرفة الكثير من أسرارها . .

فتحت الذرة مغاليقها للإنسان فماذا رأى فيها ؟

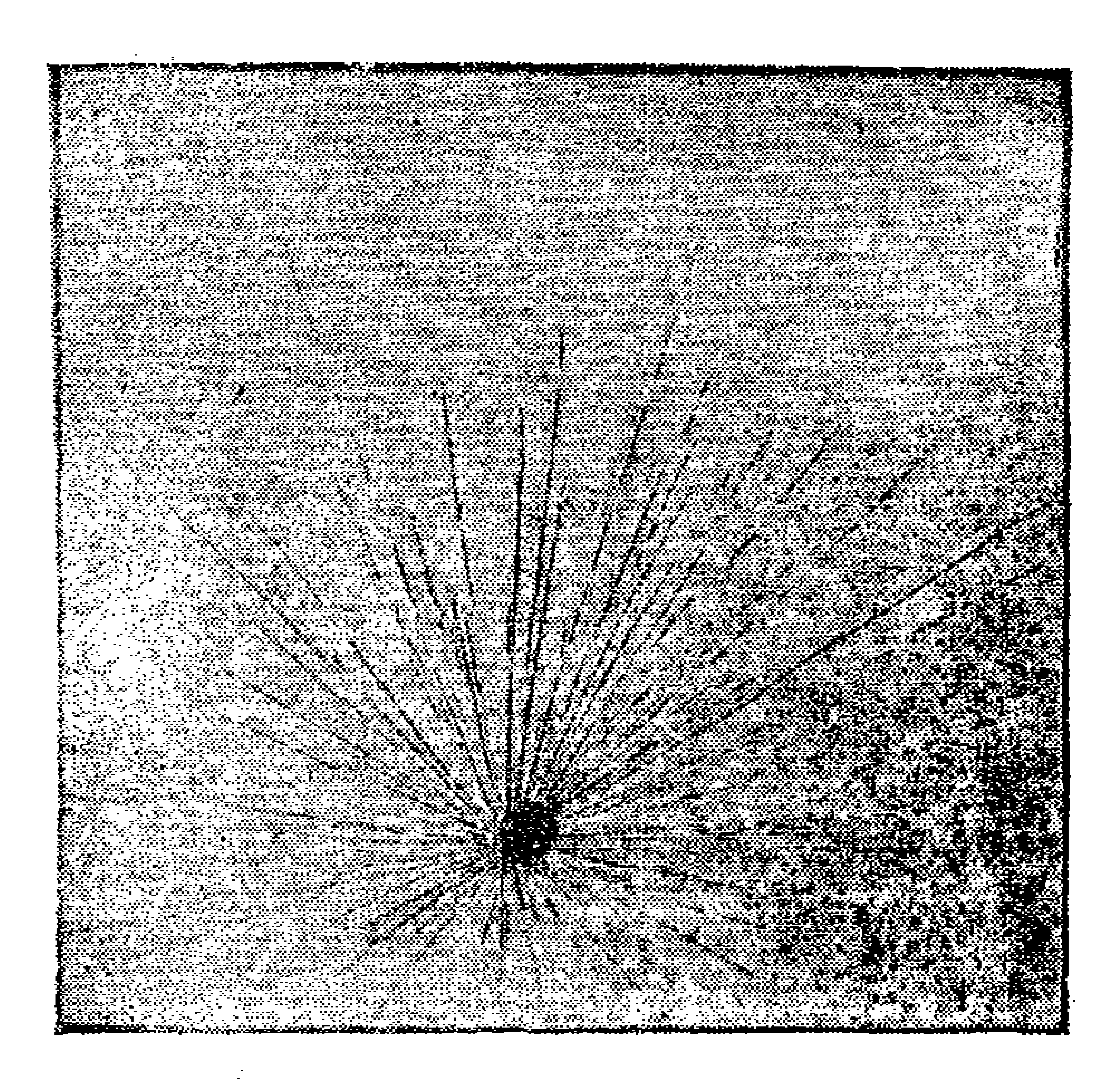
رأى وياالهول ما رأى ! ! ! قوة عاتية جبارة لو أنها انطلقت من عقالها لكانت أقوى فتكاً من أشد أنواع المتفجرات بألوف المرات . . وما ذكر القنبلتين الذريتين اللتين ألقيتا — فى الحرب الأخيرة — على هيروشيما وناجازاكى ببعيد عن الأذهان . .

غزا الإنسان قلب الذرة فتم له نصر بعد نصر . . عرف أن لها كياناً مستقلا فصورها تصويراً فوتوغرافياً[1] . . وعرف الكثير

---

(١) كان أول من تمكن من تصوير الذرة بالفوتوغرافيا هو تشارلس ولسون عام ١٨٩٩ .

من دخائلها ومحتوياتها وأثبت أنها تتجزأ وتتحطم . . فمن العناصر ما تتحطم ذراته من تلقاء نفسها كالعناصر ذات الإشعاع الطبيعى ومنها ما يمكن تحطيم ذراته بأساليب معينة . . وبذلك تقوض الاعتقاد القديم القائل إن الذرة جوهر فرد . . وجزء لا يتجزأ . .



صورة فوتوغرافية لذرة يورانيوم تتحطم

فني عام ١٩١١ أثبت الباحث الإنجليزي رذرفورد Rutherford أن الذرة تحتوي على جسيمات مكهربة هي عبارة عن بروتون proton يسبح حوله — وفي مدارات معينة — كهارب أدق منه تعرف بالألكترونات electrons . . ويحمل البروتون معظم وزن الذرة لأن وزن الكهارب من الصغر بحيث يمكن تجاهله . . فوزن الكهرب الواحد بالنسبة إلى وزن البروتون يساوي ١/١٨٠٠ تقريباً .

ويختلف عدد الكهارب المحيطة بالبروتون باختلاف العناصر . . فذرة عنصر الهيدروجين مثلاً لها كهرب واحد يسبح حول البروتون في مدار واحد . . وذرة عنصر الهيليوم لها كهربان يسبحان في مدار واحد أيضاً . . بينما ذرة الأزوت لها سبعة كهارب يسبح اثنان منها في مدار والخمسة الباقية تسبح في مدار آخر أوسع من المدار الأول . .

ويحمل بروتون الذرة شحنات كهربائية موجبة بينما تحمل كهاربها شحنات سالبة . . والشحنتان في الذرة على اختلافهما متساويتان وتعادل كل منهما الأخرى .

ولم تقف مباحث علماء الذرة عند الحد الذي وصل إليه رذرفورد بل راحوا ينقبون في ثناياها بعزم لا يكل علهم يوفقون في العثور على جسيمات أخرى غير البروتون والكهارب . . فأجروا تجاربهم على نوى (بروتونات) بعض العناصر مثل

الليثيوم والبريليوم والبورون مستعينين بالأجهزة الدقيقة فأدت مباحثهم إلى اكتشاف جسيمات أخرى أهمها جسيم لا يحمل شحنة كهربائية إطلاقا لذلك سمى بالنيوترون neutron أى المتعادل . . ويرجع الفضل فى هذا الاكتشاف إلى مباحث بوث وبيكر Bothe & Becker فى ألمانيا ومباحث جوليو وزوجته إيرين كورى فى فرنسا وإلى مباحث تشادويك Chadwiek ولهذا الأخير الفضل فى تسمية هذا الجسيم بالمتعادل . . وكان ذلك فى المدة بين ١٩٣٠ و ١٩٣٢ . .

والآن . . وبعد أن تمكن الإنسان من فلق نواة الذرة . . وبعد أن صنع قنابل ذرية دمرت مدناً بأسرها . . هل تم له غزو الذرة . . ؟

يقول فلاسفة هذا العصر كلا . . فإن ما عرف منها حتى الآن جزء من كل . . وإنها لا تزال لغزاً . .

والحديث عن الذرة عامة ونواتها خاصة حديث طويل خطير والإسهاب فيه ليس مجاله هذا الكتاب[١].

---

(١) لطالب المزيد من المعلومات عن الذرة أن يرجع إلى « النار الخالدة » — اقرأ ٥٢ .

٢

ترتيب العناصر

إن أول من حاول تقسيم العناصر وترتيبها حسب صنوفها هو لافوازييه الذى وضع الجدول التالى للعناصر التى كانت معروفة فى زمانه :

القسم الأول	القسم الثانى	القسم الثالث			القسم الرابع
الضوء	الكبريت	الأنتيمون	الحديد	البلاتين	الجير
الحرارة	الفوسفور	الزرنيخ	الرصاص	الفضة	المجنيزيا
الأوكسجين	الكربون	البزموت	المنجنيز	القصدير	البرايتا
الأزوت	الموريوم (الكلور)	الكوبالت	الزئبق	التنجستن	الألومينا
الهيدروجين	الفلور	النحاس	الموليبدينوم	الزنك	السليكا
—	البورون	الذهب	النيكل	—	—

وعنصرا الفلور والبورون — المذكوران ضمن عناصر القسم الثانى — قد افترض لافوازييه وجودهما فقط . . وقد استخلصا وأضيفا إلى جدوله بعد وفاته . . أما عنصر الموريوم ذلك الغاز الأصفر المائل إلى الخضرة الذى حضره شيل وعرف بعد ذلك باسم الكلور فلم يكن لافوازييه متأكداً من أنه عنصر بسيط حتى أثبت دافى ذلك عام ١٨١٠ .

والضوء والحرارة أدخلهما لافوازييه فى جدوله لما لهما من آثار لا يمكن تجاهلها ولأنه كان يعتبرهما من الماديات . . كذلك جمع فى قسم واحد الجير والمغنسيا والبرايتا والألومينا والسليكا وكلها مواد عرفها بأنها أكاسيد معدنية وإن لم يكن أحد قد توصل إلى تحليل إحداها فى ذلك الحين .

ونظرة واحدة فى جدول لافوازييه هذا تدلنا على أن القاعدة التى أقام عليها تقسيمه للعناصر هى التفريق بين المعدنى منها وغير المعدنى . . فالقسمان الأول والثانى يضمان فقط العناصر غير المعدنية، بينما يضم القسمان الثالث والرابع المعادن وأكاسيدها فقط .ولقد أخطأ لافوازييه إذ اعتبر السليكا أكسيداً معدنياً . .

ويدل هذا التقسيم على حذق لافوازييه وبعد نظره . . فالفرق بين العناصر المعدنية والأخرى غير المعدنية ما كان ليهمل . . فلكل نوع مميزاته وخواصه الكيميائية والطبيعية التى يمتاز بها . . على أننا نجد بعض العناصر تشذ عن هذه القاعدة . . لها من الصفات والخصائص ما يجعلها وسطاً بين المعادن وغير المعادن . . ولقد أحسن كوك Cooke الكيميائى الأمريكى فى تفسير هذه الظاهرة حيث قال :

« يخيل لنا أن الطبيعة تكره أن تفرق بين الأشياء بفروق فاصلة قاطعة » .

فالزرنيخ والأنتيمون والسلينيوم والتولبريوم كلها عناصر لها بعض صفات الفلزات وفى ذات الوقت لها بعض خصائص اللافلزات . . والصوديوم ذلك العنصر الذى عدوه من المعادن يختلف كثيراً عن المعدن « المثالى » فكثافته صغيرة ودرجتا انصهاره وغليانه واطئتان . وهذه صفات لا تتصف بها المعادن . . كما أن الجرافيت إحدى صور عنصر الكربون غير المعدنى يكاد يكون من أحسن المواد الموصلة للكهربائية وهذه صفة من صفات المعادن .

* * *

وفى أوائل القرن التاسع عشر اكتشفت عناصر جديدة وقدرت الأرقام الذرية لكثير من العناصر . . وفى عام ١٨٢٩ لاحظ دوبرينيه Docbéreiner أن بعض العناصر التى تتساوى فى الخواص الكيميائية لها أوزان ذرية تكاد تكون متساوية : فالكوبالت وزنه الذرى ٥٨,٩ والنيكل شبيهه فى الخواص الكيميائية وزنه ٥٨,٧ . والوزن الذرى للأوزميوم ١٩٢ وشبيهاه الإيريديوم والبلاتين وزنهما الذرى ١٩٣ و ١٩٥ على الترتيب . . كما لاحظ أيضاً أن الأوزان الذرية لبعض هذه العناصر المتشابهة تزداد بنسبة عددية ثابتة — فمثلا عنصر الليثيوم وزنه الذرى ٧ وشبيهه الصوديوم وزنه ٢٣ — بزيادة ١٦ — وشبيههما البوتاسيوم وزنه ٣٩ — أى بزيادة ١٦ أيضاً .

وفى عام ١٨٥٠ بين بيتنكوفر Petienkofer أن الفرق بين وزنين ذريين لعنصرين متشابهين فى الخواص الكيميائية هو مضاعف عدد ثابت؛ فمثلا الفرق بين الوزن الذرى لليثيوم (وهو ٧) وبين ذلك الذى للصوديوم (وهو ٢٣) يساوى ١٦ أى ٢ × ٨ وكذلك الفرق بين وزنى الصوديوم (٢٣) والبوتاسيوم (٣٩) يساوى ١٦ أى ٢ × ٨ أيضاً . .

وبعد ذلك بزمن قصير اكتشف كوك أن هناك صلة أخرى عجيبة بين الأرقام والأوزان الذرية للعناصر المتشابهة . . والجدول التالى يبين كيف تلعب الأرقام أدواراً عجيبة فى الطبيعة

	العنصر	الوزن الذرى	الصلة العددية
مجموعة الأزوت	الأزوت	١٤	
	الفوسفور	٣١	= ١٤ + ١٧
	الزرنيخ	٧٥	= ١٤ + ١٧ + ٤٤
	الأنتيمون	١٢٢	= ١٤ + ١٧ + (٤٤ × ٢) تقريباً
	البزموث	١٢٠	= ١٤ + ١٧ + (٤٤ × ٤) تقريباً
المجموعة الهالوجينية أو مولدات الملح	الفلور	١٩	
	الكلور	٣٥,٥	= ١٩ + ١٦,٥
	البروم	٨٠	= ١٩ + (٢ × ١٦,٥) + ٢٨
	اليود	١٢٧	= (٢ × ١٩) + (٢ × ١٦,٥) + (٢ × ٢٨) .

وتساءل الكيميائيون : ترى ماذا وراء هذه الظاهرة العجيبة ؟. . وقال شانكورتوا Chancourtois العالم الفرنسي : «إن خواص العناصر هي خواص الأرقام » وأخيراً — وفي عام ١٨٦٤ رتب نيولاند الإنجليزي J. A. Newland العناصر التي كانت معروفة وقتذاك ترتيباً تصاعدياً بالنسبة إلى أوزانها الذرية . . فوجد أن الخواص الكيميائية لها تتكرر — في ترتيبه — تكراراً دورياً كل ثمانية عناصر . . فالعنصر الثاني يشبه العنصر العاشر والثامن عشر . . وكذا العنصر الثالث يشبه العنصر الحادي عشر والتاسع عشر وهكذا . . تماماً كما يحدث في السلم الموسيقي الذي تتكرر خواصه كلما انتقلنا من قرار إلى جواب ثم من جواب إلى جواب الجواب وهكذا . .

وفي عام ١٨٦٩ وضع لوثر ماير الألماني L. Neyer ودمتري ميندليف الروسي D. I. Mendelejeeff ترتيباً للعناصر شبيهاً بذلك الذي وضعه نيولاند غير أن ماير جعل ترتيبه مبنيا على الخصائص الطبيعية للعناصر بينما جعله ميندليف مبنيا على الخصائص الكيميائية والأوزان الذرية . .

ولما رتب ميندليف العناصر في جدوله ترتيباً تصاعدياً بالنسبة لأوزانها الذرية — وضع عنصر الهيدروجين وهو أخفها أولا — ثم وضع بعده الهيليوم فالليثيوم فالبريليوم فالكربون فالأزوت

فالأوكسجين . . وقد جعل ترتيبه هذا فى صفوف أفقية وأخرى رأسية . وجعل لكل صف أفقى ثمانية أقسام فكان إذا انتهى من الصف الأفقى رجع إلى أول قسم من الصف الذى يليه . . وبذلك انقسمت العناصر إلى جماعات أو أسر . . تقع كل جماعة أو أسرة فى صف رأسى واحد . . وأفراد كل جماعة تتشابه فيما بينها فى الصفات الكيميائية . . ومعنى هذا أن الصفات تتكرر تكراراً دورياً كل ثمانية عناصر . . ومن أمثلة ذلك أن العناصر المتشابهة الليثيوم والصوديوم والبوتاسيوم والروبيديوم والسيزيوم وقعت فى صف رأسى واحد أى كونت جماعة أو أسرة . . كما كونت مولدات الملح (عناصر الفلور والكلور والبروم واليود) مجموعة لها أهميتها وشهرتها . . .

ويعتبر جدول مينديليف هذا من الأعمال المجيدة التى ساعدت على تقدم البحث والتى أدت إلى كشف عناصر جديدة كانت أماكنها خالية فى الجدول . .

وقد وضع هذا العالم الروسى أمام كل عنصر فى جدوله الرقم الذى يدل على وزنه الذرى جاعلا عنصر الهيدروجين — لأنه أخف العناصر المعروفة — وحدة لهذا الوزن ومثقالا . غير أن هذه الوحدة تغيرت فيما بعد حيث استخدم مثقال آخر يساوى $\frac{1}{16}$ من وزن ذرة الأوكسجين . . وهو يقل عن

المثقال السابق بنحو ثمانية أجزاء فى الألف جزء . . والأوزان الذرية إذا قيست بموجبه كانت أقرب إلى الأعداد الصحيحة .

وفى عام ١٨٨٩ نشرت مجلة الجمعية الكيميائية الحقائق التى استنتجها مينذليف من جدوله وكان قد لخصها فيما يلى :

أولا : العناصر إذا رتبت بحسب أوزانها الذرية تشابهت خواصها تشابهاً دورياً .

ثانياً : العناصر المتشابهة فى الخواص الكيميائية أوزانها الذرية متساوية تقريباً مثل البلاتين والإيريديوم والأوزميوم . . أو تزيد زيادة ثابتة مثل الليثيوم والصوديوم والبوتاسيوم .

ثالثاً : العناصر الكثيرة الانتشار فى الطبيعة لها أوزان ذرية صغيرة؛ فمثلا الأوكسجين ووزنه ١٦ والسيليكون ووزنه ٢٨ والألومينيوم ووزنه ٢٧ كلها عناصر كثيرة الانتشار فى الطبيعة فهى تشغل حوالى ٨٢ فى المائة من القشرة الأرضية .

رابعاً : للأوزان الذرية أهمية كبرى فى تقدير صفات العناصر . . كما أن للجزىء أهمية فى تقدير صفات المركبات .

خامساً : يجب أن نتوقع اكتشاف عناصر جديدة فى الأماكن الخالية بالجدول[١].

---

(١) اكتشف نيلسن Nelson عام ١٨٧٩ عنصر السكانديوم فى المكان الخالى الذى تركه مينذليف فى جدوله بين عنصر الكالسيوم وعنصر التيتانيوم . واكتشف دى بويسبودران De Boisbaudran عام ١٨٧٥ ووينكلر Winkler عام ١٨٨٦ عنصرى الجاليوم والجرمانيوم فى الفراغين اللذين بين الزنك والزرنيخ

سادساً : يمكننا بما نعرفه من الأوزان الذرية الصحيحة أن نعدل ما يكون قد قدر من أوزان لبعض العناصر تقديراً غير صحيح . . كما يمكننا تحديد أوزان ما قد يكشف منها . . فمثلا الوزن الذرى لعنصر التلبيريوم يجب أن يقع بين ١٢٣ و١٢٦ أى بين وزنى عنصرى الأنتيمون واليود فهو يقع بينهما فى الترتيب .

سابعاً : هنالك صفات معينة للعناصر يمكن معرفتها بالأوزان الذرية .

* * *

ومن طريف ما يروى أنه بينما كان ميندليف يلقى بحوثه — فى ترتيب العناصر — أمام المجمع العلمى الروسى قاطعه أحدهم وتساءل فى سخرية لاذعة :

« وماذا لو رتبنا العناصر ترتيباً أبجديًّا بالنسبة لأسمائها ثم بحثنا عن التشابه فى خواصها على هذا الأساس » .

غير أن ميندليف أفحمه .. فإن ترتيبه وإن كان عدديا بحتاً إلا أنه ترتيب سليم مقنع ففى جدوله نجد التشابه بين العنصر الثانى والعنصر العاشر (أى الهيليوم والنيون) وكذا التشابه بين

العنصر الثالث والعنصر الحادى عشر (أى بين الايثيوم والصوديوم) تشابها عجيباً وحقيقة واقعة لا تنكر .

ومن الحقائق التى لا تنكر أيضاً أن ترتيب مينديليف هذا قد أسهم كثيراً فى تقدم البحوث وساعد على اكتشاف كثير من عناصر كانت تخفيها الطبيعة بين أسرارها العديدة .

* * *

والحديث عن الأوزان الذرية والدور العجيب الذى تلعبه الأرقام فى جدول مينديليف يقودنا إلى الحديث عن أبحاث شاب إنجليزى يدعى هنرى موزيللى H.G.J. Moseley وجد عام ١٩١٣ ــ عند امتحانه العناصر المختلفة بالأشعة السينية ــ أن عدد الكهارب المحيطة بالبروتون (نواة العنصر) مساوياً تماماً للرقم العددى فى جدول العناصر . أى أننا إذا رتبنا العناصر وفق أوزانها الذرية من الأخف إلى الأثقل ثم رقمناها ترقيما عددياً مسلسلا . كان الرقم المقابل لكل عنصر يساوى عدد كهارب هذا العنصر . ويعرف رقم العنصر بالرقم الذرى . وفيما يلى العناصر الأولى فى الجدول وأمام كل منها الرقم الذى يدل على ترتيبه ، وهو فى الوقت ذاته يدل على عدد الكهارب المحيطة بنواته :

اسم العنصر	عدد الكهارب	الرقم الذرى
الهيدروجين	١	١
الهيليوم	٢	٢
الليثيوم	٣	٣
البريليوم	٤	٤
البورون	٥	٥
الكربون	٦	٦
الأزوت	٧	٧
الأوكسجين	٨	٨
الفلور	٩	٩
وهكذا . . .		

والأرقام الذرية تحدد الخواص الكيميائية والإشعاعية للعناصر تحديداً يكاد يكون كاملا .

٣

أصناف العناصر

وقد ثبت أيضاً – بفضل أبحاث العالمين الإنجليزيين صدى وأستون Soddy & Aston أن ذرات العنصر الواحد التى كان يعتقد أنها متشابهة فى جميع الوجوه . . بينها اختلاف فى الوزن دون أن يكون لذلك تأثير فى خواصها الكيمياوية أو الإشعاعية . . وأن لكل عنصر من العناصر المختلفة ذرات مختلفة فى الوزن متفقة فى الرقم الذرى . . فعنصر الهيدروجين مثلا تجده خليطاً من ثلاثة أصناف isotopes الوزن الذرى للأول ١ والثانى ٢ وللثالث ٣ بينما الرقم الذري لكل صنف من هذه الأصناف هو ١ – وعنصر الأوكسجين له ذرة وزنها ١٦ وأخرى ١٧ وثالثة وزنها ١٨ . . والرقم الذرى لكل واحدة من هذه الذرات المختلفة هو ٨ – وكذا النحاس خليط من صنفين الوزن الذرى للأول ٦٣ وللثانى ٦٥ . . . وقد تصل أصناف العنصر الواحد إلى عشرة كما هو الحال فى عنصر القصدير . .

وتختلف النسب لأصناف العنصر الواحد فبعضها يوجد

بنسبة كبيرة بينما يوجد البعض الآخر بنسبة قليلة . . فاليورانيوم مثلا يوجد خليطاً من أصناف ثلاثة . . صنف وزنه الذرى ٢٣٤ ونسبته ٦ . . . , . فى المائة وصنف آخر وزنه ٢٣٥ ونسبته ٠,٧١ فى المائة . . وصنف ثالث وزنه الذرى ٢٣٨ ونسبته ٩٩,٢٨٤ فى المائة . . والصنف يو ٢٣٥ هو الذى يستخدم فى عمليات توليد الطاقة الذرية الجبارة . .وهو يوجد بنسبة ضئيلة — كما أشرنا — لذلك كان فصله من اليورانيوم العادى يتطلب الكثير من الجهد .

ويحدد الوزن الذرى للعناصر — فى هذه الحالة — بتقدير متوسط أوزان الأصناف المختلفة للعنصر . . فنجد لذلك الوزن الذرى للهيدروجين يساوى ١,٠٠٧٨ والنحاس يساوى ٦٣,٥٧ وهكذا

* * *

وهناك أصناف أخرى من العناصر تتساوى فى الأوزان ولكن تختلف فى الخواص الكيميائية isobares ومن أمثلة ذلك عنصرا الأرجون والبوتاسيوم فإن لكل منهما صنف وزنه الذرى يساوى ٤٠ والخواص الكيميائية لهما تختلف تمام الاختلاف. فبينما نجد الأرجون عنصراً غازياً خاملا لا يألف بغيره من العناصر — نجد البوتاسيوم عنصراً معدنياً كثير الألفة . . له من العناصر مركبات كثيرة جزيلة النفع .

٤

الخالق المبدع

ونعود مرة أخرى إلى الذرة .

هذه الهباءة التى أتى عليها حين من الدهر لم تكن شيئاً مذكوراً . . فما كان الإنسان يعيرها التفاتاً أو يقيم لها وزناً لضآلتها أصبحت اليوم حديث العامة والخاصة حتى لقد أطلقوا على هذا العصر اسم « عصر الذرة » فالناس فى حديثهم عن الحرب يذكرون الذرة وما تفعله طاقتها الكامنة و « نارها الخالدة » من خراب وتدمير . . وفى حديثهم عن السلم يحلمون بما سوف تجلبه هذه الطاقة من بركة وخير للإنسانية . . ومن المؤسف حقاً أن الحكومات اليوم تشجع العلماء والمخترعين على استحداث أعنف وسائل التدمير وأعتاها .. وترصد لذلك الكثير من الجهد والمال ويتسابق الجميع فى ذلك تسابقاً مخيفاً . .

هذه الذرة .. هذه الهباءة . . كيف صورها فاطر السموات والأرض . . وكيف بناها المهندس الأعظم رب العالمين وخالق كل شىء ؟

جسيم صغير أطلقوا عليه اسم النواة يسبح حوله جسيمات أصغر

منه وأدق يكاد وزنها لا يذكر سموها بالكهارب . . فالذرة — كما بناها الخالق — تشبه الشمس وما يدور فى فلكها من توابع . . والكهارب تتوزع حول النواة فى ترتيب بديع يتشابه فى ذرات العنصر الواحد ويختلف باختلافها . . فذرة الهيدروجين — أخف العناصر المعروفة للآن — لها نواة يسبح حولها كهرب واحد فى مدار واحد وذرة اليورانيوم لها ٩٢ كهرباً مرتبة فى مدارات أو طبقات مختلفة كل مدار أوسع من الآخر . . المدار الأول — وهو الذى يحيط بالنواة مباشرة — له كهربان . . والمدار الثانى — الذى يليه — له ٨ كهارب والثالث له ١٨ كهرباً والرابع ٣٢ والخامس ١٨ والسادس ١٢ والسابع كهربان وقد اصطلح العلماء على تعريف كل طبقة من هذه المدارات بحرف من حروف الهجاء فاستخدموا الحرف K للأول والحرف L للثانى و M للثالث وهكذا ولا بأس من استخدام الحروف العربية ك. ل. م. ن. إلخ لهذا الغرض فنعرف المدار الأول بالمدار الكافى والثانى بالمدار اللامى . . . وهكذا .

والتوزيع العددى للكهارب فى مدارات ذرات العناصر المختلفة توزيع يحير الألباب تتجلى فيه روعة الخالق المبدع . .

وفيما يلى قائمة لبعض العناصر مرتبة حسب أرقامها الذرية وموضح بها توزيع الكهارب . . والرقم الذرى — كما سبق الإشارة — هو نفس الرقم الدال على عدد كهارب العنصر.

العنصر	الرقم الذرى	توزيع الكهارب						
		ك	ل	م	ن	هـ	و	لا
الهيدروجين	١	١						
الهيليوم	٢	٢						
الليثيوم	٣	٢	١					
البريليوم	٤	٢	٢					
الصوديوم	١١	٢	٨	١				
المنجنيز	١٢	٢	٨	٢				
الألومينيوم	١٣	٢	٨	٣				
البوتاسيوم	١٩	٢	٨	٨	١			
الكالسيوم	٢٠	٢	٨	٨	٢			
السكانديوم	٢١	٢	٨	٩	٢			
الربيديوم	٣٧	٢	٨	١٨	٨	١		
الاسترونتيوم	٣٨	٢	٨	١٨	٨	٢		
الباتيريوم	٣٩	٢	٨	١٨	٩	٢		
الباريوم	٥٦	٢	٨	١٨	١٨	٨	٢	
اللنثانيوم	٥٧	٢	٨	١٨	١٨	٩	٢	
السيريوم	٥٨	٢	٨	١٨	١٩	٩	٢	
الراديوم	٨٨	٢	٨	١٨	٣٢	١٨	٨	٢
الثوريوم	٩٠	٢	٨	١٨	٣٢	١٨	١٠	٢
اليورانيوم	٩٢	٢	٨	١٨	٣٢	١٨	١٢	٢

وجل مادة الذرة تتركز فى النواة التى تحمل شحنة من الكهرباء الموجبة تعادل كل الشحنات السالبة التى تحملها جميع الكهارب المحيطة بها . والكهرب الواحد يحمل كمية من الكهرباء السالبة تتساوى فى جميع كهارب العناصر المختلفة . . وقد قاس العالم الأمريكى ميليكان R. A. Millikan كمية الشحنة التى يحملها الكهرب الواحد قياساً دقيقاً . . ووجد أنها تساوى ٤,٤٧٤ جزءاً من عشرة آلاف مليون جزء من وحدات الكهرباء الاستاتيكية . .

هذه هى الذرة . . الهباءة التى يتراوح قطرها بين جزء من مائة مليون جزء وجزء من عشرة ملايين جزء من السنتيمتر . . والتى أبت – آخر الأمر – أن يحقرها الإنسان ففتحت له قلبها . . وكشفت له عن آية من آيات الإله السرمدى عله يتذكر أو يخشى . . كشفت له عن « نارها الخالدة » . . قوة كامنة وطاقة جبارة مختزنة فاستغلها – وياللجحود – شر استغلال . . فى القتل والحرق . . وفى محو المدن ودك العروش . .

فسبحانك اللهم . . لك الملك . . تعز من تشاء وتذل من تشاء . . وأنت على كل شىء قدير . . .

٥

واخيراً . . . هل يتحقق الحلم

والحلم . . حلم قديم طالما داعب خيال الكيميائيين . . حلم تحويل العناصر بعضها إلى بعض . . هل تراه تحقق أخيراً . . . ؟

إن الأبحاث التى قام بها العالم رذرفورد على غاز الأزوت قد أدت إلى إمكان تحويل نواة ذرة هذا العنصر إلى عنصر آخر هو الأوكسجين . . وكان ذلك بتأثير جسيمات ألفا على الأزوت إذ دخلت فى نواته فحولتها من نواة أزوت إلى نواة أوكسجين . . كما أن الأبحاث التى قام بها العالم إنريكو فيرمى E. Fermi قد أدت إلى اكتشاف عنصر جديد يلى عنصر اليورانيوم . . وسمى لذلك بالعنصر رقم ٩٣ . . وهذا العنصر صنع صنعاً بتأثير النيوترونات (الجسيمات المتعادلة) على عنصر اليورانيوم . . وتفسير ذلك أن النيوترونات المذكورة عندما أطلقها فيرمى على نواة اليورانيوم عبثت بها وأخلت

توازنها فانبعث منها كهرب جديد فزاد بذلك عدد كهارب ذرة اليورانيوم وصارت ٩٣ بدلا من ٩٢ .

وأثارت مباحث فيرمى ضجة كبيرة فى الدوائر العلمية فتحويل عنصر إلى عنصر أو صناعة عنصر فى المعمل أمر خطير . . فهب العلماء يتحققون من صحة وجود هذا العنصر الجديد فأجريت التجارب العديدة . . وفى عام ١٩٣٨ أثبت العالمان هاهن واشتراسمان Hahn & Strassmann صحة وجوده وبذلك أخذ العنصر رقم ٩٣ مكانه فى جدول العناصر بعد اليورانيوم . .

وبعد . . إن كان تحويل العناصر لم يجر حتى الآن على نطاق واسع — إلا أن آفاقاً جديدة قد تفتحت أمام علماء الكيمياء والطبيعة . . وليس بمستبعد أن نرى — يوما — هؤلاء العلماء يعالجون الحديد والرصاص والخسيس من المعادن فتخرج هذه من بين أناملهم ذهباً نضاراً . . ! ! !

خاتمة

وقبل أن نختم « قصة العناصر » ونطوى هذا الكتاب . . جدير بنا أن نحنى رؤوسنا احتراماً وتقديراً للعلماء الذين مر بنا ذكرهم . . وغيرهم ممن أفادوا العلوم عامة وعلم الكيمياء خاصة حتى وصل إلى ما صار عليه الآن . . علماً وثيق الاتصال بحياتنا . . ودعامة من أهم الدعائم فى فنون الصناعة والزراعة الحديثة . . إنهم علماء من كل جنس . . ربطتهم — على اختلاف أوطانهم ولغاتهم — صلة من أقدس الصلات وأقواها . . صلة العلم وتبادل المعرفة . . والبحث الحر والنقد النزيه . . فترى عالماً فى السويد أو فى بلجيكا مثلا ينشر بحثاً فى مجلة علمية فيتلقفه زميل له فى إنجلترا أو فى أمريكا أو فى أى قطر آخر من أقطار الأرض . . ويعلق عليه أو ينقده أو قد يتمه فى مجلة أخرى وبلغة أخرى . . وبذلك يشترك أكثر العلماء — على اختلاف أجناسهم — فى بحث بعينه . . . فتجمعهم رابطة العلم وإن بعدت بينهم الشقة .

ومن هؤلاء العلماء الذين تفخر بهم إنجلترا جوزيف بلاك

J. Black (١١٢٨ — ١٧٩٩) الذى اشتهرت عملياته الكيميائية بجمال الوصف ودقة التنسيق . . وجوزيف بريستلى J. Priestley (١٧٣٣ — ١٨٠٤) الذى اشتهر ببحوثه فى الغازات . . . وجون دالتون J. Dalton (١٧٦٦ — ١٨٤٤) الذى أفاد العلم بنظرياته وآرائه الصائبة فكان مفكراً أكثر منه عملياً . . ثم منهم أيضاً السير همفرى دافى Sir H.Davy (١٧٧٨ — ١٨٢٩) أذكى وألمع من أنجبت إنجلترا من العلماء . . ناقد كيميائى فذ . . ومكتشف عشرات العناصر ، . ثم هنرى كافندش H. Cavendish صاحب العمليات الكيميائية والتجارب العديدة المفيدة وأول من وضع أصول الكيمياء العملية الصحيحة . . . وهناك توماس جراهام T. Graham (١٨٠٥—١٨٦٩) وميخائيل فاراداى M.Faraday وهما عالمان ممتازان وإمامان من أئمة الكيمياء الطبيعية . .

وإذا تركنا الإنجليز وعلماءهم . . وجدنا فرنسا تتيه فخراً بعالمها الفذ أنطوان لوران لافوازييه (١٧٤٣ — ١٧٩٤) مؤسس الكيمياء الحديثة وألمع نجم فى تاريخها . . ويالجحود مواطنيه . . . لقد صاحوا فى وجهه إن حكومة الحرية والإخاء والمساواة ليست فى حاجة إلى علماء . . . وقدموا رأسه لسكين المقصلة جزاء وفاقاً لما قدمه للعلم من جليل الخدمات . .

وتفخر فرنسا أيضاً بعالمها الكبير جان بابتيست آندريه دوماس J. B. A. Dumas (١٨٠٠ – ١٨٨٤) الذى أخذ بيد الكيمياء العضوية وهى فى المهـــد فجعلها تقف وتستقيم ويشتد عودها . . . .

وأما ألمانيا فقد أنجبت جاستس فون ليبج J. Von Liebig (١٨٠٣ – ١٨٧٣) ويحق لها أن تفخر به وحده على جميع الأمم . . وفريدريك فوهلر F. Wohler (١٨٠٠ – ١٨٨٢) الذى أثبت فساد الزعم القائل بضرورة توسط القوى الحيوية فى تجهيز المركبات العضوية . . ففتح بذلك فتحاً جديداً فى الكيمياء . . ثم براند Brand الذى استخلص عام ١٦٧٤ الفوسفور من البول . . وأوجست ولهلم فون هوفمان A. Hofmann (١٨١٨ – ١٨٩٢) الحجة الكبيرة فى الكيمياء العضوية . . والعالم روبرت ولهلم بنسن R. W. Bunsen (١٨١١ – ١٨٩٩) الذى يتردد اسمه الآن وسيتردد دواماً على لسان كل من يستعمل مشعله المشهور Bunsen burner فى البيت أو فى المعمل .

وللسويد فضل الكيمياء خلدة العالمين كارل ولهلم شيل C. W. Scheele (١٧٤٢ – ١٧٨٦) وجونس جاكوب برزيليوس J. J. Berzelius وهو فضل عظيم لا ينكر . . كما أن لإيطاليا مثل هذا الفضل سجله لها كل من أميديو أفوجادرو A. Avogadro

(١٧٧٦ – ١٨٥٦) وستانيسلو كانيزانو S. Cannizzono (١٨٢٦ – ١٩١٠) . . .

وهذا دمترى إيفانوفتش مينديليف D. I. Mendelejeeff (١٨٣٤ – ١٩٠٧) خير من أنجبت روسيا من العلماء . . وجدوله المشهور فى ترتيب العناصر لا يكاد يخلو منه كتاب فى الكيمياء . . . .

هؤلاء وغيرهم كثيرون . . علماء ينتمون لكل بلد . . ربطهم رباط العلم المقدس الذى لا يتقيد بالجنس ولا باللغة ولا بالدين والذى لا يعوقه تلك الخطوط الوهمية التى وضعها الناس حدوداً للممالك والأمم . . .

* * *

وبعد . فلقد خلد الغربيون علماءهم وأكرموهم فى حياتهم أو بعد مماتهم فاهتموا بآثارهم ومؤلفاتهم وجمعوها . . . وأصدروا المؤلفات الكثيرة عن سيرهم وتراجمهم . . فهل حذونا – نحن أبناء العروبة – حذوهم وأوفينا علمائنا حقهم من التكريم والتخليد ؟ .

إن الكيمياء صناعة مصرية . . اشتغل بها الفراعين ثم تلقفها العرب من الإغريق فوضعوا فيها المصنفات العديدة . . وتفرغ لها عدد كبير من علمائهم كان أظهرهم أبو موسى

جابر بن حيان الذى اعترف الغربيون بفضله وفضل مصنفاته الكثيرة فخلدوه ورفعوا ذكره وأعدوه من مشاهير الكيميائيين وترجموا مؤلفاته إلى لغاتهم وتسابقوا على مخطوطاته وآثاره يقتنونها فى متاحفهم . . . وصفوة القول إنهم كانوا أكرم له ولخلفائه منا نحن العرب .

وخلفاء ابن حيان الذين صالوا وجالوا فى ميدان هذه الصناعة كثيرون نذكر منهم فى هذا المقام أبا على الحسين بن عبد الله ابن سينا الملقب بالرئيس . . وأبا بكر محمد بن زكريا الملقب بالرازى . . . وأبا منصور الموفق . . . وأبا القاسم مسلمة بن أحمد المجريطى وأبا القاسم محمد بن أحمد العراقى . . . وقد قدمهم لنا أستاذنا الكبير محمد محمد فياض بك فى أحد أعداد هذه السلسلة[١] غير أنه من حقهم علينا أن نوفيهم نصيبهم من التخليد فنكتب عنهم المزيد من التراجم والمؤلفات . . فهل ترانا فاعلين . . ؟ .

(١) جابر بن حيان وخلفاؤه — اقرأ ٩١

المراجع

المراجع العربية :—

١ ــ الذرة والقنابل الذرية :

للدكتور على مصطفى مشرفة باشا .

٢ ــ الكواشف الجلية عن الحقائق الكيمية :

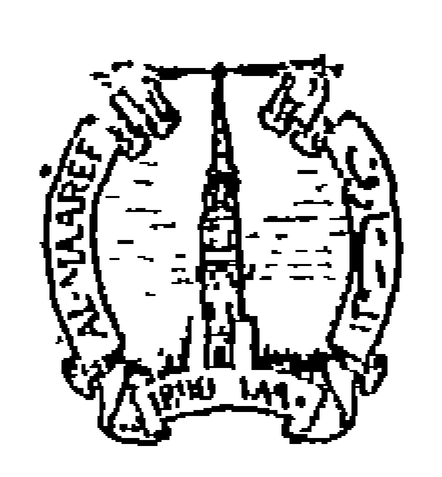
للدكتور أدون لويس (طبع بيروت) .

٣ ــ تاريخ العالم للسير جون ا . هامرتن :

(الترجمة العربية لوزارة المعارف) .

المراجع الإفرنجية :—

1. A Short History of Chemistry. J.R. Partington.
2. Inorganic Chemistry, E.J. Holmyard.
3. Organic Chemistry, E.J. Holmyard.
4. Organic Chemistry, A.K. Macbeth.



دار المعارف

أسست بالقاهرة سنة ١٨٩٠

تقدم إلى القارئ في مختلف مراحل حياته ومتباين درجات ثقافته كل ما يحتاج إليه في تكوين مكتبة عربية في منزله لتساعده على الاستزادة من الثقافة والطموح إلى حياة عقلية راقية

المركز الرئيسي بالقاهرة : ٥٠ شارع مسبيرو تليفون ٤٩٨٦٨
فرع الفجالة بالقاهرة : ٧٠ شارع الفجالة تليفون ٤٩٨٦٦
فرع الإسكندرية : ٢ ميدان محمد على تليفون ٢٣٥٨٨

س. ت. ٥٢١٢١

